

النجوم الزاهرة

في
ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي الحسن يوسف بن تقي الدين برودي الأتابكي

٨١٣ - ٨٢٤

قدم له وعلق عليه
محمد بن محمد الدين

دار
الكتب العلمية
بيروت



النجوم الزاهرة

في

ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه
محمد حسين شمس الدين

الجزء السادس

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت لبنان
ص: ١١/٩٤٢٤ تلخس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

ذكر سلطنة السلطان صلاح الدين^(١) على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبوالمظفر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، ويقال: إن مروان من أولاد خلفاء بني أمية. وقال ابن القادسي^(٢): كان شادي مملوكاً بهروز الخادم. قال صاحب مرآة الزمان: «وهذا من غلطات ابن القادسي، ما كان شادي مملوكاً قط، ولا جرى على أحد من بني أيوب رق، وإنما شادي خدّم بهروز^(٣) الخادم، فأستنابه بقلعة تكريت». إنتهى.

قلت: كان بداية أمر بني أيوب أنّ نجم الدين أيوب والد صلاح الدين هذا، وأخاه أسد الدين شيركوه - ونجم الدين هو الأكبر - كان أصلهم من دوين: بلدة صغيرة في العجم، وقيل: هو من الأكراد الروادية، وهو الأصح. فقدم نجم الدين

(١) مصادر أخبار صلاح الدين كثيرة يصعب حصرها؛ نذكر منها: السلوك للمقريزي، والروضتين لأسى شامة، والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) لابن شداد، والبرق الشامي للعماد الأصمهايي، ووفيات الأعيان لاس خلكان، وبدائع الزهور لابن إياس، وتاريخ ابن خلدون، وتاريخ ابن الأثير، ومفرج الكرب لابن واصل، والبداية والنهاية لابن كثير، وشذرات الذهب لاس العماد الحنبلي، وشفاء القلوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، وكز الدرر لابن أيبك الدواداري، والدارس في تاريخ المدارس للنعمي، ودائرة المعارف الإسلامية، وغيرها من المصادر العربية والأجنبية وسائر ما كتب عن الحروب التي سميت بالصليبية. ونذكر منها هنا كتابين تناولوا الحروب الصليبية من وجهة نظر الرواية العربية فقط وهما «الحروب الصليبية كما رآها العرب» لأمين معلوف، و«الحروب الصليبية» لسيد علي الحريري.

(٢) هو الشيخ الأديب المؤرخ الكبير أبو عبد الله محمد بن أسى العباس القادسي الكبتي. ألف الدليل على المنتظم لابن الجوزي، وتاريخ الوراء. توفي سنة ٦٢٢ هـ (مخلة المجمع العلمي العراقي: ١٠٩/٢ مقال للدكتور مصطفى حواد بعنوان: تواريخ مصرية أعمال). وقد ورد الاسم في الأصل: «ابن المارسي».

(٣) كان على شحنة العراق، أي رئيس الشرطة أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها

أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه إلى العراق وخدموا مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد، فرأى بهروز من نجم الدين رأياً وعقلاً، فولاه دُزداراً^(١) بتكريت، وكانت تكريت لبهروز، أعطاهما له السلطان مسعود بن غياث الدين محمد ابن ملكشاه - المقدم ذكره - السلجوقي. وبهروز كان يلقب مجاهد الدين. وكان خادماً رومياً أبيض، ولأه السلطان مسعود شحنة العراق. وبهروز (بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي)، وهو لفظ عجمي معناه: يوم جيد. فأقام نجم الدين بتكريت ومعه أخوه أسد الدين إلى أن أنهزم الأتابك زنكي بن آق سنقر من الخليفة المسترشد في سنة ست وعشرين وخمسمائة، ووصل إلى تكريت وبه نجم الدين أيوب، فأقام له المعابر فعبّر زنكي بن آق سنقر [دجلة]^(٢) من هناك، وبالغ نجم الدين في إكرامه، فرأى له زنكي ذلك. وأقام نجم الدين بعد ذلك بتكريت إلى أن خرج منها بغير إذن بهروز. وسببه أن نجم الدين^(٣) كان يرمي يوماً بالنشاب ف وقعت نصابة في مملوك بهروز فقتلته من غير قصد، فأستحى نجم الدين من بهروز فخرج هو وأخوه إلى الموصل. وقيل غير ذلك: إن بهروز أخرجهما لمعنى من المعاني، وقيل في خروجهما غير ذلك أيضاً.

ولما خرجا من تكريت قصداً الأتابك بن آق سنقر - المقدم ذكره - وهو والد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي المعروف بالشهيد، فأحسن إليهما زنكي وأقطعهما إقطاعات كثيرة، وصارا من جملة أجناده إلى أن فتح زنكي مدينة بعلبك^(٤)، وولى نجم الدين أيوب دُزداراً بقلعتها. والدُزدارُ (بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعدها ألف وراء مهملة) ومعناها بالعجمي: ماسك القلعة. ودام نجم الدين بعلبك إلى أن قتل زنكي على قلعة جعبر. وتوجه

(١) دزدار القلعة، أي حافظها. (شفاء القلوب: ٢٣)

(٢) زيادة عن ابن الأثير وابن خلكان.

(٣) في شفاء القلوب «أسد الدين شيركوه» بدلاً من نجم الدين.

(٤) مدينة قديمة في سهل القاع اللساني. وبها آثار رومانية ضخمة. وقد فتحها عماد الدين زنكي في أوائل

صاحبُ دمشق [يومئذ مُجِير الدين] (١) وحَصَرَ نجمَ الدين المذكور في بعلبك وضايقه، فكتب نجم الدين إلى نور الدين الشهيد بن زَنْكِي وسيف الدين غازي يطلب منهما نجدة، فأشتغلا عنه بملك جديد (٢)؛ وأشتدَّ الحصار على بعلبك، فخاف نجم الدين من فتحها عنوةً وتسليم أهلها، فصالح مُجِير الدِّين صاحب دمشق على مال (٣)؛ وانتقل هو وأخوه أسد الدين شِيرْكُوهُ إلى دمشق وصارا من كبار أمرائها. ولا زال بها أسدُ الدين شيركوه حتى اتَّصل بخدمة الملك العادل نور الدين محمود (٤)؛ بن زَنْكِي وصار من أكابر دولته. فرأى منه محمود نجابة وشجاعة فأعطاه حِمَصَ والرَّحْبَةَ، وجعله مقدّمَ عساكره. فلما صرَّف نور الدين همته لأخذ دمشق أمر أسد الدين أن يكتب أخاه نجم الدين أيوب على المساعدة على فتحها، فكتب أسدُ الدين إلى أخيه، وقال له: هذا يجب عليك؛ فإنَّ مُجِير الدين قد أعطى الفِرْنَجَ بانياسَ وربما سلّم إليهم دمشق بعد ذلك؛ فأجابه نجم الدين. وطلبوا من نور الدين إقطاعاً وأملاكاً فأعطاهما، وحلف لهما ووفى بيمينه. وأمّا مُجِير الدين المذكور صاحب دمشق، فكان اسمه آبق بن محمد بن بُوري بن الأتابك ظهير الدين طُغْتِكِين. وطغتكين مولى تُتُش بن ألب أرسلان أخي مَلِكْشاه السَّلْجُوقِيّ.

ولما ملك نور الدين محمود دمشق ووفى لهما بما وعدهما، وصارا من أكابر أمرائه خصوصاً نجم الدين؛ فإنَّ جميع الأمراء كانوا إذا دخلوا على نور الدين لا يقعد أحد حتى يأمره نور الدين بالعود إلاَّ نجمَ الدين هذا، فإنه كان إذا دخل قعد من غير إذن. وداما عند نور الدين في أعلى المنازل إلى أن وقع من أمر شاور وزير مصر ما وقع - وقد حكيناه في ترجمة العاضد العبيديّ - ودخول أسد الدين شِيرْكُوهُ إلى الديار المصرية ثلاث مرّات، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف هذا، حتى ملك أسدُ الدين الديارَ المصريّة في الثالثة، وقُتِل شاور؛ وولي أسدُ الدين وزارةً

(١) ريادة عن ابن خلكان وما سيأتي. وكان ذلك سنة ٥٥٤١.

(٢) المراد أنها كانا مشغولين بتوطيد ملكهما الذي ورثاه عن أبيهما زنكي.

(٣) عبارة شفاء القلوب: «فسلمها إليهم (أي عسكر دمشق) على إقطاع كبيرة» وهي أصوب، لأن المقهوم أن

نجم الدين انتقل إلى دمشق متخلياً عن بعلبك مقابل ذلك الإقطاع.

(٤) كان نور الدين في ذلك الوقت صاحب حلب.

مصر، ولُقِّب بالمنصور، ومات بعد شهرين؛ فولَّى العاضدُ الخليفةُ صلاحَ الدين هذا الوزارة^(١)، ولقَّبه الملكُ الناصر، وذلك في العشر الأخير من جُمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. وأستولى على الديار المصرية ومهد أمورها. وصار يُدعى للعاضد، ثمَّ من بعده للملك العادل نور الدين محمود، ثمَّ من بعدهما لصلاح الدين هذا. ونذكر ولايته إن شاء الله بأوسع من هذا من كلام ابن خلكان، بعد أن نذكر نبذة من أموره.

وأستمرَّ صلاح الدين بمصر وأرسل يطلب أباه نجم الدين أيوب من الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، فأرسله إليه معظماً مبعجلاً؛ وكان وصوله (أعني نجم الدين) إلى القاهرة في شهر رجب سنة خمس وستين وخمسمائة؛ فلما قرب نجم الدين إلى الديار المصرية خرج ابنه السلطان صلاح الدين بجميع أمراء مصر إلى ملاقاته، وترجَّل صلاح الدين وجميع الأمراء ومشَّوا في ركابه؛ ثمَّ قال له ابنه صلاح الدين: هذا الأمر لك (يعني الوزارة) وهي السلطنة الآن، وتدبير ملك مصر، ونحن بين يديك؛ فقال له نجم الدين: يا بني، ما آخترك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له. وأبى نجم الدين عن قبول السلطنة، غير أنه حكَّمه ابنه صلاح الدين في الخزان، فكان يُطلق منها ما يختار من غير مراجعة صلاح الدين.

وكانت الفرنج تولَّت على دِمياط في ثالث صفر من السنة المذكورة وجَدَّوا في قتالها، وأقاموا عليها نحو الشهرين يحاصرونها بالمجانيق ويزحفون عليها ليلاً ونهاراً، وصلاح الدين يوجِّه إليها العساكر مع خاله شهاب الدين و[ابن أخيه]^(٢) تقي الدين، وطلب من العاضد مالا فبعث إليه شيئاً كثيراً، حتَّى قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد! جهَّز إليَّ في حصار الفرنج لدِمياط ألف دينار سوى الثياب وغيرها.

(١) انظر نسخة تقليده الوراثة في صبح الأعشى . ٩١/١٠ وشماء القلوب ٦٨ . وهو من إثناء القاضي الفاضل.

(٢) زيادة عن شماء القلوب

ولمّا سمع نور الدين بما وقع لدمياط^(١) أخذ في غزو الفرنج بالغارات عليهم. ثم وقع فيهم الوباء والفناء فرحلوا عن دمياط بعد أن مات منهم خلق كثير. كلّ ذلك في حياة العاضد في أوائل أمر صلاح الدين.

ثمّ أخذ السلطان صلاح الدين في إصلاح أحوال مصر وعمارة البلاد؛ وبينما هو في ذلك ورد عليه كتاب الملك العادل نور الدين محمود بن زُنكي من دمشق، فأمره فيه بقطع خطبة العاضد وإقامتها لبني العباس خلفاء بغداد، فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألاّ يجيئوه إلى ذلك، وربّما وقعت فتنة؛ فعاد الجواب لنور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع له نور الدين؛ وأرسل إليه وخشّن له في القول، وألزمه بذلك إزاماً كلياً إلى أن وقع ذلك؛ وقُطعت خطبة العاضد في أول المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة. وكان العاضد مريضاً فأخفى عنه أهله ذلك حتى مات يوم عاشوراء، فندم صلاح الدين على قطع خطبته، وقال: ليتني صبرت حتى مات. وقد ذكرنا ذلك كلّ مفصلاً في ترجمة العاضد السابقة لهذه الترجمة. ومن هنا نذكر — إن شاء الله تعالى — أقوال المؤرخين في أحوال السلطان صلاح الدين هذا وغزواته وأموره، كلّ مؤرّخ على حدته.

ومن يوم مات العاضد عظم أمر صلاح الدين وأستولى على خزائن مصر وأستبدّ بأمورها من غير منازع. غير أنه كان من تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود بن زُنكي المعروف بالشهيد صاحب دمشق على ما بسببته في هذا المحلّ. وكان يدعو له الخطيب بمصر وأعمالها بعد نور الدين المذكور ويدعو لنور الدين بعد الخليفة.

وكان مولد صلاح الدين بتكرت في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ونشأ في حجر أبيه نجم الدين أيوب في الدولة النورية، وترقى فيها؛ وكان ولّاه نور الدين قبل خروجه مع عمه أسد الدين شيركوه الثالثة إلى ديار مصر، شحنجية^(٢) دمشق، فخرج عنها غضباً على ما سنذكره إن شاء الله.

(١) كان صلاح الدين قد أرسل إلى نور الدين محمود رسالة فيها: «إن تخلفت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن خرجت ما آمن الشيعة»

(٢) راجع الجزء الخامس، ص ١٩٧، حاشية (٢).

قال العلامة أبوالمظفر شمس الدين يوسف بن قزأوغلي في تاريخه مرآة الزمان: «كان السلطان صلاح الدين شجاعاً شهماً مجاهداً في سبيل الله؛ وكان مغرماً بالإنفاق في سبيل الله؛ وحسب ما أطلقه ووهبه مدةً مُقَامه على عكاً مرابطاً للفرنج، من شهر رجب سنة خمس وثمانين، إلى يوم انفصاله عنها في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان اثني عشر ألف رأس من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال.

قال العماد الكاتب^(١): لم يكن له فرس يركب إلا وهو موهوب، ولا جاءه قود إلا وهو مطلوب؛ وما كان يلبس إلا ما يجلّ لبسه، كالكتان والقطن والصوف؛ وكانت مجالسه منزّهة عن الهُزء والهزل، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، ويؤثر سماع الحديث. وكان مَنْ جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه^(٢). قال: ورأى معي يوماً دواة محلاة بفضة فأنكر عليّ وقال: ما هذا! فلم أكتب بها عنده بعدها. وكان محافظاً على الصلوات في أوقاتها لا يصلّي إلا في جماعة، وكان لا يلتفت إلى قول منجم؛ وإذا عزم على أمر توكل على الله. إنتهى كلام العماد باختصار.

وذكره القاضي ابن شدّاد في السيرة^(٣) فقال: كان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى؛ وإذا جاء وقت صلاة وهو راكب نزل فصلّى، وما قطعها إلا في مرضه الذي مات فيه ثلاثة أيام آختلط ذهنه فيها. وكان قد قرأ عقيدة القطب^(٤) النيسابوري، وعلمها أولاده الصغار لترسخ في أذهانهم، وكان يأخذها عليهم. وأما الزكاة فإنه مات ولم تجب عليه قط. وأمّا صدقة النوافل فاستنفدت أمواله كلّها فيها. وكان يحبّ سماع القرآن؛ وأجتاز يوماً على صبي صغير بين يديّ أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته، فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة. وكان شديد الحياء خاشع الطرف،

(١) ينقل المؤلف عن الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الكاتب الأصفهاني.

(٢) عبارة شفاء القلوب عن العماد: «جالس سلطاناً وإنما هو أخ من الإخوان».

(٣) كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة السلطان صلاح الدين.

(٤) هو أبوالمعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، الفقيه الشافعي الملقب بقطب الدين. توفي سنة

٥٧٨هـ. (انظر وفيات سنة ٥٧٨هـ في هذا الجزء).

رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث. وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممن يحضر عنده، استحضره^(١) وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه، ويأمرهم بالعود عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن لم يكن ممن يحضر عنده، ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه. وكان مُبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة. ولما بلغه عن السُّهْرَوْرْدِي^(٢) ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله. وكان محبباً للعدل يجلس في كل يوم اثنين وخميس [في]^(٣) مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز، وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته؛ واستغاث إليه ابن زُهَيْرِ الدَّمَشْقِيِّ على تقي الدين عمر [ابن أخيه]^(٣) وقال: ما يحضر معي مجلس الشرع، فأمر تقي الدين بالحضور معه. وأدعى رجل على السلطان صلاح الدين المذكور بأن سُنُقَرَ الخِلاطِيّ مملوكه ومات على ملكه. قال ابن شدّاد: فأخبرته فأحضر الرجل، وقد خرج عن طرأحته وساواه في الجلوس، فأدعى الرجل؛ فرفع السلطان رأسه إلى جماعة الأمراء والشيوخ الأخيار، وهم وقوف على رأسه، فقال: أتعرفون سُنُقَرَ الخِلاطِيّ قالوا: نشهد أنه مملوكك، وأنه مات على ملكك. ولم يكن للرجل المدعي بيّنة، فأسقط في يده. فقلت: يا مولانا، رجل غريب، وقد جاء من خِلاط في طمع، ونفدت نفقته، وما يحسن أن يرجع خائباً؛ فقال: يا قاضي، هذا إنما يكون على غير هذا الوجه، وذهب له نفقة وخِلعة وبغلة وأحسن إليه.

قال: وفتح آمد، ووهبها لابن قرأ أرسلان. واجتمع عنده وفودٌ بالقدس ولم يكن عنده مال، فباع ضيعة وفرق ثمنها فيهم.

قال ابن شدّاد: وسألت باليان بن بارزّان^(٤) يوم انعقاد الصلح عن عدّة الفرنج الذين كانوا على عكّا، وهو جالس بين يدي السلطان، فقال للترجمان: قل

(١) في الأصل: «استحضر عليه» والتصحيح عن سيرة صلاح الدين لاس شداد.

(٢) هو يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح فيلسوف، نسب إلى انحلال العقيدة فافق العلماء بإباحة دمه، وقتل سنة ٥٨٧ هـ.

(٣) زيادة عن اس شداد.

(٤) في الأصل: «وسألت اس ميروان» وما أثنائه عن ابن شداد.

له كانوا من خمسمائة ألف إلى ستمائة ألف، قُتِل منهم أكثر من مائة ألف وغرِق معظمهم.

قال: وكان يوم المَصَافِّ يدور على الأطلاب^(١) ويقول: وهل أنا إلا واحد منكم! وكان في الشتاء يعطي العساكر دستوراً^(٢) وهو نازل على برج عَكَّا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير.

وكان على الرَّملة فجاءه كتاب بوفاة تَقِيَّ الدين [أبن أخيه]^(٣)، فقال وقد خنقته العَبْرَة: مات تَقِيَّ الدين! أكتُموا خبره مخافة العدو.

قال: ولقد واجهه الجناح^(٤) على يافا بذلك الكلام^(٥) القبيح، فما قال له كلمة، وأستدعاه فأيقن بالهلاك؛ وأرتقب الناس أن يضرب رقبتَه فأطعمه فاكهةً قَدِمَتْ من دمشق وسقاه ماء وثلجاً.

قال: وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج بالليل ويسرقونهم، فسرقوا ليلةً صبيهاً رضيعاً فباتت أمه تبكي طول الليل، فقال لها الفرنج: إنَّ سلطانهم رحيم القلب فأذهبني إليه، فجاءته وهو على تلِّ الخَرْوبة^(٦) راكب، فعفرت وجهها وبكت، فسأل عنها فأخبر بقصتها، فرَّق لها ودمعت عيناه، وتقدَّم إلى مقدَّم اللصوص بإحضار الطفل، ولم يزل واقفاً حتَّى أحضره؛ فلما رآته بكت وشهقت وأخذته وأرضعته ساعة وضمته إليها، وأشارت إلى ناحية الفرنج؛ فأمر أن تُحمل على فرس وتُلحَق بالفرنج ففعلوا.

(١) الأطلاب: جمع طُلب (بضم أوله) وهو لفظ كردي معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس أو مائة أو سبعين ويقول ابن إياس إن هذا اللفظ أول ما ظهر بمصر والشام في أيام صلاح الدين ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة من الحيتس. (انظر مدائع الرهور: ٢٤/٣، وحطط المقريري ١٣٩/١)

(٢) الدستور: الإجازة أو الإذن.

(٣) زيادة عن ابن شداد.

(٤) هو الجناح بن علي بن أحمد الهكاري، وكان من أمراء صلاح الدين، كما في ابن الأثير

(٥) ذكر ابن الأثير أن الجناح قال له يا صلاح الدين، قل لماليك الذين أخذوا أمس الغيمة وضربوا الناس بالجماقات يتقدمون فيقاتلون، إذا كان القتال فنحن، وإذا كانت العيمة فلهم! «انظر ابن الأثير.

حوادث سنة ٥٨٨هـ

(٦) الخَرْوبة: حصن ساحل الشام مشرف على عكا (معجم البلدان)

قال ابن شدّاد: وكان حسن العِشرة طيّب الخُلُق حافظاً لأنساب العرب، عارفاً بخيولهم، طاهر اللسان والقلم، فما شتم أحداً قطّ ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم. وما حضر بين يديه يتيمٌ إلّا وترحّم على من خَلّفه، وجبر قلبه وأعطاه ما يكفيه؛ فإن كان له كافل [سَلّمه إليه]^(١) وإلّا كَفَله. وسُرِق يوماً من خزائنه ألفا دينار وجُعِل في الكيس فُلوس فما قال شيئاً. إنتهى كلام ابن شدّاد باختصار.

قال أبوالمظفر: وحكى لي المُبارز سُنقر الحلبيّ - رحمه الله تعالى - قال: كان الحجاب يزدحمون على طرّاحته فجاء سُنقر الخِلاطيّ ومعه قِصص فقدم إليه قِصّة، وكان السلطان مدّ يده اليمنى على الأرض ليستريح، فداسها سُنقر الخِلاطيّ ولم يَعْلَم؛ وقال له: علّم عليها، فلم يُجبه، فكرّر عليه القول؛ فقال له: يا طواشي، علّم بيدي أم برجلي! فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل؛ وتعجّب الحاضرون من هذا الحلم؛ ثم قال السلطان: هات القِصّة فعلم عليها.

وقال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان - رحمه الله - في تاريخه: «وصلاح الدين كان واسطة العُقد، وشهرته أكبر من أن يحتاج إلى التنبيه عليه. اتفق أهل التاريخ على أنّ أباه وأهله من دُوين (بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون)، وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أرّان وبلاد الكَرَج، وأنهم أكرادٌ رَوَادِيَّةٌ (بفتح الراء والواو وبعده الألف دال مهملة [مكسورة]^(٢)) ثم ياء مثناة من تحتها مشددة ثم هاء). والرّوَادِيَّةُ: بطن من الهَدَبَانِيَّة (بفتح الهاء والذال المعجمة والباء الموحدة وبعده الألف نون مكسورة ثم ياء مثناة مشددة من تحتها وبعدها هاء) وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. وقال لي رجل عارف بما يقول، وهو من أهل دُوين: إنّ على باب دُوين قرية يُقال لها: أجدانقان (بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعده الألف نون مفتوحة ثم قاف وبعده الألف الثانية نون أخرى) وجميع أهلها أكرادٌ رَوَادِيَّةٌ؛ ومولد أيّوب والد صلاح الدين بها، وشادي أخذ ولديه، [منها]^(٢): أسد الدين شيركوه، ونجم الدين أيّوب، وخرج بهما إلى بغداد؛

(١) زيادة عن ابن شدّاد في سيرة صلاح الدين

(٢) زيادة عن ابن خلكان

ومن هناك إلى تكريت. ومات شادي بها، وعلى قبره قبة داخل البلد. ولقد تبعت نسبهم كثيراً فلم أجد أحداً [ذكر] (١) بعد شادي أباً آخر، حتى إني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك بأسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه بن شادي [وأيوب] (١) بن شادي لا غير. وقال لي بعض أعوانهم (٢): هو شادي بن مروان، وقد ذكرته في ترجمة أيوب وشيركوه. قال: ورأيت مدرجاً رتبة الحسن بن غريب (٣) بن عمران الحارثي (٤) يتضمّن أن أيوب بن شادي بن مروان بن [أبي] (١) علي بن عنتر (٥) بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز بن هذبة بن الحُصَيْن بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن بيّهس (٦) بن الحارث صاحب الحمالة ابن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نُشْبَة (٧) بن غَيْظ بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان [بن سعد] (٨) بن قيس بن عيّلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد (٩) بن عدنان؛ ثم رفع هذا النسب إلى أن انتهى إلى آدم عليه السلام. ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أحمد بن أبي علي يُقال إنه (٩) ممدوح المتنبي، ويعرف بالخراساني. وفيه يقول من جملة قصيدة: [الخفيف]

شَرِقَ الجَوِّ بِالغُبَارِ إِذَا سَا رَ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ القَمَمَاقُ

وأما الحارث بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة (١٠) فهو الذي حمل

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في ابن خلكان: «وقال لي بعض كبراء بيتهم». ولعل اللفظ الصحيح هنا: «أعيانهم» ووقع عليه تحريف.

(٣) في الأصل: «الحسن بن عمرو بن عمران». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٤) في الأصل: «الحارثي» بالسين المهملة وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٥) في الأصل: «عنتر». والتصحيح عن ابن خلكان.

(٦) في الأصل: «مهي». والتصحيح عن ابن خلكان.

(٧) في الأصل: «شبية». والتصحيح عن ابن خلكان.

(٨) في الأصل: «سعد». والتصحيح عن ابن خلكان.

(٩) في الأصل: «فقال هو» وما أثبتناه عن ابن خلكان، وهو المناسب للسياق اللغوي.

(١٠) الحمالة: الدية والغرامة التي يحملها قوم عن قوم. وقد طرح منها الهاء فيقال: الحمال. (انظر لسان العرب. مادة حمل).

الدماء بين عَبَسَ وذُبْيَان، وشاركه في الحَمَالَة خَارِجَةُ بن سِنَان أخو هَرِم بن سِنَان .
وفيها قال زُهَيْر بن أَبِي سُلَمَى المَزْنِي قصائد كثيرة، منها قوله: [الطويل]

وهل يُنَبِّت الحَطَّيَّ إِلَّا وَشِيْجُهُ وتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النُّخْلُ

هذا آخر ما ذكره في المدرج، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة. والله أعلم^(١). إنتهى ما ذكرته من المدرج. ثم قال:

وأقول: ذكر المؤرخون أن أسد الدين شيركوه لما مات استقرت الأمور بعده لصلاح الدين يوسف بن أيوب وتمهّدت القواعد، ومشى الحال على أحسن الأوضاع، وبذل الأموال وملك قلوب الرجال، وشكر نعمة الله تعالى عليه، فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمّص بقميص الجدّ والاجتهاد، ولا زال على قدم الخير وما يقرب به إلى الله تعالى إلى أن مات». قال: «وقال شيخنا ابن شدّاد - رحمه الله -: قال صلاح الدين - رحمه الله -: لما يسّر الله تعالى بملك الديار المصرية علمت أن الله أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي. قال: ومن حين استقام له الأمر ما زال صلاح الدين يشنّ الغارات على الفرنج إلى أن ملك الكرك والشوبك وبلادهما، وغشي الناس من سحائب الإفضال والإنعام [ما لم يؤرّخ عن غير تلك الأيام. و]^(٢) هذا كله وهو وزير متابع للقوم، ولكنه يقول بمذهب أهل السنة، [غارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوّف والدين، والناس يهرعون إليه من كلّ صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يُخيّب قاصداً، ولا يعدم وافداً]^(٣)

(١) علّق الدكتور محمد مصطفى زيادة في حاشية ص ٢٢ و٦٢ من كتاب السلوك للمقرزي، الجزء الأول،

بقوله: «وكل هذه الأنساب، أو ما يشابهها من الأنساب العربية للأكراد، ليس لها نصيب من الصحة

وهي محاولات من الأكراد للاتصال بالنسب العربي؛ ولكن الثابت أنهم من الجنس الإيراني».

(٢) زيادة عن ابن خلكان. وانظر سيرة صلاح الدين: ص ٤٠ - ٤١.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

إلى سنة خمس وستين وخمسمائة. فلمّا عرف نور الدين استقرار^(١) أمر صلاح الدين بمصر أخذ حِمَص من نواب أسد الدين شيركُوه، وذلك في رجب سنة أربع وستين. ولمّا علم الفرنجُ ما جرى من^(٢) المسلمين وعساكرهم، وما تمّ للسلطان من استقامة الأمر له بالبلاد المصرية علموا أنه يملك بلادهم، ويخرّب ديارهم، ويقطع آثارهم؛ فأجتمع الفرنج والروم جميعاً وقصدوا الديار المصريّة، ونزلوا دِمياط ومعهم آلات الحصار وما يُحتاج إليه.

قلت: وهذه الواقعة التي ذكرناها في أوّل هذه الترجمة، غير أننا نذكرها أيضاً من قول ابن خلكان لزيادات تأتي فيها.

قال: «ولمّا سمع فرنج الشام ذلك آشتدّ أمرهم، فسرقوا حصنَ عكا من المسلمين وأسروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين محمود، يقال له: «خَطْلُخ العلم دار»، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين. ولمّا رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دِمياط قصد شغلّ قلوبهم، فنزل على الكرك فحاصرها في شعبان من السنة المذكورة، فقصد فرنج الساحل فرحل عنها، وقصد لقاءهم فلم يقروا له. ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الدّاية، وكانت وفاته بحلب في [شهر] رمضان سنة خمس وستين، فأشتغل قلبه، فإنّه صاحب أمره. وعاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التي أخرجت البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه قطب الدين مودود الموصل، وبلغه خبر موته وهو بتلّ باشير، فسار من ليلته طالباً لبلاد الموصل. ودام صلاح الدين في قتال الفرنج بدِمياط إلى أن رحلوا عنها خائبين».

قال ابن خلكان: «والذي ذكره شيخنا عزّ الدين بن الأثير: [أمّا]^(٣) كيفيّة ولاية صلاح الدين فإنّ جماعة من الأمراء النُوريّة الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على

(١) في الأصل: «استقلال» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «ما جرى للمسلمين وعساكرهم» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٣) زيادة عن ابن خلكان. وابن خلكان ينقل عن ابن الأثير في كتابه «تاريخ الدولة الأتابكية» المعروف بالتاريخ الباهر.

العساكر و [ولاية] (١) الوزارة (يعني بعد موت أسد الدين شيركوه): منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن ثليل (٢)، وهو ابن أخي أبي الهيثم الهذباني الذي كان صاحب إربل. قلت: [وهو] (١) صاحب المدرسة القطبية (٣) بالقاهرة؛ ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب القلاع الهكارية. قلت: هو المعروف بالمشطوب - ولوالده أحمد ترجمة في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» [قال] (٤): ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين؛ وكل واحد من هؤلاء قد لحظها (٥) لنفسه [وقد جمع ليغالب عليها] (١)؛ فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين يأمره بالحضور إلى قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويؤليه الأمر بعد عمه. وكان الذي حمل العاضد على تولية صلاح الدين ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين، وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته مستناً، يحكم عليه ولا يقدر على المخالفة، وأنه يضع على العساكر الشامي من يستميلهم [إليه] (٦)، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية (٧) من يحميها من الفرنج ونور الدين. والقصة مشهورة «أردت عمراً وأراد الله خارجه» (٨).

(١) زيادة عن ابن خلكان. وابن خلكان ينقل عن ابن الأثير في كتابه «تاريخ الدولة الأتابكية» المعروف بالتاريخ الباهر.

(٢) كذا في ابن خلكان. وفي الأصل والمقريزي في الكلام على المدرسة القطبية: «ابن بلبل».

(٣) المدرسة القطبية: كانت تقع في خط سوقة الصاحب بداخل درب الحريري. وكانت هي والمدرسة السيفية (جامع الخطاب اليوم) من حقوق دار الديباج. أشأها قطب الدين المذكور سنة ٥٧٠ هـ وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية (انظر خطط المقريزي. ٣٦٥/٢) وقال الاستاذ محمد رمزي: وبالبحث تبين أن محلها اليوم الدار وقف النلاوي رقم ١٠ بحارة الملطي (درب الحريري سابقاً) المتفرعة عن سكة البودية بالحماوي.

(٤) زدنا هذه الكلمة لأن الكلام بعدها لابن خلكان.

(٥) في ابن خلكان. «وكل واحد من هؤلاء يخطبها لنفسه».

(٦) زيادة عن ابن خلكان

(٧) في الأصل: «الكنامية». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٨) انظر قصة المثل في ابن خلكان. ٢١٦/٧ - ٢١٧. وخارجه المذكور هو حارحة بن حذافة، كان على شرطة مصر في أيام ولاية عمرو بن العاص. قتله خارجي بمصر سنة ٤٠ هـ وهو يحسب أنه عمرو بن العاص.

نفسه عن هذا المُقام، فالزمه العاصد وأخذ كارهاً؛ إنَّ الله لَيَعجب من قوم يُقادون إلى الجَنَّةِ بالسلاسل. فلما حضر في القصر خلع عليه خِلعة الوزارة: الجُبَّة والعِمامة وغيرهما، ولقَّب بالملك الناصر، وعاد إلى دار عمه أسد الدين شيركوه وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه. وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاريّ معه، فسعى مع سيف الدين عليّ بن أحمد حتّى أماله إليه، وقال له: إنَّ هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارميّ وأبن تليل، فمال إلى صلاح الدين. ثم قصد شهاب الدين الحارميّ، وقال له: إنَّ هذا صلاح الدين هو ابن أختك ومُلْكك لك^(١)، وقد آستقام له الأمر فلا تكن أوّل من يسعى في إخراجِه عنه [ولا يصل إليك]^(٢)، ولم يزل به حتّى أحضره أيضاً عنده وحلّفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إنَّ صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغيرُ الياروقيّ، وعلى كلّ حال فيجتمع بينك وبين صلاح الدين أنّ أصله من الأكراد، ووعده وزاد في إقطاعه^(٣) فأطاع صلاح الدين. ثم عدل إلى عين الدولة الياروقيّ، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فأجتمع به فلم ينفع فيه رِقاهُ ولا نَفذ فيه سحره، وقال: «أنا لا أخدُم يوسف أبداً» وعاد إلى نور الدين محمود ومعه غيره. فأنكر عليهم نور الدين فراقه، وقد فات الأمر، ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً. وثبتت قدم صلاح الدين ورَسَخ ملكه، وهونائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلّها، ولا يتصرّفون إلّا عن أمره. وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفَهسالار^(٤)، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، وكان لا يُفرده بمكاتبة، بل يكتب: «الأمير الأسفَهسالار صلاح الدين، وكافةُ الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا». وأستمال صلاح الدين قلوبَ الناس وبَدَل الأموال ممّا

(١) في الأصل: «له» وما أثنناه عن ابن خلكان.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) في الأصل: «إعطائه». وما أثنناه عن ابن خلكان.

(٤) الأسفَهسالار مقدم العسكر، أو قائد الجيش. وهو مركب من لمظين فارسي وتركبي: «أسفه» بالفارسية

بمعنى «المقدم». «وسلار» بالتركية بمعنى العسكر. (انظر الألقاب الإسلامية: ١٥٦، وصبح الأعشى:

٨/٦ و٤٧٩/٣)

كان أسد الدين قد جمعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه؛ وضعف أمر العاضد، وكان العاضد كالباحث عن حتفه بظلمه».

قال ابن الأثير^(١) في تاريخه الكبير: قد اعتبرت التواريخ ورأيت كثيراً من التواريخ الإسلامية، فرأيت كثيراً ممن يتدعى الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه: منهم في أول الإسلام معاوية بن أبي سفيان، أول من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك عن أعقابه إلى بني مروان من بني عمه. ثم من بعده السفاح أول من ملك من ملوك بني العباس، آنتقل الملك عن أعقابه إلى أخيه أبي جعفر المنصور. ثم السامانية أول من ملك منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه. ثم يعقوب [بن الليث] الصفار أول من ملك من أهل بيته فانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو وأعقابه. ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهل بيته ثم أنتقل الملك عنه إلى أخويه: ركن الدولة ومعز الدولة. ثم السلجوقية أول من ملك منهم طغرل بك. ثم أنتقل الملك إلى أولاد أخيه داود. ثم هذا شيركوه كما ذكرنا أنتقل الملك عنه إلى ولد أخيه نجم الدين أيوب. ولولا خوف الإطالة لذكرنا أكثر من هذا. والذي أظنه السبب في ذلك أن الذي يكون أول دولة يكثر القتل، فيأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به؛ فلهذا يحرم الله تعالى أعقابه ويفعل ذلك لأجلهم عقوبة [له]^(٢). إنتهى.

قلت: وما ذكره ابن الأثير من أنتقال الملك من عقب من يلي الملك أولاً إلى أقاربه، هو بعكس ما وقع لخلفاء مصر بني عبّيد؛ فإنه لم يلّ الخلافة منهم أحد بعد أخيه من أولهم المعز إلى آخرهم العاضد. قلت: ونادرة أخرى وقعت لخليفة زماننا هذا، فإنه خامس أخ ولي الخلافة بعد إخوته، وهو أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف، وهم خمسة إخوة من أولاد المتوكل، كلّ منهم ولي الخلافة: وأولهم المستعين بالله العباسي، الذي تسلطن بعد خلع الملك الناصر فرج بن برقوق، في سنة خمس عشرة [وثمانمئة]؛ ثم بعده المعتضد داود؛ ثم من بعده المستكفي

(١) لا ينقل المؤلف عن ابن الأثير مباشرة، وإنما ينقل عن ابن خلكان الذي ينقل بدوره عن ابن الأثير.

(٢) زيادة عن ابن خلكان

سليمان؛ ثم من بعده القائم حمزة؛ ثم يوسف هذا خليفة زماننا.

وأكثر من ولي من بني أمية أربعة من أولاد عبد الملك بن مروان: وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام؛ قيل: إن عبد الملك رأى في نومه أنه بال في محراب النبي صلى الله عليه وسلم أربع بولات، فأولاه المعبرون بأنه يلي الخلافة من ولده لصلبه أربعة، فكان كذلك. وأما ثلاثة الإخوة: فالأمين محمد والمأمون عبد الله والمعتصم محمد أولاد الرشيد هارون. ثم وقع ذلك أيضاً لبني العباس في أولاد المتوكل جعفر؛ ولي من أولاده ثلاثة: المنتصر والمعتز والمعتد. ثم وقع ذلك أيضاً للمعتضد؛ ولي من أولاده ثلاثة: وهم المكتفي^(١) علي والمقتدر جعفر والقاهر محمد. ثم وقع ذلك للمقتدر جعفر؛ ولي من أولاده ثلاثة: الراضي والمتقي والمطيع. ونادرة أخرى، قيل: إن المستنجد بن المكتفي رأى في حياة والده في منامه كأن ملكاً نزل من السماء فكتب في كفه أربع خاءات معجمات، فعبروه أنه يلي الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة فكان كذلك. وقد خرجنا عن المقصود، ونعود إلى ذكر صلاح الدين.

ثم ذكر ابن الأثير شيئاً عن أحوال صلاح الدين إلى أن قال: وتوفي العاضد وجلس صلاح الدين للعزاء، وأستولى على قصره وجميع ما فيه؛ فكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش، وهو خصي يحفظه، فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين. ونقل صلاح الدين أهله إلى مكان منفرد، ووكل بهم من يحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءه في إيوان بالقصر، وأخرج من كان فيه من العبيد والإماء، فأعتق البعض ووهب البعض وأخلى القصر من سكانه وأهله. فسبحان من لا يزول ملكه! قال: ولما أستولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره آختر منه ما أراد، ووهب أهله وأمرائه، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك. قال ابن الأثير^(٢): ولما وصل الخبر إلى الإمام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن الإمام المستنجد، وهو والد الإمام الناصر

(١) في الأصل: «المقتفي».

(٢) النقل هنا عن ابن خلكان، وليس عن ابن الأثير.

لدين الله، بما تجدد من أمر مصر، وعود الخطبة والسكّة بها بأسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدّة الطويلة عجل أبو الفتح محمد سبط [أبن] (١) التعاويذي قصيدة (٢) طنانة مدح بها المستضيء، وذكر هذا الفتح المتجدد له، وفتح بلاد اليمن، وهلاك الخارجي بها الذي سمى نفسه المهدي. نذكر في آخر ترجمته أمر القصيدة التي نظمها أبن التعاويذي من كلام أبن خلكان وغيرها إن شاء الله تعالى. وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاف المصريين شيئاً كثيراً.

ثم ذكر أبن الأثير (٣) فصلاً في سنة سبع وستين وخمسمائة يتضمّن حصول الوحشة بين نور الدين الشهيد وبين صلاح الدين باطنياً، فقال: «في هذه السنة جرت أمور أوجبت تأثر نور الدين من صلاح الدين، ولم يظهر ذلك. وكان سببه أن صلاح الدين سار [عن مصر] (٤) في صفر منها إلى بلاد الفرنج، ونازل حصن الشوبك، وبينه وبين الكرك يوم، وحصره وضيق على من به من الفرنج، وأدام القتال؛ فطلبوا الأمان وأستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك. فلما سمع نور الدين ما فعله صلاح الدين سار من دمشق قاصداً بلاد الفرنج ليدخل إليها من جهة أخرى، فقبل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين إلى بلاد الفرنج وهم على هذه الحال - أنت من جانب ونور الدين من جانب - ملكها، ومتى زال ملك الفرنج عن الطريق لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين؛ ومتى جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا فلا بدّ لك من الاجتماع به؛ وحينئذ يكون هو المتحكم فيك، إن شاء تركك وإن شاء عزّلك، ولا تقدر على الامتناع عليه؛ وحينئذ (٥) المصلحة الرجوع إلى مصر. فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر [ولم يأخذه من الفرنج] (٦).

(١) زيادة عن ابن خلكان

(٢) ذكر منها ابن خلكان (١٥٩/٧-١٦٠) أربعين بيتاً. وأولها.

قل للسحاب إذا مرّت به يد الجنايب فأرحح
عج بالوى فاسمح بدمعك للمعاهد والدمع

(٣) الكامل في التاريخ: ٣٥/١٠.

(٤) زيادة عن ابن الأثير

(٥) هذا اللفظ زائد ولا لزوم له. والأولى أن يقول: «والمصلحة الرجوع» كما في ابن الأثير.

(٦) زيادة عن ابن الأثير.

وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصريّة لأمر بلغته عن بعض شيعة العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها، وأنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها. فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وتغيّر عليه، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراجه عنها. وظهر ذلك لصلاح الدين فجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارميّ وسائر الأمراء، وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، فاستشارهم فلم يُجبه أحد منهم بكلمة؛ فقام تقيّ الدين عمر ابن أخيه وقال: إذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله؛ فشتّمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك وأستعظمه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، ونحن أكثر محبّة لك من جميع من ترى؛ والله لورأيتُ أنا وخالك نور الدين لم يمكننا إلّا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك لفعلنا، فإذا كنّا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا! وكلّ من ترى من الأمراء لورأى نور الدين وحده لم يتجاسروا من الثبات على سُروجهم. ثم قال: وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد غير ذلك سمعنا وأطعنا؛ والرأي أن تكتب إليه وتقول: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأني حاجة إلى هذا! يُرسل المولى نجاباً^(١) يضع في رقبتني منديلاً ويأخذني إليك، فما هاهنا من يمتنع عليك؛ وقام الأمراء وتفرّقوا. فلما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: يا بني، بأيّ عقل قلت هذا! أمّا علمت أن نور الدين متى سمع عزمنا على منعه ومحاربتة جعلنا أهمّ الوجوه عنده؛ وحينئذٍ لا نقوى به؛ وإذا بلغه طاعتنا له تركنا وأشتغل بغيرنا، والأقدار تعمل عملها؛ والله لو أراد نور الدين قصبه من قصب السُّكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل. ففعل صلاح الدين ما أشار به والدّه عليه؛ فترك نور الدين قصده وأشتغل بغيره؛ فكان الأمر كما ظنّه أيوب. وتوفّي نور الدين ولم يقصده. وملك صلاح الدين البلاد، وكان هذا من أصوب الآراء وأحسنها». انتهى كلام ابن الأثير باختصار.

^(١) الحجاب: البريد الذي يحمل البريد على النجب ويجمعونها على نجاة. (التعريف بالمصطلح الشريف. ١٣٥، ٢٤١).

قال آبن شداد^(١): «ولم يزل صلاح الدين في نَشْرِ الإحسان وإفاضة النعم على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة، فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكَرْك والشُّوبك، وإنما بدأ بها لأنَّها كانت أقرب إليه، وكانت على الطريق تمنع من يَقْصِد الديار المصريَّة، وكان لا يمكن أن تَعْبُر قافلةً حتَّى يخرج هو بنفسه يُعْبِرها، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها، فحاصرها في هذه السنة، وجرى بينه وبين الفرنج وَقَعَات، وعاد إلى مصر ولم يظفر منها بشيء. ولَمَّا عاد بلغه خبر وفاة والده نجم الدين قبل وصوله إليه. قال: ولَمَّا كانت سنة تسع وستين رأى قوَّة عسكره وكثرة عَدَدِه، وكان بلغه أنَّ باليمن إنساناً أستولى عليها وملك حصونها، وكان يسمَّى عبد النبيِّ بن مهديٍّ^(٢)، فأرسل أخاه توران شاه فقتله وأخذ البلاد منه. ثم مات الملك العادل نور الدين محمود صاحبُ دِمَشق في سنة تسع وستين وخمسمائة، على ما سيأتي ذكره في الوفيات. ثم بلغ صلاح الدين أنَّ إنساناً [يقال له «الكنز»]^(٣) جمع بأسوان خَلْقاً كثيراً من السودان، وزعم أنه يعيد الدولة العُبَيْدِيَّة المصريَّة. وكان أهل مصر يُؤثرون عَوْدَهم وأنضافوا إليه، فسَيَّر صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدِّمه أخاه الملك العادل، فساروا وآلتقوا به، وكسروه في السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائة. ثم بعد ذلك استقرَّت له قواعدُ الملك. وكان نور الدين محمود قد خلف ولده الملك الصالح إسماعيل، وكان بدمشق عند وفاة أبيه. وكان بحلب شمسُ الدين عليِّ بن الدَّاية، وكان آبن الداية حدَّث نفسه بأمر، فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها في المحرم سنة سبعين ومعه سابق الدَّين^(٤)، فخرج بدر الدين حسن^(٥) بن الدَّاية فقبَّض على سابق

(١) ما زال المؤلف ينقل عن ابن حلكان. وانظر سيرة صلاح الدين لابن شداد: ص ٤٥ وما بعدها.

(٢) هو علي بن المهدي أبو الحسن المعروف بعبد النبي صاحب زيد. كان قطع الخطبة العباسية، فاستأذن صلاح الدين نور الدين محمود في أن يسير إليه فأذن له. فسَيَّر إليه أخاه توران شاه بن أيوب فأسره وملك زييد وأقام فيها الخطبة العباسية.

(٣) زيادة عن ابن حلكان والسيرة.

(٤) هو سابق الدين عثمان بن محمد بن نوشتكين المشهور بابن الداية، صاحب شيزر، أحد أولاد الداية الأربعة. وكانت أمهم داية نور الدين الشهيد. توفي سنة ٥٩٢هـ. (ذيل الروضتين. ١٠).

(٥) هو صاحب حارم وعين تاب وأعزاز (الروضتين).

الدين. ولمّا دخل الملك الصالح قلعة حلب قبض على شمس الدين عليّ بن الداية، وعلى أخيه بدر الدين حسن المذكور، وأودع الثلاثة السجن. وفي ذلك اليوم قُتِل أبو الفضل بن الخشاب لفتنة جرت [بحلب]^(١)، وقيل: بل قُتِل قبل القبض على أولاد الداية [بيوم، لأنهم تولوا تدبير ذلك]^(١).

ثم^(٢) إنّ صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أنّ ولده الملك الصالح صبيّ لا يستقلّ بالأمر، ولا يُنهض بأعباء الملك، وأختلفت الأحوال بالشام. وكاتب شمس الدين [محمد بن عبد الملك]^(٣) بن المقدم صلاح الدين، فتجهّز صلاح الدين من مصر في جيش كثيف، وترك بالقاهرة من يحفظها، وقصد دمشق مظهرًا أنّه يتولى مصالح الملك الصالح؛ فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة، وتسلم قلعتها واجتمع الناس إليه وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم مالاً جزيلاً، وأظهر السرور بالدمشقيين وصعد القلعة؛ ثم سار إلى حلب ونازل حمص وأخذ مدينتها في أول جمادى الأولى، ولم يشتغل بقلعتها وتوجه إلى حلب، ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة، وهي الوقعة الأولى.

ثم إنّ سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زُنكي صاحب الموصل لمّا أحسّ بما جرى علم أنّ الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه، فخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في المُلْك وتعدى الأمر إليه، فأرسل عسكرياً وافرأ، وجيشاً عظيماً، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وساروا يريدون لقاء صلاح الدين نجدة لابن عمّه الملك الصالح ابن نور الدين، ليردوا صلاح الدين عن البلاد. فلمّا علم صلاح الدين ذلك رحل من حلب في مستهلّ رجب من السنة عائداً إلى حماة، ثم رجع إلى حمص وأخذ قلعتها. ووصل عز الدين مسعود إلى حلب وأخذ معه عسكرياً ابن عمّه الملك الصالح إسماعيل بن

(١) زيادة عن ابن خلكان والسيرة.

(٢) ابن خلكان. ١٦٥/٧، والسيرة. ٥٠.

(٣) زيادة عن الروضتين وابن الأثير وهو الأمير الذي تولى تربية الملك الصالح إسماعيل بعد وفاة والده نور الدين.

نور الدين محمود، وهو صاحب حلب يومئذ، وخرجوا في جمع عظيم؛ وما علم صلاح الدين بخروجهم حتى وافاهم على قرون^(١) حماة، فراسلهم وراسلوه، وأجتهد صلاح الدين على أن يصلحوه فلم يصلحوه؛ ورأى أن ضرب المصاف معهم ربما نالوا به غرضهم، والقضاء يجري إلى أموره وهم لا يشعرون، فتلاقوا فقتل الله تعالى أنهم أنكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم فمن عليهم وأطلقهم، وذلك في تاسع عشر شهر رمضان من السنة عند قرون حماة. ثم سار صلاح الدين عقيب كسرتهم^(٢) ونزل على حلب، وهي الدفعة الثانية، فصالحوه على المعرفة وكفرطاب وبارين. ولما جرت هذه الواقعة كان سيف الدين غازي محاصراً أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وعزم على أخذها منه، لأنه كان قد أنتمى إلى صلاح الدين، وكان قد قارب أخذها. فلما بلغه خبر هذه الواقعة، وأن عسكره أنكسر من صلاح الدين على قرون حماة خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمره ويقوى جأشه، فراسله وصالحه. ثم سار غازي من وقته إلى نصيبين وأهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها، وسار إلى الفرات وعبر البيرة وخيم على الجانب الشامي، وراسل ابن عمه الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين صاحب حلب حتى تستقر له قاعدة يصل إليها. ثم إنه وصل إلى حلب وخرج ابن عمه الملك الصالح صاحب حلب إلى لقائه، وأقام غازي على حلب مدة، وصعد قلعتها جريداً؛ ثم نزل وسار إلى تل السلطان، وهي منزلة بين حلب وحماة، ومعه جمع كبير. وأرسل صلاح الدين إلى مصر وطلب عسكرها، فوصل إليه منها جمع كبير، فسار بهم صلاح الدين حتى نزل قرون حماة ثانياً. وتصافوا بكرة يوم الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وجرى قتال عظيم، وأنكسرت ميسرة صلاح الدين من مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فإنه كان على مئمنة سيف الدين غازي، فحمل صلاح الدين بنفسه على عسكر سيف الدين غازي حملة شديدة فأنكسر القوم، وأسر منهم جماعة من كبار الأمراء، فمن عليهم صلاح الدين

(١) قرون حماة: قلتان متقابلتان، جبل يشرف على حماة ونهرها العاصي. وبين كل واحد من حماة وحمص والمعرفة وسلمية وبين صاحبه يوم. (معجم البلدان: مادة حماة).

(٢) في الأصل. «عقب عسكرهم». وما أثبتناه عن السيرة وابن خلكان.

وأطلقهم. وعاد سيف الدين غازي إلى حلب فأخذ منها خزائنه وسار حتى عبر الفرات، وترك ابن عمه الملك الصالح صاحب حلب بها وعاد إلى بلاده. ومنع صلاح الدين من تتبع القوم، ونزل في بقية اليوم في خيامهم، فإنهم تركوا أثقالهم وأنهمزوا؛ وفرق صلاح الدين الأطلاب ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين غازي لابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب أخي تقي الدين عمر صاحب حماة، وكان فرخشاه صاحب بعلبك. ثم سار صلاح الدين إلى منبج فتسلمها، ثم سار إلى قلعة عزاز وحاصرها في رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة. وبينما صلاح الدين بها وثب عليه جماعة من الإسماعيلية (أعني الفداوية) فنجاه الله منهم وظفر بهم. وأقام عليها حتى أخذها في رابع عشر ذي الحجة من السنة. ثم سار فنزل على حلب في سادس عشر ذي الحجة وأقام عليها مدة. ثم رحل عنها بعد أن أخرجوا له ابنة صغيرة لنور الدين محمود فسألته عزاز فوهبها لها. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أحوالها، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة؛ وكان أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب قد وصل إليه من اليمن فاستخلفه بدمشق. ثم بعد ذلك تأهب صلاح الدين للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك الوقت. ولما أنهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا، وأسير منهم جماعة: منهم الفقيه عيسى الهكاري. وكان ذلك وهناً عظيماً، جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة.

ووصل صلاح الدين إلى مصر ولم شعثه وشعث أصحابه من أثر كسرة الرملة؛ ثم بلغه تخبط الشام فعاد إليه وأهتم بالغزاة، فوصله رسول صاحب الروم^(١) يلتمس الصلح ويتضرر من الأرمن، فعزم^(٢) على قصد بلاد ابن لاون (يعني بلاد سييس الفاصلة بين حلب والروم من جهة الساحل) لينصر قليج أرسلان عليه^(٣)؛ فتوجه

(١) المقصود صاحب بعض البلاد على تخوم بلاد الروم، وهو قليج أرسلان.

(٢) عبارة الأصل: «ويتضرر من الأرمن، يقصد بلاد ابن لاون». وما أثبتناه عن ابن خلكان والسيرة.

(٣) زيادة عما سبق.

صلاح الدين إليه، وأستدعى عسكر حَلَب، لأنه كان في الصلح متى أستدعاه حضر إليه؛ (يعني صلح صلاح الدين مع الملك الصالح صاحب حلب). ثم دخل صلاح الدين بلاد ابن لاون وأخذ في طريقه حصناً وأخبره، ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم. ثم سأله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم (يعني سيف الدين غازي وإخوته) فأجاب [إلى] ذلك صلاح الدين وحلف في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسائة، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصل. ثم عاد صلاح الدين بعد تمام الصلح إلى دِمَشق؛ ثم منها إلى مصر. فورد عليه الخبر بموت الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بعد أن أستحلف أمراء حَلَب وأجنادها قبل موته لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، وهو ابن عم قطب الدين مودود. ولما بلغ عز الدين مسعوداً خبر موت ابن عمه الملك الصالح المذكور، وأنه أوصى له بحلب بادر إلى التوجه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين إليها فأخذها. وكان أول قادم إليها مظفر الدين بن زَيْن الدين صاحب إربل، وكان إذ ذاك صاحب حَرَّان، وهو مضاف إلى الموصل، ووصلها مظفر الدين المذكور في ثالث شعبان من سنة سبع وسبعين. وفي العشرين منه وصلها عز الدين مسعود وطلع إلى القلعة وأستولى على ما فيها من الحواصل، وتزوج بأب الملك الصالح في الخامس من شوال من السنة. قال^(١): وحاصل الأمر أن عز الدين مسعوداً قايض [أخاه]^(٢) عماد الدين زُنكي صاحب سنجار عن حلب بسنجار، وخرج عز الدين من حلب ودخلها عماد الدين زُنكي، فلما بلغ صلاح الدين ذلك توجه إليه وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرم سنة سبع وسبعين وخمسائة. فتحدث عماد الدين زُنكي مع الأمير حسام الدين طُمان بن غازي في السر بما يفعله، فأشار عليه أن يطلب من صلاح الدين بلاداً وينزل له عن حلب، بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال؛ فقال له عماد الدين: وهذا كان في نفسي. ثم آجتماع حسام الدين طمان بن غازي مع صلاح الدين في السر على

(١) المقصود ابن خلكان.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

تقرير القاعدة لذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب ووقع له بسنجار وخابور ونصيبين وسروج، ووقع لطمان المذكور بالرقّة لسفارته بينهما، وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع [عشر]^(١) صفر من السنة؛ وكان صلاح الدين قد نزل قبل تاريخه على سنجان وأخذها في ثامن^(٢) شهر رمضان من سنة ثمان وسبعين وأعطاه لابن أخيه تقيّ الدين عمر؛ فلما جرى الصلح على هذا أخذها من عمر وأعطاها لعماد الدين المذكور. وتسلم صلاح الدين قلعة حلب وصعد إليها في يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر [سنة تسع وسبعين وخمسمائة]^(١)، وأقام بها حتى رتب أمورها ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، وجعل فيها ولده الملك الظاهر وكان صبيّاً، وولى القلعة لسيف الدين يازكوج الأسيدي وجعله يرتب مصالح ولده.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق وتوجّه من دمشق لقصده محاصرة الكرك في الثالث من رجب من السنة، وسير إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر، يستدعيه ليجتمع به على الكرك، فسار إليه الملك العادل أبو بكر بجمع عظيم وجيش كبير، واجتمع به على الكرك في رابع شعبان. فلما بلغ الفرنج نزوله على الكرك حشدوا خلقاً عظيماً وجاؤوا إلى الكرك ليكونوا من خارج قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصرية، فسير إليها ابن أخيه تقيّ الدين عمر، ثم رحل صلاح الدين عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة (وأستصحب أخاه الملك العادل معه) ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة، وأعطى أخاه العادل حلب، فتوجّه إليها العادل ودخلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة. وخرج الملك الظاهر ويازكوج من حلب ودخلا دمشق يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوال من السنة. وكان الملك الظاهر أحب أولاد أبيه إليه لما فيه من الخلال الحميدة، ولم يأخذ منه حلب إلا لمصلحة رآها أبوه صلاح الدين في ذلك الوقت. وقيل: إنّ الملك العادل أعطاه على أخذ حلب ثلاثمائة ألف دينار

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «في ثاني» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

يستعين بها على الجهاد. ثم إنَّ صلاح الدين رأى أنَّ عَوْدَ الملك العادل إلى مصر، وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح. قيل: إنَّ علم الدين سليمان بن جَنْدَر^(١) كان هو السبب لذلك، فَإِنَّهُ قال لصلاح الدين (وكانت بينهما مؤانسة قبل أن يتملك البلاد، وقد سايره يوماً، وكان من أمراء حلب، والملك العادل لا يُنصفه، وقدم عليه غيره؛ وكان صلاح الدين قد مريض على حصار الموصل! وحُمل إلى حَرَّان وأُشْفِيَ على الهلاك، ولَمَّا عُوْفِيَ ورجع إلى الشام واجتمعوا في المسير، قال له - وكان صلاح الدين قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد-) : بأي رأي كنتَ تظنُّ أنَّ وصيتك تُنفَّذ! كأنك كنت خارجاً إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك! أما تَسْتَجِي [أن]^(٢) يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال صلاح الدين: وكيف ذلك؟ وهو يضحك؛ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عُشّاً لفراخه قصدَ أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنت سلّمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض؛ هذه حلب - وهي أم البلاد - بيد أخيك، وحمّاة بيد ابن أخيك تقيّ الدين عمر^(٣)، وجمّص بيد ابن عمك أسد^(٤) الدين؛ وأبنتك الأفضل مع تقيّ الدين بمصر يُخرجه متى شاء، وأبنتك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد؛ فقال له صلاح الدين: صدقت، فأكتُم هذا الأمر؛ ثم أخذ حلب من أخيه العادل وأعادها إلى ابنه الملك الظاهر، وأعطى العادل بعد ذلك حَرَّان والرُّها وميَّافارقين ليخرجه من الشام. وفرّق الشام على أولاده، فكان ما كان. وزوّج السلطان صلاح الدين ولده الملك الظاهر بغازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل المذكور.

ثم كانت وقعة حِطّين المباركة على المسلمين، وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة. وكان صلاح الدين كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبرّكاً بدعاء

(١) في الأصل. «حيدر». وما أثبتناه عن ابن خلكان وابن الأثير والروضتين.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) المراد أنها بيد ابن تقي الدين. لأن تقي الدين كان بمصر، كما سيأتي بعد قليل.

(٤) المراد أنها بيد ابن أسد الدين، لأن أسد الدين شيركوه كان قد توفي قبل هذا التاريخ.

المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت واجتمع له من العساكر الإسلامية عدد يفوت الحصر، وكان قد بلغه أن العدو اجتمع في عدّة كثيرة بمَرَج صَفُورِيَّة^(١) بأرض عَكَا عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار صلاح الدين ونزل على طَبْرِيَّة على سطح الجبل ينتظر قَصْد الفرنج؛ فلما بلغهم نزوله في الموضع المذكور لم يتحركوا ولا خرجوا من منزلتهم، وكان نزولهم في الموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر؛ فلما رآهم لا يتحركون نزل جَرِيْدَةً على طَبْرِيَّة، وترك الأطلاب^(٢) على حالها قبالة العدو، ونزل طبرية وهجمها وأخذها في ساعة واحدة، وأنتهب الناس ما فيها، وأخذوا في القتل والسببي والحريق؛ وبقيت القلعة ممتنعة بمن^(٣) فيها. ولما بلغ العدو ما جرى في طبرية قَلَقُوا لذلك ورَحَلُوا نحوها، فبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فترك على طبرية مَنْ يحاصرها ولَحِقَ بالعسكر، وألتقى بالعدو على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، فحال الليل بين العسكرين، فناما على المَصَافِّ إلى بُكْرَةَ يوم الجمعة الثالث والعشرين منه، فركب العسكران وتصادما وألتحم القتال وأشدت الأمر؛ ودام القتال حتى لم يبق إلا الظَّفَرُ، فحال الليل بينهم، وناما على المَصَافِّ. وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأُرْدُنُّ، ومن بين أيديهم بلاد العدو، وأنهم لا يُنجيهم إلا القتال والجهاد. وأصبحوا من الغد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: [الله أكبر]^(٤) وألقى الله الرُّعْبَ في قلوب الكافرين، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين.

ولما أحسَّ الملك القوميص^(٥) بالخذلان هرب في أوائل الأمر [وقصد جهة

(١) في الأصل. «مرج صفر» وما أثنائه عن ابن خلكان والسيرة وابن الأثير.

(٢) أي كتائب الجيش - راجع ص ١٠، حاشية (١)

(٣) كان فيها زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي، حفيد سان جيل (صنجيل)، قصص (قومص) طرابلس. (الحروب الصليبية كما رآها العرب: ص ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٣٩).

(٤) زيادة عن ابن خلكان

(٥) القومص Comes هو ريمند صاحب طرابلس. راجع الحاشية (٣) أعلاه.

صوّر^(١)، فتبعه جماعة من المسلمين، فنجوا منهم. وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وحملوا عليهم بالسيوف، وسقّوهم كأس الحمام، وأنهزمت طائفة منهم فتبعهم المسلمون يقتلونهم؛ واعتصمت طائفة منهم بتلّ يقال [له]^(١): تلّ حطّين، وهي قرية عندها قبر النبيّ شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران، وأشتدّ بهم العطش فاستسلموا [للأسر خوفاً من]^(١) القتل، فأسير مقدموهم وقُتل الباقون؛ وكان ممّن أُسر من مقدميهم الملك جُفري^(٢) وأخوه الملك، [وألبرنّس أرناط]^(٣) صاحب الكرك والشوبك، وابن الهُنْفري^(٤) وأبن صاحب طبريّة^(٥)، ومقدّم الديويّة، وصاحب جبيل، ومقدّم الاسبتار^(١).

قال ابن شدّاد: لقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوّران شخصاً واحداً ومعه نيّف وثلاثون أسيراً ربطهم بطُنب خيّمه، لما وقع عليهم من الخذلان.

ثم إنّ الملك القُومص الذي هرب في أوّل الوقعة وصل إلى طرابُلُس، وأصابه ذات الجنب فهلك. وأما مقدّم الاسبتار والديويّة^(٦) فإنّه قتلها السلطان صلاح الدين،

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) كان من حقه أن يقول: الملك (جاي) Guy وجفري أخوه (جفري) Geoffri de Lusignan. وقد نبّه دي سلان إلى ذلك، ولكن المؤلف هنا يتابع ابن خلكان الذي يتابع بدوره ابن شدّاد في السيرة. (وفيات الأعيان: ١٧٦/٧، حاشية: ٢).

(٣) زيادة عن ابن خلكان والسيرة. والبرنس أرناط هو: Prince Renaud de Chatillon ويرد اسمه في بعض الكتابات الإسلامية: رانود.

(٤) ابن الهنغري: Humphrey of Thoron.

(٥) لعله ابن ريمند بن ريمند الصنجيلي.

(٦) الإسبتار، أو الاستبارية، أو الاسبتارية هو تعريب لكلمة Les Hospitaliers الفرنسية. وقد أنشأ الفرجة في القدس مشافي يشرف عليها الرهبان، ونجم عنها تأسيس ثلاث منظمات رهبانية عسكرية هدفها إيواء ومداواة المرضى والجرحى من الجنود والحجاج المسيحيين؛ وهذه المنظمات هي: منظمة فرسان القديس يوحنا، ومنظمة فرسان الهيكل وهما فرنسيّتان، ومنظمة الفرسان التوتونيين وهم من الألمان. أما منظمة فرسان القديس يوحنا أو فرسان بيت المقدس، وأسماهم العرب الإسبتارية، فقد تأسست في السنة التي استولى فيها الصليبيون على القدس سنة ١٠٩٣/١٠٩٩م. وقد اضطلع أفرادها بدور كبير في الحروب التي خاضها الصليبيون في فلسطين. ولم تلبث المنظمة أن اكتسبت سلطة واسعة ونفوذاً قوياً بفضل

وَقَتَلَ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهَا حَيًّا؛ وَأَمَّا أَلْبِرْنُسُ أَرْنَاطُ فَإِنَّ السُّلْطَانَ كَانَ نَدَّرَ أَنَّهُ إِنْ ظَفِرَ بِهِ قَتَلَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عَبَّرَ إِلَيْهِ بِالشُّوَيْكِ قَوْمٌ مِنَ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ فِي حَالِ الصَّلْحِ فَغَدَرَ بِهِمْ وَقَتَلَهُمْ، فَنَاشَدُوهُ الصَّلْحَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ السُّلْطَانَ، فَقَالَ مَا يَتَضَمَّنُ الْإِسْتِخْفَافَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَبَلَغَ ذَلِكَ السُّلْطَانَ، فَحَمَلَتْهُ حَمِيَّةٌ دِينَهُ عَلَى أَنْ أَهْدِرَ دَمَهُ.

ولما فتح الله عليه بالنصر جلس بالدَّهْلِيْزِ (يعني الخيمة) فإنها لم تكن نصبت بعدُ لشغل السلطان بالجهاد، وعرضت عليه الأسارى، وصار الناس يتقربون إليه بما في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله عليه؛ وأشخص الملك جُفْرِي وأخاه، وألبرنُسُ أرناط، وناول السلطانُ الملكَ جُفْرِي شربةً من جلابٍ وتلج فشرب منها، وكان على أشدِّ حال من العطش ثم ناولها للبرنُس، ثم قال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته وإلا أنا فما سقيته، فإنه كان من جميل عادة العرب وكريم

= المساعدات المادية والأموال التي كانت تجبي باسمها في جميع أنحاء أوروبا المسيحية. ولما استرد العرب مدينة القدس بعد معركة حطين ٥٨٣هـ رحل الإسبتارية عنها إلى عكا، ثم انتقلوا بعد تحرير عكا سنة ٦٩٠هـ إلى قبرص وبعدها إلى رودس سنة ٧٠٩هـ، وفيها أقاموا مؤسساتهم الدينية والدنيوية، وعرفوا يومئذ بفرسان رودس. وقد نعمت المنظمة عهدئذ بفترة ازدهار وتآلق، فامتدت سيطرتها وقامت بغزوات بحرية ناجحة على سواحل البحر المتوسط. وفي سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م لم يستطيعوا الثبات أمام جحافل السلطان سليم الأول القانوني، فنزحوا عن رودس، وكاد شملهم يتفرق لولا أن منحهم الإمبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٨هـ جزيرة مالطة فجعلوها مقرهم الرئيسي وسموا بعدها فرسان مالطة. وانصرفوا بعد زوال تعصبهم الديني وضعف الروح العسكرية فيهم إلى أعمال البر والإحسان. وظلت تسمية فرسان مالطة هي الغالبة عليهم.

أما منظمة الداوية، أو فرسان المسيح الفقراء، أو فرسان الهيكل Les Templiers، وسماهم العرب الداوية أو الديوية، فقد تأسست سنة ٥١٣هـ/١١١٩م؛ وكانت أهدافها مثل منظمة الإسبتارية. وقد اختلط تاريخهم بتاريخ الحروب الصليبية، واشتهروا بتعصبهم وشراساتهم في الحرب. وبفضل التأيد الشعبي المسيحي في الغرب وتدفق الأموال عليها، غدت منظمة الداوية أغنى المؤسسات في ذلك الوقت؛ وبفضل الأموال الهائلة التي تدفقت عليها تمكنت من إنشاء الوكالات والبيوت التجارية والمصرفية في الشرق والغرب، حتى غدت «مصرفاً للبابوات والملوك والأمراء». بيد أن هذا الثراء أثار حفيظة الناس والحكام وكان من الأسباب التي أدت إلى القضاء على المنظمة. وكان أن أصدر البابا كليمان الخامس سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م مرسوماً بإلغاء المنظمة في جميع أنحاء أوروبا المسيحية وحرمان كل من يرتدي ملابسها. ثم أمر البابا بإحراق رئيسها الأعلى جاك دي مولاي حياً. (عن الموسوعة الفلسطينية: ٢٠٥/١ - ٢٠٦ - ٣٩٦/٢ - ٣٩٧ باختصار).

أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن؛ فلذا قال السلطان للترجمان: أنت الذي سقيته. ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عينه لهم فأكلوا شيئاً، ثم عادوا بهم ولم يبق عند السلطان سوى بعض الخدم؛ فاستحضرهم وأقعده الملك في دهليز الخيمة، فطلب البرنس أرناط وأوقفه بين يديه، وقال [له] (١): ها أنا أنتصر لمحمد منك. ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، فسئل النيمجة (٢) فضربه بها فحل كتفه، وتمم قتله من حضر، وأخرجت جثته ورُميت على باب الخيمة؛ فلما رآها الملك جفري لم يشك أنه يلحقه به، فاستحضره السلطان وطب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، إلا أن هذا تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء صلوات الله عليهم، ثم أمره بالانصراف. وبات الناس تلك الليلة على أتم سرور. وفي هذه الواقعة يقول العماد (٣) الكاتب قصيدة طنانة منها: [الطويل]

حططت على جطين قذر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا
وقد طاب ريانا على طبرية فيا طيبها ربا ويا حسنها مرسي

وقال ابن الساعاتي (٤) قصيدة أخرى عظيمة في هذا الفتح، أولها: [الوافر]

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرّت عيون المؤمنينا

ثم رحل السلطان بعد أن تسلم طبرية ونزل على عكا في يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الآخر، وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسائة؛ وأخذها وأستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين، وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، وآستولى على ما كان فيها من الأموال والذخائر والبضائع،

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) النيمجة: خنجر مقوس شبه السيف القصير (فارسي معرب). ويقال أيضاً: نمجاه، ونمجا، ونمجا، ونمشا، ونمشاه، ونمشه. (صبح الأعشى: ٢٤/٤ والتعريف بمصطلحات الصبح: ٣٥٢).

(٣) هو القاضي عماد الدين أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله الأصفهاني. توفي سنة ٥٩٧هـ.

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد بن رستم المعروف بابن الساعاتي. توفي سنة ٦٠٤هـ.

لأنها كانت مظنة التجار؛ وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع.

ثم سار السلطان من عكا ونزل على يمينين^(١) يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فحاصرها حتى أخذها في يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى المذكور عنوة. ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد يوم نزوله عليها.

ثم رحل عنها وأتى بيروت فنزلها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، حتى أخذها في يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى.

ولما فرغ باله من هذا رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها؛ ثم رأى أن العسكر تفرق في الساحل وكانوا قد ضرسوا من القتال؛ وكان قد اجتمع بصور من بقي من الفرنج فرأى أن قصده عسقلان أولى، لأنها أيسر من صور؛ فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة. وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه مدينة غزة وبيت جبريل^(٢) والنظرون من غير قتال، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها ثانياً من المسلمين خمس وثلاثون سنة؛ فإن أخذها كان في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

ولما تسلم السلطان عسقلان والبلاد المحيطة بالقدس شمّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك، واجتمع عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار بهم نحو القدس معتمداً على الله تعالى مفوضاً أمره إليه منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله صلى الله عليه وسلم: «من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يُغلق دونه». وكان نزول السلطان على

(١) من بلدات جبل عامل في لبنان الجنوبي. وهي قائمة على تلة مرتفعة، وفيها قلعة حصينة من بناء الصليبيين.

(٢) والصواب أن يقال: «بيت جبرين» وهو لفظ من أصل كنعاني يعني: بيت الأقوياء الجبابرة. وهي قرية تقع عند نهاية السفوح الغربية لجبال الخليل على بعد ٢٦ كلم شمالي غربي الخليل. (الموسوعة الفلسطينية: ٤٤٥/١).

القدس في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين المذكورة، ونزل بالجانب الغربي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرّجاله حتى إنّه حَزَرَ أهل الخبيرة، ممّن كان مع السلطان، مَنْ كان^(١) فيه من المُقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصّبيان؛ ثمّ أنتقل السلطان لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب ونَصَبَ عليها المجانيق وضايق البلد بالزّحف والقتال حتى أخذ النّقب في السور ممّا يلي وادي جهنّم. ولَمَّا رأى العدو ما نزل بهم من الأمر الذي لا مَدْفَعَ لهم عنه، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم، وكان قد أَشْتَدَّ رَوْعُهُمْ لِمَا جرى على أبطالهم ما جرى، فأستكانوا إلى طلب الأمان، وسلّموا المدينة في يوم الجمعة السابع^(٢) والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المِعْرَاج المنصوص عليها في القرآن الكريم. فأنظر إلى هذا الاتفاق العظيم، كيف يسر الله تعالى عَوْدَهُ إلى المسلمين في مثل زمان الإِسْرَاءِ بِنبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وكان فتحاً عظيماً شهده من العلماء خلق، ومن أرباب الحرب^(٣) والزُّهْدِ عالم كثير، وأرتفعت الأصوات بالضّجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصُلِّيت فيه الجمعة يوم فتحه، ونُكِّس الصليب الذي كان على قُبّة الصخرة، وكان الصليب شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام.

وكان الفرنج قد آسْتَوَلُوا على القُدُس - بعد فتحه الأوّل في زمن عمر - في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة؛ وقيل: في ثاني شعبان وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة (أعني سنة اثنتين وتسعين)، وذلك كان في خلافة المُسْتَعْلِي أبي القاسم أحد خلفاء مصر من بني عُبيد، وكان من وزارة بَدْر الجَمَالِي بديار مصر. وقد حَكَيْنا طَرْفًا من ذلك في ترجمة المستعلي في هذا الكتاب. قلت: وعلى هذا الحساب يكون القدس أقام بيد

(١) عارة الأصل مضطربة السياق. وقد أثبتنا عبارة ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «السادس والعشرين» وما أثبتناه عن خلكان والسيرة والروضتين.

(٣) في ابن خلكان: «أرباب الحرق».

الفرنج نيفاً وتسعين سنة من يوم أخذوه في خلافة المستعلي إلى أن فتحه السلطان صلاح الدين في هذه المرة ثانياً. والله الحمد.

قال ابن شدّاد^(١): «وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلّ رجل عشرين ديناراً، وعن كلّ امرأة خمسةً ديناراً صُوريّة، وعن كلّ صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه وإلا أخذ أسيراً، وأفرج عمّن كان بالقدس من أسارى المسلمين، وكانوا خلقاً عظيماً. وأقام السلطان بالقدس يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال، ثم رسم^(٢) بإيصال من قام بقطيعته من الفرنج إلى مأمنه، وهي مدينة صور، فلم يرحل السلطان من القدس ومعه من المال الذي جبي شيء، وكان يقارب مائتي ألف دينار [وعشرين ألفاً]^(٣).

ولما فتح القدس^(٤) حسّن عنده فتح صور، وعلم أنه متى أخره عسر عليه

(١) النقل عن ابن خلكان الذي ينقل رواية ابن شداد. انظر السيرة: ٨٢.

(٢) في ابن خلكان: «وتقدم بإيصال».

(٣) زيادة عن ابن خلكان

(٤) كانت مقاومة الفرنج في القدس باسلة ولكن قصيرة ومن غير أوام. فعلى الرغم من شجاعة «البيان» صاحب الرملة الذي كان ينظم ويقود الفرنجة، فإنه لم يكن قادراً على إزعاج جيش المسلمين بشكل جدّي. وإذا كانت أسوار المدينة متينة وأهلها الفرنج شديدي التعلق بها، فإن جهاز الدفاع كان ينحصر في حفنة من الفرسان وبضع مئات من المدنيين الذين لا يملكون أية خبرة عسكرية. ومن جهة ثانية فإن المسيحيين الشرقيين من الأرثوذكس واليعاقبة الذين يعيشون في القدس كانوا في جانب صلاح الدين، ولا سيما رجال الكهنوت الذين طالما أساء إليهم الرهبان اللاتين. حتى إن أحد مستشاري السلطان الرئيسيين كان كاهناً أرثوذكسياً يدعى يوسف بتيت، وهو الذي سيهتم بأمر الاتصالات بالفرنج والطوائف المسيحية الشرقية. وقبل الحصار بقليل كان رجال الكهنوت الأرثوذكس قد وعدوا «بتيت» بفتح أبواب المدينة إذا طال عناد الغربيين.

وفي يوم الجمعة الثاني من تشرين الأول ١١٨٧م الموافق للسابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ كان دخول صلاح الدين إلى المدينة المقدّسة وكان أمراؤه وجنوده مزوّدين بأوامر محدّدة وصارمة: عدم التعرّض لأي مسيحي، سواء أكان فرنجياً أم شرقياً. والحق أنه لم يحدث ذبح ولا نهب. وطالب بعض المتزمتين بهدم كنيسة القيامة عقاباً على التعدييات التي ارتكبتها الفرنج، ولكن صلاح الدين أوقفهم عند حدّهم، بل إنه ضاعف من الحراسة على أمكنة العبادة وأعلن أنه في وسع الفرنج أنفسهم أن يقدموا للحدّ إذا شاؤوا. وبينما كان صلاح الدين يطوف في ثلّة من رفاقه من محراب إلى محراب باكباً داعياً ساجداً، كان معظم

ففتحها، فسار نحوها حتى أتى عكا فنزل عليها ونظر في أمورها؛ ثم رحل عنها متوجهاً إلى صور في يوم الجمعة خامس شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين المذكورة، فنزل قريباً منها، وأرسل لإحضار آلات القتال حتى تكاملت عنده؛ نزل عليها في ثاني عشر الشهر المذكور، وقاتل أهلها قتالاً شديداً وضايقها، وأستدعى أسطول مصر، وكان السلطان يضايقها في البر والبحر^(١) ثم سير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال من السنة^(٢)؛ وخرج أسطول صور في الليل فكبس أسطول المسلمين في البحر، وأخذوا المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين، وقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال، وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور؛ وعظم ذلك على السلطان وضاق صدره؛ وكان الشتاء قد هجم وتراكت الأمطار وأمتنع الناس من القتال لكثرة الأمطار، فجمع السلطان الأمراء وأستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال، فرحل عنها في يوم الأحد ثاني ذي القعدة وتفرقت العساكر، وأعطى كل طائفة منها دستوراً؛ فسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو في جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسائة. فرحل ونزل على كوكب في أول المحرم، ولم يبق معه من العسكر إلا القليل؛ وكان كوكب حصناً حصيناً فيه الرجال [والأقوات]^(٣)، فعلم السلطان أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد. فرحل إلى دمشق فدخلها في سادس عشرين^(٤) شهر ربيع الأول من السنة؛ وأقام بدمشق خمسة أيام. وبلغه أن الفرنج قصدوا جبلة^(٥) وأغتالوها، فخرج مسرعاً وقد سير يستدعي العساكر من جميع البلاد، وسار يطلب جبلة؛ فلما علم الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك. وكان السلطان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل وعسكر

= الفرنج لا يزالون في المدينة. وكان الأغنياء منهم مشغولين ببيع منازلهم أو محلات تجارتهم أو رباشهم قبل خروجهم؛ وكان الشارون بصورة عامة من المسيحيين الأرثوذكس أو اليعاقبة الذين سيقفون في أمكتهم. ولسوف تباع أملاك أخرى بعد ذلك إلى العائلات اليهودية التي سيقمها صلاح الدين في المدينة المقدسة. (الحروب الصليبية كما رآها العرب: ٢٤٦ - ٢٤٩).

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في ابن خلكان: «في سادس عشر».

(٣) في ابن خلكان والسيرة: «جبيل».

المَوْصِل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه؛ فسار السلطان نحو حصن الأكراد حتى اجتمع بالمذكورين وتقوى بهم للغاية». انتهى كلام ابن شداد.

وقال القاضي شمس الدين بن خلكان^(١): «وفي يوم الجمعة رابع^(٢) جمادى الأولى دخل السلطان (يعني صلاح الدين) بلاد العدو على تعبئة حسنة ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الأخير ومقدم الميسرة مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فوصل إلى أنطرسوس يوم الأحد سادس جمادى الأولى، فوقف قبالتها ينظر إليها فإن قصده [كان] جبلة، فاستهان أمرها وعزم على قتالها فسير من رد الميمنة، وأمرها بالنزول إلى جانب البحر، والميسرة على الجانب الآخر، ونزل هو موضعه والعساكر مُحَدِّقَة بها من البحر إلى البحر؛ وهي مدينة راكبة على البحر ولها بُرجان، فركبوا وقاربوا البلد وزحفوا عليها، وأشتد القتال فما استتم نصب الخيام حتى صعد المسلمون سورها وأخذوها بالسيف، وغنم المسلمون جميع ما فيها؛ وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين، فما زال يحاربه حتى أخربه. وحضر إلى السلطان ولده الملك الظاهر بعساكر حلب، لأنه كان طلبه فجاء بعساكر عظيمة. ثم سار السلطان يريد جبلة فوصلها في ثاني عشر جمادى الأولى، وما استتم نزول العسكر عليها حتى أخذت البلد؛ وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم، وقوتلت القلعة قتالاً شديداً ثم سُلمت بالأمان [في يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى من السنة]^(٣).

ثم سار السلطان عنها إلى اللاذقية فنزل عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ولها قلعتان (يعني اللاذقية) متصلتان على تلٍ مُشْرِفٍ على البلد، وأشتد القتال إلى آخر النهار، فأخذ البلد دون القلعتين، وغنم المسلمون منه

(١) ابن خلكان ينقل هنا عن ابن شداد.

(٢) في السيرة: «رابع عشر».

(٣) زيادة عن ابن خلكان والسيرة.

غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار؛ ثم جدّوا في أمر القلعتين بالنقوب حتى بلغ طول النَّقْب ستين ذراعاً وعرضه أربع أذرع. فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لاذوا بطلب الأمان، وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، وألتمسوا الصلح على سلامة أنفسهم وذّراريهم ونسائهم وأموالهم ما خلا الغلال والذخائر والسلاح وآلات الحرب، فأجاب السلطان إلى ذلك، ورُفِع العلم الإسلاميّ عليها في يوم السبت وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر.

ثم رحل عنها ونزل صهيون^(١) وقاتلهم أشدّ قتال حتى أخذ البلد يوم ثاني عشر جمادى الآخرة؛ ثم تقدّموا إلى القلعة وصدّقوا القتال، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير، ومن المرأة خمسة دنانير، ومن كل صغير ديناران، الذكر والأنثى سواء.

وأقام السلطان صلاح الدين بهذه الجهات حتى أخذ عِدَّة قلاع منها بلاطنس^(٢) وغيرها من الحصون المتعلقة بصهيون.

ثم رحل عنها وأتى بكّاس، وهي قلعة حصينة على العاصي^(٣) ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول عليها في يوم الثلاثاء سادس عشر^(٤) جمادى الآخرة، وقاتلها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر ففتحها عنوةً، فقتل أكثر من بها وأسير الباقون، وغنم المسلمون جميع ما كان فيها؛ ولها قلعة تسمى الشُّغْر^(٥)، وهي في غاية المنعة يعبر إليها بجسر وليس عليها طريق، فسَلَطت المجانيق عليها من جميع

(١) صهيون. حصن منيع من أعمال سواحل بحر الشام (البحر المتوسط) من أعمال حمص. قال ياقوت: كانت بيد الفرج مند دهر حتى استرجعها الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ. وقال ابن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠هـ. وهي الآن من أعمال طرابلس.

(٢) يعرف الآن هذا الحصن في جبل النصيرية باسم قلعة المهلبية. واسم بلاطنس مشتق من اللفظة الفرنجية Platanus. (الدرّ المنتخب. ص ٢٢٦٧ حاشية).

(٣) ويعرف هذا النهر بأسماء متعددة بحسب الأماكن التي يمر فيها. فيقال له في جهة بعلبك: الميماس، فإذا وصل إلى حماة قيل له. العاصي، فإذا صار إلى أنطاكية قيل له: الأرندي. (ابن الشحنة: ١٧٦).

(٤) في ابن خلكان والسيرة: «في سادس جمادى الآخرة».

(٥) الشُّغْر وكّاس قلعتان قريبتان يعبر من إحداهما إلى الأخرى بجسر. ولذلك يقترن اسماهما عادة ببعضهما البعض. (الدرّ المنتخب: ١٧٥).

الجوانب، فرأوا أن لا ناصر لهم فطلبوا الأمان في يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر.

ثم سار السلطان إلى بُرْزِيهِ^(١)، وهي أيضاً من الحصون المنيعة في غاية القوّة يُضرب بها المثل، ويحيط بها أودية من جميع جوانبها، وعلوها خمسمائة ونيّف وسبعون ذراعاً؛ وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر، فقاتلها حتى أخذوها عنوة في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

ثم سار السلطان إلى دَرْبَسَاك^(٢) فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، وهي قلعة منيعة فقاتلها قتالاً شديداً حتى أخذها وترقى العلم الإسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب، وأعطاهم للأمير عَلم الدين سليمان بن جَنْدَر.

وسار عنها بُكْرَةَ يوم السبت الثالث والعشرين من رجب ونزل على بَغْرَاس، وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية، وقاتلها قتالاً شديداً حتى صعد العلم الإسلامي عليها في ثاني شعبان؛ وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضَجَر العسكر؛ فكان الصلح بينهم على أن يُطْلِقُوا كُلَّ أسير عندهم لا غير، والصلح إلى سبعة أشهر؛ فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلّموا البلد.

ثم رَحَلَ السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به فأجابه إلى ذلك، فوصل إلى حلب في حادي عشر شعبان، وأقام بالقلعة ثلاثة أيام، وولده يقوم بالضيافة حقّ القيام.

ثم سار من حَلَب فاعترضه تقيّ الدين عمر ابن أخيه، وأصعده إلى قلعة حَمَاة، وصنع له طعاماً وأحضر له سَمَاعاً من جنس ما يَعْمَل الصُوفِيَّة، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جَبَلَةَ واللادقية.

(١) برزیه: قلعة صغيرة مستطيلة منيعة في ذيل الجبل المعروف بالحيط من شرقيه مطلة على بحيرات فامية (تقويم البلدان) وأثبتته ياقوت باسم: برزويه. ويؤثر الكتاب المحدثون أن يطلقوا عليه اسم بورزي Bourzey، ويطلق عليه الأهالي اسم قلعة مَرَزَة. ولا تزال أطلال هذه القلعة تقوم على المحدر الشرقي لجبل العلويين وتشرف على منخفض الغاب المتبطح. (دائرة المعارف الإسلامية).

(٢) في الأصل: «درسال». والتصحيح عن ابن خلكان والسيره وتقويم البلدان.

ثم سار السلطان على طريق بَعْلَبَكْ، ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة.

ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صَفَدَ، فنزل عليها ولم يزل القتال عَمَّالاً في كلِّ يوم حتى تسَلَّمها بالأمان في رابع عشر شَوَّال.

وفي شهر رمضان المذكور سُلمت الكَرْك، سلَّمها نَوَّاب صاحبها وخلصوا صاحبها^(١) بذلك، فإنه كان في الأسر من نُوْبَة حِطِّين.

ثم نزل السلطان بِالغُور^(٢)، وأقام بقية الشهر، فأعطى الجماعة دستوراً.

وسار السلطان مع أخيه العادل يريد زيارة القُدس وودَّاع أخيه العادل المذكور، لأنَّ العادل المذكور كان متوجَّهاً إلى مصر، فدخل السلطان القدس في ثامن ذي الحجة وصلَّى به العيد.

وتوجَّه في حادي عشر ذي الحجة إلى عَسْقَلان لينظر في أمورها، فتوجَّه إليها وأخذها من أخيه، وعوَّضه عنها الكَرْك. ثم مرَّ على بلاد الساحل يتفقَّد أحوالها.

ثم سار فدخل عَكَّا وأقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة يصلح أحوالها، ورتب فيها الأمير بهاء الدين قَرَأقوش، وأمره بعمارتها وعمارة سورها.

ودخل السلطان دِمَشق في مستهل صفر من السنة، وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة.

ثم خرج إلى شَقِيف أَرُنُون^(٣)، وهو موضع حصين، فخيَّم في مَرَج عُيُون

(١) صاحبها هو البرنس أرناط. قال ابن خلكان معلقاً على سياق هذا الخبر: وهذا لا ينتظم مع ما قبله؛ فقد تقدَّم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين، ثم قتله السلطان بيده. — راجع أيضاً ص ٣١ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: «الغور» والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة. والمراد به: غور الأردن.

(٣) شقيف أرنون: قرب بلدة النبطية بجنوب لبنان. ويعرف الحصن اختصاراً بقلعة الشقيف. ويعرف سياحياً باسم «قلعة بوفور» Beaufort وهو الاسم الذي أطلقه عليه الفرنجة في زمانهم.

بالقرب من الشَّقِيف في سابع عشرين^(١) شهر ربيع الأول فأقام أياماً على قتاله، والعسكر تتواصل إليه؛ فلما تحقق صاحبُ الشَّقِيف أنه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه، فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته، فأذن له في الدخول وأكرمه السلطان وأحترمه، وكان من أكبر الفرنج قَدْرًا، وكان يَعْرِف بالعربية، وعنده أطلاع على بعض التواريخ والأحاديث، وكان حسنَ التأتّي لَمَّا حضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه المكان من غير تعب، وأشترط عليه أن يُعْطَى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مُسَاكِنَةِ الفرنج، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وشروطاً غير ذلك، فأجابه إلى ذلك.

وفي أثناء شهر ربيع الأول وصل إلى السلطان [الخبر]^(٢) بتسليم الشُّوبَك، وكان قد أقام عليه جَمْعاً يحاصرونه مدّة كاملة إلى أن نَفِدَ زاد مَنْ كان فيه فسَلَّموه بالأمان.

ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أن جميع ما قاله صاحب شَقِيف كان خديعةً، فرسم عليه.

ثم بلغه أن الفرنج قصدوا عَكَا ونزلوا عليها في ثالث عشر شهر رجب من سنة خمس وثمانين المذكورة. وفي ذلك اليوم سَير السلطانُ صاحبَ الشَّقِيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة^(٣). ثم سار السلطان وأتى عَكَا ودخلها بَغْتَةً ليقوّي قلوب مَنْ بها، وأستدعى العساكر من كلِّ ناحية؛ وكان العدوُّ مقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل. وتكاثرت الفرنجُ وأستفحل أمرهم، وأحاطوا بعَكَا ومنعوا من يدخل إليها ويخرج، وذلك في يوم الخميس سَلَخَ رجب، فضاق صدرُ السلطان لذلك، ثم

(١) في ابن خلكان والسيرة: «سابع عشر».

(٢) زيادة عن ابن خلكان والسيرة.

(٣) كان قائد حصن الشقيف يسمى رينالد الصيداوي. وقد أرسله صلاح الدين إلى دمشق مصفداً، ثم فك الحصار عن الحصن ليتفرغ لمراقبة جيش الإفرنج ثم عاد لمحاصرته فسلم له في نيسان من السنة التالية بشرط إطلاق سراح رينالد وتسهيل انسحاب الحامية. (الصليبيون وآثارهم في جبل عامل: ١٢٧) وفي حاشية ص ١٥٩ من شفاء القلوب عن الفتح القسي أن اسم صاحب الحصن «أرناط».

أجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنَّجدة، وشاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدو لفتح الطريق، ففعلوا ذلك وأنفتح الطريق وسلكه المسلمون؛ ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها؛ ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة أيام، وتأخر الناس إلى تل العياضية وهو مشرف على عكا. وفي هذه المنزلة توفي الأمير حسام الدين طمان المقدم ذكره، وذلك في نصف شعبان من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وكان من الشجعان».

قال ابن خلِّكان: «قال شيخنا ابن شدَّاد: وسمعت^(١) السلطان يُشيد - وقد قيل له إنَّ الوَحْم قد عَظُم بعَكا، وإن الموت قد فشا بين الطائفتين -: [مجزوء الخفيف]

أقتلاني ومالكاً وأقتلا مالكاً معي

- قلت: وهذا الشعر له سبب ذكرناه في ترجمة الأشر النَّحَبي، اسمه مالك، في أوائل هذا الكتاب فإنه ملك مصر، وكان الأشر من أصحاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والحكاية مطوّلة تُنظر في ترجمة مالك (أعني الأشر النَّحَبي من هذا الكتاب) -.

قال ابن شدَّاد: ثم إنَّ الفرنج جاءهم الإمداد من البحر، وأستظهروا على الجماعة الإسلاميَّة بعَكا، وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكَّاري المعروف بالمشطوب، والأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصَّلاحي، وضايقوهم أشدَّ مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد. فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة [سنة سبع وثمانين وخمسمائة]^(٢) خرج من عكا رجل عوام في البحر، ومعه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه، وأنهم تيقنوا الهلاك، ومتى أخذوا البلد عنوةً ضربت رقابهم، وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة والمراكب، ومائتي ألف دينار وخمسمائة أسير مجاهيل

(١) المعلوم أن ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين كان مرافقاً له في أكثر تلك الغزوات والفتوحات.

(٢) زيادة عن ابن خلِّكان.

ومائة أسيرٍ معينين من جماعتهم، وصليب الصليبوت، على أن يَخْرُجُوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذَرَارِيهِمْ ونسائهم، وضمِنوا للمركيس - لأنه كان الواسطة في هذا الأمر - أربعة آلاف دينار. فلَمَّا وقف السلطان على الكتب المشار إليها أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظَّم عليه هذا الأمر، وجمع^(١) أهل الرأي من أكابر دولته، وشاورهم فيما يصنع، وأضطربت آراؤه، وتقسَّم فكره وتشوُّش حاله، وعزم أن تُكتب في تلك الليلة كتبٌ مع الرجل العوام الذي قدم عليه بهذا الخبر يُنكر المصالحة على هذا الوجه؛ وبينما هو يتردّد في هذا فلم يشعر إلا وقد ارتفعت أعلام العدوِّ وُصِّلَ بانه^(٢) وناره على سور البلد؛ وذلك في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة؛ وصاح الفرنجُ صيحةً واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، وأشتدَّ حزنُهُم، ووقع من الصياح والعيول والبكاء ما لا يُذكر.

ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عكاً قاصدين عسقلان ليأخذوها أيضاً من المسلمين، وساروا على الساحل والسلطان وعساكره قُبَّلتهم إلى أن وصلوا إلى أرسُوف، فكان بينهما قتال عظيم، ونال المسلمين وَهْنٌ شديد. ثم ساروا على تلك الهيئة تيممةً عشرٍ منازل من سيرهم من عكاً، فأتى السلطان الرملة، فأثابته من أخبار أن القوم على عزمٍ عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أرباب مشورته، وشاورهم في أمر عسقلان، وهل الصواب خرابها أو بقاءها؟ فأثفت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قبالة العدو، ويتوجه السلطان بنفسه ويخربها خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة ويأخذ بها القدس، وينقطع بها طريق مصر، وأمتنع العسكر من الدخول وخافوا ممَّا جرى على المسلمين بعكاً. فلا قوة إلا بالله. ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعيَّن خرابها من عدة جهات؛ وكان هذا الاجتماع يومَ الثلاثاء سابع عشر شعبان من سنة سبع وثمانين وخمسائة، فسار إليها السلطان في سَحَر يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان المذكور. قال ابن شدَّاد: وتحدَّث معي في معنى خرابها (يعني عسقلان) بعد أن تحدَّث مع ولده

(١) في الأصل: «ورجع» وما أثبتناه عن ابن خلكان والسيرة.

(٢) في الأصل: «وفرسانه» والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة.

الملك الأفضل أيضاً في أمرها، ثم قال السلطان: لأن أفقد ولدي جميعهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك، وكان فيه مصلحة للمسلمين، فما الحيلة في ذلك! فلما آتفق الرأي على خرابها أوقع الله ذلك في نفسه، وأن المصلحة فيه لعجز المسلمين عن حفظها. وشرع في إخراجها في سحر يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة، وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوماً يخربه؛ ودخل الناس البلد ووقع فيهم الضجيج والبكاء لفرقة بلدهم وأوطانهم؛ وكان بلداً خفيفاً على القلب مُحكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنه، فلحق الناس على خرابه حزن عظيم. وشرع أهل البلد في بيع ما لا يقدر على حمله، فباعوا ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد، حتى باعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم، وأختبأ أهل البلد وخرجوا بأولادهم وأهلهم إلى الخيم وتشتتوا، فذهب منهم قوم إلى مصر وقوم إلى الشام، وجرت عليهم أمور عظيمة. وأجتهد السلطان وأولاده في خراب البلد كي لا يسمع العدو فيسرع إليه فلا يمكن إخراجه؛ وكانت الناس على أصعب حال، وأشتد تعب الناس مما قاسوه في خرابها.

وفي تلك الليلة وصل [من جانب] الملك العادل من حلب من أخبر أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح، وطلبوا جميع البلاد الساحلية، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لما علم من نفوس الناس والعساكر من الضجر من القتال وكثرة ما عليه من الديون؛ فكتب السلطان إلى أخيه الملك العادل يأذن له في ذلك، وفوض الأمر إلى رأيه؛ وأصبح السلطان يوم الجمعة وهو مصر على الخراب، ويستعجل الناس عليه ويحثهم على العجلة فيه؛ وأباحهم ما في الهري^(١) الذي كان مدخراً للميرة خوفاً من أن يهجم العدو والعجز عن نقله. ثم أمر السلطان بإحراق البلد فأضرمت النيران في بيوته، ولم يزل الخراب يعمل في البلد إلى سلخ شعبان المذكور؛ ثم أصبح

(١) الهري: وتجمع على أهراء؛ وهي حواصل لخزن أنواع الغلال المتنوعة وتحمل إليها من جهات مختلفة ولا تفتح إلا عند الضرورة. وكان للأهراء ديوان، وله ناظر يسمى ناظر الأهراء. وتعرف الأهراء في مصطلحنا الحديث بالشونة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٥٢).

السلطان يوم الاثنين مستهل شهر رمضان، أمر ولده الملك الأفضل أن يياشر خراب البلد بنفسه وخواصه.

قال آبن شدّاد، ولقد رأيتَه يحمل الخشب بنفسه (يعني الملك الأفضل). وفي يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى السلطان الرملة وأشرف عليها، وأمر أيضاً بإحراقها وإخراب قلعتها (يعني الرملة) فأحرقت قلعتها خوفاً أيضاً من الفرنج. وفي يوم السبت ثالث عشر رمضان تأخر السلطان والعسكر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير دوابهم لإحضار ما يحتاجون إليه. ثم شرع السلطان أيضاً في خراب قلعة النطرون، وكانت قلعة منيعة فشرع الناس في ذلك.

ثم ذكر آبن شدّاد فصلاً طويلاً يتضمّن الصلح بين الأنكلتير^(١) ملك الفرنج وبين السلطان صلاح الدين المذكور إلى أن قال: وحاصل الأمر أنه تمّ الصلح بينهم، وكانت الأيمان يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسائة؛ ونادى المنادي بانتظام الصلح^(٢)، وأنّ البلاد الإسلامية والنصرانية واحدة في الأمن والمسالمة، فمن شاء من كلّ طائفة أن يتردد إلى بلاد الطائفة

(١) كذا في الروضتين؛ ولعله الأقرب إلى اللفظ الأجنبي: L'Angleterre أي انكلترا أو بريطانيا. ويرد في أكثر المصادر «الأنكتارة». والمراد به ملك انكلترا ريكاردوس الأول المعروف بـ «قلب الأسد» Richard Coeur-de-Lion. وقد تضمن الصلح أن تكون البلاد الجبلية للمسلمين والساحلية للفرنجة، فيما عدا صيدا وبيروت وجبيل (من الساحل اللبناني) وأصبحت عكا بالتالي قاعدة مملكة أورشليم، وبقيت المقدس (وهي أورشليم بالذات) في أيدي المسلمين. وعاد الملك ريكاردوس إلى بلاده على الفور. وتوفي صلاح الدين في العام التالي وتجزأت المملكة الأيوبية بعد ذلك بين أبنائه. وانتهت مدة الهدنة بين المسلمين والفرنجة عام ١١٩٥م فاستغل ملوك أورشليم في عكا الخلاف القائم بين أبناء صلاح الدين وعادوا إلى احتلال المدن الساحلية الباقية في أيدي المسلمين. (منطلق تاريخ لنان: ١٠٨ - ١٠٩) وكان حرياً بأبي المحاسن أن يشير إلى اشتراك ملكي فرنسا وألمانيا فيليب أوغسطس وفردريك بربروسا في هذه الحملة الصليبية التي اصطليح على تسميتها بالحملة الثالثة. (انظر الحروب الصليبية لسيد علي الحريري: ١٧١ - ١٩٦) بالإضافة إلى المراجع السابقة الذكر.

(٢) وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات، وقيل ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وقيل ثلاث سنوات وثمانية أشهر، وقيل خمس سنوات - انظر: السيرة: ١٩٣ وما بعدها، والسلوك: ١٣٧/١/١، وشفاء القلوب: ١٧٧، والحروب الصليبية كما رآها العرب: ٢٩٨ وفيه بسط جيّد للملابسات التي سقت تلك الهدنة وتحليل جيّد للأسباب التي أدت إليها.

الأخرى من غير خوف ولا محذور [فليفعل]. وكان يوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه من السرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ وقد علم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مَرْضَاة السلطان، لكنّه رأى المصلحة في الصلح لسأمة العسكر من القتال، ومظاهرتهم للمخالفة. وكان مصلحة في علم الله تعالى، فإنه آتفتت وفاته بعد الصلح، فلو آتفت ذلك في أثناء وَقَعَاتِهِ كان الإسلام على خَطَر.

ثم إنَّ السلطان أعطى العساكر الوافدة عليه من البلاد البعيدة برسم الغزاة والنَّجْدَةَ دُسْتُوراً، فساروا عنه. وعزم السلطان على الحجِّ لَمَّا فَرَّغَ بِأَلْهِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَأَمِنَ النَّاسَ وَتَرَدَّدَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ، وَجَاؤُوا هُمْ أَيْضاً إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَحُمِلَتِ الْبُضَائِعُ وَالْمَتَاوَجِرُ إِلَى الْبِلَادِ؛ وَتَوَجَّهَ السُّلْطَانُ إِلَى الْقُدْسِ لِيَتَفَقَّدَ أَحْوَالَهُ، وَتَوَجَّهَ أَخُوهُ الْمَلِكُ الْعَادِلُ إِلَى الْكَرْكِ، وَأَبْنُهُ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ إِلَى حَلَبِ، وَأَبْنُهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ إِلَى دِمَشْقَ. ثُمَّ تَأَهَّبَ السُّلْطَانُ إِلَى الْمَسِيرِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ صَحَّ عِنْدَهُ سِيرَ مَرْكَبِ الْأَنْكَلَيْتِيْرِ مَلِكِ الْفَرَنْجِ إِلَى بِلَادِهِ فِي مَسْتَهْلِ شَوَّالٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَوِيَ عَزْمُهُ عَلَى أَنْ يُدْخِلَ السَّاحِلَ جَرِيدَةً يَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهُ وَأَحْوَالَ الْقِلَاعِ الْبَحْرِيَّةِ إِلَى بَانِيَّاسَ. ثُمَّ يَدْخُلُ دِمَشْقَ فَيَقِيمُ بِهَا قَلِيلاً، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الْقُدْسِ وَمِنْهُ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ.

قال ابن شدَّاد: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عَوْدِهِ إِلَيْهِ لِعِمَارَةِ بِيْمَارِسْتَانٍ أَنْشَأَهُ بِهِ، وَتَكْمِيلِ الْمَدْرَسَةِ^(١) الَّتِي أَنْشَأَهَا بِهِ، وَسَارَ ضَاحِي نَهَارِ الْخَمِيسِ السَّادِسِ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. فَلَمَّا فَرَّغَ السُّلْطَانُ مِنْ آفْتِقَادِ أَحْوَالِ الْقِلَاعِ وَإِزَاحَةِ حَلَلِهَا دَخَلَ دِمَشْقَ بِكَرَةِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ سَادِسِ عَشَرَ^(٢) شَوَّالٍ، وَفِيهَا أَوْلَادُهُ: الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ، وَالْمَلِكُ الظَّاهِرُ، وَالْمَلِكُ الظَّافِرُ مَطْفَرُ الدِّينِ الْخَضِرُ الْمَعْرُوفُ

(١) هي مدرسة للشافعية أنشأها صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ؛ كانت من أجل ما بناه من المدارس، وفوض أمر تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شدَّاد. قال الحنلي في شفاء القلوب: وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بـ «صند حنة» يذكرون بأن فيها قبر حنة أم مريم. ثم صارت في الإسلام دار علم. فلما ملك الإفرنج بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ أعادوها كنيسة. فلما فتحه السلطان صيَّرها مدرسة. (شفاء القلوب: ١٧٧، والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: ص ٧٢).

(٢) كذا أيضاً في ابن خلكان. وفي السيرة والروضتين: «سادس عشرين شوال»

بالمشمر^(١) وأولاده الصغار؛ وكان السلطان يحبّ البلد (يعني دمشق) ويؤثر الإقامة به على سائر البلاد؛ وجلس للناس في بُكرة يوم الخميس السابع والعشرين منه، وحضروا عنده وبلّوا أشواقهم منه، وأنشده الشعراء، ولم يتخلف عنه أحد من الخاصّ والعام؛ وأقام ينشر جناح عدله بدمشق إلى أن كان يوم الاثنين^(٢) مستهلّ ذي القعدة، عميل الملك الأفضل دعوةً للملك الظاهر أخيه لأنّه لمّا وصل إلى دمشق وبلغه حركة السلطان أقام بها [ليتملى بالنظر إليه ثانياً]^(٣). ولمّا عميل الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهَمّ العالية ما يليق بهمّته، وكان أراد بذلك مجازاته لمّا خدمه [به]^(٤) حين وصوله إلى بلده، وحضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا والآخرة، وسأل الأفضل والده السلطان في الحضور فحضر [جبراً لقلبه]^(٥)، وكان يوماً مشهوداً على ما بلغني.

قال: ولمّا أصلح الملك العادل الكرك سار قاصداً الديار الفراتية^(٦)، وأحبّ أن يدخل دمشق، فوصل إليها وخرج السلطان إلى لقائه. وأقام يتصيد حول غباغب^(٧) إلى الكسوة حتى لقي أخاه الملك العادل وسارا جميعاً يتصيدان، ثم عادا إلى دمشق؛ فكان دخولهما دمشق آخر نهار يوم الأحد حادي عشرين^(٨) ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وخمسائة. وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه الملك العادل وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق، وكأنه وجد راحةً ممّا كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل، فكان ذلك كالوداع لأولاده، ونسي عزمه إلى مصر، وعرضت له أمور أخر وعزمات غير ما تقدم.

(١) في الأصل: «المشمر» وهو تحريف والتصحيح عن ابن خلكان. وإنما قيل له المشمر لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده الكبار قال: وأنا مشمر، فغلب عليه هذا اللقب (ابن خلكان).

(٢) في الأصل: «يوم الخميس» والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة.

(٣) زيادة عن ابن خلكان والسيرة والروضتين.

(٤) في الأصل: «المصرية» والتصحيح عن ابن خلكان والسيرة والروضتين وشفاء القلوب.

(٥) غباغب. قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق. والكسوة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. (معجم البلدان).

(٦) كذا في السيرة والروضتين. وفي الأصل: «حادي عشر ذي القعدة» وفي ابن خلكان: «حادي عشر ذي الحجة» وكلاهما خطأ.

قال ابن شدّاد: ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني لخدمته، فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وكان الوصول إلى دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة. وركب السلطان ليتلقى الحاج في يوم الجمعة خامس عشر صفر، وكان ذلك آخر ركوبه.

ولما كانت ليلة السبت وجد كَسلاً عظيماً، وما آتتَصَف الليل حتى غَشِيَتْهُ حُمَّى صَفْرَاوِيَّة، وكانت في باطنه أكثر ممّا في ظاهره. وأصبح يوم السبت متكسلاً، عليه أثر الحُمَّى. ولم يُظْهِر ذلك للناس، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، فدخل ولده الملك الأفضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو قَلَقَه بالليل، وطاب له الحديث إلى وقت الظهر، ثم أنصرفنا وقلوبنا عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الأفضل، ولم يكن للقاضي الفاضل في ذلك عادةً فأنصرف. ودخلت إلى الإيوان القبلي وقد مُدَّ السَّمَاط، وآبَنه الملك الأفضل قد جلس موضِعَه، فأنصرفت وما كانت لي قوّة للجلوس أستباحشاً له. وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده الأفضل موضِعَه. ثم أخذ المرضُ يتزايد به من حينئذ، ونحن نلازم التردّد له طَرَفَي النهار، وكان مرضه في رأسه. وكان من أمارات أنتهاء العُمُر غَيْبَةُ طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سَفْراً وحَضْراً، ورأى الأطباء فَصْدَه ففصدوه في الرابع، فأشتدّ مرضه وقَلَّتْ^(١) رطوبات بدنه، وكان يغلب على مزاجه اليُبْس، فلم يزل المرضُ يتزايد به حتى انتهى إلى غاية الضعف. وأشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه؛ ولما كان التاسع حدثت له غَشِيَّة وأمتنع من تناول المشروب. وأشتدّ الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق، وعلا الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته. ولما كان اليوم العاشر من مرضه أيس منه الأطباء. ثم شرع ولده الملك الأفضل في تحليف الناس له.

ثم إنّه تُوفِّي - إلى رحمة الله تعالى - بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء

(١) في الأصل: «وحلّت» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة. وكان يوم موته يوماً لم يُصَبب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - وغشيتي القلعة والمُلْك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يَتَمَنُّونَ فداء من يعزَّ عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا علي ضَرَبَ من التجوُّز والترخُّص إلى ذلك اليوم، فإنِّي علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبِلَ الفِداء لفدي بالأنفس. ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء وغسَّله أبو القاسم ضياء الدين عبد الملك بن زيد الدُّوَلَعِيُّ خطيب دمشق، وأُخرج تابوت السلطان - رحمه الله تعالى - بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فوطٍ، فأرتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج وأخذ الناس في البكاء والعيول، وصلَّوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى داره التي في البستان، وهي التي كان متمرّضاً بها، ودُفِنَ في الصُّفَّة الغريبة منها. وكان نزوله في حُفْرته قريباً من صلاة العصر. ثم أطال ابن شَدَّاد القول في هذا المعنى إلى أن أنشد في آخر السيرة بيت أبي تمام الطائي، وهو قوله: [الكامل]

ثم أنقضت تلك السُّنُون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلامٌ

ولقد كان - رحمه الله تعالى - من محاسن الدنيا وغرائبها.

ثم ذكر ابن شَدَّاد أنه مات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصريةً وجرماً واحداً ذهباً صُورِيّاً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بُستاناً ولا قرية ولا مزرعةً. وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقةً مضمونها:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنةً﴾^(١). ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).
كتبتُ إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مُصابه، وجعل فيه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٢) سورة الحج، الآية: ١.

الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزلاً شديداً؛ [وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر؛ وقد ودعت أبك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده] (١)؛ وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وبالباب من الجنود المجنّدة، والأسلحة المغمّدة، ما لا يدفع البلاء، ولا ملّك يردّ القضاء؛ وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك يا يوسف لمحزونون. وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصائب عنها؛ وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم، والسلام. إنتهى كلام القاضي الفاضل بما كتبه للملك الظاهر.

قال ابن خلّكان: «وأستمر السلطان صلاح الدين مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بُنيت له قبة شمالي الكلاسة (٢) التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان، أحدهما إلى الكلاسة والآخر في زقاق غير نافذ، وهو مجاور المدرسة العزيرية (٣). ثم نُقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشوراء في يوم الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمسائة. ثم إن ولده الملك العزيز عثمان لما ملك دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيرية».

قلت: في أيامه بنى الخصي بهاء الدين قراقوش قلعة (٤) الجبل ثم قلعة

(١) زيادة عن ابن خلّكان وشفاء القلوب.

(٢) في الأصل: «الكناسة» والتصحيح عن ابن خلّكان والسيرة وشفاء القلوب. والكلاسة: مدرسة بجوار الجامع الأموي من شمال لها باب إليه. عمّرها نور الدين الشهيد سنة ٥٥٥ هـ وسميت بهذا الاسم لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع. ولما ملك صلاح الدين دمشق أمر بتجديدها. (الدارس في تاريخ المدارس: ٣٤٠/١).

(٣) المدرسة العزيرية: أول من أسسها الملك الأفضل، ثم أمّها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. (الدارس في تاريخ المدارس: ٢٩٠/١).

(٤) قلعة الجبل. هذه القلعة لا تزال موجودة إلى اليوم قائمة بأسوارها العالية على قطعة مرتفعة منفصلة من جبل المقطم شرقي القاهرة تشرف على ميدان صلاح الدين بل على القاهرة كلها؛ أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٢ هـ. وكان يقيم بها بعض الأيام. وسكنها ابنه الملك العزيز عثمان =

المَقْس (١) ثم سُورَ القاهرة، وَذَرُعُ السور المذكور سبعة^(٢) وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع.

قال ابن خَلِّكان: «وكان السلطان صلاح الدين لَمَّا ملك الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإنَّ الدولة المصريَّة كان مذهبها مذهب الإماميَّة، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء، فعَمَّر السلطان صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة^(٣) المجاورة للإمام الشافعيّ - رضي الله عنه - وبنى مدرسة^(٤) مجاورة للمشهد

في أيام أبيه مدَّة ثم انتقل منها إلى دار الوزارة. ولما تولى الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سلطنة مصر أتم بناء القلعة في سنة ٦٠٤هـ، وأنشأ بها الدور السلطانية. وقد استمرت من ذلك الوقت دار مملكة مصر حيث كان بها الدور السلطانية ودور دواوين الحكومة إلى زمن الأسرة المحمدية العلوية. وفي عهد الخديوي إسماعيل نقل ما كان باقياً بها من تلك الدور والدواوين إلى دور أخرى بالمدينة. وقد أنشأ محمد علي باشا الكبير والي مصر في هذه القلعة أبنية كثيرة في مقدّمتها جامع الفخم الذي يشرف على المدينة وضواحيها، ثم سراي الجوهرة وأبنية الدواوين القديمة وتكنات العسكر وغيرها من المباني التي لها علاقة بالأعمال الحربية. ولا تزال القلعة إلى اليوم يسكنها العسكر وبها من الآثار بئر يوسف التي أنشأها الملك الناصر يوسف صلاح الدين ومسجد قديم أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٨هـ، ولا يزال قائماً بجوار جامع محمد علي باشا. ويوجد في الزاوية البحرية الشرقية من القلعة جامع قديم يعرف باسم سيدي سارية أنشأه فخر الدين أبو منصور قسطة الأرمني في سنة ٥٣٥هـ. ثم جدده سليمان باشا الخادم والي مصر سنة ٩٣٥هـ أثناء ولايته الأولى على مصر (محمد رمزي) وانظر خطط المقريري: ٢٠٢/٢.

(١) قلعة المقس: راجع الحاشية رقم ٤ ص ٣٩ من الجزء الرابع من هذه الطبعة.
(٢) الذي تقدم في الجزء الرابع ص ٤٠ من هذه الطبعة أن طول السور تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان.

(٣) نص الجبرتي بصريح اللفظ في الجزء الثاني من كتابه عجائب الآثار في ترجمة الأمير عبد الرحمن كتحدا القازدغلي: أن الأمير المذكور عمر المسجد المجاور لضريح الإمام الشافعي في مكان المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٧٢هـ. ومن هذا يعلم أن مدرسة صلاح الدين التي تعرف بالمدرسة الصلاحية بجوار قبة الامام الشافعي - وكانت تاج المدارس بل أعظمها قدراً بجوار الامام الشافعي - محلها اليوم جامع الإمام الشافعي - رضي الله عنه - . ويؤيد الجبرتي في ذلك ما ذكره المقريري في الجزء الثاني من خطظه عند الكلام على المدرسة الناصرية بالقرافة، وما ذكره السخاوي في كتاب التبر المسبوك، وما ذكره جلال الدين السيوطي في الجزء الثاني من كتاب حسن المحاضرة في كلامه على المدرسة الصلاحية. (محمد رمزي).

(٤) وقد أصبحت هذه المدرسة اليوم ضمن المسجد الحسيني الشهير باسم جامع سيدنا الحسين. ومحلها الإيوان الشرقي عند المحراب الحالي للجامع (محمد رمزي) وانظر خطط المقريري: ٤٢٧/١.

المنسوب للحسين بن عليّ - رضي الله عنهما - بالقاهرة. وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه^(١)، ووقف عليها وقفاً هائلاً؛ وكذلك وقف على كلّ مدرسة عمّرها وقفاً جيّداً، وجعل دار عباس الوزير العبّيدي مدرسة^(٢) للحنفيّة، وأوقف عليها وقفاً جيّداً أيضاً وهي بالقاهرة، وبنى المدرسة التي بمصر المعروفة [بأبن]^(٣) زين التّجار للشافعيّة، ووقف عليها وقفاً جيّداً، وبنى بالقصر داخل القاهرة بيمارستاناً^(٤)، وأوقف له وقفاً جيّداً؛ وله بالقدّس مدرسة وخانقاه.

قال ابن خلّكان: «ولقد فكّرت في نفسي في أمور هذا الرجل، وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنّه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتّب هذه الأوقاف العظيمة، وليس شيء منسوباً إليه في الظاهر، فإنّ المدرسة التي بالقرافة ما يسمونها الناس إلّا بالشافعيّ، والمجاورة للمشهد لا يقولون إلّا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلّا سعيد السعداء، والمدرسة الحنفيّة لا يقولون إلّا السيوفيّة، والتي بمصر لا يقولون إلّا مدرسة زين التّجار، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكيّة؛ وهذه صدقة السّرّ على الحقيقة. والعجب أنّ له بدمشق في جانب البيمارستان النّوريّ مدرسة أيضاً، ويقال لها الصّلاحيّة، وهي منسوبة إليه وليس لها وقف. قال: وكان مع هذه المملكة المتّسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللّطف، قريباً من الناس، رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة؛ وكان يحبّ العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم؛ وكان يميل إلى الفضائل، ويستحسن الأشعار الجيدة ويردّها في مجالسه، حتّى قيل: إنّه كان كثيراً ما يُنشد قول أبي المنصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الجميريّ^(٥)، وهو قوله: [البسيط]

(١) راجع الجزء الرابع، ص ٥٠.

(٢) راجع الجزء الخامس، ص ٢٩٠، حاشية (١).

(٣) زيادة عن المقرئ: ٣٦٣/٢. وهذه المدرسة هي بذاتها المدرسة الشريفة التي سبق الكلام عليها في الجزء الخامس، ص ٣٨٥، باسم مدرسة للشافعية. وابن زين التّجار هو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي المعروف بابن زين التّجار، أحد علماء الشافعية المتوفى سنة ٥٩١ هـ.

(٤) هو البيمارستان العتيق. راجع الجزء الرابع، ص ١٠١، حاشية (٣).

(٥) وقيل إن هذا الشعر لابن حيران، أمير المريّة. (شفاء القلوب: ١٩٠).

وزارني طَيْفٌ مَنْ أهوى على حَذَرٍ من الوُشاةِ وداعي الصبح قد هَتَفَا
فكَدتُ أوقظ مَنْ حولي به فَرِحاً وكاد يَهْتِكُ سِتْرَ الحَبِّ بي شَغَفَا
ثم أنتهتُ وآمالي تَخِيْلُ لي نَيْلَ المنى فاستحالت غِبْطتي أَسَفَا

وقيل: إنه كان يُعجبه قول نَشْوِ المُلْكِ أبي الحسن عليّ بن مفرّج المعروف
بأبن المنجّم المغربي^(١) الأصل المصريّ الدار والوفاة، وهو في خِضاب الشَّيب
وأجاد: [الطويل]

وما خضبَ الناسُ البياضَ لِقُبْحِهِ وأقبِحُ منه حين يظهر ناصِلُهُ
ولكنّه مات الشبابُ فَسُودتْ على الرسم من حُزْنٍ عليه منازلهُ

قالوا: فكان [إذا قال: مات الشباب]^(٢) يُمسيك كريمته وينظر إليها ويقول: إي
واللّه مات الشباب!

وذكر العِماد الكاتب الأصبهانيّ في كتابه «الخريدة» أنّ السلطان صلاح الدين
في أوّل ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق: [الرمل]

أيّها الغائبونَ عَنّا وإن كنـ تم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندي عيانا

قال ابن خلكان: وأمّا القصيدتان اللتان ذكرتُ أنّ سبط بن التّعاويديّ أنفذهما
إليه من بغداد، وأنّ إحداهما وازنَ بها قصيدة صرّدر^(٣) الشاعر، وقد ذكرتُ منها
أبياتاً في ترجمة الكُنْدُريّ^(٤) وأولها: [الكامل]

أكذا يُجازي ودَّ كُلِّ قرينٍ أم هذه شيمُ الطّبائِ العينِ

ثم ذكر قصيدة سبط [بن] التّعاويديّ. وهي على هذا الوزن أضربتُ عن

(١) في ابن خلكان: «المعري الأصل».

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) راجع وفيات سنة ٥٤٦٥ هـ.

(٤) في الأصل: «الكندي». والتصحيح عن ابن خلكان. وانظر وفيات سنة ٤٥٧ هـ في الجزء الخامس

ذكرها لطولها^(١). ثم قال ابن خلكان: وأما القصيدة الثانية (يعني التي كتبها إليه الخليفة في أوائل أمر صلاح الدين) قال: فمنها قوله: [الكامل]

وإلى متى تَجْنِي عليّ وتَعْتَبُ	حَتَّامَ أَرْضِي فِي هَوَاكَ وَتَغْضَبُ
لَمَّا مَلَيْتَ زَعَمْتُ أَنِّي مَذْنُبُ	مَا كَانَ لِي لَوْلَا مَلَأْتُكَ زَلَّةً
قَلْباً عَلَى الْعِلَّاتِ لَا يَتَقَلَّبُ	خَذَ فِي أَفَانِينَ الصَّدُودِ فَإِنَّ لِي
هِيَهَاتَ عَطْفُكَ مِنْ سُلوِي أَقْرَبُ	أَتَظُنُّنِي أَضْمَرْتُ بَعْدَكَ سَلْوَةً
حَزْناً، وَمَاءَ مَدَامِعٍ مَا يَنْضُبُ	لِي فِيكَ نَارُ جَوَانِحٍ مَا تَنْطَفِي
لِلْهُو فِيهَا وَالْبَطَالَةَ مَلْعَبُ	أَنْسَيْتَ أَيَّاماً لَنَا وَلِيَالِيَا
وَلَهِي عَلَيْكَ وَلَا الْعَدُولُ يُؤْتَبُ	أَيَّامٌ لَا الْوَاشِي يَعْذُ ضَلَالَةً
فِي الْحَبِّ مِنْ أَحْطَارِهِ مَا أَرْكَبُ	قَدْ كُنْتُ تُصِيفُنِي الْمَوَدَّةَ رَاكِباً
فِي النَّوْمِ طَيْفُ خِيَالِكَ الْمَتَأَوُّبُ	وَالْيَوْمَ أَقْنَعُ أَنْ يَمْرَ بِمَضْجَعِي
يَيْلَى وَلَا ثَوْبَ الشَّيْبَةِ يُسَلَّبُ	مَا خَلْتُ أَنْ جَدِيدَ أَيَّامِ الصَّبَا
سَارِي الدَّجَى وَأَنْجَابُ ^(٢) ذَاكَ الْغَيْهَبُ	حَتَّى أَنْجَلِي لَيْلَ الْغَوَايَةِ وَأَهْتَدِي
عَنِّي سُعَادٍ وَأَنْكَرْتَنِي زَيْنُ	وَتَنَاوَفَ الْبَيْضُ الْحِسَانَ فَأَعْرَضْتُ
وَنَحُولِ جَسْمِي بَانَ مِنْكَ الْأَطِيبُ	قَالَتْ وَرَبِعْتُ مِنْ بِيَاضِ مَفَارِقِي
أَوْ تُنْكَرِي شَيْبِي فَتُغْرِكُ أَشْنَبُ ^(٣)	إِنْ تُنْكَرِي سُقْمِي فَخَصْرُكَ نَاحِلُ
مِنْ عَيْشِهِ ذَهَبَ الزَّمَانُ الْمُنْذَبُ	يَا طَالِباً بَعْدَ الْمَشِيبِ غَضَارَةً
وَصَلَ الدَّمَى هِيَهَاتَ عَزَّ الْمَطْلَبُ	أَتُرُومَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ تَعُدُّهَا

والقصيدة طويلة ذكرها ابن خلكان، وقد نقلتها من خط عيسر.

ثم قال ابن خلكان: وقد مدحه جميع شعراء عصره، فمنهم العَلَمُ

(١) انظر ابن خلكان: ٢٠٨/٧. وأورد منها ابن خلكان ١٩ بيتاً.

(٢) في الأصل: «وانساب» والتصحيح عن ابن خلكان.

(٣) وقع الشاعر هنا في خطأ حين ظن أن الشنب بياض الثغر، وعليه بنى هذا المعنى. وليس الأمر كذلك. فالشنب في اللغة ليس البياض، وإنما هو حدة الأسنان. (ابن خلكان: ٢١٠/٧) والشنب أيضاً: جمال الثغر، وصفاء الأسنان. والمحدثون استعاروا الشنب للشارب واستعملوه فيه حتى تناسوا الأصل. (المعجم الوسيط: شنب).

الشَّاتَانِيَّيَ^(١)، وأسمه الحسن - رحمه الله - مدحه بقصيدة أولها: [الطويل]

أَرَى النِّصْرَ مَقْرُونًا بِرَايَتِكَ الصُّفْرَا فَيَسِرُ وَأَمْلِكُ الدُّنْيَا فَأَنْتَ بِهَا أُخْرَى

ومدحه المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر المعروف

بأبن الشُّحْنَةَ^(٢) الموصلي الشاعر المشهور بقصيدته التي أولها: [الطويل]

سَلَامٌ مَشُوقٍ قَدْ بَرَّاهُ التَّشَوُّقُ عَلَى جِيْرَةِ الْحَيِّ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا

وعدد أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وفيها البيتان السائران، أحدهما:

وَإِنِّي أَمْرٌ أَحْبَبْتُكُمْ لِمَكَارِمٍ سَمِعْتُ بِهَا وَالْأُذُنُ كَالْعَيْنِ تَعَشُّقُ

وقد أخذ هذا المعنى من قول بشار بن برد، وهو: [البيسط]

يَا قَوْمِ أُذُنِي لِبَعْضِ الْحَيِّ عَاشِقَةٌ وَالْأُذُنُ تَعَشُّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أحياناً

والبيت الثاني من قول ابن الشُّحْنَةَ المذكور: [الطويل]

وَقَالَتْ لِي الْأَمَالُ إِنْ كُنْتُ لِأَحَقًّا بِأَبْنَاءِ أَيُّوبَ فَأَنْتَ الْمَوْفُوقُ

قال: ومدحه ابن قلايس^(٣) وأبن الذُّرَوِيِّ^(٤) وأبن المنجِّم^(٥)

(١) الشاتاني سسة إلى شاتان، قلعة بديار بكر. وهو الحسن بن علي بن سعيد بن عبد الله، أبو الحسن علم الدين. كان أديباً شاعراً فاضلاً. توفي سنة ٥٩٩ هـ (وفيات الأعيان: ١١٣/٢) وفي معجم البلدان أن وفاته سنة ٥٧٩ هـ.

(٢) في الأعلام: ٦٠/٥ أنه: عمر بن محمد بن خضر الإربلي الموصلي، أبو حفص، معين الدين المعروف بالملاء. ووفاته سنة ٥٧٠ هـ.

(٣) هو أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف، القاضي الأعز المتوفى سنة ٥٦٧ هـ. (وفيات الأعيان: ٣٨٥/٥) وفي حسن المحاضرة. ٣٢٤/١ أن وفاته سنة ٦٠٧ هـ وهو خطأ.

(٤) هو وجيه الدين، علي بن الحسين بن الذروي. من مشاهير الشعراء بمصر. (حسن المحاضرة. ٣٢٦/١، ولم يذكر سنة وفاته).

(٥) هو نشو الملك علي بن مفرج المعروف بابن المنجم المتوفى سنة ٦١٦ هـ (حسن المحاضرة: ٣٢٦/١).

وآبن سناء الملك^(١) وآبن الساعاتي^(٢) والإزبلي^(٣) ومحمد بن إسماعيل بن حمدان [الحيزاني]^(٤). إنتهى ما أوردته من كلام آبن خلّكان ومن كلام آبن شدّاد وآبن الأثير وآبن الجوزي وغيرهم باختصار.

وقال العلّامة أبو المظفر في تاريخه مرآة الزمان: «ولمّا كان في سادس عشر صفر وجد السلطان كَسلاً وُحْمٌ حُمى صفراوية؛ ثم ذكر نحواً ممّا ذكره آبن شدّاد إلى أن قال: وأحضّر الأفضّل (يعني ولده) الأمراء: سعد الدين مسعوداً أخابدر الدين مودود شحنة دِمَشق، وناصر الدّين صاحب صهيون، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر آبن الداية، وميموناً القَصْرِيّ، والبكي الفارسي، وأبيك فطيس، وحُسام الدين بِشارة، وأسامة الحلبي وغيرهم، فاستحلفهم لنفسه. وكان عند السلطان أبو جعفر إمام الكلاسة يقرأ القرآن، فلما أنتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٥)، وكان قد غاب ذهنه فتح عينيه، وقال: صحيح. ثم قال أبو المظفر: وغسّله آبن الدّولعيّ، وصلى عليه القاضي محيي الدّين بن الزّكيّ. وبعث القاضي الفاضل له الأكفان والحنوط من أجلّ الجهات. ثم قال: «وقال العماد الكاتب: دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة، ومرضه في زيادة؛ وفي كلّ يوم تضعف القلوب، وتتضاعف الكروب؛ ثم أنتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، سحر يوم الأربعاء؛ ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمس فضاء الإفضال. وراثه الشعراء؛ فمن ذلك قول بعضهم^(٦): [الكامل]

(١) هو أبو القاسم القاضي السعيد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٥٦٠٨ هـ، كما في الشدرات وابن خلّكان. وفي حسن المحاضرة أن وفاته سنة ٥٦٥٨ هـ. وهو خطأ.

(٢) هو بهاء الدين علي بن محمد بن رستم، المعروف بابن الساعاتي المتوفى سنة ٥٦٠٤ هـ. (ابن خلّكان والشدرات).

(٣) هو محمد بن يوسف بن محمد المتوفى سنة ٥٨٥ هـ. (وفيات الأعيان: ٩/٥).

(٤) زيادة عن ابن خلّكان.

(٥) سورة الحشر، الآية ٢٢.

(٦) هو العماد الكاتب الأصبهاني، ختم بها مؤلفه «البرق الشامي» كما جاء في حسن المحاضرة. والقصيدة في مائتين وثلاثين بيتاً. — وفي شفاء القلوب أنها في مائتين وعشرين بيتاً.

شَمَلُ الْهُدَى وَالْمَلِكِ عَمَّ شَتَاتُهُ
 بِاللَّهِ أَيْنَ النَّاصِرِ الْمَلِكِ الَّذِي
 أَيْنَ الَّذِي [مذ]^(٢) لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَةً
 أَيْنَ الَّذِي كَانَتْ لَهُ طَاعَاتُنَا
 أَيْنَ الَّذِي مَا زَالَ سُلْطَانًا لَنَا
 أَيْنَ الَّذِي شَرَفَ الزَّمَانَ بِفَضْلِهِ
 لَا تَحْسِبُوهُ مَاتَ شَخْصًا وَاحِدًا
 مَلِكٌ عَنِ الْإِسْلَامِ كَانَ مُحَامِيًا
 قَدْ أَظْلَمْتُ مَذْغَابَ عَنَّا^(٥) دُورُهُ
 دُفِنَ السَّمَاحَ فَلَيْسَ تُنْشَرُ بَعْدَمَا
 الدِّينَ بَعْدَ أَبِي الْمُظْفَرِ يُوسُفِ
 بِحَرِّ خَلَا مِنْ وَارِدِيهِ وَلَمْ تَنْزَلْ
 مَنْ لَلِيْتَامَى وَالْأَرَامِلَ رَاحِمٌ
 لَوْ كَانَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَأَنْزَلَتْ
 بَكَتِ الصَّوَارِمَ وَالصَّوَاهِلَ إِذْ خَلَتْ
 يَا وَحِشَةَ الْإِسْلَامِ حِينَ تَمَكَّنْتَ
 يَا رَاعِيًا لِلدِّينِ حِينَ تَمَكَّنْتَ

والدهرُ ساءَ وأقلعتُ حسانتُهُ^(١)
 لله خالصةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ
 مرجوةٌ رَهَبَاتُهُ وهَبَاتُهُ
 مبدولةٌ ولربُّه طاعَاتُهُ
 يُرَجَى نَدَاهُ وَتُقَى سَطَوَاتُهُ
 وَسَمَتْ عَلَى الْفَضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ
 قد^(٣) عَمَّ كُلَّ الْعَالَمِينَ مِمَاتُهُ
 أبدأً لماذا^(٤) أسلمته حَمَاتُهُ
 لَمَّا خَلَّتْ مِنْ بَدْرِهِ دَارَاتُهُ
 أودى إلى يومِ النشورِ رُفَاتُهُ
 أقوت قُورَاهُ وَأَقْفَرْتُ سَاحَاتُهُ
 محفوفةٌ بوروده حَافَاتُهُ
 متعطفٌ مفضوضةٌ صدقاتُهُ
 في ذكْرِهِ مِنْ ذِكْرِهِ آيَاتُهُ
 من سَلَّهَا^(٦) وركوبها عَزَمَاتُهُ
 من^(٧) كَلَّ قَلْبَ مُؤْمِنٍ رِوعَاتُهُ
 منه الذنابُ وأسلمته رُعاتُهُ

(١) رواية البيت في الأصل:

والدهر ساء وقلت حسناته

شمل الهوى والملك عم شتاته
وما أثبتناه عن حس المحاضرة والروضتين.

(٢) رواية الأصل:

مرجوة هباته وهباته

أين الذي لم تزل مخشوة

والتصحيح عن الروضتين

(٣) في شفاء القلوب: «بل عم» وفي الروضتين: «فمات كل العالمين ماته».

(٤) في الروضتين: «إذا ما أسلمته...»

(٥) في الروضتين: «عنها».

(٦) في الأصل: «من سهلها وركوبها عزماته» وفي الروضتين: «غزواته».

(٧) في الروضتين: «يوم تمكنت... في».

ما كان ضرّك لو أقمّت مراعيّاً ديناً توَلّى مُذ رحلت وُلأتهُ
فارقَت مُلكاً غيرَ باقٍ متعباً ووصلت مُلكاً باقياً راحتهُ
فعلى صلاح الدينِ يوسفَ دائماً رِضوانُ ربِّ العرشِ بل صلواتهُ^(١)

ذكر أولاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب - رحمه الله - .

كانوا ستة^(٢) عشر ذكراً وأبنة واحدة؛ أكبرهم الأفضل عليّ، وُلد بمصر سنة خمس وستين يوم عيد الفطر. وأخوه لأبيه وأمّه الملك الظافر خِضر، وُلد بمصر سنة ثمان وستين. وأخوهما أيضاً لأبيهما وأمهما قطب الدين موسى، وُلد بمصر سنة ثلاث وسبعين. فهؤلاء الثلاثة أشقاء. ثم الملك العزيز عثمان الذي ملك مصر بعد أبيه، وُلد بها سنة سبع^(٣) وستين. وأخوه لأبيه وأمّه الأعز يعقوب، وُلد بمصر سنة اثنتين وسبعين. والملك الظاهر غازي صاحب حلب، وُلد بمصر سنة ثمان وستين. وأخوه لأبيه وأمّه الملك الزاهر داود، وُلد بمصر سنة ثلاث وسبعين. والملك المعز إسحاق، وُلد سنة سبعين. والملك المؤيد مسعود، وُلد بدمشق سنة إحدى وسبعين. والملك الأشرف محمد، وُلد بالشام سنة خمس وسبعين. وأخوه أيضاً لأبيه وأمّه الملك المحسن أحمد، وُلد بمصر سنة سبع وسبعين. وأخوه أيضاً لأبيه وأمّه الملك الغالب ملكشاه، وُلد بالشام سنة ثمان وسبعين. وأخوه أيضاً لأبيهم وأمهم أبو بكر النصر^(٤)، وُلد بحرّان بعد وفاة أبيه سنة تسع وثمانين. والبنت مؤنسة خاتون تزوّجها ابن عمّها الملك الكامل - الآتي ذكره - ابن الملك العادل وماتت عنده.

(١) في شفاء القلوب: «بل وصلاته».

(٢) في الروضتين والسيرة: «سبعة عشر ذكراً وبنّاتاً». وفي شفاء القلوب: «ثمانية عشر وبنّاتاً». وعدّ أبوالمحسن هما ثلاثة عشر ذكراً. ويقيتهم كما في الروضتين: الجواد أبوسعيد أيوب ركن الدين، والأشرف المعظم أبو منصور توران شاه فخر الدين، وعماد الدين شادي، ونصرة الدين مروان. - وزاد عليهم في شفاء القلوب: الصالح معين الدين حسن، وقد مات في حياة أبيه، وهو الثامن عشر.

(٣) في الأصل: «سنة تسع وستين». وما أثبتناه رواية ابن خلكان والروضتين وشفاء القلوب.

(٤) في الروضتين: «المنصور أبو بكر». وفي شفاء القلوب: «المنصور نصرة الدين، وقيل سيف الدين، أبو بكر. وقيل إنهما اثنان. فأبو بكر هو سيف الدين، ونصرة الدين هو مروان.

وملك بعد السلطان صلاح الدين مصرَ أبْنُه الملك العزيزُ عثمان الآتي ذكره، إن شاء الله تعالى، وملك دمشقَ بعده أبْنُه الملك الأفضل عليّ، وملك حلبَ أبْنُه الظاهر غازي كما كانوا أيام أبيهم. ثم وقع بين الملك العزيز والأفضل أمور نذكرها فيما يأتي إن شاء الله تعالى. انتهت ترجمة السلطان صلاح الدين — رحمه الله — . ونذكر الآن ما وقع في أيامه من الحوادث، ومن تُوفِّي من الأعيان في زمانه على سبيل الاختصار على عادة هذا الكتاب. وبالله المستعان.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب على

مصر

وهي سنة سبع وستين وخمسمائة.

(أعني سلطنته بعد موت العاضد العُبَيْدِيّ آخر خلفاء الفاطميين بمصر).

وأما وزارته فكانت قبل ذلك بمدة من يوم مات عمّه الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن أيّوب في يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. وقد ذكرنا حوادث وزارته فيما مضى، ونذكر الآن من يوم سلطنته بعد الخليفة العاضد (أعني حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة).

فيها خطب لبني العباس بمصر وأبطل الخطبة لبني عُبيد، حسب ما تقدّم ذكره في ترجمة العاضد، وفي ترجمة صلاح الدين أيضاً؛ ولما وقع ذلك كتب العِماد الكاتب عن السلطان صلاح الدين لنور الدين الشهيد يُخبره بذلك: [الخفيف]

قد حَطَبْنَا للمستضيء بمصر	نائب المصطفى إمام العصر
ولدينا تضاعفت نعمُ اللَّـهِ	سـِ وجَلَّتْ عن كلِّ عدُوٍّ وحَصْرٍ
وأستنارت عزائمُ الملك العا	دل نور الدين الهَمَامِ الأغرَّ

وفيها بعث الملك العادل نور الدين محمود المذكور بالبشارة للخليفة المستضيء، على يد الشيخ شهاب الدين المطهر بن شرف الدين بن أبي عَصْرُون؛

فلما وصل شهاب الدين المذكور للخليفة، قال في المعنى ابن الحرسَ تانِي الشاعر المشهور قصيدة أولها: [البيط]

جاء البشير فُسِّرَ الناس وأبتهجوا فما على ذي سرورٍ بعدها حَرْجُ

وخلع الخليفة على شهاب الدين المذكور. ثم بعث جواب الملك العادل على يد الخادم صَنْدَل وعلى يديه الخلع والتقاليد له، وفي الخلعة الطوق وفيه ألف دينار، والفرجية والعمامة؛ ثم أرسل مع الخادم المذكور لصلاح الدين صاحب الترجمة خلعاً دون خلع نور الدين. وبعث أيضاً لنور الدين سيفاً قلده للشام، ثم سيفاً آخر قلده بمصر، ويكون صلاح الدين نائبه بمصر. وزُيِّنَت بغداد وضربت القباب لذلك.

وفيها وقعت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين. هذا الأمر ذكرناه في أوائل ترجمة صلاح الدين، ثم سكن ذلك.

وفيها توفي حَسَّان بن نُمَيْر الكلبِي، أبو النَّذَى الشاعر المشهور المعروف بعرقلة الدمشقي، ويقال له عرقلة من حاضرة دمشق؛ كان شيخاً خليعاً أعور مطبوعاً لطيفاً ظريفاً؛ كان آخِطَصَّ بالسلطان صلاح الدين وله فيه مدائح، وله شعر رائق كثير. من ذلك قصيدته المشهورة: [الكامل]

كتم الهوى فوشت عليه دموعه	من حَرَّ نارٍ تحويه ضلوعه
صب تشاغل بالربيع وزهره	قوم ^(١) وفي وجه الحبيب ربيعُه
يا لائمي فيمن تمنع وصله	عن بُغيتي ^(٢) أحلى الهوى ممنوعه
كيف التخلُّص إن تجنى أو جنى	والحسنُ شيءٌ ما يردُّ شفيعه
شمس ولكن في فؤادي حرها	بدر ولكن في القباء طلوعه
قال العواذل ما الذي استحسنته	منه وما يسبيك قلت جميعه

(١) في فوات الوفيات: «زمتاً».

(٢) في فوات الوفيات: «عن صبه».

وفيها تُوفِّي عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد العلامة أبو محمد المعروف بأبن الخشّاب النحويّ اللغويّ حُجّة العرب؛ برّع في فنون العلوم وأنفرد بعلم النحو والعربيّة حتّى فاق أهل عصره.

وفيها تُوفِّي عبد الله بن أحمد بن الحسين [بن أحمد بن الحسين] (١) بن إسحاق، أبو محمد الجَمِيرِيّ ويعرف بأبن النَّقَّار (٢) الكاتب. وُلِدَ بطرابلس سنة تسع وسبعين وأربعمائة. ولَمَّا آسَتولى الفرنج على طرابلس أنتقل منها إلى دِمَشق؛ وكان شاعراً ماهراً. ومن شعره - رحمه الله - القصيدة المشهورة التي أولها: [السريع]

بادِر إلى اللذاتِ في أزمانها وأرْكُضُ خيولَ اللّهُو في ميَدانها
وَأَسْتَقْبِلُ الدنِيا بِصدرٍ واسعٍ ما أوسَعْتُ لك من رحيبِ مكانها

وله: [الكامل]

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي مَا خِلْتُهُ يصبو إلى الهجران حين وصلته
مَنْ مُنْصِفِي مَنْ ظالِمٍ مُتَعَتِّبٍ يزداد ظلماً كلما حكمتُهُ
مَلِكْتُهُ رُوحِي لِيحْفَظَ مِلْكُهُ فأضاعني وأضاع ما ملكته
لا ذَنْبَ لِي إِلَّا هَوَاهُ لِأَنَّهُ لَمَّا دَعَانِي لِلسَّقَامِ أَجَبْتُهُ

وفيها تُوفِّي العاضد خليفة مصر، حسب ما ذكرناه في ترجمته.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو عليّ أحمد بن محمد بن عليّ الرَّحْبِيّ الحَرَمِيّ (٣) في صفر. وأبو محمد عبد الله بن منصور بن المَوْصِلِيّ. وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد [بن أحمد] (٤) بن الخشّاب النحويّ. والعاضد عبد الله بن يوسف بن الحافظ العُبَيْدِيّ في المحرم، وأنقضت دولة الرُّفُض عن مصر. وأبو الحسن عليّ بن عبد الله بن خلف بن النُّعْمَة الأندلسي

(١) زيادة عن تهذيب تاريخ ابن عساكر.

(٢) في الأصل: «ابن النيار». والتصحيح عن تهذيب ابن عساكر والأعلام.

(٣) في الشذرات: «الحرمي».

(٤) زيادة عما تقدم ذكره للمؤلف.

بسببته في رمضان . وأبوالمطهر القاسم بن الفضل بن عبد الواحد الصيّدلاني بأصبهان في جمادى الأولى ، وقد نيّف على التسعين . وأبوالمظفر محمد بن أسعد بن حكيم العِرَاقِيّ الواعظ شيخ الحنفية بدمشق . وأبوالمكارم المبارك بن محمد بن المُعَمَّر البَادِرَائِيّ . وأبوالعلاء وجيه بن عبد الله السَّقَطِيّ . وأبو بكر يحيى بن سَعْدُون القُرْطُبِيّ الأَزْدِيّ^(١) ونزِيل الموصل يوم الفطر.

أمر النيل في هذه السنة :

الماء القديم خمس أذرع وسبع أصابع . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشرون إصباعاً .

* * *

السنة الثانية من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر

وهي سنة ثمان وستين وخمسمائة :

فيها سار الملك العادل نور الدين محمود صاحب دمشق إلى الموصل ، وصلّى بالجامع الذي بناه وسط المَوْصِل وتصدّق بمال عظيم . ولَمَّا عَلِم صلاح الدين صاحب الترجمة بتوجهه إلى الموصل خرج بعساكره من مصر إلى الشام ، وحصر الكَرْك والشُّوبِك ونهب أعمالهما ؛ ثم عاد لَمَّا بلغه عَوْد نور الدين إلى الشام . وهذه أوّل غزوات صلاح الدين .

وفيها تُوفِّي الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مَرَوَان ، والد صلاح الدين المذكور . كان أميراً عاقلاً حازماً شجاعاً جَوَاداً عاطفاً على الفقراء والمساكين مُحِبّاً للصلحين ، قليل الكلام جدّاً لا يتكلم إلا للضرورة . ولَمَّا قَدِم مصرَ سألَه ولده السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة أن يكون هو السلطان ، فقال : أنت أولى . وكان سبب موته أنه ركب يوماً وخرج من باب النصر يريد الميدان^(٢) ، فشبّ به فرسه

(١) في الأصل : «النمري» وما أثبتناه عن الشذرات ومعجم البلدان .

(٢) هو ميدان العيد ، حيث كان يوجد مصلى العيد ، خارج باب النصر (انظر المقرئبي : ٤٦٤/٢) . ومجمله اليوم المنطقة الواقعة بين باب النصر وباب الحسينية المشغولة بمقابر جبانة باب النصر . (محمد رمزي) .

فوقع على رأسه، فأقام ثمانية أيام ومات في ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، ودُفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه بن أيوب في الدار السلطانية^(١) ثم نقلا بعد سنين إلى مدينة^(٢) النبي صلى الله عليه وسلم. وكان أبه السلطان، صلاح الدين قد عاد من الكرك فبلغه خبر موته في الطريق، فوجد عليه وتأسف حيث لم يحضره. وخلف من الذكور ستة: السلطان صلاح الدين يوسف، وأبا بكر العادل الآتي ذكره في ملوك مصر، وشمس الدولة توران شاه وهو أكبر الجميع، وشاهنشاه، وسيف الإسلام طغتكين، وتاج الملوك بُوري وهو الأصغر^(٣).

وفيها توفي الحسن بن أبي الحسن صافي، ملك النحاة، مولى الحسين بن الأرموي التاجر البغدادي؛ قرأ النحو وأصول الدين والفقه والخلاف والحديث وبرع في النحو وفاق أهل زمانه، وسافر البلاد وصنّف الكتب في فنون العلوم، من ذلك «المقامات» التي من جنس «مقامات الحريري»؛ وكان يقول: مقاماتي جدّ وصدق، ومقامات الحريري هزل وكذب. قلت: ولكن بين ذلك أهوال. ومن مصنفاته كتاب أربعمائة كراسة، سماها «التذكرة السفريّة».

وفيها توفي سعد الدين بن علي بن القاسم بن علي، أبو المعالي الكتبي الحظيري الحنفي؛ كان شاعراً فاضلاً. والحظيرة: قرية فوق بغداد وهي (بفتح الحاء المهملة وكسر الظاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء) وإلى هذه القرية يُنسب كثير من العلماء. ومن شعر الحظيري - رحمه الله تعالى وعفا عنه -: [المنسرح]

صُبْحُ مَشِيبي بَدَا وفارقني ليلُ شَبابي فصَحْتُ وَآ قَلَقِي
وَصِرْتُ أبكي دماً عليه ولا بُدَّ لَصُبحِ المَشيبِ من شَفَقِي

(١) هذه الدار كانت ضمن القصر الكبير الشرقي الذي نزل به صلاح الدين عند توليته سلطة مصر بعد موت الخليفة العاضد. وكان دفن أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين في التربة التي كانت بقرب المشهد الحسيني. (محمد رمزي).

(٢) ونقل صاحب شفاء القلوب عن تاريخ بيارس بن عبد الله المنصوري الدوادر أنها دفنا بمكة.

(٣) وخلف من الإناث: ست الشام، وربيعة خاتون.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي نجم الدين أيوب بن شادي والد الملوك. ومليك النحاة أبو نزار الحسن بن صافي البغدادي بدمشق. وأبو جعفر محمد بن الحسن الصَّيدلاني بأصبهان، وله خمس وتسعون سنة. وصالح ابن إسماعيل أبو طالب ابن بنت مُعافَى المالكي مفتي الإسكندرية - رحمه الله -.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثمانين عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر

وهي سنة تسع وستين وخمسمائة:

فيها كتب صلاح الدين صاحب الترجمة لنور الدين يستأذنه في إنفاذ جيش إلى اليمن فأذن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب، فسار إليها، وكان فيها عبد النبي بن مهدي من أصحاب المصريين^(١)، وكان ظالماً فاتكاً، فحصره شمس الدولة توران شاه في قصره بزبيد مدة، حتى طلب الأمان فأمنه؛ فلما نزل إليه قيده ووكل به، وفتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن، يقال: إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة وأستولى على أموالها وذخائرها، وقتل عبد النبي المذكور. وولّى على زبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ^(٢)، وعزّ الدّين عثمان بن الزنجيلي على باقي البلاد^(٣).

وفيها قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة العبيديّة: مثل داعي

(١) أي الفاطميين.

(٢) في الأصل: «سنقر» والتصحيح عن الروضتين وابن الأثير

(٣) في الروضتين وابن الأثير: «على عدن».

الدُّعَاة^(١)، وُعْمَارَةُ الْيَمَنِيِّ وَغَيْرِهِمَا^(٢)، بلغه أنهم يجتمعون على إثارة الفتن، وأنفقوا مع السُّودَانَ وكتابوا الفرنج، فقتل داعي الدعاة، وصلب عُمَارَةُ الْيَمَنِيِّ. قال القاضي شمس الدين ابن خلكان: هو أبو محمد عُمَارَةُ بن أبي الحسن علي بن زَيْدَانَ^(٣) بن أحمد بن محمد الْحَكَمِيِّ الْيَمَنِيِّ، الملقَّب نجم الدين الشاعر؛ وهو من جبال اليمن من مدينة مَرطَانَ^(٤)، بينها وبين مكَّة من جهة الجنوب أحد عشر يوماً. وكان فقيهاً فصيحاً، أقام بزَيْد مدَّة يُقرأ عليه مذهب الشافعي، وله في الفرائض مصنَّف مشهور باليمن، ومدح خلفاء مصر، فقربوه وأعطوه الأموال، فكان عندهم بمنزلة الوزير، وكان أيضاً معظماً قبل ذلك في اليمن؛ ثم ظهرت أمور اقتضت خروجه منها، فقدم إلى مصر في سنة خمسين وخمسمائة. وقيل: إنَّ سبب قتله أنه مدح تُوران شاه، وحرَّضه على أخذ اليمن بقصيدة أولها: [الطويل]

العِلْمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلْمِ وشَفْرَةُ السيف تستغني عن القَلَمِ

إلى أن قال:

هذا ابنٌ ثومرتٌ قد كانت بدايته كما يقول الوريُّ لحمًا على وضم
وكان أولُ هذا الدِّين من رجل سعى إلى أن دَعَوْهُ سيِّدُ الأَمَمِ

قال العماد الكاتب: إتفقت لُعْمَارَةُ آتفاقات: منها أنه نُسِب إليه قولُ هذا البيت^(٥) فكان أحد أسباب قتله؛ وأفتى قضاة مصر بقتله، وقيل: إنَّه لما أمر صلاحُ الدين بصلبه، مرُّوا به على دار القاضي الفاضل، فرمى بنفسه على بابه

(١) هوداعي الدعاة الفاطميين عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي. (السلوك: ١/٧٥).

(٢) وزاد المقرئ في السلوك اجتمعوا على إقامة رجل من أولاد العاضد. ومنهم: القاضي المفضل ضياء الدين نصر الله بن كامل، والشريف الجليس، ونجاح الحمامي، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي الأعرز سلامة العوريس متولي ديوان النظر ثم القضاء، والواعظ زين الدين بن نجا.

(٣) في الأصل. «.. بن زيد بن بدران بن أحمد بن محمد الحلبي اليمني». وما أثبتناه عن ابن خلكان في ترجمة عمارة اليمني

(٤) جاء في مقدمة «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» لعمارة اليمني أن ولادته في قرية الزرائب التي تطل عليها العكوتان وعكاد قال المحقق. «ولا أدري مم أخذ ابن خلكان؛ ولكن عمارة اليمني نفسه يؤكد ما ذهبنا إليه».

(٥) وقال العماد الكاتب: «.. ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه».

وطلب الدخول إليه ليستجيرَ به فلم يُؤذَن له، فقال: [مجزوء الكامل]
عبدُ الرحيم قد أحتجبُ إنَّ الخلاص من العجب
فصُلب وهو صائم في شهر رمضان.

وفيها تُوفي السلطان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زُنكي بن آق سُنقر صاحب الشام ومصر المعروف بنور الدين الشهيد. قال ابن عساكر: «وُلد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وكان معتدل القامة أسمر اللون واسع الجبهة حسن الصورة، لحيته شعراتٌ خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح. وكان زُنكي يقدمه على أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة. وفتح في أيام سلطنته نيفاً وخمسين حصناً».

قلت: ومصر أيضاً من جملة فتوحاته، وأيضاً ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه في الأجر والثواب، ولولاه إيش كان صلاح الدين! حتى ملك مصر من أيدي تلك الرافضة من بني عُبيد خلفاء مصر وقوة بأسهم!. قلت: وترجمة الملك العادل طويلة، يضيق هذا المحل عن ذكرها، وأحواله أشهر من أن تُذكر. غير أننا نذكر مرض موته ووفاته. وكان ابتداء مرضه أنه ختن ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، فهنيء بالعيد والطهور، فقال العماد الكاتب - رحمه الله -: [المجتث]

عِيدَانِ فِطْرٍ وَطَهْرٍ فَتَحُ قَرِيبٌ وَنَصْرُ
كِلَاهِمَا لَكَ فِيهِ حَقًّا هَنَاءٌ وَأَجْرُ

فمرض بعد عَوده من صلاة العيد بالخوانيق؛ وما كان يرى الطب، على قاعدة الأتراك؛ فأشير عليه بالفصد في أول مرضه فأمتنع؛ وكان مهيباً فما رُوِجِع؛ فمات يوم الأربعاء حادي عشر شَوَّال، ودُفِن بالقلعة، ثم نقل إلى مدرسته التي أنشأها^(١)

(١) قال ابن شداد. أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة ٥٦٣ هـ. - قال النعمي: وفيه نظر، إنما أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل، ثم نقله من القلعة بعد فراغها ودفنه بها. وهي بعض دار هشام بن عبد الملك بن مروان، وكانت قديماً دار معاوية بن أبي سفيان. (الدارس في تاريخ المدارس: ٤٦٦/١).

مجاورة الخوَّاصين بدمشق. وعاش ثمانياً وخمسين سنة. وكانت سلطنته ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر. ورثاه العماد الكاتب بعدة مرَّاثٍ؛ من ذلك قوله: [السريع]

يا ملكاً أَيَّامُهُ لم تَزَلْ لفضله فاضلةً فاخِره
ملكْتَ دنياءَ وخَلَفْتَهَا وسرتَ حتَّى تملكَ الآخرة

قال أبو اليسر^(١) شاکر بن عبد الله [التَّنُوخِي المَعْرِي]^(٢): تَعَدَّى بعضُ أمراءِ صلاح الدين بن أيُّوب [على رجل] وأخذ ماله، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيد؛ فجاء إلى قبر نور الدين وشقَّ ثيابه، وحثا الترابَ على رأسه، وجعل يستغيث: يا نور الدين أين أيامك! ويبكي. فبلغ صلاح الدين فأستدعاه وأعطاه ماله، فازداد بكأوه؛ فقال له صلاح الدين: ما يُبكيك وقد أنصفناك؟ فقال: إنَّما أبكي على مَلِكٍ أنصفتُ ببركاته وبعد موته، كيف يأكله التراب ويفقده المسلمون!. وتسلطن بعده ولده الملك الصالح إسماعيل ولم يبلغ الحُلْم. وقد مرَّ من أخباره نبذة كبيرة في ترجمة صلاح الدين.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي النقيب أبو عبد الله أحمد [بن علي]^(٣) بن المعمر العَلَوِي ببغداد في جُمادى الأولى. والحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد الهَمْدَانِي العَطَّار المقرئ في جُمادى الأولى، وله إحدى وثمانون سنة. وذَهَبُ بن علي [بن منصور بن إبراهيم بن عبد الله المعروف بأ]^(٤) بن كَارَةَ الحنبلي. وناصر الدين سعيد بن المبارك بن الدهان النحوي ببغداد، وله خمس وسبعون سنة. وأبوتميم سلمان بن علي الرَّحْبِي الخَبَّاز بدمشق. وعبد النبي بن المَهْدِي صاحب اليمن، وكان باطنياً استأصله أخو صلاح الدين. وأبو الحسن علي بن أحمد الكِنَانِي القُرْطُبي بفاس، وله ثلاث وتسعون سنة. والفقيه عُمارة بن

(١) في الأصل: «أبو القاسم». وما أثبتناه عن الروضتين.

(٢) زيادة عن الروضتين.

(٣) زيادة عن الشذرات وابن الأثير.

(٤) زيادة عن الشذرات.

عليّ بن زَيْدَان اليمينيّ الشاعر؛ شُنِق في جماعة سَعَوْا في إعادة الدولة العبيديّة. والسلطان نور الدين محمود بن زُنْكِي الأتابكيّ بن آق سُنُقُر التركيّ المَلِكُشَاهِيّ في شَوّال، وله ثمان وخمسون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وستّ عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبعين وخمسمائة:

فيها ملك السلطان صلاح الدين دِمَشْق من الملك الصالح آبن الملك العادل نور الدين محمود، حسب ما ذكرناه في ترجمته. وكان أخذه لدمشق بمكاتبة القاضي كمال الدين الشَّهْرُزُورِيّ وآبن الجاوليّ والأعيان، وكان بالقلعة زَيْحان الخادم، فعزم على قتاله، فجهّز إليه عسكر دمشق، وركب صلاح الدين من الجسور، فألتقاه أهل دمشق بأسرهم وأحدقوا به، فنثر عليهم الدراهم والدنانير، ودخل دمشق فلم يُغلق في وجهه باب ولا منعه مانع، فملكها عنايةً لا عنوةً.

وفيها آستخدم صلاح الدين العِمَادَ الكاتب الأصبهانيّ؛ وسببه أنه ألتقى بالقاضي الفاضل ومدحه بأبيات منها: [الكامل]

عَايْنَتْ طَوْدَ سَكِينَةٍ وَرَأَيْتُ شَمًّا	سَسَ فُضَيْلَةٍ وَوَرَدَتْ بَحْرَ فُضَائِلِ
وَرَأَيْتُ سَحْبَانَ الْبَلَاغَةِ سَاحِباً	بِيَانِهِ ذَيْلَ الْفَخَارِ لَوَائِلِ
حَلَفْتُ [الْحَصَافَةَ] ^(١) وَالْفَصَاحَةَ وَالسَّمَاءَ	حَةَ وَالْحِمَاسَةَ وَالتَّقَى وَالنَّائِلِ
بَحْرٌ مِنَ الْفَضْلِ ^(٢) الْغَزِيرِ خَضْمُهُ	طَائِمِي الْعُبَابِ وَمَا لَهُ مِنْ سَاحِلِ

(٢) زيادة عن الشذرات وابن الأثير.

(١) في الأصل: «بحر من البحر الخضمّ خضمه» وما أثبتناه عن الروضتين.

في كَفِّه قَلَمٌ يَعَجِّلُ جَرِيهَ ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجلٍ
أبصرتُ قُسا في الفصاحة معجزاً فعرفتُ أني في فهامة باقِلٍ

فدخل القاضي الفاضل على السلطان صلاح الدين وقال: غداً تأتيك تراجمُ الأعاجم، وما يحلها مثل العِماد الكاتب. فقال: مالي عنك مندوحة، أنت كاتبني ووزيرني، وقد رأيتُ على وجهك البركة، فإذا استكتبتُ غيرك تحدتُ الناس؛ فقال الفاضل: هذا يحلُّ التراجم، وربما أُغيبُ أنا ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبتُ قام العِمادُ مقامي، وقد عرفتُ فضل العِماد، وخدمته للدولة النورية، فأستكتبه.

وفيها تُوفِّي السلطان أرسلان شاه بن طُغرل [بن محمد]^(٣) بن مَلِكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سَلْجوق بن دُقْماق السَلْجُوقي. وقام بعده في الملك ابنه طُغرل شاه، وكان صغير السن، فتولَّى تدبير ملكه محمد بن إيلدكز الأتابك وكان يلقب بالبَهْلوان.

وفيها تُوفِّي يحيى بن جعفر أبو الفضل زعيم الدِّين، صاحب مخزن الخلفاء: المقتفي والمستنجد والمستضيء، وناب في الوزارة، وتقلَّب في الأعمال نيِّفاً وعشرين سنة، وكان حافظاً للقرآن فاضلاً عارفاً منصفاً، مُجِباً للعلماء والصالحين؛ ومات في شهر ربيع الأول، وكانت جنازته مشهودةً. قال العِماد الكاتب: جلس يوماً في ديوان الوزارة فقام شهاب^(٢) الدين بن الصِّيفي فأنشده: [الطويل]

لكلِّ زمانٍ من أمائل أهليه برامكةً يمتارهم كلُّ مُعسِر^(٣)
أبو الفضل يحيى مثل يحيى بن خالدٍ يداً^(٤) وأبوه جعفر مثل جعفر

ثم قام ثابت^(٥) الواعظ — رحمه الله — فأنشد بديهاً: [الطويل]

(١) زيادة عن الشذرات وابن الأثير.

(٢) في الأصل: «جمال الدين» والتصحيح عن ابن خلكان.

(٣) في الشذرات: «كل معسر».

(٤) في الشذرات: «ندي».

(٥) في الشذرات: «ناشب الواعظ».

وفي الجانب الشرقي يحيى بن جعفر وفي الجانب الغربي موسى بن جعفر
فذاك إلى الله الكريم شفيعنا وهذا إلى المولى الإمام المظهر

(يعني ساكن الجانب الشرقي صاحب الترجمة، وبالجانب الغربي موسى بن جعفر الصادق).

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي قاضي القضاة أبو طالب روح بن أحمد الحديثي، وله ثمان وستون سنة. وفخر النساء خديجة بنت أحمد النهروانية في شهر رمضان. وعبد الله بن عبد الصمد بن عبد الرزاق السلمي العطار. وأبو بكر محمد بن علي بن محمد الطوسي. وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل القيسي مسند المغرب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وإحدى وعشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وتسع عشرة إصبعا.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر

وهي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة:

فيها عزل الخليفة المستضيء بالله الحسن صندل^(١) الخادم عن الأستادارية، وضيّق على ولده الأمير أبي العباس أحمد، لأمر بلغه عنهما، وولى [أبن]^(٢) الصاحب الأستادارية عوضاً عن صندل المذكور.

وفيها وثبت الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو على أعزاز؛ جاءه ثلاثة في زي الأجناد، فضربه واحد بسكين في رأسه فلم يجرّحه وخذشت السكين خده وقتل الثلاثة، فرحل صلاح الدين إلى حلب، فلما نزل عليها

(١) في ابن الأثير: «سنجر المقتفوي».

(٢) زيادة عن ابن الأثير. وهو فيه: أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصامت

بعث إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود أخته خاتون بنت نور الدين في الليل، فدخلت عليه فقام قائماً وقبل الأرض لها وبكى على نور الدين؛ فسألته أن يرُدَّ عليهم أعزاز، فأعطها إيَّاهَا، وقدم لها من الجواهر والتحف شيئاً كثيراً؛ واتفق مع الملك الصالح أن من حمة وما فتحه إلى مصر له، وباقي البلاد الحلبية للصالح.

وفيها قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين من اليمن إلى دمشق في سلخ ذي الحجة.

وفيها فوض سيف الدولة غازي أمر الموصل إلى مجاهد الدين قيماز الخادم.

وفيها توفي علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، الحافظ أبو القاسم الدمشقي المعروف بأبن عساكر؛ مولده في أول المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة. كان أحد أئمة الحديث المشهورين، والعلماء المذكورين؛ سمع الكثير وسافر، وصنف تاريخاً لدمشق، وصنف كتباً كثيرة؛ وكان إماماً في الفنون، فقيهاً محدثاً حافظاً مؤرخاً. قال الجماد الكاتب: أنشدني لنفسه بالمرّة^(١):
[المتقارب].

أيا نفسُ ويحكِ جاء المشيبُ	فماذا التصابي وماذا الغزلُ
تولّى شبابي كأنّ لم يكنْ	وجاء مَشِيبِي كأنّ لم يَزَلْ
[كأنّي بنفسي على غيرةِ]	وخطبُ المنونِ بها قد نزلُ ^(٢)
فيا ليت شِعْرِي مَمَّنْ أكون	وما قدر الله لي في الأزل

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الحافظ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر في رجب، وله ثلاث وسبعون سنة

(١) المرّة (وأهل الشام يفتحون الميم): قرية كبيرة وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ (معجم البلدان).

(٢) زيادة عن وفيات الأعيان.

إلا شهراً. ومَجْدُ الدين أبو منصور محمد بن أسعد بن [محمد المعروف بـ] (١) حَفْدَةَ الطُّوسِيِّ العَطَّارِيِّ الشافعيِّ الواعظ. وأبو حنيفة محمد بن عُبيد الله الأصبهانيِّ الحَظِيبيِّ في صفر. وأبو جعفر هبة الله بن يحيى بن البُوقِيِّ (٢) الشافعيِّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وست عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ستَّ عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

السنة السادسة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيُّوب على

مصر

وهي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة:

فيها تزوج السلطان صلاح الدين يوسف بالخاتون عِصْمَةَ الدِّين بنت الأمير مُعِين الدين أنر زوجة الملك العادل نور الدين محمود، وكانت بقلعة دمشق.

وفيها كانت فتنة مقدّم السودان من صَعِيد مصر؛ سار من الصعيد إلى مصر في مائة ألف أسود، لِيُعِيد الدولة المصريَّة الفاطميَّة، فخرج إليه أخو صلاح الدين الملك العادل أبوبكر، وأبو الهيجاء الهكَّاريِّ، وعزَّ الدين مُوسَى بَمَنْ معهم من عساكر مصر؛ وٱلتَقَّوا مع السودان، فكانت بينهم وقعة هائلة، قُتِل كبير السودان المذكور ومَنْ معه. قال الشيخ شمس الدين يوسف في مرآة الزمان: «يقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً وعادوا إلى القاهرة».

وفيها خرج السلطان صلاح من دمشق إلى مصر، وأستتاب أخاه شمس الدولة تُوران شاه على الشام. وجاءت الفرنج إلى دَارِيًّا (٣)، فأحرقوا ونهبوا وعادوا.

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

(٢) في الأصل: «ابن البوني». وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب المصرية. والبوقي: نسبة إلى «بوقه» من قرى أنطاكية.

(٣) من قرى دمشق بالغوطة.

وفيها أمر السلطان صلاح الدين قراقوش الخادم بعمارة سور^(١) القاهرة ومصر، وضيّع فيه أموالاً كثيرة ولم ينتفع به أحد.

وفيها أبطل صلاح الدين المُكوس التي كانت تُؤخذ من الحاج بجُدّة، ممّا يُحمل في البحر؛ وعوّض صاحب مكّة عنها في كلّ سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تُحمل إليه في البحر، ففترّق في أهل الحرمين^(٢).

وفيها عمّر صلاح الدين مدرسة الشافعي^(٣) بالقرافة، وتولّى الشيخ نجم الدين الخُبوشانيّ عمارتها. وعمّر البيمارستان^(٤) في القصر، ووقف عليه الأوقاف.

وفيها حجّ بالناس من الشام قيّماز النّجيميّ.

وفيها تُوفيّ عليّ بن منصور، أبو الحسن السّرُوجيّ الأديب، مؤدّب أولاد الأتابك زُنكي بن آق سُنقر؛ كان يأخذ الماء بفيه ويكتب به على الحائط كتابةً حسنة كأنّها كُتبت بقلم الطومار^(٥)، وينقط ما يكتب ويشكله. ومن شعره في فصل الربيع وفضل دمشق، ومَدح نور الدين قصيدة طنانة أولها: [البسيط]

(١) في هذه السنة بدأ صلاح الدين بعمارة السور والقلعة. وقصد صلاح الدين أن يكون يكون السور محيطاً بالقاهرة والقلعة ومصر، فمات قبل أن يتمّ ذلك. وقد أقام على بناء القلعة والسور الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي. وكان غرضه من بناء القلعة الاعتصام من أعدائه شيعة الفاطميين. وقد أهمل العمل بعد وفاة صلاح الدين إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فآتمه. (انظر السلوك: ٨٥/١ وخطط علي مبارك: ٦٩/١).

(٢) في السلوك: ٨٦/١: «وعوّض أمير مكة عن هذا المكس بالعي دينار، وألف إدرب قمح، سوى إقطاعات بصعيد مصر واليمن؛ وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية آلاف إردب قمح تحمل إليه إلى جدّة». وكانت قيمة المكس المأخوذ سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان. وكانوا يؤدون ذلك بعيذاب أو بجُدّة.

(٣) راجع ص ٥١ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٤) راجع الجزء الرابع، ص ١٠١، حاشية (٣).

(٥) قلم الطومار: بإضافة «قلم» إلى «الطومار»؛ والمراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق، وهو المعبر عنه في العصر المملوكي بالفرخة، فأضيف هذا القلم إليه لمناسبة الكتابة به فيه. وهو قلم جليل مساحة عرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البردون؛ وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم. (صبح الأعشى: ٥٤/٣. وفيه وصف مسهب لهذا القلم وطريقة الكتابة به).

فصلُ الربيع زمانُ نوره نُورُ أنفاسُ أشجاره مسكٌ وكافورُ

وفيها تُوِّفِي محمد بن مسعود أبوالمعالِي؛ خرج إلى الحجّ في هذه السنة فتُوِّفِي بِنَدِّ^(١)؛ كان أديباً فاضلاً. ومن شعره هَجْوٌ في قاضٍ وليّ القضاء: [الوافر]

ولمّا [أن]^(٢) تولّيتَ القضايا وفاض الجورُ من كفّيك فيضاً
ذُبحْتُ بغيرِ سكينٍ وإنّي لأرجو الذبحَ بالسكينِ أيضاً

وفيها تُوِّفِي محمد بن عبد الله بن القاسم أبو الفضل كمال الدين الشهرزوريّ قاضي دمشق. مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة؛ كان إماماً فاضلاً فقيهاً مُفْتَنّاً؛ كان إليه في أيام نور الدين الشهيد مع القضاء أمرُ المساجد والمدارس والأوقاف والحسبة، والأمور الدينية والشرعية. وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شحنة دمشق إليه، ولّى فيها بعض غلمانته؛ ثم ولّاه نور الدين بعد ذلك لصلاح الدين يوسف بن أيوب قبل قدومه إلى مصر. وكان مع فضله ودينه له الشعر الجيد، وكان بينه وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب الترجمة، في أيام نور الدين مضاعفة. ومن شعره: [الطويل]

وجاؤوا عشاءً يُهرعون وقد بدا بجسمي من داء الصبابة ألوان
فقالوا وكلُّ معظّمٍ بعض ما رأى أصابتك عينٌ قلت عينٌ وأجفان

قلت: وهذا شبه قول القائل ولم أدر من السابق: [الطويل]

ولمّا رأوني العاذلون متيماً كئيباً بمن أهوى وعقلي ذاهب
رئوا لي وقالوا كنت بالأمس عاقلاً أصابتك عينٌ قلت عينٌ وحاجب

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوِّفِي أبو [محمد]^(٣) صالح بن المبارك بن الرخلة القزاز. والمحدث أبو [محمد]^(٤) عبد الله بن

(١) نَدِّ: اسم جبل بين مكة والمدينة (معجم البلدان).

(٢) في الأصل: «ولما توليت القضاء» والزيادة والتصحيح عن شذرات الذهب.

(٣) زيادة عن الشذرات.

(٤) زيادة عن الشذرات وحسن المحاصرة.

عبد الرحمن الأمويّ الدياجيّ الأصبهانيّ العثمانيّ الإسكندرانيّ. وأبو الحسن عليّ بن عساكر. وأبو بكر محمد بن أحمد بن ماه شاده الأصبهانيّ المقرئ، آخر من روى عن سليمان الحافظ. وقاضي الشام كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفر الشهرزوريّ في المحرم. والقاضي أبو الفتح نصر بن سيّار بن صاعد الكتانيّ الهرويّ الحنفيّ مُسندُ خراسان يوم عاشوراء، وله سبع وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر

وهي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

فيها توفي صدقة بن الحسين بن الحسن أبو الفرج^(١) الناسخ الحنبليّ؛ كان يُعرف بابن الحدّ؛ كان فقيهاً مُفتناً مناظراً. قال أبو المظفر: لكنّه قرأ «الشفاء»^(٢) وكتب الفلاسفة، فتغيّر آعتقاده؛ وكان يبدو من فلتات لسانه ما يدلّ على ذلك. ومن شعره - رحمه الله تعالى -: [الرمل]

لا تَوَطَّنْهَا فليست بمُقامٍ وأجتنبها فهي دار الانتقام
أُتراها صنعةً من صانعٍ أم تُراها رميةً من غير رامٍ

وفيها توفي كُمشتيكين خادم السلطان نور الدين الشهيد. كان من أكابر خدامه (أعني مماليكه)، وكان ولاءه الموصول نيايةً عنه. فلما مات نور الدين هرب إلى حلب، وخدم شمس الدين آبن الداية، ثم جاء إلى الملك الصالح آبن نور الدين

(١) كذا في الشذرات والمنتظم والبداية والنهاية. وفي الأصل: «أبو الفتح».

(٢) هو كتاب «الشفاء» في المنطق لابن سينا.

الشهيد فأعطاه حارم، ثم غضب عليه لأمر وطلب منه قلعة حارم بعد أن قبض عليه، فامتنعوا أصحابه من تسليمها، فعلقه الملك الصالح مُنكَّساً، ودخن تحت أنفه حتى مات.

وفيهما توفي محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر، الوزير أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، ولقبه عضد الدولة. وكان أبوه أستاذار المقتفي وأقره المستنجد. فلما ولي المستضيء أستوزره، فشرع ظهير الدين^(١) أبو بكر صاحب المخزن في عداوته، حتى غير قلب الخليفة عليه، فطلب الحج فأذن له، فتجهَّز جهازاً عظيماً وأشترى ستمائة جمل لحمل المنقطعين وزادهم، وحمل معه جماعة من العلماء والزهاد، وأخذ معه بيمارستاناً فيه جميع ما يحتاج إليه، وسافر بتجمل زائد. فلما وصل إلى باب قُطُفْتَا^(٢) خرج إليه رجل صوفي بيده قصّة، فقال: مظلوم! فقال الغلمان: هات قصتك. فقال: ما أسلمها إلا للوزير. فلما دنا منه ضربه بسكين في خاصرته، فصاح: قتلتني، وسقط من دابته، وبقي على قارعة الطريق مُلقى، وتفرّق من كان معه إلا حاجب الباب، فإنه رمى بنفسه عليه، فضربه الباطني بسكين فجرحه، وظهر للباطني رفيقان فقتلوا وأحرقوا. ثم حمل الوزير إلى داره فمات بها. وكان مشكور السيرة مُحَبِّباً إلى الرعيّة، غير أنّ القاضي الفاضل لما بلغه خبر قتله، أنشد: [الطويل]

وأحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تُريه مَصْرَعُ الوزراء

وما ربك بظلام للعبيد. كان - عفا الله عنه - قد قتل ولدي الوزير ابن هُبيرة وخلقاً كثيراً.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الوزير أبو الفرج محمد بن عبد الله ابن رئيس الرؤساء، وثبت عليه الإسماعيلية في ذي القعدة.

(١) سياي ذكره في وفيات سنة ٥٧٥ هـ.

(٢) قطفتا: محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد مجاورة لمقبرة الدير. (معجم البلدان).

وهارون بن العباس أبو محمد بن المأموني صاحب التاريخ^(١). وأبو شاكر يحيى بن يوسف السقلاطوني^(٢).

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وثلاث أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصباعاً.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر

وهي سنة أربع وسبعين وخمسمائة.

فيها جرى بحث في مجلس ظهير الدين بن العطار في قتال عائشة لعليّ. فقال ابن البغداديّ الحنفيّ: كانت عائشة باغيةً على عليّ، فصاح عليه ابن العطار وأقامه من مكانه وأخبر الخليفة، فجمع الفقهاء وسأل: ما يجب عليه؟ فقالوا: يُعزّر. فقال ابن الجوزيّ: لا يجب عليه التعزير، لأنّه رجل ليس له علم بالنقل، وقد سمع أنّه جرى قتال ولم يعلم أنّ السفهاء أثاروه بغير رضا الفريقين، وتأديبه العفو عنه، فأطلق.

وفيها توفي سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس شهاب الدين [بن]^(٣) الصّينيّ التّميميّ، المعروف بالحيصّ بيّصّ؛ كان شاعراً فاضلاً؛ مدح الخلفاء والوزراء والأكابر؛ وله ديوان شعر؛ وكانت وفاته ببغداد في شعبان. وسبب تسميته بالحيصّ بيّصّ أنّه رأى الناس في يوم حركة فقال: ما للناس في حيصّ بيّصّ! فغلب عليه هذا اللّقب. ومعنى هاتين الكلمتين: الشدّة والاختلاط. تقول العرب: وقع الناس في

(١) قال ابن قاضي شهبة: «صنّف تاريخاً على السنين من أخبار الأوائل والحوادث والدول في مجلدين» (الأعلام: ٦١/٨).

(٢) نسبة إلى سقلاطون، من بلاد الروم.

(٣) الزيادة عن ابن خلكان والشذرات.

حيص بيص [أي في شدة واختلاط] (١). ومن شعر الحيص بيص - رحمه الله وعفا عنه - : [البيسط]

لم ألقُ مُسْتَكْبِراً إِلَّا تحوّل لي عند اللقاء له الكبرُ الذي فيه
ولا حلاً لي من الدنيا ولذتها إلا مقابلتني للتّيه بالتّيه

وكان الحِص بيص يلبس زيّ العرب، ويتقلّد سيفاً، فعَمِل فيه أبو القاسم (٢)
ابن الفضل: [الخفيف]

كم تبادي (٣) وكم تطوّل طرطو رك ما فيك شعرةً من تميم
فكُل الضّبّ وأقرض الحنظل [اليا بس] (٤) وأشرب ما شئت بول الظليم
ليس ذا وجه من يُضيف ولا يقري ولا يدفع الأذى عن حريم

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو أحمد
أسعد بن بلدرك الجبريلي البواب. والحِص بيص الشاعر شهاب الدين أبو الفوارس
سعد بن محمد بن سعد بن صيفي التميمي في سؤال. وفخر النساء شهدة بنت
أحمد بن الفرج الإبري في المحرم، وقد جاوزت التسعين. وأبورشيد عبد الله بن
عمر الأصبهاني في شهر ربيع الآخر. وأبونصر عبد الرحيم بن عبد الخالق
اليوسفي. وأبو الخطاب عمر بن محمد التاجر بدمشق. وأبو عبد الله محمد بن نسيم
العيثوني.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وثلاث عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً
وتسع عشرة إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) هوبة الله بن الفضل، المعروف بابن القطان، الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٥٥٨هـ.

(٣) في الأصل «كم تنادي» والتصحيح عن ابن خلكان.

(٤) زيادة عن ابن خلكان.

السنة التاسعة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

فيها ختن السلطان صلاح الدين ولده الملك العزيز عثمان .

وفيها توفي الخليفة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي محمد العباسي الهاشمي البغدادي . كان أحسن الخلفاء سيرة ؛ كان إماماً عادلاً شريف النفس حسن السيرة ليس للمال عنده قدر ، حليماً شفيقاً على الرعية ؛ أسقط المكوس والضرائب في أيام خلافته ؛ وكانت وفاته ببغداد في ثاني ذي القعدة عن ست^(١) وثلاثين سنة ، وكانت خلافته تسع سنين . وهو الذي عادت الخطبة باسمه في الديار المصرية والبلاد الشامية والثغور ، واجتمعت الأمة على خليفة واحد ، وأنقطعت في أيامه دولة بني عبّيد الفاطميين الرافضة من مصر وأعمالها . والله الحمد . وأمّه أم ولد مولدة^(٢) .

وفيها توفيت الزاهدة العابدة علم بنت عبد الله بن المبارك . كانت تضاهي رابعة العدوية في زمانها ؛ مرض ولدها أحمد بن الزبيدي فأحتضر ، وجاء وقت الصلاة ، فقالت : يا بُني ، أدخل في الصلاة ، فدخل وكبر ومات ، فخرجت إلى النساء وقالت : هينيني ! قلن ماذا؟ قالت : ولدي مات في الصلاة . فتعجب الناس من ذلك . وكانت وفاتها ببغداد ، وعمرها مائة سنة وست سنين ، ولم يتغير لها شيء من حواسها .

وفيها توفي منصور بن نصر بن الحسين الرئيس ظهير الدين صاحب المخزن للخلفاء ، ونائب الوزارة . نال من الوجاهة والرياسة ما لم ينله غيره من أطباقه ، إلى أن قبض عليه الخليفة الناصر لدين الله ، وعلى أصحابه وحواشيه ، وصادره وأجرى عليه العقوبة إلى أن مات .

(١) في تاريخ الخلفاء للسيوطي وابن الأثير البداية والنهاية أن ولادته كانت سنة ٥٣٦هـ . وعليه يكون عمره حين وفاته تسعاً وثلاثين سنة .

(٢) في تاريخ الخلفاء أن أمه أم ولد أرمنية اسمها «غضة» .

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة قال: وفيها توفي أبو الفتح أحمد بن أبي الوفاء الحنبلي بحرّان. والمستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن المستنجد يوسف بن المقتفي في شوال. وأبو الحسين عبد الحق بن عبد الخالق اليوسفي في جمادى الأولى. وأبو الفضل عبد المحسن بن تريك الأزجعي. وأبو الحسن علي بن أحمد الزيدّي المحدث الزاهد. وأبو المعالي علي بن هبة الله بن خلدون. والقاضي أبو المحاسن عمر بن علي القرشي عمّ كريمة. وأبو هاشم عيسى بن أحمد الهاشمي الدوشابي^(١).

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وسبع أصابع.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر

وهي سنة ست وسبعين وخمسمائة.

فيها قدمت امرأة إلى القاهرة عديمة اليدين، وكانت تكتب برجليها كتابة حسنة، فحصل لها القبول التام، ونالها مال جزيل.

وفيها حجّ من العراق الأمير طاشتكين، ومن الشام الأمير سيف الدين علي بن المشطوب.

وفيها توفي أحمد بن محمد بن أحمد الحافظ أبو طاهر السلفي الأصبهاني؛ ولد سنة سبعين وأربعمائة، وكان طاف الدنيا ولقي المشايخ؛ وكان يمشي حافياً لطلب العلم والحديث، وقدم دمشق وغيرها، وسبع بعدة بلاد، ثم دخل مصر وسمع بها، وأستوطن الإسكندرية حتى مات بها في يوم الجمعة خامس شهر ربيع

(١) في الأصل: «الدستاي». وما أثبتناه عن الشذرات واللباب. والدوشابي: نسبة إلى الدوشاب وهو الدبس بالعربية.

الآخر، ودفن داخل الإسكندرية وقد جاوز المائة بخمس سنين. ومن شعره في معنى
كِبَر سنّه: [الرملة]

أنا إن بان شبابي ومضى فلربّي الحمدُ ذهني حاضرُ
ولئن خُفّت وجفّت أعظمي كِبَرًا غصنُ علومي ناضرُ

وفيها توفي الملك المعظم فخر الدين شمس الدولة توران شاه بن أيوب
أخو السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة لأبيه. كان أكبر من صلاح الدين في
السنّ، وكان يرى في نفسه أنه أحقّ بالملك من صلاح الدين يوسف المذكور، وكان
تبدو منه كلمات في سكره في حقّ صلاح الدين، ويبلغ صلاح الدين، فأبعده وبعثه
إلى اليمن، فسفك الدماء وقتل الأماثل وأخذ الأموال. ولم يطبّ له اليمن فعاد إلى
الشام على مضض من صلاح الدين، فأعطاه بعلبك، فبلغه عنه أشياء فأبعده إلى
الإسكندرية، فتوجّه إليها وأقام بها معتكفاً على اللهو، ولم يحضر حروب أخيه
صلاح الدين ولا غزواته؛ ومات بالإسكندرية، فأرسلت أخته شقيقته ستّ الشام،
فحملته في تابوت إلى دمشق فدفنته في تربتها التي أنشأتها بدمشق. وكان توران شاه
المذكور جواداً ممدحاً حسن الأخلاق؛ إلا أنه كان أسوأ بني أيوب سيرةً وأقبحهم
طريقة.

وفيها توفي الملك غازي بن مودود بن زُنكي بن آق سُنقر التركي سيف الدين
صاحب الموصل وابن أخي السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. كان
غازي من أحسن الناس صورةً، وكان وقوراً عاقلاً غيوراً، ما يدع خادماً بالغاً يدخل
داره على حرّمه؛ وكان طاهر اللسان عفيفاً عن أموال الناس، قليل السفك للدماء،
مع شحّ كان فيه.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الحافظ أبو طاهر
أحمد بن محمد السلفي في شهر ربيع الآخر، وقد جاوز المائة بيقين.
وشمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شادي صاحب اليمن بالإسكندرية في صفر.
وأبو المعالي عبد الله بن عبد الرحمن [بن أحمد بن علي] (١) بن صابر السلمي في

(١) زيادة عن الشذرات.

رجب. وأبوالمفأخر سعيد بن الحسين المأموني. وأبو الفهم عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد الأزديّ ابن أبي العجائز في جمادى الآخرة. وأبو الحسين عليّ بن عبد الرحيم بن العصار السلميّ البغداديّ اللغويّ في المحرم. وصاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن أتاك في صفر، وله ثلاثون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وستّ عشرة إصباعاً.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على

مصر

وهي سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

فيها عاد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب صاحب الترجمة من دمشق إلى القاهرة، وأستتاب على الشام [ابن] (١) أخيه عزّ الدين فرخشاه.

وفيها أمر السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين بالمشير إلى اليمن، فأخذ يتجهّز للمسير.

وفيها بعث السلطان صلاح الدين الخادم بهاء الدين قراقوش إلى اليمن، فتوجّه وقبض على سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وطلب منه المال؛ وكان نائب أخيه توران شاه.

وفيها بُنيت قلعة (٢) الجبل بالقاهرة.

وفيها توفي الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب بمرض القولنج؛ وكان لما أشتدّ به مرض

(١) زيادة عن ابن خلكان وابن الأثير.

(٢) راجع ص ٤٩ من هذا الجزء، حاشية (٤).

القولنج وصف له الحكماء قليلَ خمرا، فقال: لا أفعل حتى أسأل الفقهاء. فسأل الشافعية فأفتوه بالجواز فلم يقبل، وقال: إن الله تعالى قرّب أجلي، أيؤخره شرب الخمر! قالوا: لا. قال: فوالله لا لقيتُ الله وقد فعلتُ ما حرّم عليّ، فمات ولم يشربه. ولما أشرف على الموت أحضر الأمراء وأستحلفهم لابن عمّه عزّ الدين [مسعود بن مودود]^(١) صاحب الموصل؛ فقبل له: لو أوصيت لابن عمك عماد الدين صاحب سنجار! فإنه صعلوك ليس له غير سنجار، وهو تربية أبيك وزوج أختك، وشجاع كريم، وعزّ الدين له من الفرات إلى همدان؛ فقال: هذا لم يخف عني، ولكن قد علمتم أستياء صلاح الدين على الشام [سوى ما بيدي]^(٢)، ومصر واليمن، وعماد الدين لا يثبت له إذا أراد أخذ البلاد؛ وعزّ الدين له العساكر والأموال فهو أقدر على حفظ حلب وأثبت من عماد الدين، ومتى ذهب حلب ذهب الجميع؛ فاستحسنوا قوله.

قلت: ولم يخاطر ببال أحد أخذ صلاح الدين بن أيوب الشام من الملك الصالح هذا قبل تاريخه، فإنه كان غرس نعمة أبيه الملك العادل، فلم يلتفت صلاح الدين للأيدي السالفة، وأنتهز الفرصة حيث أمكنته، وقاتل الملك الصالح هذا حتى أخذ منه دمشق، فلهذا صار عند الصالح كمين من صلاح الدين.

وفيها توفي عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد^(٣) أبو البركات الأنباري النحوي، مصنف كتاب «الأسرار»^(٤) في علم العربية، وكتاب «هداية الداهب في معرفة المذاهب». كان إماماً ف فنون كثيرة مع الزهد والورع والعبادة، وكانت وفاته في شعبان.

وفيها توفي عمر بن حمويه عماد الدين والد شيخ الشيخ صدر الدين وتاج الدين، وهو من ولد حمويه بن عليّ الحاكم على خراسان إمام السامانية.

(١) زيادة عن الشذرات وابن الأثير.

(٢) زيادة عن ابن الأثير والروضتين.

(٣) في الأصل: «محمد بن أبي السعادات». وما أثبتناه عن ابن خلكان وابن الأثير.

(٤) في الأصل: «كتاب الأنوار» والتصحيح عن ابن خلكان والشذرات وكشف الظنون.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة في كتاب الإشارة، قال: وفيها توفي الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان نور الدين بحلب في رجب، وله ثماني عشرة سنة. والكمال أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري النحويّ العبد الصالح. وشيخ الشيوخ أبو الفتوح عمر بن عليّ الجويني.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وخمس أصابع.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

على مصر

وهي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

فيها سار سيف الإسلام طُغتكين أخو صلاح الدين من مصر إلى اليمن إلى أن نزل زبيد، وبها حطّان^(١)، فأمره أن يسير إلى الشام، فجمع أمواله وذخائره ونزل بظاهر زبيد فقبض عليه سيف الإسلام، وأخذ جميع ما كان معه، وقيّمته ألف ألف دينار، ثم قتله بعد ذلك. وكان عثمان الزنجبيليّ بعدن، فلما بلغه ذلك سافر إلى الشام بعد أن أثر باليمن آثاراً كبيرة ووقف الأوقاف؛ وله مدرسة أيضاً بمكة، ورباط بالمدينة وغيرها.

وفيها في خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر فنزل البركة^(٢) قاصداً الشام، وخرج أعيان الدولة لوداعه، وأنشده الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر المخيم: [الوافر]

(١) هو حطّان بن منقذ الكنائي، كما في ابن الأثير.

(٢) المراد: بركة الحجاج. راجع الجزء الخامس، ص ١٨، حاشية (١).

تمتّع من شميم عرارٍ نجدٍ فما بعد العشيّة من عرار^(١)
 فطلب القائل فلم يجده. فوجم الناس وتطيّر الحاضرون، فكان كما قال.
 قلت: وقول من قال «فكان كما قال» ليس بشيء، فإنّ صلاح الدين عاش بعد
 ذلك نحو العشر سنين، غير أنّه ما دخل مصر بعدها فيما أظنّ، فإنّه اشتغل بفتح
 الساحل وقاتل الفرنج، كما تقدّم ذكره في ترجمته.

وفيها توفيّ أحمد بن عليّ بن أحمد الشيخ أبو العباس المعروف بأبن
 الرّفاعيّ، إمام وقته في الزهد والصلاح والعلم والعبادة. كان من الأفراد الذين
 أجمع الناس على علمه وفضله وصلاحه. كان يسكن أمّ عبيدة بالعراق، وكان شيخ
 البطائحية^(٢) وكان له كرامات ومقامات، وأصحابه يركبون السّباع ويلعبون بالحيات،
 ويتعلّق أحدهم في أطول النخل ثم يُلقِي نفسه إلى الأرض ولا يتألّم؛ وكان يجتمع
 عنده كلّ سنة في المواسم خلقٌ عظيم. قال الشيخ شمس الدين يوسف في تاريخه
 مرآة الزمان: «حكى لي بعض أشياخنا قال: حضرتُ عنده ليلة نصف شعبان، وعنده
 نحو من مائة ألف إنسان قال: فقلت له: هذا جمع عظيم، فقال لي: حُشِرْتُ
 مَحْشَر هَامَان إن خطر ببالي أنّي مقدّم هذا الجمع. قال: وكان متواضعاً سليم
 الصدر مجرداً من الدنيا ما أدّخر شيئاً قطّ». إنتهى.

قلت: وعلم الشيخ أحمد بن الرّفاعيّ وفضله وورعه أشهر من أن يذكر؛
 وهو أكثر الفقراء أتباعاً شرقاً وغرباً، والأعاجم يسمونه: سيّدي أحمد الكبير، وقيل:
 إنّ سبب مرضه الذي مات منه، أنّ عبد الغنيّ بن محمد بن نُقطة الزاهد مضى إلى
 زيارته، فأنشد أبياتاً منها: [الطويل]

إذا جنّ ليلي هام قلبي بذكركم أنوح كما ناح الحَمَام المُطَوَّق

(١) الشعر للصّمة بن عبد الله القشيري. وهو شاعر بدوي غزل من شعراء العصر الأموي. توفي نحو سنة
 ٨٩٥.

(٢) في الأصل: «البطائحة». والتصحيح عن ابن خلكان. قال: والطائفة المعروفة بالرّفاعية والبطائحية من
 الفقراء منسوبة إليه. والبطائحية سكان البطائح، وهي عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط
 والبصرة، ولها شهرة بالعراق. (وفيات الأعيان: ١/١٧٢).

وفوقي سحاب يُمطر الهمَّ والأسى وتحتي بحارُ بالأسى تتدفق
«سلوا أمَّ عمرو كيف بات أسيرها تُفكُّ الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتولٌ ففي القتل راحةً ولا هو ممنونٌ عليه فيعتق»^(١)

وكانت وفاة الشيخ أحمد في يوم الخميس ثاني عشر^(٢) جمادى الأولى، وقد جاوز سبعين سنة.

وفيها توفي الأمير فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب أبو سعد عز الدين. كان من الأمائل الأفاضل؛ كان متواضعاً سخياً جواداً شجاعاً مقداماً؛ وكان عمه صلاح الدين قد استنابه بالشام، وكان فصيحاً شاعراً. مات بدمشق في جمادى الأولى. ومن شعره - رحمه الله تعالى -: [الرمل]

أقرضوني زمناً قربهم وأستعادوا بالنوى ما أقرضوا
أنا راضٍ بالذي يرضيهم ليت شعري بالتلاقي هل رَضُوا؟

وفيها توفي الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ أبو يعقوب صاحب المغرب، أمير الموحدين. كان حسن السيرة عادلاً ديناً ملازماً للصلوات الخمس، لابساً للصفوف، مجاهداً في سبيل الله تعالى.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الشيخ الكبير أبو العباس أحمد بن عليّ بن أحمد الرفاعي بالبطائح. وأبو طالب الخضر بن هبة الله بن أحمد بن طاوس في شِوَال. والحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكُوال الأنصاري القرطبي في شهر رمضان، وله أربع وثمانون سنة. وأبو طالب أحمد بن المسلم بن رجاء اللخمي التنوخي في شهر رمضان بالإسكندرية. وخطيب الموصل أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي في شهر رمضان عن اثنتين وتسعين سنة. وعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب نائب

(١) في رواية ابن خلكان: «فيطلق». ويبدو أن ابن الرفاعي ضمّن البيتين الأخيرين، فهما من قديم الشعر لشيب بن البرصاء، كما في الأغاني: ٢٥٤/١٢، ٢٧٢.

(٢) في ابن خلكان: «الثاني والعشرين من جمادى الأولى».

دمشق في جمادى الأولى. والقطب النيسابوري أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود شيخ الشافعية في آخر شهر رمضان. وأبو محمد هبة الله بن محمد بن هبة الله الشيرازي بدمشق في شهر ربيع الأول.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ست أذرع وإحدى وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبعاً.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة تسع وسبعين وخمسمائة.

فيها في يوم الأحد عاشر المحرم تسلّم السلطان صلاح الدين آمد من ديار بكر، ودخل إليها وجلس في دار الإمارة، ثم سلّمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كَيْفَا، وكان قد وعده بها لما جاء إلى خدمته. ثم عاد إلى حلب وحاصرها حتى أخذها من عماد الدين زُنْجِي ابن أخي نور الدين الشهيد، وبذل له عوضها سنجار، وعمل الناس في ذلك أشعاراً كثيرة، منها:

[المتقارب]

وبعت بسنجان خير القلاع^(١) نككُتسك من بائعٍ مشتري

وكان في أيام حصار حلب أصاب تاج الملوك بُوري بن أيوب سهم في عينه فمات بعد أيام، فحزن أخوه السلطان صلاح الدين عليه حزناً شديداً، وكان يبكي ويقول: «ما وقت حلب بشعرة من أخي تاج الملوك بُوري».

وخرج عماد الدين من حلب وسار إلى سنجان. ولما طلع صلاح الدين إلى

(١) في شفاء القلوب: «خير القلاع» قال: وغنوا بها في الأسواق؛ وجعلوا ينادون: يا حمارا بعت حلب بسنجاناً.

قلعة حلب في سلخ صفر [أنشد]^(١) القاضي [محيي الدين بن] ^(٢) زكي الدين محمد بن علي القرشي قاضي دمشق أبياتاً منها:

وفتحه^(٣) حلباً بالسيف في صفر مبشراً بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال، لكن بعد سنين^(٤)؛ وهو الذي [خطب]^(٥) بالقدس لما فتحه صلاح الدين في رجب.

وفيها توفي محمد بن بختيار الأديب، أبو عبد الله المولّد المعروف بالأبله البغدادي الشاعر المشهور؛ كان شاعراً ماهراً، جمع في شعره بين الصناعة والرقّة. ومن شعره: [المديد]

زار من أحيا بزورته	والدجى في لون طرته
قمر يثني معاطفه	بانه في ثني بُردته
بت أستجلي المدام على	غرة الواشي وغرته
يالها من زورة قصرت	فأماتت طول جفوته
يا له في الحسن من صنم	كلنا في جاهليته

وله قصيدة طنانة أولها: [الكامل]

دعني أكابد لوعتي وأعاني أين الطليق من الأسير العاني

وفيها توفي الملك تاج الملوك بُوري بن أيوب بن شادي أبو سعيد أخو السلطان صلاح الدين من سهم أصابه في حصار حلب كما تقدّم ذكره. كان مولد تاج الملوك في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة، وكان قد جُمع فيه محاسن

(١) زيادة يقتضيهما السياق.

(٢) زيادة عن السيرة وابن خلكان وشفاء القلوب.

(٣) رواية ابن خلكان: «وفتحك القلعة الشهباء في صفر». ورواية شفاء القلوب: «وفتحكم حلباً بالسيف في صفر».

(٤) كان ذلك بعد أربع سنين.

(٥) زيادة عما سبق من المراجع. وانظر نسخة الخطبة في شفاء القلوب: ١٣٠، والروضتين: ١١٠/٢، ومفرج الكروب: ٢١٩/٢، ووفيات الأعيان: ٣٦٤/٣، وكنز الدرر: ٨٧.

الأخلاق: من مكارمٍ وشيمٍ ولطفٍ وطباعٍ، مع شجاعةٍ وفضلٍ وفصاحةٍ، وكان شاعراً بليغاً. ومن شعره: [الكامل]

رمضان بل رمضان إلا أنهم غلظوا إذاً في قولهم وأساؤوا
مرضان فيه تحالفاً، فنهاره سلُّ وأما ليله أستسقاء^(١)

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي إسماعيل بن قاسم الزيات بمصر. وتقيّة بنت [غيث بن]^(٢) عليّ الأرمنازيّة^(٣) الشاعرة. وأبو الفتح عبد الله بن أحمد الأصبهانيّ الخرقيّ في رجب، وله تسع وثمانون سنة. ومحمد بن بختيار البغداديّ الشاعر المعروف بالأبله. وأبو العلاء محمد بن جعفر بن عقيل، وله ثلاث وتسعون سنة. وأبو طالب محمد بن عليّ الكتّانيّ المُنْتَسِب. والعلامة رضيّ الدين يونس بن محمد بن منّعة فقيه الموصل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وإحدى وعشرون إصباعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصباعاً.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر وهي سنة ثمانين وخمسمائة:

فيها حجّ بالناس من العراق طاشتيكين.

وفيها توفي إيلغازي بن ألبّي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرْتُق قطب الدين

(١) رواية شفاء القلوب:

رمضان فيه تحالفاً، فنهاره غَطَّشُ وسائر ليله استسقاء

(٢) زيادة عن ابن خلكان والشذرات.

(٣) في الأصل: «الأرمنانية» والتصحيح عن الشذرات وابن خلكان. والأرمنانية: نسبة إلى أرمناز، من نواحي حلب.

صاحب مارددين؛ كانت وفاته في جمادى الآخرة. وخلف ولدين^(١) صغيرين. وكان ملكاً شجاعاً عادلاً مُنصفاً عاقلاً.

وفيها توفي عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد شيخُ الشيوخ صدر الدين وأبن شيخ الشيخ النيسابوري. وُلد سنة ثمانٍ وخمسمائة، وكان فاضلاً رسولاً بين الخليفة^(٢) وصلاح الدين، وكان يلبس الثياب الفاخرة، ويتخصّص بالأطعمة الطيبة، فكان أهل بغداد يعيرون عليه حيث لم يسلك طريق المشايخ في التعفّف عن الدنيا، ولما مات رثاه ابن المنجم^(٣) المصري: [المديد]

يا أخلائي وحقّكم ما بقي من بعدكم فرح
أبي صدر في الزمان لنا بعد صدر الدين ينشرح

وتولّى مشيخة الرباط بعده الشيخ صفّي الدين إسماعيل.

وفيها توفي محمد بن قرا أرسلان نور الدين صاحب حصن كَيْفَا، الذي كان أعطاه السلطان صلاح الدين آيد. وترك أبنه ظهير الدين سُكمان صغيراً، عمره عشرُ سنين.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد شيخ الشيوخ في رجب بالرّحبة راجعاً في الرسالة^(٤). وأبو عبد الله محمد بن حمزة بن أبي الصّقر القرشي. وأبو الوفا محمود بن أبي القاسم [محمد]^(٥) الأصبهاني في شهر ربيع الآخر، وله إحدى

(١) وهما حسام الدين يولق أرسلان وقطب الدين - أو ناصر الدين - أرتق أرسلان. وقد خلفا والدهما على مارددين، غير أنّها كانا صغيرين، وكان الحكم بيد مملوك أبيهما نظام الدين ألبقش ومملوكه لؤلؤ. (انظر الأعلام الخطيرة: ٥٥٦/٣ - ٥٥٧، ومعجم زامبور: ٣٤٥).

(٢) في الأصل مترسلاً، وهو تحريف. والتصحيح عن ابن الأثير.

(٣) راجع ص ٥٤، حاشية (٥).

(٤) أي راجعاً في مهمته كرسول بين صلاح الدين والخليفة. ولعله أراد بلفظ «الرسالة» جمع رسول؛ وهي صيغة للجمع كثيرة الاستعمال في العصور العباسية المتأخرة.

(٥) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

وسبعون سنة. أجاز له طراد [الزَّيْنَبِي النَّقِيب] (١) وسمع من أبي الفتح [أحمد بن محمد] (٢) البيودرحانيّ. وصاحب المغرب أبو يعقوب يوسف (٣) بن عبد المؤمن شهيداً على حصار شنترين (٣) بالأندلس في رجب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وثلاث عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على

مصر

وهي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة.

فيها قطع السلطان صلاح الدين الفرات ونزل على الموصل وأفتتح عدّة

بلاد.

وفيها توفي عبد السلام بن يوسف بن محمد الأديب أبو الفتوح الجماهيري (٤).

كان فاضلاً شاعراً. ومن شعره من قصيدة: [الطويل]

على ساكني بطن العقيق سلامٌ	وإن أسهروني بالفراق وناموا
حرمتم عليّ النوم وهو محللٌ	وحللتُم التعذيب وهو حرام
ألا يا حمامات الأراك إليكم	فما لي في تغريدكنّ مرّام
فوجدني وشوقي مُسعِدٌ ومؤانسُ	ونوحني وذمعي مُطربٌ ومُدّام

وفيها توفيت عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أُنز زوجة السلطان

صلاح الدين صاحب الترجمة، تزوّجها بعد زوجها الملك العادل نور الدين الشهيد.

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) ذكر المؤلف وفاته في سنة ٥٧٨ هـ.

(٣) شنترين Santarem مدينة في غربي الأندلس. وهي في البرتغال الحالية، تقع على ٦٧ كلم شمالي الأشبونة. (الحلة السيرة: ١٠٥/٢ - حاشية، والروض المعطار: ٣٤٦).

(٤) في الأصل: «أبو الفتوح الجماهور». والتصحيح عن طبعة دار الكتب المصرية.

كانت من أعفّ الناس وأكرمهم، كان لها صدقات كثيرة وبرّ عظيم؛ بنّت بدمشق مدرسة للحنفية في حَجَر الذهب، وربّاطاً للصوفية، وبنّت تربة بقاسيون على نهر بردى^(١)، وبها دُفنت؛ وأوقفت على هذه الأماكن أوقافاً كثيرة. وماتت في رجب، فبلغ صلاح الدين موتها وهو مريض بحرّان فتزايد مرضه لموتها ولحزنه عليها. ثم مات بعدها أخوها سعد الدين مسعود بن أُنر في هذه السنة، وكان من أكابر الأمراء، تزوّج صلاح الدين أخته ربيعة خاتون. فلما توفّي تزوّجها بعده الأمير مظفر الدين بن زَيْن الدين.

وفيها توفّي محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي الأمير ناصر الدين ابن عمّ السلطان صلاح الدين. كان السلطان صلاح الدين يخافه لأنّه كان يدّعي أنّه أحقّ بالملك منه. وكان السلطان صلاح الدين يبلغه عنه هذا، وكان زوج أخت السلطان صلاح الدين ستّ الشام بنت أيوب. ومات بحمص في يوم عرفة، وتناثر لحمه حتّى قيل إنّهُ سُمّ، وقيل: مات فجأة، فنقلته زوجته ستّ الشام إلى تربتها، ودفنته عند أخيها الملك المعظم توران شاه بن أيوب المقدم ذكره. ولمّا بلغ صلاح الدين موته أبقى على ولده أسد الدين شيركوه بن محمد المذكور ما كان بيد والده: حمص وتدمر والرحبة وسلمية، وخلع عليه وكتب منشوراً بذلك.

وفيها توفّي محمد بن أحمد بن فتح الدين البغدادي الحنفي؛ كان فقيهاً شاعراً أديباً. ومن شعره في مליح عليه قباء كّمه مطرّز: [الوافر]

ضَمَمْتُ مُعَذِّبِي لَمَّا أَتَانِي وَرَقْمُ طِرَازِهِ قَسْد رَاقٍ عَيْنِي
فِيَا طَرُزِيهِ هَلْ يُدْنِي زَمَانِي لِيَالِي وَصِلْنَا بِالرُّقْمَتَيْنِ

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو الطاهر إسماعيل بن مكّي [بن إسماعيل بن عيسى]^(٢) بن عوف الزهرّي شيخ المالكية بالثغر في شعبان. وصاحب أذربيجان البهلوان [محمد]^(٣) بن إيلدكز. والشيخ حياة بن

(١) كذا بالأصل. وصوابه: «على نهر يزيد» لأن نهر بردى لا يمر بقاسيون، وإنما يمر به نهر يزيد. ولا تزال هذه التربة حتى اليوم على حافة نهر يزيد. (انظر شذرات الذهب: حوادث سنة ٥٨١هـ).

(٢) زيادة عن شذرات الذهب.

قَيْسُ الْحَرَائِيّ العابد في جُمادى الأولى. وأبو اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد التَّنُوخِيّ كاتب نور الدين. والمهذَّب عبد الله بن أسعد [بن عليّ] (١) بن الدهان الموصليّ الشافعيّ النحويّ الشاعر في شعبان بِحْمَص. والحافظ أبو محمد عبد الحقّ بن عبد الرحمن الأزديّ الإشبيليّ في شهر ربيع الآخر بِجَايَة (٢)، وله سبعون سنة. والحافظ أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله السُهَيْليّ المالقيّ الأديب في شعبان. وعبد الرزاق بن نصر بن المسلم النجار الدمشقيّ. وأبو الفتح [عبيد الله ابن] (٣) عبد الله [بن محمد بن نجا] (٣) بن شاتيل الدبّاس في رجب، وله تسعون سنة. وأبو الجيوش عساكر بن عليّ المُقْرِيّ بمصر. وأبو حفص عمر بن عبد المجيد الميانيّسيّ (٤) بمكة. وأبو المجد الفضل بن الحسين البانيّسيّ في شوال. وصاحب جِمَص ناصر الدين محمد بن أسد الدين شِيرْكُوَه. والحافظ أبو سعد محمد بن عبد الواحد الصائغ بأصبهان في ذي القعدة. والحافظ العلامة أبو موسى محمد بن أبي بكر عمر بن أبي عيسى المدينيّ في جمادى الأولى، وله ثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وتسع عشرة إصباعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبع واحدة.

* * *

السنة السادسة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر وهي سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة.

فيها حَكَم المنجّمون في الأفاق بخراب العالم في جُمادى الآخرة، وقالوا: تَقْتَرِن الكواكب السيّارة: الشمس والقمر وزُحل والمَرَبِخ [والزُّهْرَة] (٥) وعُطَارِد

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

(٢) بجاية. مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب (معجم البلدان).

(٣) زيادة عن الشذرات.

(٤) المياشي: نسبة إلى مياش، قرية من قرى المهديّة بأفريقية (معجم البلدان).

(٥) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية نقلًا عن مرآة الزمان وعقد الجمال.

والمُشْتَرِي فِي بَرَجِ الْمِيزَانِ أَوْ السَّرَطَانِ، فَنُؤْثِرُ تَأْتِيراً يَضْمَعِلُّ بِهِ الْعَالَمَ، وَتَهَبُّ سُمُومٌ مُحْرِقَةٌ تَحْمِلُ رَمَلاً أَحْمَرَ، فَاسْتَعَدَّ النَّاسُ وَحَفَرُوا السَّرَادِيبَ وَجَمَعُوا فِيهَا الزَّادَ. وَأَنْقَضَتِ الْمَدَّةُ الْمَعِينَةَ، وَظَهَرَ كَذِبُ الْمَنْجُمِينَ. فَقَالَ [أَبُو الْغَنَائِمِ مُحَمَّدٌ] (١) بَنَ الْمَعْلَمُ فِي أَبِي الْفَضْلِ (٢) الْمَنْجَمُ قَصِيدَةَ طَنَانَةَ: [مَخْلَعُ الْبَسِيطِ]

قُلْ لِأَبِي الْفَضْلِ قَوْلٌ مُعْتَرِفٍ مَضَى جُمَادَى وَجَاءَنَا رَجَبٌ
وَمَا جَرَتْ زَعَزَعٌ كَمَا حَكَمُوا وَلَا بَدَأَ كَوُكَبٌ لَهُ ذَنْبٌ

ومنها:

مُدَبِّرُ الْأَمْرِ وَاحِدٌ لَيْسَ لِلسَّبِّ عَةَ فِي كُلِّ حَادِثٍ سَبَبٌ
لَا الْمُشْتَرِي سَالِمٌ وَلَا زُحَلٌ بَاقٍ وَلَا زُهْرَةٌ وَلَا قُطْبٌ

ومنها:

فَلْيُيَسِّلِ الْمَدْعُونَ مَا وَضَعُوا فِي كُتُبِهِمْ وَلْتُحْرِقِ الْكُتُبُ

قلت: وهذا الكذب متداول بين القوم إلى زماننا هذا، حتى إنه لا يمضي شهر إلا وقد أوعدوا الناس بشيء لا حقيقة له. والعجب أن الشخص من العامة إذا كذب مرة على رجل يستحي ولا يعود إلى مثلها، وهؤلاء القوم لا عرض لهم ولا دين ولا مروءة، والله درّ القائل ولم أدر لمن هو: [البسيط]

دَعِ النُّجُومَ لَصُوفِيٍّ يَعِيشُ بِهَا وَبِالْعَزَائِمِ فَانْهَضْ أَيُّهَا الْمَلِكُ
إِنَّ النَّبِيَّ وَأَصْحَابَ النَّبِيِّ نَهَوْا عَنِ النُّجُومِ وَقَدْ أَبْصَرْتَ مَا مَلَكَوا

وفيها عاد السلطان صلاح الدين إلى الشام وتلقاه شيركوه بن محمد بن شيركوه وأخته سفري خاتون أولاد ابن عمه محمد بن أسد الدين شيركوه وزوجته ست الشام، وهي أخت السلطان صلاح الدين؛ فقال السلطان لأخيه العادل أبي بكر بن أيوب:

(١) الزيادة مما سيأتي للمؤلف في وفيات سنة ٥٩٢ هـ.

(٢) هو أبو الفضل الخازمي المنجم نزيل بغداد. كان منجماً ببغداد يتكلم في الأحكام النجومية ويقلده الناس فيما يقول، ويدعي أكثر مما يعلم. (تاريخ الحكماء: ٤٢٦).

إقسم التركة بينهم على فرائض الله تعالى. وكان محمد قد خلف أموالاً عظيمة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار.

وفيهما دخل سيف الإسلام أخو صلاح الدين إلى مكة، ومنع من الأذان في الحرم بـ «حيي على خير العمل».

وفيهما قسم السلطان صلاح الدين يوسف البلاد بين أهله وولده برأي القاضي الفاضل، فأعطى مصر لولده العزيز عثمان؛ والشام لولده الأفضل؛ وحلب لولده الظاهر؛ وأعطى أخاه العادل أبا بكر إقطاعات كثيرة بمصر، وجعله أتابك العزيز؛ وأعطى لابن أخيه تقي الدين حماة والمعرة ومنبج وأضاف إليه مياfarقين.

وفيهما توفي الحسن بن علي بن بركة أبو محمد المقرئ النحوي؛ كان إماماً فاضلاً أنتفع بعلمه خلائق كثيرة؛ وكان أديباً بارعاً ومات في شوال. ومن شعره:

[الطويل]

وما سنان الشيب من أجل لونه ولكنه حاد إلى الموت مُسرِع
إذا ما بدت منه الطليعة آذنت بأن المنايا بعدها تتطلع

وفيهما توفي عبد الله [بن برّي] (١) بن عبد الجبار المعروف بأبن برّي النحوي بمصر؛ كان إماماً أديباً فاضلاً بارعاً في علم النحو والعربية، وأنتفع به خلق كثير، ومات بمصر في شوال. وكان حجة ثقة. ومن شعره - رحمه الله -: [مخلع البسيط]

خُدْ وثغرُ فجَلِّ ربُّ بمُبدع الحسن قد تفرَّد
فذا عن الواقدي يروي وذاك يروي عن المبرد

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو محمد عبد الله ابن برّي النحوي بمصر في شوال، وله ثلاث وثمانون سنة. وأبو محمد عبد الله بن

(١) زيادة عن ابن خلكان والشذرات وابن الأثير.

محمد بن جرير القرشيّ الناسخ ببغداد. وأبو محمد الحسن بن عليّ [بن بركة] ^(١) بن عبيدة الكوفيّ النحويّ المقرئ في سؤال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وأثنتا عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبع واحدة.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب عليّ

مصر

وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

فيها فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس وعكاً وحصوناً كثيرة بالساحل، بعد أمور وحروب ذكرناها في ترجمته.

وفيها توفي عليّ بن أحمد بن عليّ بن محمد قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغانيّ الحنفيّ قاضي قضاة بغداد. قال أبو المظفر: قاضي ابن قاضي ابن قاضي ابن قاضي ابن قاضي ابن قاضي. وُلد سنة ثلاث عشرة ^(٢) وخمسمائة، وولاه الخليفة المقتضي القضاء بمدينة السلام وسائر البلاد مشرقاً ومغرباً، وأقره المستنجد ثم عزله؛ ثم أعاده المستضيء سنة سبعين وخمسمائة؛ ثم أقره الناصر لدين الله تعالى إلى أن توفي ببغداد في ذي القعدة ودفن بالشونيزية عند جدّه لأمه أبي الفتح الشاوي. وكان إماماً فقيهاً عالماً نزهاً عفيفاً معدوداً من كبار فقهاء السادة الحنفية — رحمه الله تعالى —.

وفيها توفي محمد بن عبد الله ^(٣) بن المقدّم الأمير شمس الدين؛ كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين، ثم صلاح الدين بن أيّوب. وله المواقف المشهودة،

(١) زيادة عما تقدم ذكره للمؤلف.

(٢) في الأصل: «سنة عشر وخمسمائة». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب.

(٣) في ابن الأثير والشذرات: «عبد الملك».

وحضر جميع فتوحات السلطان صلاح الدين؛ ثم إنه آستأذن صلاح الدين في الحج فأذن له على كُرّه من مفارقتة؛ فلما وصل إلى عرفات أراد أن يرفع علم صلاح الدين ويضرب الطبل، فمنعه طاشتكين وقال: لا يُرْفَع هنا سوى علم الخليفة. فقال ابن المقدم هذا: والسلطان مملوك الخليفة. فمنعه طاشتكين، فأمر ابن المقدم غلمانَه فرفع العلم فنكسوه، فركب ابن المقدم ومن معه، وركب طاشتكين له، وأقتلوا فقتل من الفريقين، ورَمَى مملوك طاشتكين ابن المقدم بسهم فوق عينه فخرّ صريعاً، وجاء طاشتكين وحمله إلى خيمته فتوفي في يوم الخميس يوم النحر ودفن بالمعلّى. ثم أرسل الخليفة يعتذر لصلاح الدين أن ابن المقدم كان الباغي، فلم يقبل صلاح الدين، وقال: أنا الجواب عن الكتاب. ولولا آستغاله بالجهاد لكان له وللخليفة شأن.

وفيهما توفي محمد بن عبيد الله الأديب أبو الفتح البغدادي، المعروف بسببط [ابن] التّعَاوِيذِي، الشاعر المشهور. وله ديوان شعر كبير، الموجود غالبه في المديح. ومن شعره - رحمه الله - في غير المديح، في الزهد: [مجزوء الكامل]

إجعل همومك واحداً وتخلّ عن كلّ الهموم
فعاك أن تحظى بما يُغنيك عن كلّ الهموم

وله: [الطويل]

فكم ليلة قد بتُّ أرشُف ريقه وجرتُ على ذاك الشَّيب المُنْضِد
وبات كما شاء الغرامُ مُعَانِقِي وبتُّ وإياه كحرفٍ مشدّد

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي شيخ الفتوى عبد الجبار بن يوسف ببغداد. والمحدث أبو العزّ عبد المغيث بن زهير الحرّبي. وقاضي القضاة أبو الحسن علي بن أحمد ابن قاضي القضاة علي بن محمد بن الدامغاني الحنفي. وأبو الفتح محمد بن يحيى بن محمد بن مواهب البرداني. والأمير الكبير شمس الدين محمد [بن عبد الملك]^(١) بن المقدم النوري، قتل

(١) الزيادة عما تقدم.

بعرفات. وأبو السعادات نصر الله بن عبد الرحمن بن محمد [المعروف]^(١) بابن زُرَيْق القَرَّاز في شهر ربيع الآخر، وله آثنتان وتسعون سنة. وشيخ الحنابلة ناصح الدين أبو الفتح نصر بن فُتَيان [بن مطرف المعروف بآ]^(٢) بن المَنِي في رمضان عن إحدى وثمانين سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وثمانين أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة عشرة من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على

مصر

وهي سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

فيها توفي الأمير أسامة بن مُرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن مُنقذ الأمير أبو الحارث مؤيد الدولة مجد الدين الكِنَانِي. مولده بشيْر في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة؛ وكانت له اليد الطولى في الأدب والكتابة والشعر؛ وكان فارساً شجاعاً عاقلاً مدبراً؛ كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب الجاهلية، وطاف البلاد ثم استوطن حَمَاة فتوفي فيها^(٣) في شهر رمضان، وقد بلغ ستّاً وتسعين سنة. وله ديوان شعر مشهور، وكان السلطان صلاح الدين مُغرَى بشعره. ومن شعره في قلع الضُّرس: [البسيط]

وصاحب^(٤) لا أمل الدهر صُحْبَتَهُ يَشْقَى لِنَفْعِي ويسعى سعي مُجْتَهِدٍ

(١) زيادة يقتضيهما السياق.

(٢) زيادة عن ابن الأثير.

(٣) في ابن خلكان والبداية والنهاية أنه توفي بدمشق.

(٤) في الأصل: «لم أمل» وما أثبتناه رواية الشذرات وابن خلكان والبداية والنهاية.

لم أَلْقَه مُذْ تصاحبنا فَمُذًّا^(١) وقعت عيني عليه أفرقنا فُرْقَةً الأبدِ

وقال في أيام الملك العادل نور الدين الشهيد: [السيط]

سلطاننا زاهدٌ والناس قد زهدوا له فكلُّ على الخيرات مُنكَمِشُ
أيامه مثل شهرِ الصَّومِ طاهرةً من المعاصي وفيها الجوع والعطشُ

وفيها توفِّي مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصريّ خادم الخليفة الناصر لدين الله؛ كان قريباً من الخليفة، سلّم إليه مماليكه الخواص؛ وكان سليم الباطن ديناً، صلى به إمامه صلاة الفجر فقرأ الإمام فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(٢) فلما سمع خالص ذلك رفع صوته وهو في الصلاة وقال: صلى الله عليك يا رسول الله. فضحك القوم وقطعوا الصلاة. فقال لهم خالص المذكور: مجانيّن أنتم! يقول الله: (صلّوا عليه وسلّموا تسليماً) وأسكت أنا!

وفيها توفِّي محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفر بن عليّ؛ أبو حامد محيي الدين^(٣) الشّهْرزُوريّ الإمام الفقيه؛ ولي القضاء بالموصل، وقدم بغداد رسولاً من صاحب الموصل، فأكرمه الخليفة وخلع عليه. ثم عاد فمات في جمادى الأولى. ومن شعره: [الوافر]

ولما شاب رأس الدهر غَيَظاً لِمَا قاساه من فقَد الكرامِ
أقام يُمِيط عنه الشيبَ عَمداً وينشُر ما أماط على الأنامِ

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفِّي الأمير مؤيد الدولة أبوالمظفر أسامة بن مرشد بن عليّ بن مقلد بن نصر بن منقذ الكِنَانيّ في شهر رمضان عن سبع وتسعين سنة. وطاق بن محمد الزُبَيريّ الخياط. وأبو القاسم

(١) في الأصل: «فمذ نظرت». وما أثبتناه رواية الشذرات. ورواية ابن حلكان وابن كثير: «... فحين بدا... لناظري أفرقنا...».

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٣) في الأصل: «كمال الدين». وما أثبتناه عن ابن حلكان والشذرات وابن الأثير وابن كثير. ووفاته في هذه المصادر جميعها سنة ٥٨٦هـ.

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله [بن يوسف بن أبي عيسى القاضي] (١) بن حُبَيْش الأنصاريّ بمُرْسِيَّة (٢)، وكان خطيبها وقاضيها ومحدثها ومسندها، توفّي في صفر. وأبو القبائل (٣) بن عليّ عن مائة سنة وزيادة. والعلامة شمس الأئمة عماد الدين عمر بن شمس الأئمة بكر بن محمد الزرنجيريّ البخاريّ شيخ الحنفية في سؤال، وله خمس وستون سنة. وأبو عبد الله محمد بن عليّ بن محمد بن الحسن بن صدقة الحرّانيّ التاجر، وله سبع وتسعون سنة. والحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازميّ الهمدانيّ في جمادى الأولى شاباً، وله خمس وثلاثون سنة. وأبو الفرج يحيى بن محمود الثقفينيّ الصوفيّ في نواحي همذان غريباً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وأثنتا عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً.

* * *

السنة التاسعة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر

وهي سنة خمس وثمانين وخمسمائة.

فيها ولى السلطان صلاح الدين على عكّة حُسام الدين بِشارة، وولى على عمارة سورها الخادم بهاء الدين قراقوش.

وفيها توفّي الأمير طُمان بن عبد الله النوريّ صاحب الرّقة؛ كان شجاعاً جواداً محبباً للخير كثير الصدقات يُحبّ الفقهاء والعلماء، بنى مدرسة بحلب للحنفية. وكانت وفاته في ليلة نصف شعبان؛ وحزن السلطان صلاح الدين عليه والمسلمون لحرصه على الجهاد ولمواقفه المشهودة.

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن بغية الوعاة للسيوطي وتاريخ الإسلام للذهبي

(٢) مرسية: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير.

(٣) هو عشرين بن علي بن أحمد بن الفتح أبو القبائل، كما في تاريخ الإسلام للذهبي. (طبعة دار الكتب:

وفيها توفي عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن عليّ أبو سعد بن أبي السريّ التميميّ الموصليّ القاضي شرف الدين بن أبي عَصْرُون. كان إماماً فاضلاً مصنفًا، وكان خَصِيصاً بالملك العادل نور الدين، ثم آقضى^(١) به السلطان صلاح الدين، وولي القضاء بعدة بلاد وضرّ قبل وفاته بعشر سنين. ومن شعره قوله:

[الخفيف]

كُلُّ جَمْعٍ إِلَى الشَّتَاتِ يَصِيرُ أَيُّ صَفْوٍ مَا شَانَهُ التَّكْدِيرُ
أَنْتَ فِي اللُّهُوِ وَالْأَمَانِي مَقِيمٌ وَالْمَنَايَا فِي كُلِّ وَقْتٍ تَسِيرُ

وفيها توفي الفقيه عيسى الهكاريّ ضياء الدين؛ حضر فتح مصر مع أسد الدين شيركوه، وهو الذي مشى بين الأمراء وبين السلطان صلاح الدين لما ولي وزارة العاضد بعد موت عمّه أسد الدين شيركوه، حسب ما تقدّم ذكره حتّى تمّ أمره. ثمّ حضر مع السلطان صلاح الدين فتح القدس والغزوات، وكان صلاح الدين يميل إليه ويستشيره، وكان الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس والتفريح عن المكروبين مع الورع والعفة والدين - رحمه الله -.

وفيها توفي الأمير مُوسَى بن جَكَو [أبن]^(٢) خال صلاح الدين. كان حافظاً للقرآن سامعاً للحديث، وكان محسناً إلى الناس ملازماً للسلطان في غزواته، وكان ديناً صالحاً جواداً؛ مرض بمرج عكّا فأمره السلطان أن يمضي إلى دمشق ليتطبّب بها، فتوجّه إلى دمشق ومات بها - رحمة الله -.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو العباس التُّرك أحمد بن أحمد بن محمد بن ينال شيخ الصوفية بأصبهان ومسندها في شعبان. وأبو الحسين أحمد بن حمزة المَوازِينِيّ في المحرّم. وقاضي القضاة شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عَصْرُون التميمي الموصلي في رمضان. وأبو الفضل عبد المجيد بن [الحُصَيْنِيّ بن يوسف بن الحسن بن أحمد بن]^(٣) دَلِيل

(١) أي ولّاه القضاء.

(٢) زيادة عن الروضتين.

(٣) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

الإسكندرانيّ المعدّل. وشيخ الشافعية أبو طالب المبارك بن المبارك [بن المبارك] (١) الكرخيّ صاحب آبن الخلل. وأبو المعالي [وأبو النجاح] (١) منجب بن عبد الله المرشديّ الخادم في المحرم. والحافظ يوسف بن أحمد الشيرازيّ ثم البغداديّ الصوفيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وخمس عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وأثنتان وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة العشرون من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ستّ وثمانين وخمسمائة.

فيها ملك سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين صنعاء من بلاد اليمن.

وفيها حجّ بالناس من العراق طاشتيكين المذكور في السنة الماضية.

وفيها توفي مسعود [بن عليّ] (١) بن عبيد الله أبو الفضل بن النادر الصفار الأديب الشاعر؛ كان بارعاً في الأدب، وكتب خطأ حسناً نحواً من مائة ربعة. ومن شعره قوله: [الطويل]

تولّوا فأولوا الجسم من بعدهم ضناً وحرّاً شديداً في الحشا يتزايد
وزاد بلائي بالذين أحبّهم وللناس فيما يذهبون مقاصد

وفيها توفي يوسف بن عليّ بن بُكْتِكِين الأمير زين الدين صاحب إربل. كان قدّم إلى السلطان صلاح الدين نجدةً فمرض ومات، وفرح بموته أخوه مظفر الدين (٢)، وتولّى إربل مكانه من قبل السلطان صلاح الدين. وكان زين الدين أميراً كبيراً شجاعاً مقداماً مدبراً.

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام.

(٢) هو مظفر الدين كُكْبَرِي. وكان بيده حرّان. (الأعلاق الخطيرة: ٥٧/٣).

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الحافظ أبو المواهب الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صَصْرَى^(١) التَّغْلَبِيّ الدمشقيّ، وله تسع وأربعون سنة. وأبو الطيّب عبد المنعم بن يحيى [بن خُلْف بن نفيس]^(٢) بن الخُلوف الغرناطيّ المقرئ. وأبو عبد الله محمد بن سعيد [بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد البر بن مجاهد المعروف بـ]^(٣) آبن زَرْقُون الإشبيليّ المالكيّ المسند. وأبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الفرح بن الجَدّ الفهريّ الحافظ بإشبيلية. وقاضي القضاة محيي الدين^(٤) أبو حامد محمد آبن قاضي القضاة كمال الدين بن الشَّهْرُزُورِيّ، وله اثنتان وستون سنة؛ ولي حلب ثم المَوْصِل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وخمس وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانين عشرة ذراعاً وأربع أصابع.

* * *

السنة الحادية والعشرون من سلطنة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر

وهي سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

فيها كان آستيلاء الفرنج على عكا، كما تقدّم في ترجمة السلطان صلاح الدين من هذا الكتاب.

وفيها توفي الموفق أسعد بن [إلياس بن جرجس المعروف بابن]^(٥) المطران

(١) سيذكره المؤلف في وفيات سنة ٦٢٦ هـ من هذا الجزء. وانظر الخلاف في ضبط اسم «صصري» في الأعلام: ٢٢٥/٢.

(٢) زيادة عن طبعة دار الكتب.

(٣) زيادة عن الذهبي.

(٤) تقدمت وفاته سنة ٥٨٤ هـ.

(٥) زيادة عن عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة: ١٧٥/٢ وعلما النصرانية: ٨٤، ٨٥ - وفي كشف الظنون أن وفاته سنة ٥٨٥ هـ.

الطبيب. كان نصرانياً فأسلم على يد السلطان، وكان غزير المُرُوءة حسن الأخلاق كريم العشرة. وكان يَصْحَبُهُ صَبِيٌّ حسن الصورة أسمه عمر. وكان الموفق يحب أهل البيت ويغضض ابن عُثَيْن^(١) الشاعر لخبث لسانه، وكان يحرض السلطان صلاح الدين عليه ويقول له: أليس هذا هو القائل: [مخلع البسيط]

سُلْطَانُنَا أَعْرَجٌ وَكَاتِبُهُ أَعْمَشُ وَالْوَزِيرُ مَنْحَدِبٌ

فَهَجَاهُ ابْنُ عُثَيْنٍ بِقَوْلِهِ: [البسيط]

قالوا الموفق شيعيُّ فقلت لهم هذا خلاف الذي للناس منه ظَهَرَ
فكيف يَجْعَلُ دِينَ الرِّفْضِ مَذْهَبَهُ وما دعاه إلى الإسلام غيرُ عُمَرَ

وفيها توفي سليمان بن جَنْدَرٍ؛ كان من أكابر أمراء حلب، ومشائخ الدولتين: النُورِيَّةِ والصلاحِيَّةِ؛ شَهِدَ مع السلطان صلاح الدين حروبه كلها، وهو الذي أشار بخراب عَسْقَلَانَ مصلحة للمسلمين. ومات في أواخر ذي الحجة.

وفيها توفي عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المظفر تقي الدين. قد ذكرنا من أمره: أن عمه السلطان صلاح الدين كان أعطاه حَمَاةً، وعدة بلاد من حماة إلى ديار بكر، فطمع في مملكة الشرق فنفرت عنه وعن عمه صلاح الدين القلوب لعظم طمعهما. ووقع لتقي الدين هذا مع بكتمر [بن عبد الله مملوك شاه أرمن]^(٢) صاحب خِلاط وقائع وحروب، فمات تقي الدين بتلك البلاد، فكتم محمد ولده موته، وحمله إلى ميافارقين، فدُفِنَ بها. وكانت وفاته يوم الجمعة عاشر شهر رمضان، ثم بنيت له مدرسة بظاهر حَمَاة، فنُقِلَ إليها. وكان السلطان صلاح الدين يكره أبنه محمداً فأخذ منه بلاد أبيه، وأبقى معه حماة لا غير. ولقّب محمد هذا بالملك المنصور. وهو أبو ملوك حَمَاة من بني أيوب الآتي ذكرهم. وكان تقي الدين شجاعاً مقداماً شاعراً فاضلاً، عاشر العلماء والأدباء وتخلّق بأخلاقهم، وله ديوان شعر. ومن شعره: [مجزوء الكامل]

(١) هو محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين الأنصاري الشاعر المشهور المتوفى سنة ٦٣٠هـ.

(ابن خلكان: ١٤/٥).

(٢) (٢) زيادة عما سيأتي للمؤلف في حوادث سنة ٥٨٩هـ.

يا ناظِرِيهِ تَرَفَّقَا ما في الوَرَى لكما مُبارِرُ
هَبِّكُم حَجَبْتُمُ أَنْ أَرَا هُ فِهل لِقِلب الصَّب حاجِرُ

وفيها توفي يحيى^(١) السُّهْرَوَرْدِيّ المقتول بحلب؛ كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسيمايا وأبواب النيرنجيات^(٢)، فأستمال بذلك خلقاً كثيراً وتبعوه؛ وله تصانيف في هذه العلوم. وأجتمع بالملك الظاهر آبن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، فأعجب الظاهر كلامه ومال إليه. فكتب أهل حلب إلى السلطان صلاح الدين: أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته؛ فكتب إليه أبوه صلاح الدين بإبعاده فلم يُبعده، فكتب بمنظرته، فناظره العلماء فظهر عليهم بعبارته، فقالوا: إنك قلت في بعض تصانيفك: إن الله قادر على أن يخلق نبياً، وهذا مستحيل. فقال: ما وجه أستحالتة؟ فإن الله القادر هو الذي لا يمتنع عليه شيء. فتعصبوا عليه، فحبسه الظاهر وجرت بسببه خطوب وشناعات. وكان السُّهْرَوَرْدِيّ رديء الهيئة، زري الخلق، دنس الثياب، وسخ البدن، لا يغسل له ثوباً ولا جسماً، ولا يقص ظفراً ولا شعراً، فكان القمل يتناثر على وجهه، وكان من رآه يهرب منه لسوء منظره، وقبح زيّه. وطال أمره إلى أن أمر السلطان بقتله فقتل في يوم الجمعة منسلخ ذي الحجة من هذه السنة، أُخرج من الحبس ميتاً. ومما يُنسب إليه من الشعر القصيدة^(٣) التي أولها: [الكامل]

أبدأً تحنّ إليكم الأرواحُ ووصالكم زيحانها والراحُ
وقلوبُ أهلٍ ودادكم تشناقكم وإلى كمال جمالكم ترتاحُ

وقال السيف الأمدي: اجتمعتُ بالسُّهْرَوَرْدِيّ بحلب، فقال لي: لا بد أن أملك الأرض. فقلت: من أين لك هذا؟ فقال رأيت في المنام أنني شربت ماء

(١) في الأصل: «محمد». والتصحيح عن ابن خلكان والشذرات

(٢) النيرنجيات: أخذ كالسحر وليست به. جمع نيرنج. والسيمايا: علم أسرار الحروف. (انظر في ذلك مقدمة ابن خلدون: ص ٩٣٦ وما بعدها).

(٣) انظر ابن خلكان: ٢٦٨/٦ - ٢٧٤.

البحر؛ فقلت: لعل ذلك يكون أشتهار العلم فلم يرجع؛ فرأيته كثير العلم قليل العقل. ويقال: إنه لما تحقق القتل كان كثيراً ما يُشيد: [الهج]

أرى قَدَمِي أراق دَمِي وهان دمي فيها نَدَمِي

والأول قول أبي الفتح البُستِي وهو قوله: [الهج]

إلى حَنَفِي سَعَى قَدَمِي أرى قَدَمِي أراق دَمِي
فلا أنفك من نَدَمٍ وليس بنافعي نَدَمِي

وفيها تُوفي الشيخ نجم الدين الخُبوشاني. قال صاحب المرأة: «قدم إلى الديار المصرية وأظهر الناموس وتزهد، وكان يركب الجمار فيقف على السلطان صلاح الدين وأهله. وأعطاه السلطان مالاً فبنى به المدرسة^(١) التي بجانب الشافعي — رحمة الله عليه — وكان كثير الفتن — منذ دخل مصر إلى أن مات — ما زالت الفتنة قائمة بينه وبين الحنابلة [و] ابن الصابوني وزين الدين بن نُجَيَّة^(٢)، يكفرونه ويكفرهم؛ وكان طائشاً مُتَهَوِّراً، نبش على ابن الكيزاني وأخرج عظامه من عند الشافعي، وقد تقدّم ذلك. وكان يصوم ويُفطر على خبز الشعير، فلما مات وُجد له ألوف الدنانير، وبلغ صلاح الدين فقال: يا خيبة المَسْعَى! ومات في صفر. وتولّى بعده — تدريس مدرسة الشافعي التي بناها — شيخُ الشيوخ صدر الدين ابن حَمَوِيهِ^(٣)». انتهى كلام صاحب المرأة باختصار بعد أن ثلّب الخُبوشاني المذكور بمساويء أضربت عن ذكرها — رحمه الله تعالى —.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن عليّ الخِرَقِيّ اللّخميّ في ذي القعدة، وله ثمان وثمانون سنة. وأبو المعالي عبد المنعم بن عبد الله بن محمد الفراوي في شعبان. وصاحب حماة

(١) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء، حاشية (٣).

(٢) كذا في الشذرات وابن خلكان. وفي الأصل: «ابن عشة». وانظر ما سيأتي ذكره للمؤلف في وفيات سنة

(٣) سيأتي ذكره في وفيات سنة ٦١٧ هـ.

المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب. ونجم الدين محمد بن الموفق الخبوشاني الشافعي الزاهد. والشهاب السهروردي الفيلسوف. ويعقوب بن يوسف الحرابي المقرئ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وأربع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية والعشرون من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

فيها توفي سنان بن سليمان، صاحب الدعوة^(١) بقلاع الشام. كان أصله من البصرة من حصن ألموت^(٢)، فرأى منه صاحب الأمر بتلك البلاد نجابةً وشهامةً وعقلاً وتدبيراً، فسيره إلى حصون الشام، فسار حتى وصل إلى البلاد الشامية، وكان فيه معرفة وسياسة. وجدّ في إقامة الدعوة وأستجلاب القلوب، وكان مجيئه إلى الشام في أيام السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد. فجرت له معه حروب وخطوب، وأستولى سنان على عدّة قلاع وأقام والياً ثلاثين سنة والبعوث ترد عليه في كلّ قليل من قبل نور الدين. ثم إنَّ السلطان نور الدين عزم على قصده فتوفي. وأقام سنان على ذلك إلى أن توفي ببلاد الشام في هذه السنة.

وفيها توفي علي بن أحمد الأمير سيف الدين بن المشطوب ملك الهكارية^(٣). وكان أميراً شجاعاً صابراً في الحروب مُطاعاً في قبيلته؛ دخل مع أسد الدين شيركوه

(١) أي الدعوة الإسماعيلية. وتسمى تلك القلاع بقلاع الدعوة. وهي قلاع: العليقة، والمينقة، والكهف، والخبابي، والمرقب، والقدموس، والرصافة، ومصيف. (التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري: ٢٣٦).

(٢) تقع أطلال قلعة ألموت على قمة صخرة شاهقة يكاد يتعذر ارتقاؤها في قلب جبال ألبرز على مسيرة يومين من شمالي الشمال الشرقي لقزوين. (دائرة المعارف الإسلامية: ٣٧٢/٤).

(٣) الهكارية: جنس من الأكراد.

إلى مصر في مرّاته الثلاث، ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين إلى البلاد الشاميّة، فدام بها إلى أن مات في آخر شوال. وقال ابن شدّاد: مات بالقدس وصُلِّي عليه بالجامع الأقصى.

وفيها توفّي السلطان قُليج أرسلان بن مسعود بن قُليج أرسلان بن سليمان بن قُتلمش بن إسرائيل بن سلجوق، الملك عزّ الدين السلجوقيّ صاحب بلاد الروم. طالت أيامه وآتست ممالكه. ولما أسنّ أصابه الفالج فتعطّلت حركته، وتنافس أولاده في الملك، وحكم عليه ولده قُطب الدين ملكشاه، وقُتل كثيراً من خواصّه في حياة أبيه. وكان قطب الدين مُقيماً بسبّواس وأبوه بقونية. ثم جاء إلى أبيه يقاتله فأخرج إليه العساكر، فالتقاهم قطب الدين وكسرهم وبدّد شمل أصحاب أبيه، ثم ظفر بأبيه فأخذه مُكرهاً وحمله إلى قيسارية، ووقع له معه أمور أُخر. وآخر الأمر أنه عهد إلى ولده غياث الدين بالملك ولم يَعْهد لقطب الدين. وكانت وفاته في نصف شعبان.

وفيها توفّي نصر بن منصور أبو المرفه النُميريّ الشاعر المشهور، منسوب إلى نُمير بن عامر بن صَعَصَعَة. وُلِدَ بركة الشام، وأمّه بنت سالم بن مالك صاحب الرحبة، ورُبِّيَ بالشام وعاشر الأدباء وقال الشعر وهو ابن ثلاث عشرة سنة. وقُلَّ بصره بالجُدريّ وله أربع عشرة سنة. وقَدِمَ بغداد ليداوي عَيْنِيه فأيسه الأطباء، فحفظ القرآن وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - وكان طاهر اللسان عفيفاً ديناً. وله مدائح في صلاح الدين وغيره. ومن شعره - رحمه الله تعالى - : [الوافر]

تُرى يتألف الشملُ الصديقُ	وَأَمِنْ مِنْ زَمَانٍ مَا يَرُوعُ
وتأس بعد وحشتنا بنجدٍ	منازلنا القديمة والرُبُوعُ
ذكرت بأيمن العلمين عَصراً	مضى والشمل مُلْتَمِمْ جميعُ
فلم أملك لدمعي ردّ غَرْبٍ	وعند الشوق تَعْصِيكَ الدموعُ
ينازعني إلى خُنساء قلبي	ودون لقاءها بلدٌ شَسُوعُ
وأخوف ما أخاف على فؤادي	إذا ما أنجد البرقُ اللمُوعُ

لقد حُمِلَتْ من طول التنائي عن الأحباب ما لا أستطيع

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الفقيه أحمد ابن الحسين بن عليّ العراقي الحنبليّ بدمشق. والمحدث أبو الفضل إسماعيل بن عليّ الجنزويّ الشروطيّ بدمشق في سلخ جمادى الأولى. وأبوياسر عبد الوهاب [بن هبة الله بن عبد الوهاب]^(١) بن أبي حبة الدقاق بحرّان في شهر ربيع الأول. وأبو جعفر عبيد الله بن أحمد [بن عليّ بن عليّ]^(١) بن السّمين. والأمير الكبير سيف الدين عليّ بن أحمد الهكاريّ المشطوب في شوال بالقدس. وصاحب الروم قليج أرسلان بن مسعود السلجوقيّ. والنّسابة أبو عليّ محمد بن أسعد الحسينيّ الجوّانيّ بمصر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وثلاث وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

(١) زيادة عن الذهبي في تاريخ الإسلام.

ذكر سلطنة الملك العزيز عثمان^(١) على مصر

هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان سلطان الديار المصرية وأبن سلطانها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الأيوبي الكردي الأصل المصري.

ولي سلطنة مصر في حياة والده صورة؛ ثم تسلطن بعد وفاته استقلالاً باتفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر، لأنه كان نائباً عن أبيه صلاح الدين بها لما كان أبوه مشغولاً بفتح السواحل بالبلاد الشامية وتم أمره. وكان مولده بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة. وكان الملك العزيز هذا أصغر من أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وأصغر من أخيه الأفضل صاحب دمشق. وكان الأفضل هو أكبر الإخوة، وهو المشار إليه^(٢) في أيام أبيه صلاح الدين ومن بعده، وهو الذي جلس للعزاء بعد موت صلاح الدين، وصار هو السلطان الأكبر إلى أن ظهر منه أمور، منها: أنه كان استوزر ضياء الدين^(٣) الجزري، فأساء ضياء الدين السيرة^(٤)؛ وشغف قلوب الجند إلى مصر، وساروا إليها فالتقاهم الملك العزيز

(١) أخاره في. وفيات الأعيان: ٢٥١/٣، وذيل الروصتين: ١٦، ومفرج الكروب: ٨٢/٣، والبداية والنهاية: ١٨/١٣، والدارس في تاريخ المدارس: ٣٧٨/١، وشدرات الذهب: ٣١٩/٤، وبدائع الزهور: ٢٥٠/١، والسلوك: ١٤٢/١، والخطط: ٢٣٥/٢، وشفاء القلوب: ٢٣٥.

(٢) أي كانت ولاية العهد له

(٣) هو صياء الدين ابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٧هـ، صاحب المثل السائر. وهو غير عز الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ وصاحب التاريخ الكامل. وابن الأثير الثالث هو أبو السعادات مجد الدين صاحب كتاب النهاية في غريب الحديث. والثلاثة إخوة.

(٤) أي إنه حسن له إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه.

وأكرمهم، وكانوا مُعظَمَ الصلاحيّة. وأشتغل الأفضل بلهوه. وكان القُدس في يده فعجز عنه وسلّمه إلى نواب الملك العزيز هذا، فبان للناس عجزُ الأفضل. ثم وقعت الوحشة بين العزيز هذا وبين أخيه الأفضل المذكور. وبلغ الفرنج ذلك، فطمعوا في البلاد وحاصروا جبلة^(١)، وكان بها جماعة من الأكراد فباعوها للفرنج. وبرز الملك العزيز من مصر يريد قتال الفرنج في الظاهر، وفي الباطن أخذ دمشق من أخيه الأفضل؛ وعلم الأفضل بذلك فكتب إلى عمّه العادل أبي بكر بن أيوب، وللمشاركة^(٢) بالنجدة، فأجابوه إلى ما يريد؛ وكان مع العادل عدّة بلاد بالشرق، وكان لما توفي أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بالكرك قدم دمشق معزياً للأفضل وأقام عنده أياماً؛ ثم رحل إلى محلّ ولايته بالجزيرة والرّها وسُمّيساط والرّقة وقلعة جعبر وديار بكر وميافارقين؛ وهي البلاد التي كان أعطاها له أخوه صلاح الدين في حياته، وكان له أيضاً مع ذلك بالبلاد الشاميّة الكرك والشوبك.

والمقصود أنّ الملك العزيز هذا لما رحل من مصر إلى نحو دمشق، سار حتى نزل بظاهر دمشق، وقيل بعقبة الشحورة^(٣)؛ وجاء العادل بعساكر الشرق ونزل بمرج عدواء^(٤). فأرسل إليه العزيز يقول: أريد الاجتماع بالعادل؛ فأجتمعا على ظهور خيلهما وتفاوضا؛ فقال له العادل: لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة والعدو ورائنا من كلّ جانب، وقد أخذوا جبلة؛ فأرجع إلى مصر وأحفظ عهد أبيك. وأيضاً فلا تكسر حرمة دمشق، وتطمع فيها كل أحد! وعاد الملك العادل عنه إلى دمشق، وأقام العزيز في منزلته. وقدمت العساكر على الأفضل وبعث العادل إلى العزيز يقول له: ارحل إلى مرج الصفر^(٥)؛ فرحل وهو مريض. وكان قصد العادل أن يُبعده

(١) في السلوك للمقريزي. «جبيل». وفيه أنه كان عليها رحل كردي، أقامه صلاح الدين مستحفظاً بها، فأرضه الفرنج بما حل حتى أسلمها لهم.

(٢) وهم الظاهر غازي بحلب، والمنصور محمد بن تقي الدين بحماة، والأجد مجد الدين بهرام شاه ببعلبك، والمجاهد شيركوه صاحب حمص. (السلوك: ١/١٤٤، وابن الأثير: حوادث سنة ٥٩٠هـ).

(٣) عقبة الشحورة: بلدة بين الكسوة ودمشق في جنوبها. (تقويم البلدان). وفي الأصل: «عقبة سجورا».

(٤) كذا بالأصل. وصوابه: «مرج عذراء». وهو مرج مشهور خارج دمشق قرب قرية يقال لها عذراء

(٥) مرج الصفر: من نواحي دمشق. (معجم البلدان)

عن البلد. فوصل الملك الظاهر غازي من حلب، والملك المنصور من حَمَاة، وشِيرِكُوهُ بن محمد بن شِيرِكُوهُ من حِمص، والأمجد من بعلبك، والجميع نجدةً للأفضل. فقال لهم العادل: قد تقرّر أنه يرحل إلى مصر. وأشتدّ مرض العزيز فأحتاج إلى المصالحة، ولولا المرض ما صالح؛ فأرسل الملك العزيز كبراء دولته فخر الدين إياز جَهَارَكْس^(١) وغيره يحلّف الملوك، وطلب مصاهرة عمّه العادل فزوَّجه ابنته الخاتون. ورجع كلُّ واحد إلى بلده، وذلك في شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وقال العماد الكاتب الأصفهاني: خرج الملوك لتوديع الملك العزيز إلى مرج الصُّفَرِ واحداً بعد واحد. وأوّل مَنْ خرج إليه أخوه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فبات عنده ليلةً وعاد، فخرج إليه أخوه الأفضل صاحب الواقعة، فقام إليه وأعتنقا وبكيا، وأقام عنده أيضاً يوماً، وكان قد فارقه منذ تسع سنين، فلما عاد كتب إلى العزيز من إنشائه من عدّة أبيات: [الوافر]

نَظَرْتُكَ نَظْرَةً مِنْ بَعْدِ تِسْعٍ تَقَضَّتْ بِالتَّفَرُّقِ مِنْ سِنِينَ
وَلَمَّا أَنْفَصَلَ الْعَسَاكِرُ عَنْ دِمَشْقِ شَرَعَ الْأَفْضَلُ عَلَى عَادَتِهِ فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ،
فَأَحْتَجَبَ عَنِ الرَّعِيَّةِ فَسُمِّيَ «الملك النّوَام» وَفَوَّضَ الْأَمْرَ إِلَى وَزِيرِهِ ضِيَاءِ الدِّينِ
الْجَزْرِيِّ، وَحَاجِبِهِ الْجَمَالِ مُحَاسِنِ بْنِ الْعَجْمِيِّ، فَأَفْسَدَا عَلَيْهِ الْأَحْوَالَ، وَكَانَا سَبَباً
لِزَوَالِ دَوْلَتِهِ. وَأَسْتَمَرَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ هَذَا بِمِصْرٍ وَأَمْرُهُ يَنْمُو وَيَزْدَادُ إِلَى سَنَةِ تِسْعِينَ.

وفيها عاد الاختلاف ثانياً بين العزيز والأفضل؛ وسببه إغراء الجند والوسائط. وكان أكبر المحرّضين للعزيز على أخيه الأفضل أسامة، حتّى قال له: إنّ الله يسألك عن الرعيّة، هذا الرجل قد غرق في اللهو وشربه، وأستولى عليه الجَزْرِيُّ وأبنُ العجمي. ثم قال له القاضي آبن أبي عَصْرُون: لا تسلم يوم القيامة. وبلغ الأفضل قولَ أسامة وآبن أبي عَصْرُون فأقلع عمّا كان عليه، وتاب وندم على تفريطه، وعاشر العلماء والصلحاء، وشرّع يكتب مصحفاً بخطّه، وكان خطّه في النهاية، فلم يُعْنِ عنه ذلك.

(١) في الأصل: «سرتكين». وفي ابن الأثير: «أيازجركي» وما أثبتناه عن السلوك.

وتحرّك العزيز يقصده، فسار الأفضل إلى عمّه العادل يستنجد به، فالتقاه العادل على صيفين، فسار معه بعساكر الشرق إلى دمشق؛ وكان الأفضل لما آجتاز بحلب أتفق مع أخيه الظاهر غازي وتحالفا، وجاء إلى حماة ففعل كذلك مع ابن عمّه المنصور. وصار العادل يشير عليه بعزل الجزي عن الوزارة، ويقول له: هذا يخرب بيتك. فصار لا يلتفت إليه فحنق منه. ثم إن العادل سأل الملك الظاهر غازي في شيء فلم يجبه، فغضب لذلك العادل وأنفرد عنهم^(١)، وكتب إلى العزيز يخبره أنه معه، ويستحثه على القدوم إلى دمشق؛ فخرج العزيز من مصر مسرعاً، ثم علم العادل أنه لا طاقة له بالعزيز ولا بالظاهر؛ فراسل الأسديّة الذين كانوا بمصر، وأوعدهم بالأموال والإقطاعات. وكان الملك العزيز قد قدّم عليهم الصلحيّة ممالك أبيه. والأسديّة هم ممالك عمّه أسد الدين شيركوه وحواشيه الأكراد؛ ثم دسّ العادل للأسديّة الأموال، وكان مقدّم الأكراد الأسديّة أبو الهيجاء السمين؛ وكان العزيز قد عزّله عن ولاية القدس، وتقدمت الأسديّة بسيف الدين جرديك؛ فركب أبو الهيجاء بجموعه، ومعه أركش في الليل، وقصدوا دمشق، فأصبح العزيز فلم ير في الخيام من الأسديّة أحداً، فرجع إلى مصر. وشرع أركش وأبو الهيجاء والأسديّة يحرضون العادل على أخذ مصر؛ وكانت الأسديّة والأكراد يكرهون العادل، وإنما دعتهم الضرورة إليه. وأتفق العادل مع ابن أخيه الأفضل وسارا إلى جهة العزيز نحو مصر. فلما وصلوا إلى القدس ولّوا أبا الهيجاء كما كان، وعزلوا جرديك عنها؛ ثم ساروا حتّى نزلوا بلبس وبها جماعة من الصلحيّة. فتوقّف العادل عن القتال ولم ير أنتزاع مصر من يد العزيز، وظهّرت منه قرائن تدلّ على أنه لا يؤثر السلطنة للأفضل، ولا يرى بتقدمته على العزيز. فأرسل العادل إلى العزيز يطلب منه القاضي الفاضل، وكان الفاضل قد اعتزلهم وأنقطع إلى داره، فأرسل إليه العزيز يسأله فامتنع، فتضرّع إليه وأقسم عليه، فخرج إلى العادل، فأحترمه العادل وأكرمه وتحدّث معه بما قرّره، وعاد الفاضل إلى العزيز وتحدّث معه، فأرسل العزيز ولديه الصغيرين مع

(١) يعزو ابن الأثير ما حدث في تلك السنة من الوحشة بين الظاهر والعادل إلى عدم وثوق الظاهر صاحب حلب بحسن نيّة عمه العادل نحو أولاد أخيه. (انظر الكامل: ٢٤٢/١٠).

خادم له برسالة ظاهرة، مضمونها: «لا تقاتلوا المسلمين ولا تَسْفِكُوا دماءهم، وقد أنفدت ولديّ يكونان تحت كفالة عمي العادل، وأنا أنزل لكم عن البلاد وأمضي إلى الغرب». وكان ذلك بمشهد من الأمراء، فرقّ العادل وبكى مَنْ حَضَرَ. فقال العادل: معاذ الله ما وصل الأمر إلى هذا الحدّ.

وكان العادل قد قرّر مع القاضي الفاضل ردّ خبز^(١) الأَسديّة وإقطاعاتهم وأملاكهم، وأن يبقيّ أبو الهيجاء على ولاية القدس. ثم قال العادل للأفضل: المصلحة أن تمضي إلى أخيك وتصلحه، ما عذرنا عند الله وعند الناس إذا فعلنا بآبن أخينا ما لا يليق!. وكان العزيز أرسل يقول للعادل مع الخادم المقدم ذكره: «البلاد بلادك وأنت السلطان ونحن رعيّتك». ففهم الأفضل أنّ العادل رجع عن يمينه، وأنّه آتفق مع العزيز على أخذ البلاد منه، لكنّه لم يمكنه الكلام، ومضى إلى أخيه الملك العزيز وأصطلحا، وعاد إلى دمشق. ودخل العزيز والعادل والأَسديّة إلى القاهرة يوم الخميس رابع ذي الحجّة. وسلطن العادلُ العزيزَ ومشى بين يديه بالغاشية^(٢). ولو أراد العادل مصرَ في هذه المرّة لأخذها؛ وإنّما كان قصده الإصلاح بين الإخوة.

ثم وقع بين العزيز هذا والأفضل ثالثاً؛ وهو أنّه لَمّا عاد الأفضل إلى دمشق أزداد وزيره الجَزريّ من الأفعال القبيحة، والأفضل يسمع منه ولا يخالفه، فكتب قيمار النّجميّ وأعيان الدولة إلى العادل يشكونه، فأرسل العادل إلى الأفضل: «إرفع يد هذا الأحمق السيّء التدبير القليل التوفيق»، فلم يلتفت. فاتّفق العادل مع ابن أخيه العزيز هذا على التوجّه إلى الشام فسارا. وأستشار الأفضل أصحابه، فكلّ

(١) في الأصل: «خبز». والخبز لغة ذلك العصر هو الإقطاع.

(٢) الغاشية: أصل الغاشية السرج أو الغطاء المزركش الذي يوضع على ظهر الفرس وفوق البرذعة. وكان سلاطين الأيوبيين - ومن بعدهم الماليك - يخرجون في المواكب وبين أيديهم غاشية. ويقول القلقشندي: «وهي غاشية سرج من أديم مخزوزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحفلة، ويحملها الركابدار، يلفتها يميناً وشمالاً (صبح الأعشى: ٤/٧، ٤٧).

أشار عليه بأن يلتقي عمّه العادل وأخاه العزيز ولا يخالفهما إلاّ الجَزْرِيّ، فإنّه أشار بالعصيان، فأستعد الأفضل للقتال والحصار وحلّف الأمراء والمقدّمين، وفرّقهم في الأبراج والأسوار، فراسلوا العزيز والعادل وأصلحوا أمرهم في الباطن؛ وأتفق العادل مع عزّ الدين الجِمَصِيّ على فتح الباب الشرقي؛ وكان مُسَلِّماً إليه، فلما كان يوم الأربعاء سادس عشرين شهر رجب ركب العادل والعزيز وجاءا إلى الباب الشرقيّ ففتحه آبن الجِمَصِيّ فدخلوا إلى البلد من غير قتال؛ فنزل العزيز دار عمته ستّ الشام، ونزل العادل دار العَقِيْقِيّ، ونزل الأفضل إليهما وهما بدار العَقِيْقِيّ؛ فدخل عليهما وبكى بكاء شديداً، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق إلى صَرْخَد، فأخرج وزيره الجَزْرِيّ في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل، فأخذ أموالاً عظيمة وهرب إلى بلاده^(١).

وكان العزيز قد قرّر مع عمّه العادل أن يكون نائبه بمصر، ويقوم العزيز بدمشق. ثم ندم فأرسل إلى أخيه الأفضل رسالة فيها صلاح حاله. ثم وقعت أمور^(٢) إلى أن سلّم العزيز بَصْرَى إلى العادل، وكان بها الظافر. وأقام العزيز بعد ذلك بدمشق مدة، وصلى الجمعة عند قبر والده بالكلاسة وأمر ببناء القبة والمدرسة إلى جانبها، ثم أمر محيي الدين بن الزكيّ بعمارة المدرسة العزيزيّة، ونقل السلطان صلاح الدين إلى الكلاسة في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. وكان الأفضل قد شرع في بناء تربة عند مشهد^(٣) القَدَم بوصيّة من السلطان صلاح الدين. وكان الملك العزيز إذا جلس في مجالس لهوه يجلس العادل على باب، كأنه برَدَدَارُه^(٤). فلما كان آخر ليلة من مقام العزيز بدمشق، وكانت ليلة الاثنين تاسع شعبان، قال العادل لولده المعظم عيسى: أدخل إلى العزيز فقبّل يده وأطلب منه دمشق، وكان المعظم قد

(١) أي إلى جزيرة ابن عمر على الفرات، وهي موطن آل الأثير، ونسبتهم (الجزري) إليها.

(٢) قارن بالسلوك للمقريزي والكامل لابن الأثير.

(٣) مشهد القدم أو مسجد القدم: من الآثار التي في مدينة دمشق وغوسطها مما يرجى فيه إجابة الدعاء. يقال إن هناك قبر موسى بن عمران، ومسجد الباب الشرقي. (تهذيب تاريخ دمشق).

(٤) البرددار: هو صاحب الستارة، أو ممسك الستارة؛ كان يقف بباب السلطان. واللفظ فارسي مركب من «فردا» أي الستارة، واستعملت «بردا» و«دار» أي ممسك. (صبح الأعشى: ٤٦٨/٥).

راهُق الحُلْم، فدخل إلى ابن عمّه العزيز وقبّل يده وطلب منه دِمَشق، فدفعتها إليه وأعطاه مستحقّه، وقيل: بل آستتاب العادل فيها، ثم أعطاها للمعظم في سنة أربع وتسعين. وكان خروج الملك العزيز من دمشق في يوم تاسع شعبان المذكور. وسار إلى مصر ومضى الأفضل إلى صَرْخَد، وأجتاز العزيز بالقدس فعزّل أبا الهيجاء السمين عن نيابتها، وولّاها لِسُنُقَر الكبير، ومضى أبو الهيجاء إلى بغداد.

وأستمرّ الملك العزيز بمصر، وأستقامت الأمور في أيامه، وعدل في الرعيّة، وعفّ عن أموالها حتّى قيل: إنّ ابن البيسانيّ أخا القاضي الفاضل بذلّ على قضاء المحلّة^(١) أربعين ألف دينار، فعجّل منها عشرين ألفاً، وكان رسوله في ذلك الملك العادل عمّ العزيز المقدّم ذكره، وبذل له عن ترسله خمسة آلاف دينار، وللحاجب أبي بكر ألف دينار، ولجِهاركس ألف دينار. فأجتمعوا على العزيز جميعاً وخاطبوه في ذلك، وألحّ عليه الملك العادل. فقال له العزيز: والله يا عمّ، هذا الرجل بذلّ لنا هذا البذلّ [لا] عن محبّة لنا، والله إنّّه ليأخذ من أموال الرعيّة أضعاف ذلك، لا وليّته أبداً! فرجع العادل عن مساعدته، فلمّا آل الأمر إلى العادل صادر ابن البيسانيّ المذكور، وأخذ منه أموالاً كثيرة إنتهى.

وقال القاضي شمس الدين بن خلّكان في ترجمة الملك العزيز هذا بعد أن ذكر اسمه ولقبه قال: «وكان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً إلى الناس معتقداً في أرباب الخير والصلاح؛ وسمع بالإسكندرية الحديث من [الحافظ]^(٢) السلفيّ، والفقيه أبي طاهر بن عوف الزُّهرّي، وسمع [بمصر]^(٢) من العلامة أبي محمد بن برّيّ النحويّ وغيرهم. ويقال: إنّ والده لما كان بالشام والقاضي الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة عند العزيز ولد للعزيز المذكور ولد، فكتب القاضي الفاضل يهنّئ والده السلطان صلاح الدين بولد ولده، فقال: «المملوك يقبّل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رُشدُه وإرشادُه، وزاد سعده وإسعاده، وكثُر

(١) أي مدينة المحلّة الكبرى، إحدى المدن المصرية القديمة؛ وهي اليوم قاعدة مركز المحلة الكبرى.

(م. رمزي).

(٢) زيادة عن ابن خلّكان.

أولياؤه وعبيده وأحفاده، وأشدت بأعضاده فيهم اعتضاده، وأمنى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده؛ وينهي أن الله تعالى - وله الحمد - رزق الملك العزيز - عز نصره - ولداً مباركاً علياً، ذكراً سرياً، [براً]^(١) زكياً نقياً تقياً؛ من ورثة كريمة بعضها من بعض، وبيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة في السماء، ومماليكه ملوكاً في الأرض». انتهى ما كتبه القاضي الفاضل في التهنته.

قال ابن خلّكان - رحمه الله -: «وكانت ولادة العزيز بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة. وكان قد توجه إلى القيوم، فطرّد فرسه وراء صيد فتقنطّر به فرسه، فأصابته الحمى من ذلك، وحمل إلى القاهرة فتوفي بها في الساعة السابعة من ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة - رحمه الله تعالى - قال: ولما مات كتب القاضي الفاضل إلى عمّه العادل رسالة يُعزيه، من جملتها:

«فنقول في توديع النعمة بالملك العزيز: لا حول ولا قوة إلا بالله قول الصابرين، ونقول في استقبالها بالملك العادل: الحمد لله رب العالمين قول الشاكرين؛ وقد [كان]^(١) من أمر هذه الحادثة ما قطع كلّ قلب، وجلب كلّ كرب، ومثّل وقوع هذه الواقعة لكلّ أحد ولا سيما لأمثال المملوك، ومواعظ الموت بليغة، وأبلغها ما كان في شباب المملوك؛ فرحم الله ذلك الوجه ونصره، ثمّ السبيل إلى الجنة يسره.

وإذا محاسن أوجه بليت فعمّا الثرى عن وجهه الحسن

والمملوك في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرصّي قلب وجسد، ووجع أطرافٍ وعليل كبد؛ فقد فجع المملوك بهذا المولى، والعهد بوالده غير بعيد، والأسى في كلّ يوم جديد؛ وما كان ليندمل ذلك القرح، حتى أعقبه هذا الجرح؛ والله تعالى لا يُعديم المسلمين بسلطانهم الملك العادل [السلوة، كما لم يُعدهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم الأسوة]^(١) - وأخذ في نعت الملك العادل إلى أن

(١) زيادة عن ابن خلّكان.

قال: - ودُفِنَ بالقِرافة الصغرى (يعني العزيز) في قُبَّة الإمام الشافعيّ - رضي الله عنه - . وقبره معروف هناك» إنتهى كلام ابن خَلْكان بُرْمَتَه ، ولم يتعرَّض لشيء من أحواله ، ولا إلى ما كان في بداية أمره .

وقال أبوالمظفّر سِبْطُ ابن الجَوْزِيّ في تاريخه: «وفيها (يعني سنة خمس وتسعين) تُوفِّي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر. كان صلاح الدين يُحِبُّه ، وكان جَوَاداً شجاعاً عادلاً منصفاً لطيفاً كثير الخير رقيقاً بالرعيّة حليماً. حكى لي المُبارز سُنقر الحَلْبِيّ - رحمه الله - قال: ضاق ما بيده بمصر (يعني عن العزيز) ولم يبق في الخزانة درهم ولا دينار، فجاء رجل من أهل الصعيد إلى أَرْكُش سيف الدين، قال: عندي للسلطان عشرة آلاف دينار ولك ألف دينار، وتوليني قضاء الصعيد؛ فدخل أَرْكُش إلى العزيز فأخبره؛ فقال: والله لا بُعْتُ دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض! وكتب ورقة لأَرْكُش بألف دينار. قال: أخرج فأطرد هذا الدبر، ولولاك لأدبته .

وقد ذكرنا أنه وهب دِمَشق [للملك] المعظّم ، وكان يُطَلِق عشرة آلاف دينار وعشرين ألفاً . وكان سبب وفاته أنه خرج إلى الفيوم يتصيد، فلاح له ظَبِيٌّ فَرَكُض الفرس خلفه فكبأ به الفرس، فدخل قَرْبُوس [السرج] في فؤاده، فحُمِل إلى القاهرة فمات في العشرين من المحرم، ودفن عند الشافعي - رحمه الله - عن سبع وعشرين سنة وشهور؛ وقيل: عن ثمان وعشرين سنة. ولمّا مات نصَّ على ولده ناصر الدين محمد، وهو أكبر أولاده، وكان له عشرة أولاد، ولم يذكر عمّه العادل في الوصيّة. وأوصى للأمير أَرْكُش، وكان مقدّم الأسدية وكبيرهم، وعاش بعد العزيز مدّة طويلة». إنتهى كلام أبي المظفّر.

وقال ابن القادسيّ - خلاف ما نقل أبوالمظفّر وابن خَلْكان وغيرهما - قال: «كان قد ركب وتبع غزاةً فوق فاندقت عُنْقُه ، وبقي أربعة أيام ومات. ونصَّ على ولده الأكبر محمد إن أمضى العادل ذلك. وكانت الوصيّة إلى أمير كبير اسمه أَرْكُش فوثبت الأسدية عليه فقتلته». إنتهى .

وقال الشيخ شمس الدين يوسف بن قزأوغلي في تاريخه: «ولما مات العزيز كان لابنه محمد عشر سنين، وكان مقدّم الصلّاحية فخر الدين جهار كُرس، وأسد الدين سراً سُتقِر، وزَيْن الدين قراجا؛ فَاتَّفَقُوا على ناصر الدين محمد (يعني ابن العزيز)، وحلّفوا له الأمراء. وكان سيف الدين أُرْكُش مقدّم الأُسديّة غائباً بأَسْوَان، فقديم فِصْوَب رأبهم وما فعلوه، إلّا أنّه قال: هو صغير السن لا ينهض بأعباء الملك، ولا بدّ من تدبير كبير يَحْسِم الموادّ ويقيم الأمور؛ والعاذل مشغول في الشرق بماردين، وما تمّ أقرب من الأفضل نجعله أتائبك العساكر. فلم يمكن الصلّاحية مخالفته. وقالوا: إفعل، فكتب أُرْكُش إلى الأفضل يستدعيه وهو بصرخند، وكتبت الصلّاحية إلى مَنْ بدمشق من أصحابهم يقولون: قد اتَّفقت الأُسديّة على الأفضل، وإن ملكوا حكموا علينا، فأمنعوه من المجيء؛ فركب عسكرُ دمشق ليمنعوه ففاتهم؛ وكان الأفضل قد اتَّقَى نَجَاباً^(١) من جهار كُرس إلى مَنْ بدمشق بهذا المعنى، ومعه كُتِب فأخذها منه وقال: أرجع فرجع إلى مصر. ولما وصل الأفضل إلى مصر اتَّقاه الأُسديّة - نحكي ذلك كلّهُ في أوّل ترجمة الملك المنصور بن العزيز هذا، إن شاء الله -.

وكان الملك العزيز قوياً ذا بطشٍ وخِفّة حركة، كريماً مُحسناً عفيفاً لم يردّ سائلاً؛ وبلغ من كرمه أنّه لم يبقَ له خِزَانة ولا خَاصٌّ ولا تَرْك ولا فَرْش. وأمّا عفته فإنّه كان له غلام تركيّ اشتراه بألف دينار يقال له: أبوشامة، فوقف يوماً على رأسه في خَلوة ليس معهما ثالث، فنظر العزيز إلى جَماله، وأمره أن ينزِع ثيابه، وقعد العزيز منه مكان الفاحشة؛ فأدركه التوفيق ونهض مُسرِعاً إلى بعض سراريه فقضى وَطَرَه، وخرج إلى الغلام وأمره بالخروج عنه». إنتهى.

ويُحكى عن عفته عن الأموال: أنّ عَرَب المحلّة قتلوا بعضَ أمراءه، وكان والي المحلّة ابنَ بَهْرَام، فجباهم عشرة آلاف دينار، وجاء بها إلى القاهرة؛ فصادف في الدّهليز غلاماً خارجاً من عند السلطان؛ فقال ابنُ بَهْرَام: أرجع إلى السلطان وأستأذنه لي؛ فقال الغلام: دعني، أنا في أمرٍ مهمّ للسلطان، قد وهب لشيخ صياد

(١) النجاب: هو حامل البريد

دينارين، وقد سيرني إلى الجهات كلها فلم أجد فيها شيئاً، وقد تعذّر عليه هذا المبلغ اليسير؛ فقال: إرجع إليه، معي مالٌ عظيم. فلما دخل ابن بهرام إلى العزيز فضّ المال بين يديه وقال: هذا دية فلان؛ فقال: أخذتها من القاتل؟ قال: لا، بل من القبيلة؛ فقال العزيز: لا أستجيز أخذه، رُدّه على أربابه، فراجعه فأكفهر؛ فخرج ابن بهرام بالمال وهو يقول: ما يردُّ هذا مع شدّة الحاجة إلاّ مجنون!. فرحم الله هذه الشّيم. إنتهت ترجمة الملك العزيز من عدّة أقوال. رحمه الله تعالى وعفا عنه وعن جميع المسلمين والحمد لله رب العالمين.

* * *

السنة الأولى من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، على أنّ والده السلطان صلاح الدين يوسف حكم منها المحرّم وصفرًا.

فيها كانت وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حسب ما تقدّم ذكره في ترجمته.

وفيها تُوفّي الأمير بُكْتُمُر [بن عبد الله مملوك] (١) شاه أرمن. وعزّ الدين صاحب الموصيل كما سيأتي.

وفيها بنى الخليفة الناصر لدين الله العباسي دار الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها عشرة آلاف مجلد، فيها الخطوط المنسوبة وغيرها.

وفيها تُوفّي أسعد بن نصر بن أسعد النحوي؛ كان إماماً فاضلاً أديباً شاعراً. ومن شعره قوله: [الخفيف]

يجمع المرء ثم يترك ما جمّ عَ مِنْ كَسْبِهِ لِغَيْرِ شُكُورِ
ليس يحظى إلاّ بذكر جميلٍ أو بعلمٍ من بعده ماثور

(١) زيادة عما سيأتي.

وفيها توفي الأمير بُكْتُمُر بن عبد الله مملوك شاه أرمن بن سُكْمَان صاحب خِلاط؛ مات شاه أرمن ولم يخلف ولداً، فاتفق خواصه على بُكْتُمُر فولِّي، وضبط الأمور وأحسن للرعيَّة، وصاحب العلماء؛ وكان حسن السيرة متصدّقاً ديناً صالحاً؛ جاءه أربعة على زيِّ الصوفيَّة فتقدّم إليه واحد منهم فمنعه الجانداريَّة^(١). فقال: دعوه، فتقدّم ويده قصّة فأخذها منه، فضربه بسكين في جوفه فمات في ساعته. فأخذوا الأربعة وفرّروا، فقالوا: نحن إسماعيلية؛ فقتلوا وأحرقوا؛ وذلك في جمادى الأولى.

وفيها توفي السلطان مسعود بن مؤدود بن زُنكي بن آق سُنقر عزّ الدين صاحب الموصِل وأبن أخي السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد. كان خفيف العارضين أسمر مليح اللون، عادلاً عاقلاً محسناً إلى الرعيَّة شجاعاً؛ صبر على حصار السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب له بالموصل ثلاث مرّات، وحفظ البلد وفرّق الأموال العظيمة. وكان ديناً صالحاً؛ خرج من الموصل لقتال الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، وكان العادل على حرّان بعد موت صلاح الدين. فعاد مريضاً ومات في شهر رمضان؛ وكانت أيامه ثلاث عشرة^(٢) سنة وستة أشهر. وأوصى بالملك من بعده لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه، وكان أخوه شرف الدين مؤدود يروم السلطنة، فصيرفت عنه نور الدين هذا فعزّ ذلك عليه.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الشيخ سينان^(٣) بن سليمان البصريّ زعيم الإسماعيلية. وأبو منصور عبد الله بن محمد [بن عليّ بن هبة الله]^(٤) ابن عبد السلام الكاتب. والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحضرميّ بالإسكندرية. وصاحب الموصِل عزّ الدين مسعود بن قطب

(١) الجاندارية: فئة من عمالِك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية. وهي مركبة من لفظين فارسيين أحدهما «جان» ومعناه سلاح، والثاني «دار» ومعناه مملك. ووظيفة الجاندار أنه يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان. (صبح الأعشى: ٢/٤).

(٢) في الأصل: «ثلاثاً وعشرين سنة» والتصحيح عن معجم زاساور والبداية والنهاية.

(٣) ذكر المؤلف وفاته في السنة الماضية.

(٤) زيادة عن الذهبي.

الدين مَوْدُود بن زُنَيْكِي . والمكرم بن هبة الله بن المكرم الصُّوفِيّ . والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب في صفر بقلعة دمشق، وله سبع وخمسون سنة .

أمر النيل في هذه السنة :

الماء القديم ستُّ أذرع وثلاثُ أصابع . مبلغ الزيادة ثمانِي عشرة ذراعاً وثمانِي أصابع .

* * *

السنة الثانية من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر وهي سنة تسعين وخمسمائة .

فيها تُوِّفِي أحمد بن إسماعيل بن يوسف الشيخ الإمام أبو الخير القزويني الشافعي . كان إماماً عالماً بالتفسير والفقه، وكان متعبداً يَحْتَمِ القرآن في كل يوم وليلة . ومولده بقرّوين في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة . وقدم بغداداً ووعظ ومال إلى الأشعريّ، فوقعت الفتنُ . وجلس يوم عاشوراء في النظامية فقتل له : إلّعن يزيد بن معاوية ؛ فقال : ذاك إمام مجتهد، فجاءه الرّجم حتّى كاد يُقتل، وسقط عن المنبر فأدخل إلى بيت في النظامية، وأخذت فتاوى الفقهاء بتعزيره؛ فقال بعضهم يُضرب عشرين سوطاً : قيل له : من أين لك هذا . فقال : عن عمر بن عبد العزيز، سَمِعَ قائلاً يقول : أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فضربه عشرين سوطاً . ثم خُلص القزويني بعد ذلك وأخرج من بغداد إلى قرّوين .

وفيها توفي السلطان طغرل بك شاه بن أرسلان شاه بن طغرل شاه بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقي آخر ملوك السلجوقية بالعراق سوى صاحب الروم . وكان مبدأ أمره — عند وفاة والده — سنة ثلاث^(١) وسبعين وخمسمائة، وكان صغير السن فكفله البهلوان^(٢) إلى أن مات في سنة اثنتين

(١) كذا في ابن الأثير . وفي الأصل : «سنة إحدى وسبعين» .

(٢) هو محمد بن إلكز شمس الدين صاحب بلاد الجبل والري وأصفهان وأذربيجان (ابن الأثير) .

وثمانين، فكفله بعده أخوه^(١) البهلوان لأبيه حتى أنف من الحَجْر وخرج عن يده، وأنضاف إليه جماعة من الأمراء، وكسر عسكر الخليفة وأسرَ ابن يونس^(٢) وهابته الملوك. وكان طُغرُلبك هذا سَفَاكاً للدماء، قَتَلَ وزيره رَضِيَّ الدين الغَزْنَويَّ، وفخر الدين العَلَوِيَّ رئيس هَمْدان. ثم وقع له أمور ومِحْنٌ وأخِذَ وحُبِسَ. وقد تقدّم أن طُغرُلبك هذا آخر ملوك السَّلْجُوقيَّة، وعدَّتْهم نَيْفٌ وعشرون ملكاً، ومدة ملكهم مائة وستون سنة. وأوّل مَنْ ملك منهم طُغرُلبك في سنة اثنتين وثلاثين^(٣) وأربعمائة؛ ثم ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلْجُوق بن دُقْماق، وهو ابن أخي طُغرُلبك؛ ثم بعده ولده ملكشاه؛ ثم ولده محمود؛ ثم أخوه بَرَكيارُوق؛ ثم أخوه محمد شاه؛ ثم ولده محمود؛ ثم واحد بعد واحد. حسب ما ذكرناهم في هذا الكتاب كل واحد في محله. وطغريلبك (بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وبعدها ياء ولام ساكتان). وهو اسم باللغة التركيّة لطائر معروف عندهم. وبك: هو الأمير، واضح لا يحتاج إلى تفسير.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي العلامة رَضِيَّ الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل الطَّالْقَانِيّ القَزْوِينِيّ الشافعيّ الواعظ في المحرم، وله ثمان وثمانون سنة. وطُغرُلبك شاه السلطان ابن أرسلان بن طُغرُل بن محمد بن ملكشاه السَّلْجُوقيّ؛ قتله [في] المصاف خُوارزم شاه تُكش. وأبو المظفر عبد الخالق بن فيروز الجوهريّ. والإمام أبو محمد القاسم بن فيره^(٤) الرُّعِينِيّ الشَّاطِبيّ المقرئ في جمادى الآخرة، وله اثنتان وخمسون سنة. والحافظ محمد بن إبراهيم بن خَلَفَ المَالِقيّ أبو عبد الله بن الفَخَّار بَمَرَأكش. والفخر محمد بن عليّ بن شُعَيْب بن الدّهان الأديب المؤرخ فجأة بالحلة.

أمر النيل في هذه السنة:

(١) هو قزل أرسلان عثمان بن إدكز (ابن الأثير).

(٢) هو وزير الخليفة الناصر لدين الله، كما سيذكر المؤلف في وفيات سنة ٥٩٣ هـ.

(٣) في الأصل: «سنة اثنتين وأربعين» وما أثبتناه عن زاباور.

(٤) ضبطه ابن خلكان بالعبارة، قال: «بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وتشديد الراء وضمها».

الماء القديم ست أذرع وخمس أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً
وأثنتان وعشرون إصباعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة إحدى وتسعين وخمسمائة.

فيها أقطع الملك العزيز فارس الدين ميمون الفَصْرِيّ نابلسَ في سبعمائة
فارس من مُقَاتِلَة^(١) الفرنج.

وفيها كانت وقعة الزَّلَاقَة^(٢) بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الْفَنَشِ
الفرنجيّ ملك طُلَيْطَلَة^(٣)، وكان قد استولى على جزيرة الأندلس وقهر وولاتها،
ويعقوب المذكور مشغول بقتال الخارجين عليه، وبينه وبين الأندلس زُقَاقُ^(٤) سَبْتَة،
وعرضه ثلاثُ فراسخ، فجمع يعقوبُ العساكرَ وعَرَضَ جنده، وكانوا مائتي ألف
[مقاتل: مائة ألف]^(٥) يأكلون الأرزاق، ومائة ألف مُطَوَّعة، وعبرَ الزُقَاقُ إلى مكان
يقال له الزَّلَاقَة^(٦)؛ وألْتَقَوْا فجرى بينهم قتال لم يجر في جاهلية ولا إسلام حتى أنزل
الله نصره على المسلمين. فولَّى الْفَنَشِ هارباً في نفر يسير إلى طُلَيْطَلَة، وغنم
المسلمون ما كان في عسكره. وكان عِدَّة من قُتِل من الفرنج مائة^(٧) ألف وستة

(١) في الأصل: «في مقابلة». والتصحيح من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) هذا خطأ. وصوابه «وقعة الأرك» (Alarcos). أما وقعة الزَّلَاقَة الشهيرة فقد حدثت سنة ٤٧٩ هـ بين
عظيم الجلالقة الأذفونش بن فردلند (ألفونسو بن فرناندو الأول ملك ليون) ويعرف بألفونسو السادس.
ويكرر أبوالمحسن هذا الخطأ مرتين أيضاً: في السنة التالية وهي سنة ٥٩٢ هـ وعند ذكره لوفاة يعقوب
المنصور في حوادث سنة ٥٩٥ هـ. (انظر الحلة السيرة: ١٤٢/٢، والروض المعطار: ٢٧).

(٣) في الروض المعطار: «ملك قشتالة».

(٤) أي مضيق سبتة.

(٥) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٦) كما أشرنا سابقاً أن تلك الوقعة كانت عند حصن الأرك Alarcos، ويسمى اليوم: Santa Maria de
Alarcos، وهو حصن منيع بمقربة من قلعة رباح أول حصون أذفونش بالأندلس. (الروض المعطار).

(٧) في الروض المعطار أن قتل الفرنج بلغ زهاء ثلاثين ألفاً، واستشهد من المسلمين دون الخمسمائة.

وأربعين ألفاً، وعدة الأسارى ثلاثين ألفاً؛ ومن الخيام: مائة ألف خيمة وخمسين ألفاً؛ ومن الخيل ثمانين ألفاً؛ ومن البغال والأموال والجواهر والثياب ما لا يُحَدُّ ولا يُحصَى. ويبيع الأسير من الفرنج بدرهم؛ والسيف بنصف درهم، والحِصان بخمسة دراهم، والحِمار بدرهم. وقسم الملك يعقوب هذه الغنائم بين المسلمين على مقتضى الشريعة، فاستغنوا إلى الأبد. ووصل الفَنَش إلى طُلَيْطَلَة على أقبح وجه، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه وآلى أنه لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرساً حتى يأخذ بالثأر.

وفيهما أعتنى الخليفة الناصر لدين الله العباسي بِحَمَامِ البِطَاقَة^(١) أعتناء زائداً، حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر أنه من ولد الطير الفلاني؛ وقيل: إنه باع طيراً بألف دينار.

وفيهما حجَّ بالناس من بغداد سِنَجَرِ الناصريِّ، ومن الشام سَرَا سُنُقْرَ وَأَيْبِكَ فُطَيْسِ الصلاحيان، ومن مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفري الطالبي.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال. وفيها تُوفِّي أبو القاسم ذاكر بن كامل الخفّاف. والفقير أبو محمد عبد الله الزاهد ابن محمد بن عليّ الأندلسي في المحرم عن بضع وثمانين سنة. وأبو الحسن^(٢) نَجْبَة بن يحيى [بن خَلْف] بن نَجْبَة الإشبيلي المقرئ النحوي.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ست أذرع وإصبعان. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

(١) أي الحمام الرسائلي الذي يحمل الرسائل.

(٢) في الأصل. «أبو المحاسن» والتصحيح والزيادة من طبعة دار الكتب عن غاية النهاية وبغية الوعاة وتكملة الصلة.

السنة الرابعة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر

وهي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

فيها بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمّت الدنيا، ووقع على الناس رمل أحمر، ووقع من الركن اليمانيّ قطعة، وتحرك البيت الحرام مراراً. وهذا شيء لم يُعهد منذ بناه عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - .

وفيها أيضاً كانت الواقعة الثانية بين السلطان يعقوب وبين الفَنش ملك الفرنج بعد أن حشد الفَنش جمعاً كبيراً والتَقوا، فكان بينهم قتلة عظيمة؛ ونصر الله المسلمين. وهزمه يعقوب وتبعه وحصره على الرّلاقة^(١) وبُطليطة ونصب عليها المجانيق وضيق عليها، ولم يبق إلا أخذها. فخرجت إليه والدة^(٢) الفَنش وبناته ونساؤه وبكّين بين يديه، وسألته إبقاء البلد عليهنّ، فرقّ لهنّ ومنّ عليهنّ بها، ولو فتح طُليطة لفتح إلى مدينة النُّحاس. ثم عاد يعقوب إلى قرطبة فأقام بها شهراً يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفَنش أيضاً تسأل الصلح، فصالحه على مدّة معينة .

وفيها تُوفي محمد بن عليّ بن أحمد، الوزير أبو الفضل مؤيد الدين بن القَصّاب. أصله من شيراز، وقدم بغداد وأستُخدم في الديوان، ثم ترقى إلى أن ولي الوزارة وقرأ الأدب والنحو. وكان داهية رديء الاعتقاد إلا أنه كان له خبيرة بالأمور والحروب وفتح البلاد؛ وكان الخليفة الناصر لدين الله يُثني عليه ويقول: لو قبلوا من رأيه ما جرى ما جرى، ولقد أتعب الوزراء من بعده.

وفيها تُوفي محمد بن عليّ بن شعيب، الشيخ أبو شجاع الفرّضيّ الحاسب البغدادي المعروف بابن الدهان. كان فاضلاً عالماً وصنّف تاريخاً من عشر وخمسمائة إلى اثنتين وتسعين وخمسمائة .

وفيها تُوفي محمد بن عليّ بن فارس الشيخ أبو الغنائم [المعروف^(٣) بـ] ابن

(١) راجع ص ١٢٣ حاشية (٢).

(٢) في الأصل. «فخرج إليه ولد الفَنش» وما أثبتناه عن الشذرات.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

المعلم الهُرثيُّ الشاعر المشهور. وهُرْتُ: قرية تحت واسط. كان رقيق الشعر، لطيف المعاني، وله ديوان شعر. ومن شعره القصيدة التي أولها: [الرمل]

لو قَضَى من أهل نجدِ أَرَبَهُ لم يَهْجُ نَشْرُ الخُزَامَى طَرَبَهُ
عَلَّلُوا الصَّبَّ بأنفاسِ الصَّبَا إنَّهَا تَشْفِي النفوسَ الوَصْبَهُ
فهي إن مرَّت عليه نَشِرَتْ ما أنطوى عنه وجَلَّتْ كُرْبَهُ
كَلَّفِي فيكم قديمَ عهدُهُ ما صباباتي بكم مَكْتَسَبَهُ
أين وُزِقَ الجِزْعِ مَنْ لي أن أرى عُجْمَهُ إن لم أشاهد عَرَبَهُ
ومنها:

عن جُفُونِي النومَ مَنْ بَعْدَهُ وإلى جِسمِي الضَّنَا مَنْ قَرَبَهُ
وَصَلُوا الطَّيْفَ إذا لم تصلوا مستهاماً قد قطعتم سَبَبَهُ
وإلى أن تُحْسِنُوا صُنْعاً بنا قد أساء الحُبُّ فينا أَدَبَهُ
وهي أطول من هذا.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي المحدث أبو الرضا أحمد بن طارق الكركي في ذي الحجة ببغداد. وعبد الخالق بن عبد الوهاب بن محمد المالكي الصابوني الخفاف. وأبو الغنائم محمد بن علي بن فارس [المعروف بـ] ابن المعلم الواسطي شاعر العراق عن إحدى وتسعين سنة. والوزير مؤيد الدين محمد بن علي بن القصاب. والعلامة مجير الدين محمود بن المبارك البغدادي الشافعي عن خمس وسبعين سنة. ويوسف بن معالي الكتاني المقرئ بدمشق.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وست وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثمانية عشرة إصبعاً.

السنة الخامسة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على

مصر

وهي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

فيها قَدِمَ حُسامُ الدِّينِ أبو الهَيَّجاءِ السَّمِينِ بِغَدادٍ وخرَجَ الموكِبَ للقاءه، ودخل أبو الهيجاء في زِيٍّ عَظِيمٍ [و] رَتَّبَ الأَطلابَ على ترتيب أهل الشام، وكان في خدمته عدَّةٌ من الأُمراء؛ وأوَّلَ ما تقدَّم من الأُمراء طُلبُ آبن أخيه المعروف بكور الغرس ثم أمير أمير؛ وجاء هو بعد الكلِّ في العُدَّةِ الكاملةِ والسلاحِ التامِّ، وخرج أيضاً أهلُ بَغدادٍ للقاءه، وكان رأسه صغيراً وبطنه كبيراً جداً، بحيث كان بطنه على رقبة البغلة؛ فرآه رجلٌ كَوَّازٍ فَعَمِلَ في الساعةِ كوزاً من طِينِ على هيئته، وسبقه فعَلَّقَهُ في السوق؛ فلَمَّا اجتاز به ضَحِكَ. ثم عَمِلَ بعد ذلك أهلُ بَغدادٍ كِيزاناً سَمَّوها: أبا الهيجاء. وأكرمه الخليفة وأقام له بالضيافات.

قلت: أبو الهيجاء هذا هو الذي عَزَلَهُ الملكُ العزيزُ هذا عن نيابة القُدُسِ بَجُرْدِيكٍ في أوائلِ أمره. حسب ما تقدَّم ذكره في ترجمة العزيز.

وفيها تُوِّفِيَ الأميرُ طُعْتِكِينُ بنُ أيُّوبِ أخو السلطانِ صلاح الدين بن أيوب، ولَقَبَهُ سيف الإسلام. كان والي اليمن، ملكها من زَبِيدٍ إلى حَضْرَمَوْتٍ؛ وكان شجاعاً مقداماً شهماً. وتُوِّفِيَ بِزَبِيدٍ. وولي اليمن بعده ولده شمس الملوك إسماعيل وأدعى الخلافة.

وفيها تُوِّفِيَ عبد الله بن منصور بن عِمْرانِ الشَّيخِ أبو بكر الباقِلَازِيِّ. ومولده في سنة خمسمائة. وأنفرد بالرواية في القراءات العشر، وكان حسن التلاوة. وقَدِمَ بَغدادٍ ومات بواسط في سَلَخِ شهر ربيع الآخر.

وفيها تُوِّفِيَ عُبَيْدُ اللهِ بن يونس بن أحمد الوزير جلال الدين أبو المظفر الحَنْبَلِيُّ، وَلِيَّ حِجَابَةِ الدِّيوانِ ثم استوزره الخليفة؛ وكان إماماً عالماً في الأصلين والحساب والهندسة والجبر والمقابلة، غير أنه شأن أمره بأمور فعلها، منها: أنه

أخرب بيت الشيخ عبد القادر [الجِيلاني] (١) وشتت أولاده، ويقال: إنّه بعث في الليل من نَبَشَ على الشيخ عبد القادر وَرَمَى بعظامه في اللّجة، وقال: هذا وقف ما يحلّ أن يدفّن فيه أحد.

قلت: وما فعله هو بعظام الشيخ أقبح من أن يُدفن بعض المسلمين في بعض أوقاف المسلمين، وما ذاك إلاّ الحسدُ داخله من الشيخ عبد القادر وعِظْمُ شهرته حتّى وقع منه ما وقع؛ ولهذا كان موته على أقبح وجه، بعد أن قاسى خطوباً ومِحناً وحُبس سنين، حتّى أخرج من الحبس ميتاً؛ وهذا ما وقع له في الدنيا، وأمّا الأخرى فأمره إلى الله تعالى. وبالجملة فإنّه كان من مساوىء الدهر.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي سيفُ الإسلام طُغْتِكِين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن في شوال، وولى بعده أبه إسماعيل. ومقرىء العراق أبو عبد الله بن منصور الرّبِيعي الباقِلانيّ بواسط في شهر ربيع الأول عن ثلاث وتسعين سنة. والوزير جلال الدين عبيد الله بن يونس، مات في المَطْمُورَة (٢). وعذراء بنت شاهنشاه بن أيوب ودُفِنَت بالعذراويّة (٣). وقاضي القضاة أبو طالب عليّ بن عليّ بن أبي البركات البُخاريّ الشافعيّ ببغداد. وأبوالمُعَمَّر محمد بن حَيْدرة بن عمر بن إبراهيم العَلَوِيّ الزَيْديّ الرافضيّ. وأبوالفتح الأصْبَهانيّ ناصر الدين بن محمد الوترج في ذي الحجة. وأبوالقاسم يحيى بن أسعد بن بُوْش الخَبّاز في ذي القعدة، عُصَّ بلقمة، وعاش بضعاً وثمانين سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وخمس وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) المطمورة: بلد في ثغور بلاد الروم بناحية طرسوس (معجم البلدان).

(٣) أي التربة التي بالعذراوية. وفيها المدرسة العذراوية، وهي التي بنتها الست عذراء بنت شاهنشاه أحي صلاح الدين. وهي بحارة الغرباء بدمشق داخل باب النصر المسمى بباب دار السعادة. (الدارس في تاريخ المدارس: ٢٨٣/١).

السنة السادسة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر وهي سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

فيها تُوفِّي الأمير جُرْدِيك بن عبد الله النُورِيّ. كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين محمود الشهيد؛ ثم خَدَم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في جميع غزواته وحروبه من يوم قتل شاور بمصر وآبَن الخَشَاب بحلب. وكان أميراً شجاعاً مهيباً جَوَاداً؛ ولّاه صلاح الدين نيابة القُدُس إلى أن أخذها منه الأفضل.

وفيها تُوفِّي زَنكِي بن مودود بن زَنكِي بن آق سنقر عماد الدين صاحب سنجار، وآبَن أخي نور الدين الشهيد. كان عاقلاً جَوَاداً لم يزل مع السلطان صلاح الدين؛ وكان السلطان صلاح الدين يحترمه مثل ما كان يحترم نور الدين، ويعطيه الأموال والهدايا، وكانت وفاته بسنجار. ولَمَّا آخُتَضِر أوصى إلى أكبر أولاده قطب الدين محمد، ولُقِّبَ بالملك المنصور.

وفيها تُوفِّي قِيمَاز بن عبد الله مجاهد الدين الخادم الروميّ الحاكم على الموصل، وهو الذي بنى الجامع المجاهديّ والمدرسة والرِّباط والبِمَارِسْتَان بظاهر الموصل على دجلة ووقف عليها الأوقاف. وكان عليه رواتب بحيث إنّه لم يدع [بالموصل بيتاً] ^(١) فقير إلا أغنى أهله؛ وكان ديناً صالحاً عادلاً كريماً، يتصدّق كلّ يوم خارجاً عن الرواتب بمائة دينار. ولَمَّا مات عزّ الدين مسعود ووليّ ابنه أرسلان شاه حبس قيماز هذا وصيّق عليه وآذاه إلى أن مات في حبسه.

وفيها تُوفِّي يحيى بن سعيد بن هبة الله العلامة أبو طالب قوام الدّين الشّيباني المنشيء الكاتب الواسطيّ الأصل، البغداديّ المولد والدار والوفاة. مولده في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة. وأشتغل بالأدب وبرع في الإنشاء وفنون من العلوم كالفقه وعلم الكلام والأصول والحساب والشعر، وجالس أبا منصور بن الجواليقيّ وقرأ عليه، وسمع أبا القاسم بن الصائغ وغيره؛ وولي للخليفة عدّة خَدَم: حجّبة

(١) زيادة عن الشدرات.

الباب، ثم الأستادارية، ثم كتابة الإنشاء آخر عمره ومات في ذي الحجة . ومن شعره
 - وأحسن فيما قال - : [الخفيف]

بأضطراب الزمان ترتفع الأنـ سذال فيه حتى يعمّ البلاء
 وكذا الماء ساكناً فإذا حُرِّكْ ثارت من قعره الأقداء

قلت: وفي هذين البيتين شرح حال زماننا هذا لكثرة من ترقى فيه من الأوباش إلى الرُتب السنية من كل طائفة؛ وقد أذكرني ذلك واقعة جرت في أول سلطنة الملك الأشرف إينال^(١)، وهي أن بعض أوباش الخاصكية ممن ليس له ذات ولا أدوات وقف إلى السلطان وطلب منه إمرة عشرة، وقال له: يا مولانا السلطان، إِمّا أن تُنعم عليّ بإمرة عشرة وإلا وسّطني هنا؛ وقيل: إنّه تمّدّد ونام بين يديه حتى أخذ إمرة عشرة؛ وهو معروف لا يحتاج إلى تسميته. ومن هذه المقولة شيء كثير، ومع ذلك خرج الزمان وللدولة أعيان، فلا قوّة إلاّ بالله.

وفيها تُوفّي أبو الهَيْجاء السّمين الأميرُ حُسام الدين الكُرديّ المقدم ذكره في عدّة أماكن، وذكرنا أيضاً دخوله إلى بغداد، وأنّه صار من جملة أمراء الخليفة حتى سيّره إلى هَمْدان، فلم يتمّ له أمر، وأختلف أصحابه عليه فاستحيا أن يعود إلى بغداد، فسار إلى الشام ومريض بها ومات بعد أيام. وكان أميراً شجاعاً مقداماً عارفاً متجملاً سيّوساً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأربع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعاً وإصبعاً.

(١) حكم من سنة ٥٨٥٧ هـ إلى سنة ٥٨٦٤ هـ.

شأن سلطنة الملك المنصور محمد^(١) على مصر

اختلف المؤرخون فيمن ولي ملك مصر بعد موت الملك العزيز عثمان أبن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. فمن الناس من قال: أخوه الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ ومنهم من قال: ولده الملك المنصور محمد بن علي. والصواب المقالة الثانية، فإنه كان ولده العزيز من بعده، وإليه أوصى الأمير بالملك؛ وأيضاً مما يُقوّي المقالة الثانية أن المنصور كان تحت كنف والده العزيز بمصر، وكان الأفضل بصرخد، ولم يحضر إلى مصر، حتى تم أمر المنصور وتسلط في بعد موت أبيه. وبيان ذلك أيضاً يأتي فيما نذكره الآن في سياق ترجمة الملك المنصور، فيعرف بهذا السياق من كان في هذه المدة السلطان بمصر إلى حين ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب؛ فنقول:

لما مات الملك العزيز عثمان بديار مصر في العشرين من المحرم أوصى بالملك لأب أكبر أولاده وهو ناصر الدين محمد المذكور، ونص عليه في الوصية؛ وكان للعزيز عشرة^(٢) أولاد، ولم يذكر في الوصية عمه العادل؛ وجعل وصيه الأمير أركش^(٣) مقدّم الأسديّة.

(١) أخباره وترجمته في مسرح الكروب: ٨٧/٣، والسلوك: ١٧٦/١، وشفاء القلوب: ٣٤٠، وبدائع الزهور: ٢٥٢/١، نعت المقيزي: ٢٣٥/٢، والبداية والنهاية: ٢٠/١٣، واس الأثير: أخبار سنتي ٥٩٥ و٥٩٦ هـ، ومعجم رابعاور: ١٥٠.

(٢) في شفاء القلوب: ص ٢٠٠ أنه حلّف من الأولاد أحد عشر هم المنصور محمد، وعلي وعمر وإبراهيم، وعيسى، ومحمود، وفرخساه، ويوسف، ويوس، وأخوان صغيران؛ وخلف ثلاث إناث

(٣) في السلوك للمقيزي أن والده العزيز عثمان أوصى أن يكون مندر أمره الأمر بهاء الدين قراقوش، فأجلس على سرير الملك في غد وفاة أبيه وجعل قراقوش أتابكاً

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي في تاريخه: «كان لابنه محمد عشر سنين وكان مقدّم الصلاحية فخر الدين جهار كس، وأسد الدين سراً سُنقر، وزين الدين قراجا؛ فاتفقوا على ناصر الدين محمد وحلفوا له الأمراء؛ وكان سيف الدين أركش مقدّم الأسدية غائباً بأسوان، فقدم وصوب رأيهم وما فعلوه، إلا أنه قال: هو صغير السن لا ينهض بأعباء الملك، ولا بد من تدبير كبير يحسب المواد ويقيم الأمور، والعدل مشغول في الشرق بمارين، وماتم أقرب من الأفضل نجعله أتاك (١) العساكر، فلم يمكن الصلاحية مخالفة الأسدية وقالوا: أفعلوا ففعلوا. فكتب أركش إلى الأفضل يستدعيه وهو بصرخند. وكتب الصلاحية إلى من بدمشق من أصحابهم يقولون: قد اتفقت الأسدية على الأفضل، وإن ملك الأفضل الديار المصرية حكموا علينا، فأمنعوا الأفضل من المجيء؛ فركب عسكر دمشق ليمنعوه ففاتهم، وكان الأفضل قد ألقى النجائب المتوجه إلى دمشق ثانياً من قبل الصلاحية، وعلى يده الكتب التي تتضمن ما ذكرناه من منع الأفضل من المجيء إلى الديار المصرية، فأخذ الأفضل النجائب وعاد به إلى مصر؛ ولما وصل الأفضل إلى مصر ألتقاه الأسدية والصلاحية، ورأى جهار كس النجائب الذي أرسله، فقال له: ما أسرع ما عدت! فأخبره الخبر، فساق هو وقراجا بمن معهما من وقتهما إلى القدس وتحصنا به. فلما وقع ذلك أشارت الأسدية على الأفضل بقصد دمشق، وأن العادل مشغول بمارين. فكتب الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب يستنجده، فأجابه وقال: أقدم حتى أساعدك. فسار الأفضل بالعساكر المصرية إلى الشام وأستتاب بمصر سيف الدين أركش، ووصل الأفضل إلى دمشق في شعبان من السنة فأحرق بها.

وبلغ هذا الخبر الملك العادل وهو على مارين، وقد أقام عليها عشرة أشهر،

(١) يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين، أولهما «أطا» بمعنى أب، و«بك» بمعنى أمير. وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير من أمرائهم، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير. وكثيراً ما تزوج الأطابك من أم الموصى به، فنصبه العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبوية. ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام (السلوك: ١٧٧/١، حاشية؛ والألقاب الإسلامية: ١٢٢).

ولم يبقَ إلا تسليمتها وصعدت أعلامه على القلعة؛ فلما سمعوا بوفاة العزيز توقّفوا عن تسليمها؛ فرحل الملك العادل أبو بكر عنها، وترك على حصارها ولده الكامل محمداً الآتي ذكره في سلاطين مصر - إن شاء الله تعالى - وسار العادل إلى نحو الشام فوصلها ومعه جماعة من الأمراء؛ وكان الأفضل نازلاً في الميدان الأخضر فأشار عليه جماعة من الأمراء أن يتأخّر إلى مشهد القدم [حتى يصل الظاهر وصاحب جَمص والأمرء] (١).

ودخل العادل ومن معه إلى دمشق، وجاء الظاهر بعسكر حلب، وجاء عسكر حَمَاة وجمص، وبشارة من بانياس، وعسكر الحصون، وسعد الدين مسعود صاحب صفد، وضايقوا دمشق وبها العادل، وكسروا باب السلامة (٢)؛ وجاء آخرون إلى باب الفراديس (٣)، وكان العادل في القلعة وقد استأن إلى جماعة من المصريين مثل ابن كهدان وميثقال الخادم وغيرهما. فلما بلغه أنّ ابن الحنبلي وأخاه شهاب الدين وأصحابهما قد كسروا باب الفراديس ركب من وقته وخرج إليهم وجاء إلى جيرون (٤) والمجدد أخو الفقيه عيسى قائم على فرسه يشرب الفُقّاع (٥)، ثم صاح العادل: يا فعلة يا صنعة إلى ها هنا! فلما سمعوا كلامه أنهزموا وخرجوا؛ فأغلق العادل باب السلامة، وجاء إلى باب الفراديس فوجدهم قد كسروا الأقفال بالمرزبات؛ فقال: من فعل هذا؟ قالوا: الحنابلة؛ فسكت ولم يقل شيئاً. وقال أبو المظفر: وحكى لي المعظم عيسى - رحمه الله - قال: [لما] (٦) رجعنا من باب الفراديس [و] (٦) وصلنا إلى باب مدرسة الحنابلة رُمي على رأس أبي (يعني العادل) حُب (٧) الزيت فأخطأه فوقع في رقة الفرس فوقع ميتاً، فنزل أبي وركب غيره ولم ينطق بكلمة، وجاء

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) باب السلامة: من أبواب دمشق إلى جهة الشمال.

(٣) باب الفراديس: شمالي دمشق أيضاً. منسوب إلى محلة كانت خارج الباب تسمى الفراديس.

(٤) جيرون: هي مدينة دمشق.

(٥) الفُقّاع: شراب يتخذ من الشعير، مسكر.

(٦) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٧) أي جرة الزيت.

جَهَارَكْس وَقَرَا جَا فِي اللَّيْلِ مِنْ جَبَلِ سَنِير^(١) وَدَمَشَقَ دِمَشَقِ. وَأَمَّا الْمَوَاصِلَةُ فَسَاقُوا عَلَى الْكَامِلِ مُحَمَّدَ فَرَحْلُوهُ عَنْ مَارِدِينَ، فَجَاءَ أَيْضاً بِمُصَدِّ دِمَشَقِ، وَجَمَعَ التُّرْكُمَانَ وَغَيْرَهُمْ.

وَأَمَّا أَمْرُ دِمَشَقِ فَإِنَّهُ لَمَّا أَشْتَدَّ الْحِصَارُ عَلَيْهَا، وَفَطَعُوا أَشْجَارَهَا وَمِيَاهَهَا الدَّاخِلَةَ إِلَيْهَا، أَنْقَطَعَتْ عَنْ أَهْلِهَا الْمِيرَةَ وَضَجُّوا، فَبَعَثَ الْعَادِلُ إِلَى أَبِي أَخِيهِ الظَّاهِرِ غَازِي صَاحِبِ حَلَبٍ يَقُولُ لَهُ: أَنَا أَسَلَّمُ إِلَيْكَ دِمَشَقَ عَلَى أَنْ نَكُونَ أَنْتَ السُّلْطَانَ، وَتَكُونَ دِمَشَقَ لَكَ لِأَفْضَلِ. فَطَمِعَ الظَّاهِرُ وَأَرْسَلَ إِلَى الْأَفْضَلِ يَقُولُ: أَنْتَ صَاحِبُ مِصْرَ فَأَثَرْنِي بِدِمَشَقِ، فَقَالَ الْأَفْضَلُ: دِمَشَقُ لِي مِنْ أَدْنَى. وَإِنَّمَا أُخِذْتُ مِنِّْي غَضَبًا، فَلَا أُعْطِيهَا لِأَحَدٍ؛ فَوَقَعَ الْخُلْفَ بَيْنَهُمَا وَوَقَعَ التَّبَاعُدُ، وَخَرَجَتْ السَّنَةُ عَلَى هَذَا.

ثُمَّ دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّادِسَةُ وَالتَّسْعُونَ، وَالْحِصَارُ عَلَى دِمَشَقِ. وَكَانَ أَتَابِكُ أَرْسَلَانَ شَاهٍ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ قَدْ رَحَّلَ الْكَامِلُ مِنْ مَارِدِينَ كَمَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ. فَقَدِمَ الْكَامِلُ دِمَشَقَ وَمَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ التُّرْكُمَانَ وَعَسْكَرٌ حَرَّانَ وَالرُّهَّاءَ، فَتَأَخَّرَ الْأَفْضَلُ بِالْعَسَاكِرِ إِلَى عَقَبَةِ الشُّحُورَةِ^(٢) فِي سَابِعِ عَشَرَ صَفَرٍ. وَوَصَلَ الْكَامِلُ فِي تَاسِعِ عَشْرِهِ فَنَزَلَ بِجَوْسَقِ^(٣) أَبِيهِ عَلَى الشَّرْفِ^(٤)، ثُمَّ رَحَلَ الْأَفْضَلُ إِلَى مَرَجِ الصُّفْرِ^(٥)، وَرَحَّلَ الظَّاهِرُ إِلَى حَلَبٍ، وَأَحْرَقُوا مَا عَجَزُوا عَنْ حَمَلِهِ.

وَسَارَ الْأَفْضَلُ إِلَى مِصْرَ. وَأَحْضَرَ الْعَادِلُ بَنِي الْحَنْبَلِيِّ: النَّاصِحَ وَأَخَاهُ شَهَابَ الدِّينِ وَغَيْرَهُمَا، وَكَانَ الْأَفْضَلُ قَدْ وَعَدَ النَّاصِحَ بِقَضَاءِ دِمَشَقِ، وَالشَّهَابَ بِالْحِسْبَةِ، فَقَالَ لَهُمُ الْعَادِلُ: مَا الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى كَسْرِ بَابِ الْفَرَادِيسِ، وَمُظَاهَرَةِ

(١) جبل سنير: جبل بين حمص وبعبلبك (معجم البلدان).

(٢) راجع ص ١١٠، حاشية (٣).

(٣) الجوسق: القصر.

(٤) الشرف: مكانان مرتفعان يطلان على دمشق أحدهما الشرف الأعلى والثاني الشرف الأدنى. وفي كل منهما

عدة من المدارس والمساجد. (عن طبعة دار الكتب، ص ١٤٩، حاشية - وانظر الدارس في تاريخ

المدارس: ١/١٢٦، ١٣٢، ٣٤٨، ٣٨٦) ويسعمل الاسم بصيغة التثنية فيقال: «الشرفين». (انظر

السلوك: ١/١٧٩).

(٥) مرج الصفر: موضع بين دمشق والجولان (معجم البلدان)

أعدائي عليّ، وسفك دمي؟ فقال له الناصح: أخطأنا وما ثمّ إلّا عَفْو السلطان. ثم ساق أبو المظفر كلاماً طويلاً محصولة العفو عن الحنابلة، إلى أن قال -:

وأما الأفضل فإنه سار إلى مصر، فأرسل العادل وراهه^(١) [أبامحمد] نجيب الدين إليه بالزَّبَدَانِي^(٢) يقول [له]: ترفّق، فأنا لك مثل الوالد، وعندني كلُّ ما تريد. فقال الأفضل: قل له: إن صحّت مقاتلك فأعدّ عنك أعدائي الصّلاحيّة. وبلغ ذلك الصّلاحيّة، فقالوا للعادل: إيش قعودنا هنا؟ قم بنا، وساروا خلف الأفضل مرّحلةً مرّحلةً مرحلة؛ فنزل الأفضل بلييس ونزل العادل السائح^(٣)؛ فرجع الأفضل وضرب معهم المصافّ، وتقاتلوا فأنكسر الأفضل وتفرّق عنه أصحابه؛ ورَحَلَ إلى القاهرة وأغلق أبوابها. وجاء العادل فنزل البرّكة^(٤)، ودخل سيفُ الدين أُرْكُش بين العادل والأفضل، وأنفقوا أن يعطيه العادل مَيّافَارِقِينَ وَجَبَلْ جُور^(٥) وديار بكر، ويأخذ منه مصر؛ فاتفق الأمر على ذلك.

ورَحَلَ الأفضل من مصر في شهر ربيع الآخر، ودخل العادل إلى القاهرة، وأحسن إلى أُرْكُش، وقال للأفضل: جميعُ مَنْ كان معك كاتبني إلّا سيفَ الدين أُرْكُش. ثمّ قدّم العادل أُرْكُش المذكور وحكّمه في البلاد، وردّ القضاء إلى صدر الدين عبد الملك بن دِرْبَاس الكُرْدِيّ، وولّى شيخَ الشيوخ ابنَ حَمُويه التدريسَ بالشافعيّ ومَشْهَدَ الحُسَيْن والنظر في خانقاه الصّوفيّة، وجلس الوزير صفّيّ الدين عبد الله بن عليّ بن شُكْر في دار السلطنة في حُجْرَةِ القاضي الفاضل، ونظر في الدواوين. وسار الأفضل إلى مَيّافَارِقِينَ. وآستدعى العادل ولده الكامل إلى مصر فخرج من دمشق في ثالث عشرين شعبان وودّعه أخوه الملك المعظّم عيسى

(١) في الأصل: «ولده». والتصحيح والزيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الرومان.

(٢) الزبداني: كورة بين دمشق وبعليك. ويمرّ فيها نهر الربداني.

(٣) السائح: هذا الاسم كان يطلق على منطقة الأراضي الواقعة على جاني التربة السعيدية في المسافة الواقعة بين سواده والصاحية بمركز فاقوس بمديرية الشرقية. (محمد رمزي).

(٤) أي بركة الحجاج. وقد سبق التعريف بها.

(٥) جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية (معجم البلدان).

إلى رأس الماء^(١). قال العماد الكاتب: وسرتُ معه إلى مصر وأنشدته: [البسيط]

دعتك مصرُ إلى سلطانها فأجِبْ دعاءها فهو حقُّ غيرُ مكذوبِ
قد كان يهضمني دهري فأدركني محمدُ بن أبي بكر بن أيوب

ووصل الكامل إلى مصر في عاشر شهر رمضان، وألتقاه أبوه العادل من العباسة^(٢)، وأنزله في دار الوزارة. وكان قد زوجه بنت أخيه صلاح الدين فدخل بها. ولم يقطع العادل الخطبة لولد العزيز.

قلت: وهذا ممّا يدلُّ أيضاً على أنّ الأفضل كان عند الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بمنزلة الأتابك. والظاهر أنّه كان ظنُّ الأفضل إذا تمّ أمره مع عمّه العادل هذا استقلّ بالملك، فلم يقع له ذلك؛ ولهذا لم نذكره في ملوك مصر، وما ذكرناه هنا إلّا في ضمن ترجمة المنصور صاحب الترجمة.

قال: ثم إنّه جمع الفقهاء (يعني الملك العادل) وقال لهم: هل يجوز ولاية الصغير على الكبير؟ فقالوا: الصغير مولى عليه. قال: فهل يجوز للكبير أن ينوب عن الصغير؟ قالوا: لا، لأنّ الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصحّ النيابة! فعند ذلك قطع خطبة ابن العزيز (يعني عن المنصور صاحب الترجمة) وخطب لنفسه ولولده الكامل من بعده^(٣). ونقّص النيْلُ في هذه السنة ولم يبلغ ثلاث عشرة ذراعاً. ووقع الغلاء بديار مصر.

قلت: وعلى هذا يكون أوّل سلطنة العادل على مصر في يوم خُطب له بمصر؛ وهو يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة.

(١) رأس الماء: موضع بالقرب من حوران (ابن الأثير: ٢٦٥/١٠).

(٢) العباسة: قرية بين بليس والصالحية. وهي أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية. وسميت باسم العباسة بنت أحمد بن طولون، فإنها خرجت إلى هذا الموضع مودعة لنت أخيها قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما حملت إلى الخليفة المعتصم العباسي. وقد ضربت هناك فساطيطها، ثم بنيت هناك قرية فسميت باسمها. (خطط المقرئ: ٢٣٢/٢).

(٣) قارن بالسلوك: ١٨٣/١ باختلاف عما هنا.

قال ابن المُستوفى^(١) في تاريخ إربيل: فتكون أوّل سلطنة الملك العادل من هذا اليوم، ولا عِبْرَةَ بِأَسْتِيلائه على مصر قبل ذلك. وعلى هذا أيضاً تكون مدّة الملك المنصور محمد صاحب الترجمة على سلطنة مصر سنة واحدة وتسعة أشهر سواء، فإنّ والده العزيز عثمان مات في عشرين المحرم من سنة خمس وتسعين وخمسمائة فتسلطن من يوم موت أبيه، وخُلِعَ في العشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة. إنتهى. ولم أقف على وفاته^(٢) الآن.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر يوسف على مصر

وهي سنة خمس وتسعين وخمسمائة؛ على أنّ الملك العزيز والده حَكَمَ منها نحو العشرين يوماً من المحرم كما تقدّم ذكره.

فيها حجّ بالناس من بغداد مظفر الدين وجه السَّبْع.

وفيها كانت وفاة الملك العزيز عثمان حسب ما تقدّم ذكره في ترجمته.

وفيها تُوفّي يحيى بن عليّ بن الفضل أبو القاسم بن فضلان مدرّس النّظاميّة؛ كان فقيهاً بارعاً؛ قديم بغداد وناظر وأفتى ودرّس، وكان مقطوع اليد؛ وقع من الجمل فعملت عليه يده فخيف عليه ففُطِعت. وكانت وفاته في شعبان. ومن شعره:
— رحمه الله تعالى —: [الكامل]

وإذا أردت منازل الأشرافِ فعليك بالإسعاف والإنصافِ
وإذا بغى باغٍ عليك فخلّه والدهر فهو له مكافٍ كافٍ

(١) هو أبو البركات المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب، شرف الدين المعروف بابن المستوفى الإربلي. توفي سنة ٥٦٣٧ هـ. (وفيات الأعيان: ١٤٧/٤).

(٢) بعد أن خلعه العادل، أرسله إلى دمشق مع إخوته وإخواته وأمههم، ومنها إلى الرها، فهربوا إلى حلب؛ ونشأ المنصور بها، وجعله صاحبها الملك الظاهر في جملة أمراته. واستمر على حاله إلى أن توفي سنة ٥٦٢٠ هـ. (الأعلام: ٢٦١/٦) وانظر السلوك: ١٨٤/١.

وفيها تُوفِّي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملك المنصور أبو يوسف صاحب المغرب. كان مَلِكاً مُغَازِيّاً مجاهداً، وهو الذي كَسَرَ أَلْفَنْش ملك الفرنج المقدم ذكره على الزَّلَاقَة^(١)، وهو أعظم ملوك المغرب وأحسنهم سيرةً لِمَا كان جمع من المحاسن: الدِّين والصلاح والشجاعة والكرم والحزم والعزم، ودام في مُلكه إلى أن مات في شهر ربيع الأوّل بعد أن أوصى بالمُلك إلى ولده أبي عبد الله محمد. وكانت مدّة أيامه خمس عشرة سنة. وفيه يقول شاعره أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مُجِير الأَنْدَلُسِيِّ المُرْسِيِّ قصيدته المطوّلة، وعدّة أبياتها مائة وسبعة أبيات. أولها: [المديد]

أُتْرَاه يَتْرُكُ الْغَزْلَا وَعَلَيْهِ شَبٌّ وَأَكْتَهَلَا

ومدحه أيضاً إبراهيم بن يعقوب الشاعر المشهور بقصيدة طنّانة أولها: [الوافر]

أَزَالَ حِجَابَهُ عَنِّي وَعَيْنِي تَرَاهُ مِنَ الْمَهَابَةِ فِي حِجَابِ
وَقَرَّبَنِي تَفْضُّلُهُ وَلَكِنْ بَعُدْتُ مَهَابَةً عِنْدَ اقْتِرَابِي

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر في المحرم، وله ثمان وعشرون سنة. والحفيد ابن رُشد العلامة أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي الوليد محمد بن أحمد بن رُشد القُرْطُبِيِّ المتكلم. وأبو جعفر محمد بن إسماعيل الطَّرْسُوسِيِّ بأصبهان في جمادى الآخرة. وأبو الحسن مسعود بن أبي مسعود^(٢) الأصبهانيّ الخياط الجمال في شوال. وأبو الفضل منصور بن أبي الحسن الطَّبْرِيِّ الصوفيّ الواعظ. والعلامة جمال الدين يحيى بن عليّ بن فضلان البغداديّ الشافعيّ في شعبان. وصاحب المغرب المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن القَيْسِيِّ.

أمر النيل في هذه السنة:

(١) الصواب: «وقعة الأرك». راجع ص ١٢٣ من هذا الجزء، حاشية (٢) و(٦).

(٢) في الشذرات: «مسعود بن أبي منصور».

الماء القديم ثلاث أدرع وأربع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان على

مصر

على أنه حكم في آخرها من شهر رمضان إلى آخر السنة عم أبيه الملك العادل أبو بكر بن أيوب؛ وهي سنة ست وتسعين وخمسمائة.

فيها توفي تكش بن أرسلان شاه بن آتسز^(١) الملك علاء الدين خوارزم شاه؛ هو من ولد طاهر بن الحسين. كان شجاعاً مقداماً جوداً؛ ملك الدنيا من الصين والهند وما وراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد، وكان نوابه في حلوان، وكان في ديوانه مائة ألف مقاتل، وهو الذي أزال دولة بني سلجوق؛ وكان عارفاً بعلم الموسيقى؛ ولم يكن في زمانه أعرف منه بضرب العود، وكان يباشر الحروب بنفسه حتى ذهبت إحدى عينيه في الحرب؛ وكان قد عزم على أخذ بغداد وسار إليها؛ فلما وصل إلى دهستان توفي بها في شهر رمضان. ووقع له في مسيره إلى أخذ بغداد في هذه المرة طريفة: وهو أن الباطنية جهّزوا إليه رجلاً ليقته، وكان قويّاً الاحتراس، فجلس تلك الليلة يلعب بالعود، وقد شرع الخيمة وغنى بيتاً بالعجمية، وفيه «بييتهم» ومعناه بالعجمي. أبصرتك؛ وكرّر هذه اللفظة؛ فلما سمع الباطني ذلك خاف وظن أنه رآه فهرب، فأخذ وحمل إليه فعزّره وأمر بقتله. فكان ذلك من الطرائف.

وفيها توفي إمام عصره ووحيد دهره، القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد^(٢) عليّ [ابن القاضي السعيد أبي محمد محمد]^(٣) بن الحسن بن الحسين بن أحمد [بن المفرج بن أحمد]^(٣) اللخميّ العسقلانيّ المولد،

(١) في الأصل: «أبر». وما أثبتناه عن معجم زامباور.

(٢) في الأصل: «أبي الحسن». وما أثبتناه عن ابن خلكان

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

المصريّ [الدار] (١)، المعروف بالقاضي الفاضل الملقّب محيي (٢) الدين؛ وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

قال ابن خلكان - رحمه الله -: «تمكّن منه غاية التمكن (يعني من صلاح الدين) وبرز في صناعة الإنشاء وفاق المتقدمين، وله فيه الغرائب مع الإكثار. أخبرني أحد الفضلاء الثقات المُطّلّعين على حقيقة أمره أنّ مسودات رسائله في المجلّدات والتعليقات في الأوراق إذا جُمِعت ما تقصر عن مائة مجلد، وهو مجيد في أكثرها.

قال (٣) العِماد الكاتب الأصبهانيّ في كتاب الخريدة في حقّه: «ربّ القلم والبيان، واللّسن واللّسان؛ والقريحة الوقّادة، والبصيرة النّقّادة؛ والبديهة المعجزة، والبديعة المطرّزة، والفضل الذي ما سُمِع في الأوائل بمن (٤) لوعاش في زمانه لتعلّق في عُباره، وأجرى في مضمّاره؛ فهو كالشريعة المحمّدية التي نسخت الشرائع، ورَسخت بها الصنائع؛ يخترع الأفكار، ويفترع الأبقار، ويُطبع الأنوار، ويُبدع الأزهار؛ وهو ضابط المُلك بآرائه، ورباط السلك بآلائه؛ إن شاء أنشأ في اليوم الواحد بل في الساعة، ما لو دوّن لكان لأهل الصناعة، خير بضاعة (٥)» إنتهى كلام العِماد باختصار.

وقال غيره: وكان مع فضله كثير العبادَة تالياً للقرآن العزيز ديناً خيراً، وكان السلطان صلاح الدين يقول: لا تظنّوا أنّي ملكتُ البلاد بسيوفاكم، بل بقلم الفاضل. وكان بين الفاضل وبين الملك العادل أبي بكر بن أيوب وحشة، فلمّا بلغ الفاضل مجيء العادل إلى مصر دعا الله على نفسه بالموت، فمات قبل دخوله. وقيل: إنّ العادل كان داخلاً من باب النصر، وجنازة الفاضل خارجة من باب زويلة. إنتهى.

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في ابن خلكان: «مجير الدين».

(٣) يتابع المؤلف النقل عن ابن خلكان.

(٤) في الأصل: «من لو عاش». وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٥) في الأصل: «لكان لأهل الصناعة كفاية» وما أثبتناه عن ابن خلكان. قارن أيضاً بالخريدة (قسم مصر):

قلت: وفضل الفاضل وبلاغته وفصاحته أشهر من أن يذكر. ومن شعره: قوله:

[الكامل]

وإذا السعادة أحرستك عيونها نَمَ فالمخاوف كلهنَّ أمانُ
وأصطد^(١) بها العنقاء فهي حبالٌ وأقتد بها الجوزاء فهي عنانُ

وقد أستشهد علماء البديع بكثير من شعره في أنواع كثيرة، فمما ذكره الشيخ تقي^(٢) الدين أبو بكر بن حجة في شرح^(٣) بديعته في نوع «تجاهل العارف» قوله من قصيدة: [الوافر]

أهذي كفه أم غوثُ غيِّثِ ولا بلغ السحابُ ولا كرامه
وهذا بشره أم لمعُ برقي ومَن للبرق فينا بالإقامة
وهذا الجيش أم صرْفُ الليالي ولا سبقت حوادثها زحامة
وهذا الدهر أم عبدٌ لديه يُصرّف عن عزمته زمامه
وهذا فِعْلُ^(٤) غمْد أم هلالُ إذا أمسى كُنُونٍ أم قَلَامه
وهذا التُّرْبُ أم خدُّ لثمننا فأثار الشِّفاء عليه شامه

ومنها وهو غير تجاهل العارف [ولكنه من المُرْقِص والمُطْرِب]^(٥): [الوافر]

وهذا الدرُّ منشورٌ ولكن أروني غيرَ أقلابي نِظَامه
وهذي روضةٌ تندى وسطري بها غصنٌ وقافيتي حَمَامه
وهذا الكأسُ رُوقٌ من بنائي وذكرك كان من مسك ختامه

وذكر أيضاً في «تجاهل العارف» قوله من قصيدة: [البيسط]

(١) في الأصل: «واصعد» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٢) انظر ما سيأتي للمؤلف في حوادث سنة ٨٣٧هـ.

(٣) نظم ابن حجة بديعته في مدح الرسول الكريم، وعدَّ فيها من أنواع البديع مائة واثنين وأربعين نوعاً. وقد استهلها بقوله:

لي في اتدا مدحك يا عُربَ ذي سلم براعة تستهل الدمع في السديم

وقد سمى ابن حجة بديعته تلك «تقديم أبي بكر» وحاول فيها أن ينسج على منوال عز الدين الموصللي

في بديعته المشهورة. ثم وضع ابن حجة شرحاً لبديعته سماه «خزانة الأدب وعاية الأرب».

(٤) كذا بالأصل. وفي خزانة الأدب لابن حجة الحموي: «نصل».

(٥) زيادة عن خزانة الأدب: ٢٧٧/١.

أهذه سِيرٌ في المجد أم سُورٌ وهذه أنجمٌ في السعد أم نُمرُّ
وأملٌ أم بحارٍ والسيوف لها موجٌ وإفرندها في لجها دُرُّ
وأنت في الأرض أم فوق السماء وفي يمينك البحر أم في وجهك القمرُ

وفيها تُوفي علي بن نصر بن عقيل المعروف بالهَمَامِ البغداديّ العبديّ الشاعر المشهور؛ قَدِمَ الشامَ ومدح الملكَ العادلَ، والملكَ الأُمجد صاحبَ بَعْلَبَك. ومن شعره: [الطويل]

وما الناسُ إلّا كاملُ الحظِّ ناقصٌ وآخرُ منهم ناقصُ الحظِّ كاملُ
وإني لمُثَرٍّ من حَيَاءٍ وَعِفَّةٍ وإن لم يكن عندي من المالِ طائلُ

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفي أبو جعفر أحمد بن عليّ القُرطبيّ المقرئ إمام الكَلَّاسَةِ. وإسماعيل بن صالح بن يس بمصر في ذي الحِجَّة. وأبوسعيد خليل بن أبي الرجاء الرارانيّ^(١) الصوفيّ في شهر ربيع الآخر، وله ست وتسعون سنة. والسلطان علاء الدين خُوَارزَم شاه تُكُش بن خُوَارزَم شاه أرسلان بن أَتِسز بن محمد في رمضان بالخوانيق، وتملك بعده ابنه علاء الدين محمد. والقاضي الفاضل أبو عليّ عبد الرحيم بن عليّ [بن محمد]^(٢) بن حسن اللخميّ اليّسانيّ^(٣) الوزير في شهر ربيع الآخر، وله سبع وستون سنة. وأبو الحسن عبد اللطيف بن إسماعيل بن [أبي]^(٢) سعد الصوفيّ في ذي الحِجَّة بدمشق. وأبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب [بن سعد بن صدقة بن الخضر]^(٤) بن كُليب في شهر ربيع الأول، وله ست وتسعون سنة وشهر. والأثير أبو الفضل محمد بن محمد بن بيان الأنباريّ ثم المصريّ الكاتب في شهر ربيع الآخر. والعلامة شهاب الدين محمود بن محمود الطوسيّ بمصر. وأبو جعفر المبارك بن المبارك بن أحمد بن زُرَيْق الواسطيّ الحَدَّاد المقرئ.

(١) نسبة إلى «اران» برائين مهملتين؛ وهي قرية بأصبهان.

(٢) زيادة عما تقدّم.

(٣) في الأصل: «اليسابوري» وهو خطأ. واليساني: نسبة إلى بيسان، بالأردن.

(٤) زيادة عن الشذرات.

أمر النيل في هذه السنة :

الماء القديم لم يُذكر لقلته. وكان مبلغ الزيادة في هذه السنة اثنتي عشرة ذراعاً وإحدى وعشرين إصباعاً. وشَرِقَت الأراضي، وعمَّ البلاء والغلاء الديار المصرية وأعمالها^(١).

(١) قال المقرئ في وصف ذلك الجوع والغلاء بسبب توقف النيل عن الزيادة: «... فتكاثر مجيء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع. ودخل فصل الربيع، فهبَّ هواء أعقبه وباء وفناء؛ وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع. فكان الأب يأكل ابنه مشوياً ومطبوخاً، والمرأة تأكل ولدها. فعوقب جماعة بسبب ذلك. ثم فشا الأمر وأعي الحكام. فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أوفخذه أو شيء من لحمه... ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بني آدم بحيث ألفوه... وكان أهل القرى قد فنوا، حتى إن القرية التي كان فيها خمسمائة نفس لم يتأخر (؟) بها سوى اثنين أو ثلاثة... (إغاثة الأمة. ٦٥ - ٦٦).

ذكر سلطنة الملك العادل^(١) على مصر

هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبوبكر محمد آبن الأمير أبي الشكر نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الدويني التكريتي ثم الدمشقي. وقد تقدّم ذكر نسبه وأصله في ترجمة أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. وقد ذكرنا أيضاً من أحوال العادل هذا نبذة كبيرة في ترجمة أخيه صلاح الدين المذكور، وأيضاً في ترجمة أولاده، ثم في ترجمة حفيده الملك المنصور محمد آبن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، الذي خلعه العادل هذا وتسلطن مكانه في العشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة. وقد تقدّم ذلك كلّ في ترجمة المنصور محمد المخلوع عن السلطنة. ولا بدّ من ذكر شيء من أحوال العادل هنا على جدته، وإيراد قطعة جيّدة من أقوال الناس في ترجمته - إن شاء الله تعالى -.

قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي في تاريخه: «وُلِدَ ببعلبك في سنة أربع وثلاثين، وأبوه نائب عليها للأتابك زَنَكِي والد نور الدين محمود، وهو أصغر من أخيه صلاح الدين بستين؛ وقيل: وُلِدَ في سنة ثمانٍ وثلاثين؛ وقيل: وُلِدَ في أوائل سنة أربعين. قال أبوشامة: تُوْفِيَ الملك العادل سيف الدين أبوبكر محمد، وهو بكنيته أشهر. ومولده ببعلبك، وعاش ستاً وسبعين سنة. ونشأ في خدمة نور الدين مع أبيه وإخوته؛ [وحضر مع أخيه صلاح الدين فتوحاته وقام أحسن قيام

(١) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان: ٧٤/٥، والسلوك: ١٨٣/١، والخطط المقرئية: ٢٣٥/٢، وذيل الروضتين: ١١١، والشذرات: ٦٥/٥، والوافي بالوفيات: ٢٣٥/٢، وبدائع الزهور: ٢٥٣/١، وشفاء القلوب: ٢٠٠، وابن الأثير: ٢٦٥/١٠ وما بعدها، والدارس في تاريخ المدارس: ٢٠٢/٢ وما بعدها.

في الهدنة مع الأَنْكَلَيْتِير ملك الفرنج بعد أخذهم عكاً^(١)، وكان صلاح الدين يعوّل عليه كثيراً، واستنابه بمصر مدّة، ثم أعطاه حلب، ثم أخذها منه وأعطاها لولده الظاهر، وأعطاه الكرك عوضها، ثم حرّان: انتهى كلام الذهبي.

وقال الشيخ شمس الدين أحمد بن خلّكان - رحمه الله - في وفيات الأعيان: «كان الملك العادل قد وصل إلى مصر صحبة أخيه وعمّه أسد الدين شيركوه المقدم ذكره. وكان يقول: لَمَّا عزمنا على المسير إلى مصر آحتجتُ إلى جرّمدان^(٢) فطلبته من والدي فأعطاني، وقال: يا أبا بكر، إذا ملكتم مصر أعطوني ملأة ذهباً. فلَمَّا جاء إلى مصر، قال: يا أبا بكر، [أين]^(١) الجرّمدان؟ فُرحتُ وملأته له من الدرّاهم السود^(٣)، وجعلت على أعلاها شيئاً من الذهب وأحضرتُه إليه، فلَمَّا رآه أعتقه ذهباً، فقلبه فظهرت الفضة السوداء، فقال: يا أبا بكر، تعلمت زعلَ المصريّين! قال: ولَمَّا ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مصر كان ينوب عنه في حال غيبته بالشام، ويستدعي منه الأموال للإنفاق في الجند وغيرهم. قال: ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أنّ الحُمول تأخّرت مدّة فتقدم السلطان صلاح الدين إلى العِماد الأصبهانيّ أن يكتب إلى أخيه العادل يستجّته على إنفاذها حتّى قال: يسير [لنا]^(٤) الحمل من مالنا أو من ماله! فلَمَّا وصل الكتاب إليه، ووقف على هذا الفصل شقّ عليه، وكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك. فكتب القاضي الفاضل جوابه، وفي جملته: «وأما ما ذكره المولى من قوله: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة ما المقصود منها من الملك النُجعة، وإنّما المقصود من الكاتب السُّجعة. وكم من لفظة فُظة، وكلمة فيها غلظة؛

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٢) الجرمدان: كلمة فارسية مركبة من لفظين: «جرم» ومعناه الجلد، و«دان» ومعناه الظرف. والمراد بها كيس من الجلد. (طبعة دار الكتب، حاشية) وفي الطبعة التي بين أيدينا من ابن خلّكان: «الجرمدان» بالحاء المهملة.

(٣) الدراهم السود. وتسمى أيضاً السوداء أو المسودة. وكانت تصنع من نحاس فيه يسير من الفضة. وسميت بالسوداء لظلمتها. (صبح الأعشى. ٤٣٩/٣، وإغاثة الأمة: ١٠٤).

(٤) زيادة عن ابن خلّكان.

حَبَّرت^(١) عيبي الأقاليم، فسَدَّتْ خلل الكلام. وعلى المملوك الضمان في هذه النُّكْتة، وقد فات لسان القلم منها أيّ سكتة». قال: ولَمَّا ملك السلطان (يعني صلاح الدين) مدينة حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة كما تقدّم ذكره، [أعطاها لولده الملك الظاهر غازي ثم أخذها منه]^(٢) أعطاها للملك العادل فانتقل إليها [وقصد قلعتها يوم الجمعة الثاني والعشرين]^(٣) من شهر رمضان من السنة المذكورة؛ ثم نزل عنها للملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين؛ ثم أعطاه السلطان قلعة الكرك، وتنقّل في الممالك في حياة السلطان صلاح الدين وبعد وفاته. وقضاياه مشهورة مع الملك الأفضل والملك العزيز والملك المنصور فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها. وآخر الأمر أنه استقلّ بمملكة الديار المصرية. وكان دخوله إلى القاهرة لثلاث عشرة ليلة خلت^(٣) من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة، وأستقرت له القواعد.

وقال أبو البركات ابن المُستوفي في تاريخ إربل، في ترجمة ضياء الدين أبي الفتح نصر الله المعروف بأبن الأثير [الوزير]^(٢) الجَزْرِيّ ما مثاله: وجدت بخطه «خُطِبَ للملك العادل أبي بكر بن أيوب بالقاهرة ومصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة، وخطب له بحلب يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة» - والله أعلم بالصواب - هذا ما ذكره ابن خلكان وهو بخلاف ما ذكرناه من أنه خُطِبَ له في عاشر شهر رمضان من السنة؛ ويمكن الجمع بين القولين، لأننا قلنا في شهر رمضان تخميناً، لأنّ الاتفاق كان في شهر رمضان، ولعل الخطبة كانت في شوال - إنتهى.

قال: «وملك مع ذلك البلاد الشاميّة والمشرقيّة، وصفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن في سنة أثنتي عشرة وستمائة [و]^(٢) سِيرَ إليها ولَدَ ولده الملك المسعود

(١) في ابن خلكان: «جبرت».

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) في ابن خلكان: «بقيت».

صلاح الدين أبا المظفر يوسف ابن الملك الكامل محمد الآتي ذكره. وكان ولده الملك الأوحده نجم الدين أيوب ينوب عنه في ميافارقين وتلك النواحي، فاستولى^(١) على مدينة خِلاط و[بلاد]^(٢) أَرْمِينِيَّة، وآتست مملكته، وذلك في سنة أربع وستمائة.

ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل محمداً الديار المصرية، وأعطى الملك المعظم عيسى البلاد الشامية، وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية، والأوحده في المواضع التي ذكرناها.

وكان ملكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب، حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل، حازماً في الأمور، صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأرباب السنة مائلاً إلى العلماء. صنّف له فخر الدين الرازي «كتاب تأسيس التقديس»، وذكر اسمه في خطبته، وسيره إليه من بلاد خراسان. وبالجملة فإنه كان رجلاً مسعوداً، ومن سعاده أنه كان خلف أولاداً لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم، في نجابتهم [وبسالتهم]^(٢) ومعرفتهم وعلو همتهم، ودان لهم العباد وملكوا [خيار] البلاد. ولما مدحه ابن عنين^(٣) بقصيدته الرائية ذكر منها في مديح أولاده المذكورين، فقال: [الكامل]

وله البنون ^(٤) بكل أرض منهم	ملك يقود ^(٥) إلى الأعادي عسكراً
من كل وضاح الجبين تخاله	بدرًا وإن شهد الوغى فغصنقرا
متقدم حتى إذا النقع أنجلي	بالبيض عن سبي الحرير تأخرا
قوم زكوا أصلاً وطابوا محتدًا	وتدققوا جوداً وراقوا منظرًا

(١) في الأصل: «فاستتاب» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) هو أبو المحاسن، محمد بن نصر الله بن مكارم، المعروف بابن عنين. أعظم شعراء عصره. توفي بدمشق سنة ٦٣٠هـ. (الأعلام: ١٢٥/٧).

(٤) كذا أيضاً في ابن خلكان وفي شفاء القلوب: «الملوك».

(٥) في شفاء القلوب: «يجر».

قال: ومن جملة هذه القصيدة في مدح الملك العادل هذا قوله، ولقد أحسن

فيها:

[العادلُ الملكُ الذي أسماؤه
وبكلِّ أرضٍ جنةٌ من عدله الصِّـ
عدلٌ يبيت الذئبُ منه على الطوى
ما في أبي بكرٍ لمعتقد الهدى
سيفٌ صقال المجد^(٢) أُخلصَ منه
ما مدَّحه بالمستعمار له ولا
بين الملوك الغابرين وبينه
نسختُ خلائقه الحميدة ما أتى
ملكٌ إذا خفت حلومُ ذوي النهى
نبتُ الجنان تُراع من وتبائه
يَقْظُ يكاد يقول عمّا في غدٍ
حلم تخفُّ له الحلوم وراءه
يعفو عن الذنب العظيم تكراً
لا تسمعن حديثَ ملكٍ غيره

في كلِّ ناحيةٍ نُشرفُ منبراً^(١)
سافي أسال [نداه]^(١) فيها كوثراً
غرثان وهو يرى الغزال الأعفراً
شكُّ مُريبٌ أنه خيرُ الورى
وأبان طيبُ الأصل منه الجوهراً
آياتٌ سُودِّده حديثٌ يُفتري
في الفضل ما بين الثريا والثرى
في الكتب عن كسرى الملوك وقيصراً
في الرُّوع زاد رصانةً وتوقراً
وتبائه يوم الوغى أسد الشرى
ببديهةٍ أغتته أن يتفكرا
رأيٌ وعزمٌ يحقر^(٣) الإسكندرا
ويصدُّ عن قيل الخنا متكبِّراً
يُروى فكلُّ الصيّد في جوفِ الفراء

قال: ولما قسم البلاد بين أولاده كان يتردد بينهم، ويتنقل من مملكة إلى أخرى؛ وكان يصيف بالشام لأجل الفواكه والمياه الباردة، ويشتي بالديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرودة؛ وعاش في أرغد عيشاً وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد، حتى يقال إنه كان يأكل وحده خروفاً لطيفاً مشويماً؛ وكان له في النكاح نصيبٌ وافر. وحاصل الأمر أنه كان مُمتعاً في دنياه. وكانت ولادته بدمشق في المحرم سنة أربعين؛ وقيل: ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة.

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «المتن» وما أثبتناه عن ابن خلكان.

(٣) كذا في ابن خلكان. وفي الأصل: «محرم».

قلت: وافق الذهبي في مولده في السنة، مع خلاف ذكره الذهبي فيهِ، وخالفه في المكان الذي وُلِدَ فيه، فإنَّ الذهبي قال: كانت ولادته ببلدك كما تقدّم ذكره. قال: وتُوفِّي في سابع جُمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة بعاليقين. ونُقل إلى دِمَشق، ودُفِن بالقلعة ثاني يوم وفاته، ثم نُقِل إلى مدرسته المعروفة به، ودُفِن بالتربة^(١) التي بها؛ [وقبره]^(٢) على الطريق يراه المجتاز من الشُّبَّك المرْكَب هناك. وعَالِيقِينَ (بفتح العين المهملة وبعد الألف لام مكسورة وقاف مكسورة أيضاً وياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها نون) وهي قرية بظاهر دمشق». انتهى كلام ابن خلِّكان - رحمه الله تعالى - بتمامه.

وقال غيره: ولما أفتتح ولده الكامل إقليمَ أَرْمِينِيَّة فَرِحَ العادل فرحاً شديداً، وسيرَ أستاذاره إِبِلْدَكَز^(٣) وقاضي العسكر نجم الدين خليل إلى الخليفة يطلب التقليد بمصر والشام وخراسان وبلاد الجزيرة، فأكرمهما الخليفة وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين أبا حفص عمر بن محمد السُّهْرَوْرْدِي بالتشريف، ومرَّ بحلب ووعظ بها؛ وأحترمه الظاهر غازي صاحب حلب، وبعث معه بهاء الدِّين بن شدَّاد بثلاثة آلاف دينار لينثرها على عمِّه العادل، إذا لبس خِلْعَةَ الخليفة. ولما وصل السُّهْرَوْرْدِي إلى دِمَشق^(٤) فَرِحَ العادل وتلقاه من القُصَيْر^(٥)، وكان يوماً مشهوداً، ثم من الغد أفيضت عليه الخِلْعُ؛ وهي: جُبَّة سوداء بطراز ذهب، وعمامة سوداء بطراز ذهب، وطوق ذهب فيه جَوْهَر، وقُلْدٌ سَيْفًا محلَّى بجميع قرابه بالذهب، وجِصَانٌ أشهبٌ بمرْكَب ذهب، وعَلَمٌ أسود مكتوب فيه بالبياض ألقابُ الناصر لدين الله. ثم خَلَعَ السُّهْرَوْرْدِي على ولَدَيْ العادل: المعظم عيسى والأشرف موسى، لكل واحدٍ عِمَامَةً سوداء، وثوباً أسود واسع الكُمِّ؛ وخرَجَ على الصاحب ابن شكر كذلك. ووثِرَ الذهبُ على رأس العادل من رسل صاحب حلب وحرَّامَة وجمُص وغيرهم. وركب

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس: ٢٠٢/٢. وهي التربة العادلية الجوانية بالمدرسة العادلية الكبرى.

(٢) زيادة عن ابن خلِّكان.

(٣) في السلوك: «الدُّكْر».

(٤) في الأصل: «إلى مصر». وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٥) القصير: ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق.

الأربعة (أعني العادل وولديه وأبن شكر الوزير) بالخلع، ثم عادوا إلى القلعة؛ وقرأ ابنُ شكر التقليدَ على كرسِيّ، وخطبَ العادل: بشاهنشاه^(١) ملك الملوك خليل أمير المؤمنين. ثمّ قَدِمَ الشَّهْرَوَزِيّ إلى مصر وخلع على الملك الكامل بن العادل. وهو يومَ ذاك صاحبُ مصر نيابةً عن أبيه العادل كما تقدّم ذكره.

وقال الموفّق^(٢) عبد اللطيف في سيرة الملك العادل: « كان أصغرَ الإخوة وأطولهم عمراً وأعمقهم فكراً وأبصرهم في العواقب وأشدّهم إمساكاً وأحبهم للدرهم؛ وكان فيه جِلْمٌ وأناةٌ وصبرٌ على الشدائد؛ وكان سعيدَ الجِدِّ عاليَ الكعب مظهرًا بالأعداء من قِبَلِ السماء، وكان نهماً أكولاً يحبّ الطعام وأختلاف ألوانه، وكان أكثر أكله بالليل كالخيل، وله عندما ينام رضيعٌ، ويأكل رطلاً بالدمشقيّ خبيصَ السُّكَّر، يجعل هذا كالجوارش^(٣)؛ وكان كثير الصلاة ويصوم الخميس؛ وله صدقات في كثير من الأوقات، وخاصّة عندما تنزل به الآفات؛ وكان كريماً على الطعام يحب من يؤاكله، وكان قليل الأمراض. قال لي طبيبه بمصر: إنني آكلُ خيرَ هذا السلطان سنين كثيرة ولم يَحْتَجْ إليّ سوى يوم واحد؛ أحضِرْ إليه من البَطِيخ أربعون جِملاً فكسّر الجميع بيده، وبالغ في الأكل منه ومن الفواكه والأطعمة، فعرض له تُخَمَّةٌ، فأصبح، فأشرت عليه بشرب الماء الحار، وأن يركب طويلاً ففعل، وآخر النهار تعشى وعاد إلى صحّته. وكان نكاحاً يُكثِر من آقتناء السَّراري،

(١) في الأصل: «شاه أرمن» وما أثبتناه عن السلوك والألقاب الإسلامية.

واللقب «شاهنشاه» لفظ فارسي معناه ملك الملوك. ويلاحظ في هذا التقليد استعمال مترادفين أحدهما فارسي والآخر عربي.

أما لقب «شاه أرمن» فكان يطلق على من تملك بلد خلاط وأعمالها، وكانت تسمى أرمينية الكبرى ولقب «شاه أرمن» أطلق على أحد أولاد العادل أبي بكر وهو الملك الأشرف موسى صاحب حلب. (الألقاب الإسلامية: ٣٥٢ - ٣٥٣).

(٢) هو عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي، موفق الدين، ويعرف بانن اللبّاد، وبابن نقطة. توفي سنة ٦٢٩ هـ. (الأعلام: ٦١/٤) ولم نجد في مؤلفاته ما يسمى «سيرة الملك العادل». ولعل المراد

ما ذكره من سيرة الملك العادل في كتابه «الإمادة والاعتبار بما في مصر من الآثار»

(٣) الجوارش: القميحة (نوع من الحلوى). وهي كالسفوف يتخذ للهضم. ويقال أيضاً: الجوارشن. (معجم متن اللغة).

وكان غيوراً لا يدخل في داره خَصِيٌّ إِلَّا دون البلوغ، وكان يُحِبُّ أن يطبخ لنفسه مع أن في كلِّ دارٍ من دور حَظَاياه مطبخاً [دائراً]^(١)، وكان عفيفَ الفَرْج لا يُعرف له نظرٌ إلى غير حلاله. نُجِبَ له أولاد من الذكور والإناث، سلطن الذكور وزوج البنات بملوك الأطراف.

وكان العادل قد أوقع الله تعالى بغضته في قلوب رعاياه، والمخامرة عليه في قلوب جنده؛ وعَمِلُوا في قتله أصنافاً من الحِيلِ الدقيقة مرَّاتٍ كثيرة؛ وعند ما يقال إنَّ الحيلة تَمَّت تَنفِيسُح وتَنكِشِف وتُحَسِّم موادَّها، ولولا أولاده يَتَوَلَّوْنَ بلاده لَمَّا ثَبَّت مُلْكُه، بخلاف أخيه صلاح الدين فإنَّه إنَّما حَفِظ ملكه بالمحبة له وحسن الطاعة؛ ولم يكن - رحمه الله - بالمنزلة المكروهة؛ وإنَّما كان الناس قد أَلْفُوا دولة صلاح الدين وأولاده، فتغيَّرت عليهم العادة دفعةً واحدة. ثم إنَّ وزيره آبن شُكْر بالغ في الظلم.

قال: وكان العادل يُواظِب على خدمة أخيه صلاح الدين، يكون أوَّل داخل وآخر خارج، وبهذا جلبه، وكان يُشاوِرُه في أمور الدولة، لِمَا جَرَّب من نفوذ رأيه. ولَمَّا تسلطن الأفضل بدمشق والعزیز بمصر قصد العزيز دمشق، ووقع له ما حكيناه إلى أن ملكها.

قال: ثم أخذ العادل يُدبِّر الحيلة حتى يَسْتَنبِيه العزيز على مصر، ويُقيِم العزيز بدمشق، ففَطِن بعض أصحاب العزيز فَرَمَى قَلنسوتَه بين يديه، وقال: ألم يكفِكَ أنَّك أعطيتَه دمشق حتى تُعطيَه مصر! فنهَضَ العزيز لوقته على غِرَّة ولِحَقِّ بمصر.

قال الموفَّق: ومات الملك الظاهر غازي قبله بستين فلم يَتَهَنَّ العادل بالملك من بعده؛ وكان كلُّ واحد منهما ينتظر موت الآخر، فلم يَصِفُ للعادل العيش بعد موته، لأمراض لَزِمته بعد طول الصِّحَّة، والخوف من الفرنج بعد طول الأمن.

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام.

وخرجوا (يعني الفرنج) إلى عكا وتجمعوا على الغور^(١)، فنزل العادل قبالتهم على بيسان^(٢)، وخفي عليه أن ينزل على عقبة أفيق^(٣)، وكانوا قد هدموا قلعة كوكب، وكانت ظهرهم، ولم يقبل من الجواسيس ما أخبروه بما عزم عليه الفرنج من الغارة، فاغتر بما عودته المقادير من طول السلامة، فغشيت الفرنج عسكره على غرة، وكان قد آوى إليه خلق من البلاد يعتصمون به، فركب مُجِداً؛ وماج الفرنج في أثره حتى وصل دمشق على شفاً وهم؛ فدخل إليها فمنعه المعتمد وشجعه، وقال له: المصلحة أن تُقيم بظاهر دمشق. وأما الفرنج فاعتقدوا أن هزيمته مكيدة فرجعوا من قرب دمشق بعد ما عاثوا في البلاد قتلاً وأسراً وعادوا إلى بلادهم، وقصدوا دِمياط في البحر فنازلوها.

وكان قد عرّض له قبل ذلك ضعفٌ وصار يعتريه ورمُ الأثنيين. فلما هزته^(٤) الحيل على خلاف العادة ودخله الرعب، لم يبق إلا مدةً يسيرةً ومات بظاهر دمشق. وكان مع جرّسه يُهين المال عند الشدائد غايةً الإهانة ببذله. وشرع في بناء قلعة دمشق فقسم أرضها على أمرائه وأولاده، وكان الحفارون يحفرون الخندق ويقطعون الحجارة، فخرج من تحته خرزةً بثر فيها ماءً معين.

قال: ودعا مرة فقال: اللهم حاسبني حساباً يسيراً؛ فقال له رجلٌ ماجنٌ من خواصه: يا مولانا، إن الله قد يسرّ حسابك؛ قال: ويلك! وكيف ذلك؟ قال: إذا حاسبك قل له: المالُ كلُّه في قلعة جعبر لم أفرط فيه في قليل ولا كثير. وكانت خزائنه بالكرك ثم نقلها إلى قلعة جعبر وبها ولده الملك الحافظ، فسوّل له بعض أصحابه الطمع فيها، فأتاها الملك العادل ونقل ما فيها إلى قلعة دمشق، فحصلت في قبضة ولده الملك المعظم عيسى، فلم ينازعه فيها إخوته؛ وقيل: إن الذي سوّل

(١) المراد غور الأردن، بين بيت المقدس ودمشق. وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس، ولذلك سمي الغور (معجم البلدان). والمراد هنا الحملة الصليبية المعروفة بالخماسة، وذلك سنة ٥٦١٤ هـ.

(٢) بيسان مدينة بالأردن، بالغور الشامي، بين حوران وفلسطين (معجم البلدان)

(٣) أفيق: قرية من قرى حوران في طريق الغور في أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق. والعامية تقول: فيق (معجم البلدان).

(٤) كذا في الأصل والذهبي. ولعل المراد: «أعيته الحيل».

للعادل الطمَّع والعصيان هو المعظم ففعل ذلك الحافظ، وكانت مكيِّدة من المعظم حتى رجع إليه المال». إنتهى كلام الموفِّق باختصار.

وقال أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزأوغلي في تاريخه: « سألته عن مولده فقال: فتوح الرُّها (يعني سنة تسع وثلاثين وخمسمائة) - وهذا نقل آخر في مولده - قال: وقد ذكرنا أحواله في السنين إلى أن استقرَّ له الملك وأمتدَّ من بلاد الكُرُج^(١) إلى همَّدان والجزيرة والشام ومصر والحجاز ومكَّة والمدينة واليمن إلى حَضْرَمَوْت؛ وكان ثبُتاً خليقاً بالملك حسن التدبير، حليماً صَفُوحاً مدبِّراً للملك على وجه الرضا، عادلاً مجاهداً ديناً عفيفاً متصدِّقاً، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، طهَّر جميع ولاياته من الخمر والخواطىء والقمار والمكوس والمظالم. وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع لله تعالى. وكان واليه على دمشق المُبارز والمعتمد، أعانه المبارز على ذلك، أقام رجالاً على عقاب قاسيون^(٢) وجبل الثلج وحوالي دمشق بالجامكية^(٣) والجراية يَحْرِمُونَ أحداً يدخل دمشق بُمُنْكَر. بلغني أنَّ بعض المغاني دخلت على العادل في عُرْس فقال لها: أين كنت؟ فقالت: ما قدرت أجبي حتى وفيت ما عليّ للضامن. فقال: وأيِّ ضامن؟ قالت ضامن القِيَان، فقامت عليه القيامة، وطلب المعتمد [وَعَمِلَ به ما لا يليق]^(٤)، وقال: والله لئن عاد بلغني مثل هذا لأفعلن ولأصنعن.

ولقد فعل العادل في غلاء مصر عَقِيبَ موت العزيز ما لم يفعله غيره؛ كان يخرج في الليل بنفسه ويُفَرِّقُ الأموال في ذوي البيوتات والمساكين، وكَفَّنَ تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغُرباء، وكان إذا مَرِضَ أو تشوَّش مزاجه خلع جميع ما عليه وباعه حتى فرسه وتصدَّق به.

(١) الأصل غير واضح. وفي طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان: «الكرخ». وما أثبتناه عن الذهبي. وبلاد الكُرُج: هي بلاد ما بين بلاد الروم وبلاد أرمينية. وقاعدتها مدينة تفليس. (التعريف بالمصطلح الشريف: ٧٨).

(٢) قاسيون: هو الجبل المشرف على دمشق.

(٣) الجامكية. وتجمع على جوامك وجامكيات. وهي الرواتب عامة. (صبح الأعشى: ٤٥٧/٣).

(٤) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

قال أبو المظفر: وقد ذكرنا وصول شيخ الشيوخ إليه بخبر بُرج^(١) دِمياط، وأنه أنزعج وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع أو ثامن جُمادى الآخرة وتوفي بعاليقن. وكان المعظم قد كَسَرَ الفرنج على القِيمُون^(٢) يوم الخميس خامس جُمادى الآخرة، وقيل يوم الأربعاء. ولَمَّا تُوفِّي العادل لم يعلم بموته غيرُ كَرِيم الدِّين الخِلاطِيّ، فأرسل الطير إلى نابلس إلى المعظم، فجاء يوم السبت إلى عاليقن فأحتاط على الخزائن، وصَبَّر العادل وجعله في مِحْفَةٍ وعنده خادمٌ يُرَوِّح عليه وقد رَفَعَ طَرْفَ سَجَافِهَا وأظهر أنه مريض؛ ودخلوا به دمشق يوم الأحد والناس يُسَلِّمون على الخادم، وهو يُومئ إلى ناحية العادل ويُردِّد السلام؛ ودخلوا به القلعة وكتبوا موته؛ و[من العجائب أنهم]^(٣) طلبوا له كفناً فلم يقدرُوا عليه، فأخذوا عِمَامَةَ الفقيه ابن فارس فكفَّنوه بها، وأخرجوا قطناً من مِخْدَةَ فلقوه به، وصَلَّى عليه [وزيره] ابن فارس ودفنوه في القلعة.

قال أبو المظفر: وكنت قاعداً إلى جانب المعظم عند باب الدار التي فيها الإيوان وهو واجمٌ ولم أعلم بحاله؛ فلما دُفِن أبوه قام قائماً وشقَّ ثيابه ولطم رأسه ووجهه، وكان يوماً عظيماً، وعَمِلَ له العزاء ثلاثة أيام بالإيوان الشمالي، وعَمِلَ له العزاء في الدنيا كلَّها، ونُودي ببغداد: من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامع القصر، فحضر الناس ولم يتخلَّف سوى الخليفة؛ وصلُّوا عليه صلاة الغائب وترحَّموا عليه، وتقدَّموا إلى خطباء الجوامع بأسرهم، ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة. وبقي العادل بالقلعة إلى سنة تسع عشرة وستمائة، [ثم] نُقِلَ إلى تربته التي أنشأها عند دار العَقِيْقِيّ ومدرسته.

(١) برج دمياط: برج منيع في غاية القوة؛ كان فيه سلاسل من حديد عظام القدرة والغلظ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر. (السلوك: ٢٢٣/١). وقال أبو شامة في الروضتين: ١٦٧ - ١٦٨: «هو قفل الديار المصرية. وهو برج عال، مبني في وسط النيل، ودمياط بحذائه على حافة النيل من عربيه. وفي ناحيته سلسلتان، تمتد إحداها على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى البحيرة فإذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور» - وانظر ابن الأثير. حوادث سنة ٦١٤ هـ. والمقريزي ينقل عنه حرفياً تقريباً في وصف حصار الفرنج لدمياط.

(٢) القِيمُون: حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين. (معجم البلدان).

(٣) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

— قلت: لا أعلم ما كان السبب في عدم وجود الكَفَن القطن للملك العادل مع همة ولده الملك المعظم عيسى وأخذِه من عَالِقِينَ مِيتاً في محفّة ولم يُفْطَن به أحد. وهذا أعظم وأكثر كُلفَةً وأصعب من شراء ثوب بَعْلَبَكِّي، وما يحتاج إليه الميت من الحَنُوط والقطن وغيره «فلعل لها عذراً وأنت تلوم» —.

قال: وكان له عِدَّة أولاد: منهم شمس الدين مَوْدُود^(١) والد الملك الجَوَاد [يونس]^(٢). والكامل محمد^(٣). والأشرف موسى^(٤). والمعظم عيسى^(٥). والأوحد أيوب^(٦). والفائز إبراهيم^(٧). وشهاب الدين غازي^(٨). والعزیز عثمان^(٩) والأمجد حسن^(١٠). والحافظ أُرسلان^(١١). والصالح إسماعيل^(١٢). والمغين عمر^(١٣). ومُجِير الدين يعقوب^(١٤). وتقيّ الدين عَبَّاس^(١٥). وقُطْب الدين أحمد^(١٦) والقاهر إسحاق^(١٧). وخلييل^(١٨). أصغرهم^(١٩). وكان له عِدَّة بنات أفضلهنَّ صَفِيَّة خاتون

- (١) توفي في حياة أبيه (السلوك).
- (٢) زيادة عن السلوك. والحواسي الآتية مأخوذة عن نفس المصدر.
- (٣) الملك الكامل ناصر الدين محمد صاحب مصر.
- (٤) الملك الأشرف مظفر الدين موسى، صاحب الشرق وخلّاط بعد أخيه الملك الأوحد
- (٥) الملك المعظم شرف الدين أبو العرائم عيسى، صاحب دمشق
- (٦) الملك الأوحد نجم الدين أيوب، صاحب خلّاط. مات في حياة أبيه.
- (٧) مات في حياة أبيه.
- (٨) الملك المظفر شهاب الدين غازي، صاحب ميفارقين.
- (٩) الملك العرير عماد الدين عثمان، صاحب بانياس.
- (١٠) الملك الأمجد مجد الدين حسن. مات في حياة أبيه بالقدس.
- (١١) الملك الحافظ نور الدين أرسلان، صاحب قلعة جعبر.
- (١٢) الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب بصرى ثم دمشق.
- (١٣) توفي في حياة أبيه. وترك عمر انا سمي بالملك المغين شهاب الدين محمود، رباه عمه الملك المعظم عيسى.
- (١٤) الملك المعز محير الدين يعقوب.
- (١٥) الملك الأمجد تقي الدين عباس، وهو أصغرهم. ومات آخرهم بدمشق سنة ٦٦٩هـ في أيام الناهر بيبرس.
- (١٦) الملك المفضل قطب الدين أحمد. مات بمصر في أيام أخيه الكامل بالفيوم سنة ٦١٨هـ
- (١٧) الملك القاهر بهاء الدين ناح الملوك إسحاق.
- (١٨) الملك الناصر صلاح الدين خليل.
- (١٩) راجع الحاشية (١٥).

صاحبة حلب أم الملك العزيز». إنتهت ترجمة الملك العادل - رحمه الله تعالى - .
ولمّا مات العادل آسْتَقَرَّ كُلُّ واحد من أولاده في مملكته، فإنه كان قسم ممالكه في أولاده حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّ في صدر هذه الترجمة؛ فالذي كان بمصر الملك الكامل محمد، وبالشام المعظّم عيسى، وبالشرق الأشرف شاه أرمن، وباقي أولاده كلّ واحد في مملكة، أو في خدمة أخ من إخوته. إنتهى .

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

فيها كان هبوط النيل، ولم يُعهد ذلك في الإسلام إلا مرّة واحدة في دولة الفاطميين^(١)، ولم يبق منه إلا شيء يسير؛ وأشتدّ الغلاء والوباء بمصر، فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام وتفرّقوا وتمزّقوا كلّ ممزّق.

قال أبوالمظفر: «كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعد أمّه على طبخه وشيّه؛ وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا. وكان الرجل يدعو صديقه وأحبّ الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا بالأطباء كذلك، [فكانوا يدعونهم ليصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم]^(٢) وفقدت الميتات والعجيف [من كثرة ما أكلوها]^(٢). وكانوا يختطفون الصّبيان من الشوارع فيأكلونهم. وكفن السلطان في مدّة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفاً؛ وامتألت طرق المغرب والمشرق والحجاز والشام برّم الناس، وصلىّ إمام جامع الإسكندرية في يوم على سبعمائة جنازة. وقال العِماد الكاتب الأصبهاني: « في سنة سبع وتسعين وخمسمائة: اشتدّ الغلاء، وامتدّ البلاء؛ وتحققت المجاعة، وتفرّقت الجماعة؛ وهلك القويّ فكيف الضعيف! ونُحِف السمين فكيف العجيف! وخرج الناس حدّر

(١) وقع ذلك في أيام المستنصر الفاطمي، واستمرت المحنة سبع سنين ابتداءً من سنة ٥٤٧ هـ .

(٢) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان .

الموت من الديار، وتمرّق فربق مصر في الأمصار؛ ولقد رأيت الأرامل على الرمال،
والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج واقفة ساحل البحر على اللقم،
تسترقّ الحياح باللغم». انتهى.

قال: وجاءت [في شعبان]^(١) زلزلة هائلة من الصعيد هدمت بنيان مصر، فمات
نحو الهدم خلق كثير، ثم امتدت إلى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس، فلم
تبني فيها جداراً قائماً إلا حارة السمرة؛ ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً، وهدمت عكا
وصور وجميع قلاع الساحل، وامتدت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية
بجامع دمشق، وأكثر الكلاسة والبيمارستان النوري، وعمامة دور دمشق إلا القليل؛
فهرب الناس إلى الميادين، وسقط من الجامع ست عشرة شرفة، وتشققت قبة
النسر. انتهى كلام صاحب المرأة باختصار، فإنه أمعن وذكر أشياء مهولة من هذا
المودج.

وفيهما توفي عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبّيد الله بن عبد الله بن
حماد بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن
القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر
الصدّيق أبو الفرج بن أبي قحافة، الشيخ الإمام الحافظ الواعظ المفسر العلامة
جمال الدين أبو الفرج القرشي^(٢) التيمي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بأبن
الجوزي؛ صاحب التصانيف المشهورة في أنواع العلوم: كالتفسير والحديث والفقه
والوعظ والزهد والتاريخ والطب وغير ذلك. مولده ببغداد سنة عشر وخمسمائة تقريباً
بدرج حبيب. وتوفي أبوه وله ثلاث سنين.

قلت: وفضل الشيخ جمال الدين وحفظه وغزير علمه أشهر من أن يذكر هنا،
والمقصود أنّ وفاته كانت في ليلة الجمعة بين العشاءين في داره بقطفتا^(٣) ودُفن من

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان. وفي شذرات الذهب. «وفي شعبان كانت الزلزلة العظمى
التي عمت أكثر الدنيا».

(٢) كذا في ابن خلكان والشذرات. وفي الأصل: «القيسي».

(٣) حلة بالجانب الشرقي من بغداد

الغد، وكانت جنازته مشهودة، وكثر أسف الناس عليه، ولم يخلف بعده مثله.

قال ابن خلكان: «وبالجملة فكتبه أكثر من أن تُعدّ، وكتبَ بخطه كثيراً، والناس يُغالون في ذلك حتى يقولوا إنه جُمعت الكرايس التي كتبها، وحُسبت مدة عمره وقُسمت الكرايس على المدة، فكان ما خصّ كل يوم تسع كرايس؛ وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل. ويقال: إنه جُمعت بُرايئة أعلامه التي كتَبَ بها حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَصَلَ منها شيء كثير، وأوصى أن يُسَخَّنَ بها الماء الذي يُغسل به بعد موته ففُعِلَ ذلك [فكفّت]»^(١). إنتهى كلام ابن خلكان باختصار. ومن شعره: [السريع]

فُعْجُ إِلَى وادي الحِمَى نَزَعُ	يا صاحبي إن كنت لي أو معي
وَأَنْشُدُ فُوادي فِي رَبِّا المَجْمَعِ	وَسَلُّ عَنِ الوادي وَسُكَّانِهِ
وَقَفْتُ وَسَلَّمْتُ لِي عَلَى لَعْلَعِ ^(٢)	حَيَّ كَثِيبَ الرَّمْلِ رَمْلِ الحِمَى
تُسْنِدُهُ عَن بانة الأجرع	وَأَسْمَعُ حَدِيثاً قَدْ رَوَّته الصُّبا
وَنُبُّ فِدَتِكَ النَفْسِ عَن مَدْمَعِي	وَأَبْكُ فَمَا فِي العَيْنِ مِن فَضْلَةٍ

وله: [الطويل]

رَأَيْتُ خِيَالَ الظَّلِّ أعْظَمَ عِبْرَةً	لمن كان في أَوْجِ الحَقِيقَةِ راقِ
شَخْوصُ وَأَشْكالُ تُمَرٍ وَتَنْقِصِي	وَتَفَنِّي جَمِيعاً وَالمَحْرُكُ باقِ

وفيهما تُوفِّي الأمير بهاء الدين قَرَأُوش [بن عبد الله]^(٣) الأَسَدِيُّ الخادِمُ الخَصِيَّ المنسوب إليه حارة^(٤) بهاء الدين بالقاهرة داخل باب الفتوح، وهو الذي بنى قلعة^(٥)

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) لعلع: اسم مجموعة من الأماكن أوردتها ياقوت في معجمه.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

(٤) سبق التعريف بها في الجزء الرابع، ص ٣٨، حاشية (٧).

(٥) راجع ص ٤٩ من هذا الجزء

الجبل بالقاهرة، والسور^(١) [على مصر والقاهرة] والقنطرة^(٢) التي عند الأهرام وغير ذلك؛ وكان من أكابر الخُدّام، من خُدّام القصر، وقيل إن أصله من خُدّام العاضد، وقيل إنّه من خُدّام أسد الدين شيركوه وهو الأصحّ. وأتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وكان صلاح الدين يثق به ويعوّل عليه في مهمّاته. ولما أفتتح عكّا من الفرنج سلّمها إليه؛ ثمّ لما استولوا عليها أخذ أسيراً، ففداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار؛ وقيل: بستين ألف دينار.

قال ابن خلكان: «والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين، حتّى إنّ الأسعد^(٣) بن ممّاتي له فيه كتاب لطيف سماه: «الفاشوش في أحكام قراقوش». وفيه أشياء يبعُد وقوع مثلها منه، والظاهر أنّها موضوعة؛ فإنّ صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه. وكانت وفاته في مستهلّ رجب».

وفيهما توفّي محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن عليّ بن محمود بن هبة الله أبو عبد الله، الإمام العلامة عماد الدّين الأصبهانيّ المنشئ المعروف بالعماد الكاتب، وبأبن أخي العزيز. وُلِدَ بأصبهان سنة تسع عشرة وخمسمائة وبها نشأ. وقَدِمَ بغداد مع أبيه وبها تفقّه، وأشتغل بالأدب وبرّع في الإنشاء، وخدم الوزير يحيى [بن محمد] بن هُبَيْرَة، وكان أحد كتّابه. ثمّ قَدِمَ دمشق أيام نور الدين الشهيد وأتصل به وخدمه. وكان فاضلاً حافظاً لدواوين العرب، وله

(١) انظر خطط المقرئ: ٣٧٧/١.

والسور الذي أنشأه صلاح الدين حول مدينة القاهرة لا تزال بعض أجزائه قائمة إلى اليوم. انظر الوصف الدقيق لبقايا السور في تعليقات الاستاذ محمد رمزي على النجوم، طبعة دار الكتب المصرية، الجزء السادس، ص ١٧٧.

(٢) ذكرها المقرئ باسم قناطر الجيزة (خطط: ١٥١/٢) وهذه القنطرة كانت مكونة من جملة عيون أغلبها مسدود تحت شارع الهرم، وبعضها لا يزال مفتوحاً، والجزء المفتوح قد تحدّد جملة مرات، وهو الذي يمرّ منه اليوم مجرور بحر اللبني الواقع غربي مصرف المحيط تحت شارع الهرم وعلى بعد ألف وخمسمائة متر من الجهة الشرقية للأهرام بأراضي ناحية نزلة السمان بمركز الجيزة. (محمد رمزي).

(٣) هو الأسعد بن مهذب بن مينا، المعروف بابن ممّاتي. وزير أديب. كان ناظر الدواوين في الديار المصرية. توفي سنة ٦٠٦هـ. ولعل أهم كتبه كتاب «قوانين الدواوين». (الأعلام: ٣٠٢/١).

عِدَّة مصنّفات، منها: «خريدة القصر في شعراء»^(١) العصر» وغير ذلك وكان القاضي الفاضل يقول: العِمَاد الكاتب كالزناد الوَقَاد (يعني أنّ النَّار في باطنه كامنة، وظاهره فيه فِتْرَة). وكانت وفاة العِمَاد بدمشق في يوم الاثنين غُرَّة شهر رمضان. ودُفِن عند مقابر الصوفية عند المُنْبِيح. وقيل إنّ العِمَاد اجتمع بالقاضي الفاضل يوماً في مَوْكَب السلطان فسارا جميعاً، وقد آتشر العُبار لكثرة الفُرسان ما سدَّ الفضاء فتعجّباً من ذلك، فأنشد العِمَاد في الحال: [مجزوء الكامل]

أَمَّا العُبَارُ فَإِنَّهُ مِمَّا أَثَارَتْهُ السَّنَابِكُ
وَالجَوُّ مِنْهُ مُظْلِمٌ لَكِنْ أَنَارَ بِهِ السَّنَابِكُ
يَا دَهْرُ لِي عَبْدُ الرَّحْمِ سِيمَ فَلَسْتُ أَخْشَى مَسَّ نَابِكُ

ومن شعره: [الخفيف]

دَارِ غَيْرِ اللَّبِيبِ إِنْ كُنْتَ ذَا لُبٍّ وَلَا طِفْهُ حِينَ يَأْتِي بِحَذَقِ
فَأَخُو السُّكْرِ لَا يَخَاطِبُهُ الصَّا حِي إِلَى أَنْ يُفِيقَ إِلَّا بِرِفْقِ

وفيها تُوفِّي محمد بن المبارك بن محمد الطَّهَيْر أبو غالب المصري^(٢)؛ كان فاضلاً أديباً. وُلِدَ سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة؛ ومن شعره — رحمه الله تعالى — قوله: [الوافر]

تَقَنَّعَ بِالْقَلِيلِ وَعِشْ عَزِيزاً خَفِيفَ الظَّهْرِ مِنْ كُفْلٍ وَإِثْمِ
وَالْأَهْيَ نَفْسَكَ لِلْبَلَايَا وَهَمٌّ وَارِدٍ فِي إِثْرِ هَمِّ

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي القاضي أبو المكارم أحمد بن محمد بن محمد التَّيْمِي الأصبهاني المعروف بابن اللِّبَان العدل في ذي الحِجَّة. ومُفِيد بغداد تميم بن أحمد البَنْدَنِيغِي في جُمَادَى الآخِرَة، أدرك أَبَن الرَّاغُونِي^(٣). والإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجَوْزِي، وقد

(١) في كشف الظنون. «خريدة القصر وجريدة أهل العصر».

(٢) الظاهر أنه بغدادى، ويعرف بان ميمون (انظر الأعلام: ١٧/٧ ومصادره).

(٣) راجع وفيات سنة ٥٢٦ هـ.

ناهر التسعين. وأبو محمد عبد المنعم بن محمد المالكيّ فقيه الأندلس. والأمير بهاء الدين قراقوش الأسديّ الخادم الأبيض. ومحمد بن أبي زيد الكرانيّ الخباز بأصبهان في شوال، وقد كمل المائة. والعماد الكاتب العلامة محمد بن محمد بن حامد الأصبهانيّ في [شهر] رمضان، وله سبع وسبعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً وست عشرة إصباعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة:

فيها برز العادل المذكور من ديار مصر طالباً حلب، وكان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه، فجاء إلى العادل فأكرمه العادل وعوّضه عن ميفارقين سُميساط وسروج، ثم سار العادل ونزل على حماة، وصالحه الملك الظاهر صاحب حلب، وعاد الملك العادل إلى حمص.

وفيها توفي عبد الملك بن زيد بن يس التّغلبيّ الدّولعيّ خطيب دمشق؛ والدّولعيّة: قرية من قرى الموصل. قدم دمشق وأستوطنها وصار خطيبها، ودرّس بالزاوية^(١) الغربية من جامع دمشق؛ وكان منزهاً حسن الأثر حميد الطريقة. مات في شهر ربيع الأوّل.

وفيها توفي هبة الله بن الحسن بن المظفر الهمدانيّ؛ محدث ابن محدث ابن محدث. كانت وفاته بباب المراتب^(٢) ببغداد في المحرم. قال أبو المظفر: أنشدنا لغيره: [البسيط]

(١) الزاوية الغربية هي الزاوية الغزالية، نسبة إلى الإمام أبي حامد الغزالي. وتعرف أيضاً بزاوية الدولعي ويراوية القطب النيسابوري ويراوية الشيخ نصر المقدسي. (الدارس: ٣١٣/١).

(٢) باب المراتب: أحد أبواب دار الخلافة ببغداد. كان من أجل أبوابها وأشرفها. وكان حاجه عظيم القدر ونافذ الأمر (معجم البلدان). وكانت محلته في أرض رأس الساقية وقبر السيد سلطان علي. (في التراث العربي للدكتور مصطفى حواد: ٧٠/١).

إذا الفتى ذمَّ عيشاً في شبَّيته فما يقول إذا عَصُرُ الشباب مَضَى
وقد تعوّضتُ عن كلِّ بمشبهه فما وجدت لأيام الصِّبا عِوضاً

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي الملك المُعزَّ إسماعيل ابن سيف الإسلام [طُغْتِكِينَ] صاحب اليمن. وأبو طاهر بركات بن إبراهيم الخُشوعي. والمحدث حماد بن هبة الله الحراني التاجر في ذي الحجَّة. وعبد الله [بن أحمد] (١) بن أبي المجد الحرَّبي الإسكاف في المحرم بالموصل. وزينُّ القضاة أبو بكر عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى القرشي الزكوي في ذي الحجَّة، سمع من جدِّه. وأبو الحسن عبد الرحيم بن أبي القاسم [عبد الرحمن] (٢) الشَّعري، أخو زينب في المحرم. وخطيب دمشق الضياء عبد الملك بن زيد بن يس الدُّولعي في شهر ربيع الأول، وله إحدى وتسعون سنة. وقاضي القضاة محيي الدين أبو المعالي محمد ابن القاضي الزكي علي بن محمد القرشي، وله ثمان وأربعون سنة، تُوفِّي في شعبان. وأبو القاسم هبة (٣) الله بن علي بن مسعود الأنصاري البوصيري في صفر، وله اثنتان وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراع واحدة وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة خمس (٤) عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن الشذرات والذهبي.

(٢) زيادة عن الذهبي.

(٣) في الأصل: «أبو القاسم بن هبة الله» وما أثبتناه عن الذهبي والشذرات.

(٤) ما زالت هذه النسبة غير كافية لري الأراضي. وقد استمر العلاء في هذه السنة، وكان قد بدأ في سنة

٥٩٦هـ. وسوف تستمر الأزمة حتى السنة القادمة حيث سيبلغ المنسوب ١٧ ذراعاً وهو الحد الأدنى

المطلوب لري الأراضي في ذلك الوقت.

السنة الثالثة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة تسع وتسعين وخمسمائة:

فيها في ليلة السبت سلخ المحرم ماجت النجوم في السماء شرقاً وغرباً، وتطائرت كالجراد المنتشر يميناً وشمالاً؛ ولم ير هذا إلا عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكانت هذه السنة أعظم.

وفيها تُوِّفِّي إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الموفق الفقيه بن الصقال الحنبلي. وُلِدَ سنة خمس وعشرين وخمسمائة. وتفقه على أبي يعلى الفراء، وسمع الحديث الكثير، وكان شيخاً ظريفاً صالحاً زاهداً. مات في ذي الحجة، ودفن بباب حرب ببغداد.

وفيها تُوِّفِّيَت زمرّد خاتون أمّ الخليفة الناصر لدين الله العباسي ببغداد. كانت سالحة كثيرة البرّ والصدقات، وحجّت مرّة فأنفقت ثلاثمائة ألف دينار، وكان معها نحو ألفي جمل، وتصدّقت على أهل الحرمين، وأصلحت البرك والمصانع؛ وعمّرت التربة عند قبر معروف الكرخي والمدرسة إلى جانبها. وماتت في جمادى الأولى.

وفيها تُوِّفِّي عليّ بن الحسن بن إسماعيل أبو الحسن [العبيدي] من (١) عبد القيس؛ كان فاضلاً بارعاً في الأدب وغيره، وله شعر جيّد؛ من ذلك قوله — رحمه الله تعالى —: [السريع]

لا تَسْلُكِ الطُّرُقَ إِذَا أَخْطَرْتُ لَوَ أَنَّهَا تُفْضِي إِلَى الْمَمْلَكَةِ
قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ

وفيها تُوِّفِّي القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم أبو الفضائل ضياء الدين الشَّهْرُزُورِيّ، وهو ابن أخي القاضي كمال الدين [محمد] (٢) الشَّهْرُزُورِيّ. كان فقيهاً فاضلاً جَوَاداً كريماً أديباً شاعراً. ومن شعره أول قصيدة: [البيسط]

(١) في الأصل: «بن عبد القيس» والتصحيح والزيادة عن الذهبي.
(٢) زيادة عن ابن خلكان والذهبي في ترجمة القاضي ابن أبي عصرون.

في كلِّ يوم تُرى للبين آثارُ وما له في آلتِنا الشَّمْلِ آثارُ
يسطو علينا بتفريقِ فواعجبا هل كان للبين فيما بيننا ثارُ
وفيها تُوفي يحيى بن طاهر بن محمد أبوزكرياء الواعظ، ويعرف بآبِ النجار
البغداديّ. كان فاضلاً فصيحاً. وكان ينشد في مجلسه - رحمه الله تعالى - :
[البسيط]

عاشر من الناس من تَبَقَى مودَّتُهُ فأكثرُ الناس جمعُ غيرِ مُؤْتَلِفٍ
منهم صديقٌ بلا قاف ومعرفةٌ بغيرِ فاءٍ وإخوانٌ بلا ألفٍ

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في السنة، قال: وفيها تُوفي أبو القاسم
عبد الرحمن بن مكيّ بن حمزة بن موقا الأنصاريّ الإسكندرانيّ التاجر في شهر ربيع
الآخر، وله أربع وتسعون سنة. وزين الدين أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن نجا^(١)
الدمشقيّ الحنبليّ الواعظ بمصر في رمضان، وله إحدى وتسعون سنة، وأبو الحسن
عليّ بن حمزة بن عليّ بن طلحة البغداديّ الكاتب بمصر في شعبان. وسلطان غَزَنَة
غيث الدين. وقاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم
الشَّهْرُزُورِي الشافعيّ، وله خمس وستون سنة، ولي القضاء بدمشق بعد عمّه^(٢)، ثم
استعفى لأمرًا، ثم بعد مدّة ولي قضاء العراق، ثم استعفى وخاف [العواقب]^(٣)
ثم سكن حَمَاة؛ وولي قضاءها؛ وبها مات في رجب. والزاهد أبو عبد الله محمد بن
أحمد القرشيّ الهاشميّ الأندلسيّ بيت المقدس. والشهاب أبو الفضل محمد بن
يوسف الغزنويّ الحنفيّ المقرئ بمصر. وأبو طاهر المبارك بن المبارك [بن
هبة الله]^(٣) بن المَعطُوش في جُمادى الأولى عن اثنتين وتسعين سنة ببغداد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان وست وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً.

* * *

(١) في الأصل: «بن نحالة». والتصحيح عن الذهبي والشذرات.

(٢) وهو أبو الفضل محمد بن أبي عماد عبد الله، الملقب بكمال الدين. راجع وفيات سنة ٥٧٢ هـ.

(٣) زيادة عن الذهبي والشذرات.

السنة الرابعة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة ستمائة :

فيها وصل إلى بغداد أبو الفتح بن أبي نصر الغزنويّ رسولا من صاحب غزنة وجلس بباب بدر^(١)، وقال: هنيئاً لكم يا أهل بغداد، أنتم تحظون بأمر المؤمنين، ونحن محرومون! وأنشد - رحمه الله - : [المتقارب]

ألا قل لسكان وادي العقيق هنيئاً لكم [في]^(٢) الجنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضاً فنحن عطاش وأنتم وروء

وفيها توفي الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد [بن علي]^(٣) بن سرور أبو محمد المقدسي. ولد بجماعيل، وهي قرية من أعمال نابلس في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسائة، وكان أكبر من الشيخ موفق^(٤) الدين بأربعة أشهر [وهما أبنا خالة]^(٥). وكان إماماً حافظاً متقناً مصنفاً ثقة؛ سمع الكثير ورحل إلى البلاد وكتب الكثير، وهو أحد أكابر أهل الحديث وأعيان حفاظهم، ووقع له محن ذكرها صاحب مرآة الزمان، ونجاه الله منها. ومات في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيع الأول، ودُفن بالقرافة عند الشيخ أبي عمرو بن مرزوق، وكان إماماً عابداً زاهداً ورعاً. قال تاج الدين الكندي: هو أعلم من الدارقطني^(٥) والحافظ أبي موسى^(٦).

قال أبو المظفر: وفي هذه السنة سافرت من بغداد إلى الشام، وهي أول رحلتي، فاجتزت بدقوقا^(٧) وجلست بها (يعني للموعظة) ثم قدمت إربل واجتمعت

(١). باب بدر. هو أحد أبواب دار الخلافة. كان أولاً يسمى باب الخاصة، يدخل منه من سمت منزلته. ثم نسب بعد ذلك إلى «بدر» أحد خواص الخدم. (مراصد الاطلاع: في الكلام على منظره الريحانيين).

(٢) زيادة يقتضيهما السياق والوزن.

(٣) كان مفتي الأمة شيخ الإسلام سيد العلماء الأعلام في عصره. توفي سنة ٥٦٢٠ هـ.

(٤) زيادة عن تذكرة الحفاظ والشذرات وتاريخ الإسلام.

(٥) تقدمت وفاته سنة ٥٣٨٥ هـ.

(٦) تقدمت وفاته سنة ٥٥٨١ هـ.

(٧) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد. (معجم البلدان).

بمحيي الدين الساعاتي، وأنشدني مقطعات لغيره. منها - رحمه الله -: [البسيط]

رَجِمْتُ أَسْوَدَ هَذَا الْخَالِ حِينَ بَدَا فِي جَمْرَةِ الْعَدَدِ مَرْمِيًّا بِأَبْصَارِ
كَأَنَّهُ بَعْضُ عُبَادِ الْمَجُوسِ وَقَدْ أَلْقَى بِمَهْجَتِهِ فِي لُجَّةِ النَّارِ

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي منتخب الدين أبو الفتح أسعد بن أبي الفضائل محمود بن خلف العجلي الأصبهاني شيخ الشافعية ببلده في صفر، وله خمس وثمانون سنة. وأبوسعد عبد الله بن عمر بن أحمد النيسابوري الصفار في رمضان، وله اثنتان وتسعون سنة. والحافظ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن علي الجماعيلي المقدسي في شهر ربيع الأول، وله تسع وخمسون سنة، وفاطمة بنت سعد الخير الأنصارية في شهر ربيع الأول، ولها ثمان وسبعون سنة. وبهاء الدين أبو محمد القاسم ابن الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر في صفر، وله ثلاث وسبعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصباعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة إحدى وستمائة:

فيها جاءت الفرنج حمة بغتة وأخذوا النساء الغسلات من باب البلد على العاصي، وخرج إليهم الملك المنصور بن تقي الدين وقتلهم وثبت وأبلى بلاء حسناً، وكسر الفرنج عسكره، فوقف على الساقية، ولولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحداً.

وفيها حجّ بالناس من العراق وجه السبع، ومن الشام صارم الدين برغش العادلي وزين الدين قراجا صاحب صرند.

وفيها تُوفِّي عبد المنعم بن عليّ [بن نصر] ^(١) بن الصَّيْقَلِيّ أبو محمد نجم الدين الحَرَائِيّ، قديم بغداد وتفقه بها؛ وسمع الحديث؛ ثم عاد إلى حَرَان ووعظ بها وحصل له القبول التام، ثم عاد إلى بغداد وأستوطنها. قال أبوالمظفر سبط ابن الجَوَزِيّ في تاريخه: سمعته يُنشد: [الطويل]

وأشتاقكم يا أهل ودِّي وبيننا كما زعم البين المُشْتُ فراسخُ
فأما الكرى عن ناظري فمشرّدٌ وأما هواكم في فؤادي فراسخ

وفيها تُوفِّي محمد بن سعد الله بن نصر ^(٢) أبو نصر بن الدَّجَاجِيّ الواعظ الحنبليّ. وُلد سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ومات في شهر ربيع الأول، ودُفِن بباب حرب. ومن شعره - رحمه الله -: [الرجز]

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها كان إلى نيل التقى أحوى لها
وإن تراها سدّت أقوالها كان على حَمَل العُلا أقوى لها

وفيها تُوفِّي ملك خِلاط سيف الدين بَكْتُمُر ^(٣). كان من أحسن الشباب؛ ولم يبلغ عشرين سنة من العمر، قتله الهزار دیناری ^(٤)؛ قيل: إنه غرقه في بحر خِلاط، وقُتِل الهزار دیناری بعده بمُدّة يسيرة.

الذين ذكر الذهبِيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي المحدث أحمد بن سليمان الحَرَبِيّ الملقب بالسُّكْر. وأبو الفضل محمد بن الحسين بن الخَصِيب بدمشق. ويوسف بن المبارك بن كامل الخَفَّاف. وعبد الله بن عبد الرحمن بن أيوب الحَرَبِيّ البَقْلِيّ. وشُمَيْم الجَلِّيّ أبو الحسن عليّ بن الحسن بن عَنَتَر الأديب. ومحمد بن أحمد بن حامد أبو عبد الله الأرتَاجِيّ الحنبليّ بمصر، وله بضع وتسعون سنة.

(١) زيادة عن الذهبِيّ والشذرات.

(٢) في الأصل: «محمد بن سعد بن نصر الله». وما أثبتناه عن الذهبِيّ.

(٣) تقدمت وفاته سنة ٥٨٩ هـ.

(٤) راجع ما ذكره المؤلف عن قتله في وفیات سنة ٥٨٩ هـ. وقارن بابن الأثير: حوادث نفس السنة.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم أربع أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً
وثمانى أصابع.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة اثنتين وستمائة:

فيها توجه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خِلاط بمكاتبة أهلها وملكها، فجاء
الملك الأشرف موسى شاه أرمن ابن الملك العادل هذا فنزل على دُنَيْسِر، وأُفِطِع
بِلادَ ماردين؛ فلما بلغ ذلك ناصر الدين عاد إلى ماردين بعد أن غَرِمَ مائة ألف
دينار، ولم تُسَلِّم له خِلاط.

وفيها أعار [أبن] (١) لاون على حلب وأخذ الجُشَارَ (٢) من نواحي حارم، فبعت
إليه الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - وهو يومَ ذلك
صاحب حلب - فارس الدين ميموناً القَصْرِيَّ، وأَيْبِكَ فُطَيْسَ، والأميرَ
حُسامَ الدين [بن أمير تركمان] (٣) فتقاتلا قتالاً شديداً، وكان ميمون تقدّم ولولاها
لأُخِذَ ميمون؛ فلما بلغ ذلك الملك الظاهر خرج من حلب ونزل مَرَجَ دَابِقَ (٤)، ثم
جاء إلى حارم، فهرب ابن لاون إلى بلاده. وكان ابن لاون قد بنى قلعةً فوق
دَرْبَسَاك، فأخذها الظاهر وأخربها، ثم عاد الملك الظاهر إلى حلب.

وفيها حجّ بالناس من العراق وجهُ السَّبْعِ، ومن الشام الشَّجَاعَ عَلِيَّ بن
السَّلَّار.

(١) زيادة عما سيأتي للمؤلف. وفي ابن الأثير: ٣١٩/١٠ «ابن ليون الأرمني صاحب الدروب» «وابن لاون»

اسم كان يطلقه العرب على صاحب بلاد الأرمن

(٢) الجشار: المشاية.

(٣) زيادة عن الذيل على الروضتين.

(٤) مرج دابق: مرج معشب نزه قرب حلب من أعمال أعزاز. (معجم البلدان).

وفيها تُوفِّي الأمير طَاشَتِيكِين بن عبد الله المُقْتَفَوِي^(١) مُجِير الدين أمير الحاج؛ حجَّ بالناس ستاً وعشرين حِجَّةً، وكان يسير في طريق الحجِّ مثل الملوك. شكاه ابن يونس [الوزير] إلى الخليفة أنه يكاتب السلطان صلاح الدين صاحب مصر [وزور عليه كتابة]^(٢)، فحبسه الخليفة مدّة، ثم تبين له أنه بريء، فأطلقه وأعطاه خُوزِستان؛ ثم أعاده إلى إمرة الحاج؛ وكانت الحِلَّة^(٣) إقطاعه. وكان شجاعاً جَوَاداً سَمَحاً قليل الكلام يَمْضِي عليه الأسبوعُ ولا يتكلم. استغاث إليه رجل يوماً فلم يكلمه، فقال الرجل: الله كلّم موسى، فقال: وأنت موسى! [فقال الرجل: وأنت الله! ففضى حاجته. وكان حليماً. ألقاه رجل فأستغاث إليه من نوابه فلم يُجبهه]^(٤) فقال الرجل: أنت حمار؟ فقال طاشتيكين: لا. وفي قلة كلامه يقول ابن التَّعَاوِيذِيّ الشاعر المشهور: [الخفيف]

وأمر على البلاد مولّي لا يُجيب الشاكي بغير السكوت
كلما زاد رفعة حطنا اللدُّ هُ بتغفيله إلى البهْمُوت

وفيها تُوفِّي مسعود بن سعد الدين صاحب صَفَد. وأخوه بدر الدين ممدود شِحْنَة دمشق، وهما أبنا الحاجب مبارك بن عبد الله، وأمهما أم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب [فرخشاه أخوهما لأُمهما]^(٤)، وأختهما لأُمهما أيضاً الست عذراء صاحبة المدرسة العَدْرَاوِيَّة المجاورة لقلعة دمشق. وكانا أميرين كبيرين (أعني ممدوداً ومسعوداً) صاحبي الترجمة، ولهما مواقف مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتقدّمت وفاة ممدود على أخيه مسعود، فإنه مات بدمشق في يوم الأحد خامس شهر رمضان من هذه السنة. وتُوفِّي مسعود هذا بصَفَد في يوم الاثنين خامس شوال - رحمهما الله تعالى -.

الذين ذكر الذهبِيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي سلطان غَزَنَة

(١) في الأصل: «الصغدي». وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب.

(٢) زيادة عن طبعة دار الكتب.

(٣) المراد بها حلة بني مزيد: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد. (معجم البلدان).

(٤) زيادة عن ذيل الروضتين.

شهاب الدين [أبوالمظفر محمد بن سام] ^(١) الغوري، قتلته الباطنية. وأبو عليّ ضياء الدين بن أبي القاسم [أحمد بن الحسن أبي عليّ] ^(٢) بن الخريف. والمفتي أبوالمفاخر خلف بن أحمد الأصبهانيّ الفراء، وله أربع وثمانون سنة. وأبو يعلى حمزة بن عليّ [بن حمزة بن فارس] ^(٣) بن القبيطيّ، قرأ القرآن على سبط الخياط وجماعة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة ثلاث وستمائة:

فيها فارق وجه السبع ^(٤) الحاج، وقصد الشام مُغضباً؛ وكان في الحج جماعة من الأعيان، فبكوا وسألوه العود معهم على العادة، فقال: مولاي أمير المؤمنين محسن إليّ، وما أشكو إلا من الوزير ابن مهدي ^(٥)، وما عن التوجه بُد؛ ففارقهم وسار إلى الشام، فتلّقه الملك العادل صاحب الترجمة وأولاده، وأحسن العادل إليه وأكرم نزلَه. وحزن الخليفة على فراقه.

وفيها ولى الخليفة ^(٦) عماد الدين أبا القاسم عبد الله بن الدامغانيّ الحنفيّ قاضي قضاة بغداد.

(١) زيادة عن الذيل على الروضتين وابن الأثير وتاريخ الإسلام.

(٢) زيادة عن الذهبي والشذرات.

(٣) زيادة عن ابن الأثير.

(٤) وهو مظفر الدين سقر مملوك الخليفة، المعروف بوجه السبع. (ابن الأثير).

(٥) هو نصير الدين ناصر بن مهدي الرازي، أبو الحسن. تقلد الوزارة سنة ٥٦٠٢ هـ. إلا أنه لم يطق تحكيم المالكة بدار الخلافة، فجعل يشردهم، فأكثروا من القول فيه، فعزله الخليفة سنة ٥٦٠٤ هـ وأكرمه. فأقام محترماً إلى أن توفي ببغداد سنة ٦١٧ هـ. (الأعلام: ٣٥٠/٧).

(٦) هو الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله العباسي. أقام في الخلافة ٤٧ سنة: من سنة ٥٧٥ هـ إلى سنة ٦٢٢ هـ (تاريخ الحلفاء للسيوطي: ٤٤٨).

وفيها قبض^(١) الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي، وأستأصله حتى أحتاج إلى الطلب من الناس.

وفيها نزلت الفرنج على حمص، وكان الملك الظاهر غازي صاحب حلب قد بعث المُبارز يوسف بن خَطْلُخ الحلبّي إليها نجدةً لأسد الدين صاحبها، وحصل القتال بينهم وبين الفرنج وأسير الصَّمصَم بن العَلائِي، وخدام صاحب حمص. ورجع الفرنج إلى بلادهم.

وفيها تُوفّي عبد الرزّاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالكيلاني — رضي الله عنه — وكان عبد الرزاق هذا زاهداً ورعاً عابداً مُقْتَنِعاً من الدنيا باليسير صالحاً ثقة، لم يدخل في الدنيا كما دخل فيها غيره من إخوته. وكان مولده سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة، ومات في شوال ببغداد ودُفن بباب حرب.

وفيها تُوفّي أبو القاسم أحمد ابن المقرئ صاحب ديوان الخليفة ببغداد؛ كان شاباً حسناً يعاشر ابن الأمير أصبه، وكان ابن أصبه شاباً جميلاً؛ جلسا يوماً فداعب ابن المقرئ ابن أصبه فرماه بسكين صغيرة، فوقع في فؤاده فقتلته، فسلم الخليفة ابن المقرئ إلى أولاد أصبه، فلما خرجوا به ليقتلوه أنشد: [الوافر]

قَدِمْتُ عَلَى الْإِلَهِ^(٢) بِغَيْرِ زَادٍ مِنْ الْأَعْمَالِ بِالْقَلْبِ السَّلِيمِ
وَسُوءِ الظَّنِّ أَنْ تَعْتَدَّ زَاداً إِذَا كَانَ الْقُدُومُ عَلَى كَرِيمِ

فقتلوه — رحمه الله تعالى —.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر الصَّيْدَلَانِي، وله أربع وتسعون سنة. وأبو عبد الله محمد بن مُعَمَّر [بن عبد الواحد بن رجاء]^(٣) بن الفاخر القرشي. وأبو بكر عبد الرزاق بن عبد القادر بن أبي صالح الجيلي الحافظ في شوال، وله خمس وسبعون سنة.

(١) وكان ذلك بسبب فسقه وفجوره، كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) في ابن الأثير وابن كثير: «الكريم».

(٣) زيادة عن الذهبي.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وأربع أصابع.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر
وهي سنة أربع وستمائة.

فيها ملك الأوحده ابن الملك العادل صاحب الترجمة خلّاط بمكاتبة أهلها بعد قتل ابن بُكْتُمُر والهزار ديناري المقدم ذكرهما؛ وكانت بنت بكتمر مع صاحب أرزن^(١) الروم، - فقالت بعد قتل أخيها - : لا أرضى حتى تقتل قاتل أخي، وهو الهزار ديناري وتأخذ بثأره؛ فسار صاحب أرزن إلى خلّاط، وخرج الهزار ديناري للقاءه، فضربه صاحب أرزن فأبان رأسه، وعاد إلى أرزن الروم. وبقيت خلّاط بغير ملك، وكان الأوحده ابن العادل صاحب ميفارقين، فكاتبوه أهل خلّاط فجاء إليهم وأستولى عليها^(٢).

وفيهما حجّ بالناس من العراق ياقوت.

وفيهما توفي محمود^(٣) بن هبة الله بن أبي القاسم الحلبي أبو الشاء البرّاز. كان فاضلاً، قرأ القرآن، وسمع الحديث على إسماعيل بن موهوب بن الجواليقي،

(١) أرزن الروم: مدينة في تركيا، من بلاد أرمينية. وقد سماها العرب أرزن الروم، وأرزرورم أو أرض الروم. وعرفها الأرمن باسم «كرن» Karın، والروم باسم ثيودوسيوبوليس. وهي المدينة الإسلامية في بلاد قاليقلا. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٤٩، ومراصد الاطلاع: ٥٥/١، وتقويم البلدان: ٣٧٨).

(٢) في رواية ابن الأثير أن صاحب خلّاط في ذلك الوقت كان «بلبان» مملوك شاه أرمن بن سكمان. وكان قد استولى عليها بعد عزل ابن بكتمر. ولما طمع بها الملك الأوحده استنجد صاحبها بلبان بمغيث الدين طفول شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم، فحضر واجتمعوا على نجم الدين وهزمناه. ثم إن ابن قلج أرسلان غدر بصاحب خلّاط وقتله طمعاً في البلاد؛ غير أن أهل خلّاط امتنعوا عليه وكاتبوا نجم الدين. (انظر ابن الأثير: حوادث سنتي ٦٠٣ و ٦٠٤هـ).

(٣) في الأصل: «محمد». وما أثبتناه عن الشذرات.

وَحَكَى عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ فِي حَلَقَةِ وَالِدِي بِجَامِعِ الْقَصْرِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ شَابٌّ وَقَالَ:
ما معنى قول القائل: [البسيط]

وَصَلُّ الْحَبِيبِ جِنَانُ الْخُلْدِ أَسْكُنْهَا وَهَجْرُهُ النَّارُ يُصَلِّبُنِي بِهِ النَّارَا
فَالشَّمْسُ بِالْقَوْسِ أَضْحَتْ وَهِيَ نَازِلَةٌ إِنْ لَمْ يَزُرْنِي وَبِالْجُوزَاءِ إِنْ زَارَا

فقال له والدي: يا بني، هذا شيء يتعلّق بعلم النجوم لا بعلم الأدب. ثم قام والدي وآلى نفسه ألا يعود إلى مكانه حتّى ينظر في علم النجوم، ويعرف مسير الشمس والقمر، فنظر فيه وعلمه. ومعنى الشعر: أنّ الشمس إذا نزلت القوس يكون الليل في غاية الطول، وإذا كانت في الجوزاء كان في غاية القصر.

قلت: ومحصول البيتين: أنّه إذا لم يزره محبوبه كان الليل عليه أطول الليالي، وإذا زاره كان عليه أقصر الليالي، فقصد القوس للطول، والجوزاء للقصر. وهذا يُشبه قول القائل، وقد تقدّم ذلك في غير هذا المحلّ من هذا الكتاب:
[البسيط]

لَيْلِي وَلَيْلَى نَفَى نَوْمِي آخْتَلَاهُمَا بِالطُّوْلِ يَا طُوبَى لَوْ آعْتَدَلَا
يَجُودُ بِالطُّوْلِ لَيْلَى كَلَّمَا بَخَلْتُ بِالطُّوْلِ لَيْلَى وَإِنْ جَادَتْ بِهِ بَخَلَا

ومثل هذا قول شرف الدين أحمد بن نصر بن كامل - وقيل هما لغيره -:
[البسيط]

عَهْدِي بِهِمْ وَرِدَاءُ الْوَصْلِ يَجْمَعُنَا وَاللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَاللَّمْحِ بِالْبَصْرِ
فَالْيَوْمَ لَيْلَى مَذْ غَابُوا فَدَيْتَهُمْ لَيْلُ الضَّرِيرِ فَصَبْحِي غَيْرُ مُتَنْظَرِ

ويعجبني قول من قال - وهو قريب من هذا المعنى إن لم يكن هو بعينه -:
[الكامل]

هَجَمَ السُّهَادَ عَلَى عَيْونِي فِي الدُّجَى سَرَقَ الرِّقَادَ وَدَمَعُ عَيْنِي سَافِحُ
وَغَدَاً يَسَامِحُ لِلدُّجَى فِي بَيْعِهِ وَاللَّصُّ كَيْفَ يَبِيعُ فَهُوَ الرَّابِحُ

وقد استوعبنا هذا النوع (أعني ما قيل في طول الليل وقصره في كتابنا

المسمّى: بـ «حلية الصفات في الأسماء والصناعات» فليُنظر هناك في حرف الطاء المهملة.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي حنبل بن عبد الله ابن الفرّج بن سُعادة أبو عليّ الرُّصافيّ المكبّر الدّلال في المحرّم. وعبد المجيب بن عبد الله بن زُهَيْر الحَرَبِيّ بَحَمَاة. وأبو الفضل عبد الواحد بن عبد السلام بن سلطان المقرئ. وستّ الكتّبة نعمة بنت عليّ بن يحيى بن محمد بن الطراح^(١) بدمشق.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وسبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة خمس وستمائة.

فيها زُلزلت نيسابور زلّزة عظيمة دامت عشرة أيام، فمات تحت الردم خلقٌ كثير.

وفيها^(٢) آتفق الفرنج من طرابلس وحصن^(٣) الأكراد على الإغارة على أعمال حمص، فتوجّهوا إليها وحاصروها، فعجز صاحب حمص أسد الدين شيركوه عنهم، وتجنّده ابن عمّه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فعاد الفرنج إلى طرابلس. وبلغ السلطان الملك العادل صاحب الترجمة، فخرج إليهم من مصر بالجيوش وقصد عكا، فصالحه صاحبها، فسار حتّى نزل على بحيرة حمص^(٤) وأغار على بلاد طرابلس وأخذ من أعمالها حصناً صغيراً.

(١) في الأصل: «نعمّة بنت علي بن يحيى بن الطراح» وما أثبتناه رواية الذهبي.

(٢) ذكر ابن الأثير هذه الواقعة في السنة الماضية.

(٣) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل المقابل لحمص من جهة الغرب. (معجم البلدان).

(٤) في ابن الأثير: «بحيرة قُدس». وكلاهما صحيح وتعرف أيضاً بحيرة قطينة وهي بحيرة اصطناعية، رومانية المنشأ تقع في الجنوب الغربي من مدينة حمص، على بعد عشرة كيلو مترات. وتغذى بمياه نهر العاصي.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي قاضي القضاة صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن دُرْبَاس بمصر عن تسع وثمانين سنة. والقاضي أبو الفتح محمد بن أحمد بن بَخْتِيَار بواسط في شعبان، وله ثمان وثمانون سنة. وأبو الجُود غِيَاثُ بن فارس اللَّخْمِيّ مَقْرِيء ديار مصر. وأبو بكر محمد بن المبارك، ابن مَشَّق محدث بغداد، وله اثنتان وسبعون سنة. والحسين بن أبي نصر [بن الحسين بن هبة الله بن أبي حنيفة] ^(١) بن القارص الحريمي ^(٢) الضرير آخر من رَوَى شيئاً عن المُسْنَد، تُوفِّي في شعبان. وخطيب القُدس علي بن محمد بن علي بن جَمِيل المعافري.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً واثنتا عشرة إصبعاً.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة ست وستمائة.

فيها ^(٣) تُوفِّي الحسن بن أحمد [بن محمد] بن جِكِينَا ^(٤) من أهل الحرم الطاهري؛ كان فاضلاً رئيساً شاعراً. ومن شعره: [الكامل]

قد بان لي عُذْرُ الكرامِ وصُدُّهم عن أكثر الشعراء ليس بعارٍ
لم يسأموا بذل النوالِ وإنَّما جَمَدَ النَّدى لبرودة الأشعار

وفيها تُوفِّي محمد بن عمر بن الحسين العلامة أبو المعالي ^(٥) فخر الدين

(١) زيادة عن الذهبي والشذرات.

(٢) كذا في الذهبي والشذرات. وفي الأصل: «ابن الفارض محمد».

(٣) في الشذرات وفوات الوفيات أن وفاته سنة ٥٢٨ هـ.

(٤) في الأصل وفوات الوفيات: «ابن جكينا» بالجيم المعجمة. والتصحيح والزيادة عن الشذرات وتاج العروس.

(٥) في ابن خلكان والشذرات وعيون الأنباء: «أبو عبد الله».

الرازبي المتكلم صاحب التصانيف في علم الكلام والمنطق والتفسير. كان إماماً بارعاً في فنون من العلوم، صنّف «التفسير» و«المحصل» و«الأربعين» و«نهاية العقول» وغير ذلك. قال صاحب المرآة: «وأختصّ بكتب ابن سينا في المنطق وشرّحها؛ وكان يعظ وينال من الكراميّة^(١) وينالون منه، ويكفّرونه ويكفرونه، وقيل: إنهم دسّوا عليه من سقاه السم فمات ففرحوا بموته؛ وكانوا يرمونه بالكبائر، وكانت وفاته في ذي الحجّة. ثم ذكر عنه صاحب المرآة أشياء، الأليق الإضراب عنها والسكات عن ذكرها.

وفيها تُوفي المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو السعادات مجد الدين بن الأثير الموصليّ الجزريّ الكاتب؛ وُلد سنة أربعين وخمسائة بجزيرة ابن عمر، ثم أنتقل إلى الموصل وكتب لأمرائها، وكانوا يحترمونه، وكان عندهم بمنزلة الوزير الناصح إلاّ أنه كان منقطعاً إلى العلم قليل الملازمة لهم. صنّف الكتب الحسان، منها: «جامع الأصول في أحاديث الرسول»، جمع فيه بين الصّحاح الستة. وكتاب «النهاية في غريب الحديث» في خمسة مجلدات. وكتاب «الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف» في تفسير القرآن، أخذه من تفسير الثعلبيّ والزمخشريّ؛ وله كتاب «المصطفى والمختار في الأدعية والأذكار» وله كتاب لطيف في صناعة الكتابة، وكتاب «البديع في شرح الفصول في النحو لابن الدهان» وله «ديوان رسائل»، وكتاب «الشافعي في شرح مسند الإمام الشافعيّ» - رضي الله عنه - . ومن شعره - رحمه الله - ما أنشده لصاحب الموصل، وقد زلّت به بغلته وألقته إلى الأرض: [السريع]

إن زلّت البغلة من تحته فإنّ في زلّتها عُذراً
حملها من علمه شاهقاً أو من ندى راحته بحراً

وكانت وفاته بالموصل في يوم الخميس سلخ ذي الحجّة، ودفن برباطه

(١) الكراميّة: من فرق الانتداع في الإسلام ينتسبون إلى محمد بن كرام بن عراق بن حزابة المتوفى سنة ٢٥٥هـ. كان يقول بأن الله تعالى مستقرّ على العرش وأنه جوهر. (الأعلام ٧/١٤٠).

بدرج دَرَّاج^(١)، وهو أخو أبي الحسن^(٢) علي بن الجَزْرِيّ الكاتب.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي القاضي وجيه الدين أسعد بن المنجَّب التَّنُوخِيّ في المحرَّم، وله سبع وثمانون سنة. وأبو مسلم المؤيد [هشام] بن عبد الرحيم [بن أحمد بن محمد]^(٣) بن الإخوة العدل بأصبهان في جُمادى الآخرة. وأبو عبد الله محمود بن أحمد المَضْرِيّ الأصبهانيّ إمام جامع أصبهان عن تسع وثمانين سنة. وأبو القاسم إدريس بن محمد العطار بأصبهان، وله نحو مائة سنة. وفخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازيّ المصنّف ابن خطيب الريّ يوم عيد الفطر، وله اثنتان وستون سنة. ومجد الدين يحيى بن الربيع الواسطيّ مدرس النظامية عن ثمان وسبعين سنة. ومجد الدين أبو السعادات المبارك بن الأثير الجَزْرِيّ الكاتب صاحب «جامع الأصول» و«النهاية» في سلخ العام، وله ثلاث وستون سنة. وأمّ هانيء عُقَيْفَة بنت أحمد الفارانية^(٤) مُسْنِدَة أصبهان، ولها ست وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة سبع وستمائة.

فيها حجّ بالناس من الشام سيف الدّين عليّ بن عَلَم الدين سليمان بن جَنْدَر.

وفيها تُوفِّي أُرسلان شاه بن عزّ الدين مسعود الأمير نور الدين الأتّابك صاحب

(١) درب دَرَّاج: محلة كبيرة في وسط مدينة الموصل. (معجم البلدان).

(٢) هو المؤرخ الشهير صاحب الكامل في التاريخ. وهو أخو ابن الأثير الأديب الكاتب صاحب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر».

(٣) زيادة عن الذهبي والشذرات.

(٤) نسبة إلى «فارغان» بفائين موحدتين؛ من قرى أصبهان.

الموصل؛ كان متكبراً جبّاراً بخيلاً فاتكاً سفاكاً للدماء؛ حبس أخاه عماد الدين^(١) سنين حتى مات في حبسه، وولّى الموصل لرجل ظالم يقال له السراج فأهلك الحرث والنسل، وكانت وفاة أرسلان هذا في صفر. وخلف ولدين: القاهر مسعوداً وزنكي، وأوصى إلى بدر الدين لؤلؤ^(٢) أن يكون مسعود السلطان ويكون زنكي في شهرزور.

وفيهما توفّي عبد الوهاب بن عليّ الشيخ أبو محمد الصوفيّ ضياء الدين المعروف بابن سكينه سبط شيخ الشيخ إسماعيل بن أحمد النيسابوريّ. وكان فضلاً محدثاً عابداً زاهداً، وكان يُنشد لمحمد الفارقيّ - رحمه الله -: [المتقارب]

تحمّل أذاك على خلقه فما في استقامته مطمّع
وأنى له خلق واحد وفيه طبائعه الأربع

وفيهما توفّي عمر بن محمد بن معمر بن أحمد بن يحيى بن حسان المُسند الكبير رُحلة^(٣) الآفاق أبو حفص بن أبي بكر البغداديّ الدارقزيّ المؤدّب المعروف بابن طبرزد، والطبرزد: هو السكر. وُلد في ذي الحجة سنة ست عشرة وخمسمائة، وسمع الكثير بإفادة أخيه المحدث أبي البقاء محمد ثم بنفسه، وحصل الأصول وحفظها إلى وقت الحاجة إليه، فلما كبرت سنه حدّث بالكثير، وصار رُحلة الزمان إلى أن مات في تاسع شهر رجب ببغداد؛ ودُفن بباب حرب.

وفيهما توفّي محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدم الإمام القدوة الزاهد أبو عمر المقدسيّ الجماعيليّ. قال ابن أخته الحافظ ضياء الدين: مولده في سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة بجماعيل، وسمع الكثير بدمشق من والده وخلق كثير سواه، وروى عنه أخوه الشيخ الموفق وولده شرف الدين عبد الله وشمس الدين عبد الرحمن وجماعة كثيرة، وكان إماماً عالماً زاهداً ورعاً متقناً متعبداً؛ قال

(١) في ابن الأثير: «علاء الدين».

(٢) هو الملك الرحيم الأتابك بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي صاحب الموصل. عاش ما بين ٥٧٠ و٥٦٧ هـ. (الأعلام: ١١١/٦).

(٣) الرُحلة (بضم الراء): من يرتحل إليه لطلب العلم منه.

أبوالمظفر: وكان معتدلاً القامة حسنَ الوجه، عليه أنوار العبادة، لا يزال مبتسماً، نحيلَ الجسم من كثرة الصيام والقيام. ثم قال - بعد كلام طويل وبعد أن أورد أشعاراً كثيرة - : وأنشدني لغيره: [مجزوء الكامل]

لي حيلةٌ فيمَنُ ينمُّ وليس في الكذاب حيله
من كان يخلُق مايقو ل فحيلتي فيه قليله

وفيها توفي الوجيه بن النوريّ المصري الفقيه المقرئ الحنفيّ إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق؛ كان صالحاً ديناً فقيراً قارئاً للقرآن بالسبع. قال أبوالمظفر: وأنشد لغيره: [الطويل]

ومن عادة السادات أن يتفقّدوا أصاغرهم والمكرمات مصاييد
سليمان ذو ملك تفقد هُدهداً وإنّ أقلّ الطائرات الهداهد

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو محمد جعفر بن محمد [بن أبي محمد]^(١) بن أموسان^(٢) الأصبهانيّ بعد حجّه بالمدينة في المحرم، وله خمس وسبعون سنة. وأبو محمد عبد الوهاب ابن الأمين عليّ بن سكيننة الصوفيّ مسند العراق وشيخها، وله ثمان وثمانون سنة. مات في شهر ربيع الآخر. والشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الزاهد شيخ المقادسة في شهر ربيع الآخر، وله تسع وسبعون سنة. وعائشة بنت معمر بن الفاخر عن بضع وثمانين سنة. وأبو الفرج محمد بن هبة الله بن كامل الوكيل ببغداد عن خمس وثمانين سنة. وأبو حفص عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد عن إحدى وتسعين سنة، كلاهما في رجب. وأبوالمجد زاهر بن أحمد بن أبي غانم الثقفينيّ الأصبهانيّ وقد قارب التسعين في ذي القعدة. وأسعد بن سعيد [بن محمود بن محمد بن أحمد بن جعفر]^(٣) بن رُوح التاجر بأصبهان في ذي الحجّة، وله تسعون سنة، وختم به حديثُ الطبرانيّ في الدنيا.

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) كذا في الذهبي وفي الأصل: «أبو بيان»

(٣) زيادة عن الذهبي.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يوجد له قاعٌ في هذه السنة. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً وأربع أصابع، بعد ما توقّف عن الزيادة أيّاماً.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثمانٍ وستمائة.

فيها قديم بغداد رسول جلال الدين حسن صاحب ألموت^(١)، يخبر الخليفة بأنهم تبرّؤوا من الباطنية، وبنوا الجوامع والمساحد، وأقيمت الجمعة والجماعات عندهم، وصلّوا التراويح في شهر رمضان؛ فسّر الخليفة والناس بذلك. وقدمت الخاتون أمّ جلال الدين حاجّةً، واحتفل بها الخليفة، وجّهز لها ما يليق بها.

وفيها بعث الخليفة الناصر لدين الله خاتمه للأمير وجه السبع بالشام، وقد تقدّم ذكره فيما مضى، فتوجّه وجه السبع إلى الخليفة ومعه رسول الملك العادل صاحب الترجمة، فأكرم الخليفة وجه السبع، وأعطاه الكوفة إقطاعاً.

وفيها تُوفي عبد الواحد بن عبد الوهاب بن علي بن سُكَيْنَة ويُلقب بالمعين. وُلد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، وسافر إلى الشام في أيام الأفضل، وبسط لسانه في الدولة، ثم عاد إلى بغداد بأمان من الخليفة؛ ووليّ مشيخة الشيوخ^(٢). ومات غريقاً في البحر، وكان سمع جدّه لأمّه شيخ الشيوخ عبد الرحيم^(٣) وغيره. وأنشد لجدّه المذكور قوله في الخصاب: [الوافر]

(١) راجع ص ١٠٦ من هذا الجزء، حاشية (٢).

(٢) مشيخة الشيوخ: هي وظيفة شيخ الشيوخ الذي يتولى الإشراف على رجال الطرق الصوفية. وفي عصر الأيوبيين والمماليك كان لقب شيخ الشيوخ لقباً فخرياً يطلق على شيخ الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) التي بناها صلاح الدين. (صبح الأعشى: ٣٨/٦ و ٣٧/١١، والألقاب الإسلامية: ٣٦٦، والروضتين: ٩١/١)

(٣) ورد ذكره في حوادث سنة ٥٨٠ هـ.

ولم أخصب مَشِيبي وهو زَيْنُ لإِيثاري جهالاتِ الشبابِ
ولكن كي يَرَانِي من أعَادِي فَأَرْهَبَهُ بوَثْبَاتِ التَّصَابِي
وفيها تُوفِّي مظفر الماسكي البغدادي؛ كان ظريفاً أديباً، وكان يقول من الشعر
«كان وكان»^(١) وغيره. ومن شعره في «كان وكان» قوله:

ذي زوجها ما شطها وكل من جا حَفَّها قَصْدُهُ يرى النقش عنده في كَفِّها ألوانُ
إن شندرت فلوجهه تصيب قبل كُفُوفِها ما صحَّ ذاك النشادرُ إلا من الدَّخَانُ

الذين ذكر الذهبِي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو المعالي محمد ابن صالح آخر من حدَّث عن المَيُورُقي. ويحيى بن البناء، وله تسعون سنة. وأبو الفتح منصور بن عبد المنعم بن عبد الله بن محمد الفَرَاوي العَدل بنيسابور، وله ستّ وثمانون سنة في شعبان. والقاضي أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن سنَاء المُلْك بمصر وأبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن محمد بن وهب بن نُوح الغَافِقي بَبَلَنسِيَّة، وله ثمانٍ وسبعون سنة. والخَضْر بن كامل [بن سالم]^(٢) بن سبيع الدَّلَال بدِمَشق. وأبو العبَّاس أحمد بن الحسن بن أبي البَقَاء العَاقُولِي في ذي الحِجَّة ببغداد.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وعشر أصابع.

* * *

(١) كان وكان. أحد الأوزان المستحدثة في الشعر. اخترعه البغداديون وسموه بذلك لأنه غالباً ما يشتمل على الحكايات والقصص. (الجموم الزاهرة. ٢٠٤/٦، حاشية (٣) طبعة دار الكتب المصرية).

(٢) زيادة عن الذهبي.

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة تسع وستمائة.

فيها اجتمع الملك العادل المذكور وأولاده: الكامل والفائز والمعظم على دِمياط لقتال الفرنج، وكان الأمير أسامة^(١) بالقاهرة، فأثَّهَم بمكاتبة الملك الظاهر غازي صاحب حلب، ووجدوا كُتُباً إليه وأجوبة؛ فخرج أسامة المذكور من القاهرة كأنه يتصيد وساق إلى الشام في مماليكه يطلب قلعة كوكب وعجلون. وكان ذلك في يوم الاثنين سَلَخ جُمادى الآخرة. فأرسل والي بُلَيْيس الحَمَام إلى دِمياط بالخبر؛ فقال العادل: من ساق خَلَفَه فله أمواله وقِلاعه؛ فقال ولده الملك المعظم عيسى: أنا، وركب من دِمياط يوم الثلاثاء غُرَّة رجب. قال أبو المظفر سبط آبن الجوزي: «وكنْتُ معه، فقال لي: أنا أريد أن أسوق فأبَقَ أنت مع قُمَاشي ودَفَع لي بغلة، وساق ومعه نفر يسير وعلى يده حصان، فكان صباح يوم الجمعة بَغَزَّة، [ساق مسيرة ثمانية أيام في ثلاثة أيام]^(٢) فسبق أسامة. [وأما أسامة]^(٣) فتقطع عنه مماليكه وبقي وحده؛ وكان به مرض النَّقْرَس (يعني بأسامة)، فجاء إلى بلد الدَّاروم^(٤)؛ وكان المعظم أَمْسَك عليه من البحر إلى الزُّرقاء^(٥)، فرآه بعض الصيادين في بركة الدَّاروم فعرفه، فقال له: إنزل، فقال: هذه ألف دينار وأوصلني إلى الشام، فأخذها الصياد وجاء إلى رفاقه، فأخذوه على طريق الحَلييل^(٥) ليحملوه إلى عَجْلون، فدخلوا به إلى القُدْس في يوم الأحد في سادس رجب بعد وصول المعظم بثلاثة أيام، فتسلَّمه المعظم وأنزله بصِهْيُون، وبعث إليه بثياب وطعام ولاطفه وقال له: أنت شيخ كبير وبك نَقْرَس وما تصلح لك قلعة، سلَّم إلي كوكب وعجلون، وأنا أحلف لك على مالك

(١) هو الأمير عز الدين أسامة الصلاحي، نائب كوكب وعجلون وبه انقضت الصلاحية. (شفاء القلوب: ٢٢٠، والسلوك: ٢٠٨/١).

(٢) زيادة من طبعة دار الكتب، عن مرآة الزمان.

(٣) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر، الواقف فيها يرى البحر، إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ (معجم البلدان).

(٤) الزرقاء: موضع بالشام بناحية معان. (معجم البلدان).

(٥) في الأصل: «الجليل». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان

وجميع أسبابك، وتعيش بيننا مثلَ الوالد. فأمتنع وشتَمَ المعظمَ، فبعث به المعظمَ إلى الكركَ فأعتقله بها، وأستولى على قِلاعه وأمواله وذخائره، فكان قيمة ما أخذ منه ألفَ ألف دينار.

وفيهما حجَّ بالناس من العراق حُسام الدين بن أبي فراس نيابةً عن محمد بن ياقوت، وكان معه مالٌ وخالعٌ لقتادة صاحب مكة. وحجَّ بالناس من الشام شجاع الدين بن مُحارِب، من على أيلة^(١).

وفيهما تُوفيَ الملك الأوحِد نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك العادل أبي بكر صاحب الترجمة. كان صاحبَ خِلاطٍ وغيرها في أيام أبيه الملك العادل، وقد تقدّم ذكرُ أخذه خِلاطٍ وغيرها؛ وكان قد أبْتليَ بأمراضٍ مزمنة، وكان يتمنّى الموت، وكان قد استزار أخاه الملك الأشرف موسى من حرّان، فأقام عنده أياماً، وأشتدّ مرضه فطلب الأشرفُ الرجوعَ إلى حرّان لئلا يتخيّل منه الأوحِد، فقال له الأوحِد: يا أخي، لِمَ تُلجُ في الرّواح! والله إنّي ميّت وأنت تأخذ البلاد من بعدي، فكان كذلك. وملك الأشرفُ بعد موته خِلاطٍ وأحبّه أهلها. كلُّ ذلك في حياة أبيهما الملك العادل هذا. فكانت مدّة تملكُ الأوحِد خِلاطٍ أقلّ من خمس سنين، ووجد عليه الملكُ العادل كثيراً.

وفيهما تُوفيَ محمود بن عثمان بن مكارم أبو الشاء الحنبليّ؛ كان شيخاً زاهداً عابداً صاحب رياضات ومجاهدات يصوم الدهر، وأنتفع بصحبته خلقٌ كثير، وكان من الأبدال.

الذين ذكرَ الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفيَ أبو جعفر أحمد ابن عليّ الأنصاريّ الدّانيّ الحَصّار المقرئ ببِلنسية؛ استشهد في وقعة^(٢) العقاب

(١) أيلة: هي المعروفة اليوم باسم العقبة

(٢) هي الوقعة المشهورة عند الموضع المعروف اليوم باسم Las Navas de Tolosa بمديرية جيّان الحالية على بعد خمسة كيلومترات شمال شرقي لاكارولينا La Carolina. وكانت تلك الوقعة في ١٥ صفر ٦٠٩هـ/١٧ يوليو ١٢١٢م وقد كانت تلك الوقعة بين الملك الناصر محمد بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك العرب والأذفونش صاحب طليطلة وقشتيلة. (انظر في ذلك الروض المعطار: ٤١٦، والبيان المغرب: ٣/٢٤٠).

هو وَخَلَقَ من المسلمين. وأبو الفرج محمد بن علي بن حمزة بن القُبَيْطِيِّ، وله نَيْفٌ وثمانون سنة. والحافظ أبو نزار ربيعة بن الحسن الحَضْرَمِيِّ اليماني بمصر عن اثنتين^(١) وثمانين سنة. وأبو [شجاع]^(٢) زاهر بن رُسْتَمِ المَقْرِيء بمكة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصباعاً.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة عشر وستمائة.

فيها حجّ بالناس من العراق ابن أبي فراس نيابةً عن ابن ياقوت. وحجّ بالناس من الشام الغرز صديق بن تمرdash التُّرْكُمَانِيّ من على عَقَبَةِ أُيْلَةَ بِحُجَّاحِ الكَرْكِ والقُدْس. وحجّ في هذه السنة الملك الظافر خِضْرُ ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من على تيماء^(٣)، ومعه حجّ الشام بإذن عمّه السلطان الملك العادل - فيما قيل -، فلمّا بلغ الملك الكامل محمد بن العادل أنه توجه إلى الحجاز خاف على بلاد اليمن منه، فوجه إليه عسكرياً من مصر فلحقوه، وقالوا له: إرجع؛ فقال: قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة، والله ما قصدي اليمن، وإنما قصدي الحجّ، فقيّدوني وأحتاطوا بي حتى أقضي المناسك وأعود إلى الشام؛ فلم يلتفتوا لكلامه؛ فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة، فرجع إلى الشام ولم يحجّ.

وفيها تُوفِّيَ الأمير أَيْدُغُمُش صاحب هَمْدَانَ؛ أرسله الخليفة إلى همدان فسار وانتظر العسكر وطال عليه الأمر فرحل عن همدان. فالتقاه عسكر مَنِكِلِي بُغَا ملك

(١) في تاريخ الإسلام: «ع أربع وثمانين سنة».

(٢) زيادة عن الذهبي في تاريخ الإسلام.

(٣) تيماء: بلد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى على طريق حج الشام ودمشق. (معجم البلدان).

التار، وقاتلوه فقتلوه، وحملوا رأسه إلى منْكَلِي بَغَا المذكور. وكان أميراً صالحاً كثيراً الصدقات دِيناً صائماً عادلاً كثيراً المحاسن - رحمه الله - .

وفيها تُوفِّي الوزير الرئيس سعيد بن عليّ بن أحمد أبو المعالي بن حديدَةَ من ولد قُطْبَةَ بن عامر بن حديدَةَ الأنصاريّ الصحابيّ. وكان مولده بكَرْخ سَامراً سنة ست وثلاثين وخمسمائة؛ وكان له مال كثير، وأستوزره الخليفة الناصر لدين الله، ووقع له بعد ذلك مِحْنٌ، فهرب وأختفى إلى أن تُوفِّي.

وفيها تُوفِّي الأمير سنجر [بن عبد الله] ^(١) الناصريّ صَهْر طَاشْتِكِين، وكان ذليلاً بخيلاً ساقط النفس مع كثرة المال. وتولّى إمْرَةَ الحَاجِّ [سنة تسع وثمانين وخمسمائة] ^(١) فاعترض الحَاجُّ رجل بدويّ في نفر يسير جداً، وكان مع سنجر هذا خمسمائة نفس، فذَلَّ وجَبُنْ عن ملاقاته، وجَبَى له مالا من الحجّ؛ فلَمَّا دخل بغداد رَسَم عليه الخليفة حتّى أخذ منه المال وردّه إلى أصحابه، ثمّ عزله وأخذ إقطاعه.

الذين ذكر الذهبّي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو الحسن مهذّب الدين عليّ بن أحمد بن عليّ [المعروف بابن هُبَل] ^(٢) البغداديّ الطيب بالمَوْصِل. وأبو عبد الله الحسين ^(٣) بن سعيد بن الحسين بن شُنَيْف الدَّارَقَزِيّ الأمين ببغداد، كلاهما في المحرّم. وأمّ النور عين الشمس بنت أحمد بن أبي الفرج الثَّقَفِيَّة، ولها ستّ وثمانون سنة. وأبو مسعود عبد الجليل بن أبي غالب [بن أبي المعالي بن محمد بن الحسين] ^(٢) بن مندويه الصوفيّ بدمشق عن ثمانٍ وثمانين سنة، وإنّما سمِع في كِبَره. وتاج الأمناء أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقيّ. والفخر إسماعيل بن عليّ الحنبليّ المتكلّم غلام بن المنّي.

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب

(٢) زيادة عن الذهبي.

(٣) في الأصل: «الحسن». وما أثبتناه عن الذهبي.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم أربع أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً
وإصبع واحدة.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر
وهي سنة إحدى عشرة وستمائة:

قلت: وفي مدة هذه السنين كلها كان صاحب مصر ولده الكامل محمد بن
العادل، والملك العادل يتنقل في البلاد، غير أنه هو الأصل في السلطنة وعليه
المعول؛ ولا تحسب سلطنة الكامل على مصر إلا بعد موت أبيه العادل هذا. كما
سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

فيها ملك اليمن أضييس^(١) بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل
أبي بكر صاحب الترجمة. ولقب أضييس المذكور بالملك المسعود، والعامّة
يسمونه «أقييس» وغلب عليه مقالة العامّة، والصواب ما قلناه لأن والده الملك
الكامل ما كان يعيش له ولد، فلما وُلد له هذا أضييس قال له بعض الأتراك: في
بلادنا إذا كان الإنسان لا يعيش له ولد يسمونه أضييس. ومعناه باللغة التركية: ما له
أسم؛ فسماه والده الملك الكامل بذلك؛ فلما كبر ثقل على العامّة لفظ أضييس؛
فسموه «أقييس». انتهى.

وكان أقييس المذكور شاباً جبّاراً فاتكاً قتل باليمن نحو ثمانمائة شريف.
ودخل إلى مكة إلى حاشية الطواف ركباً. وقيل إنه كان يسكر وينام بدار على
المسعى، فتخرج أعوانه تمنع الناس من الصياح والضجيج في المسعى،
ويقولون: الأمير سكران نائم! لا ترفعوا أصواتكم بالذكر والتلبية! وقتل أقييس هذا
خلقاً كثيراً من الأكابر والعظماء. ولولم يحج عمه الملك المعظم عيسى صاحب

(١) في شفاء القلوب ومعجم زامبور أن اسمه يوسف. وفي طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب أن اسمه «آق
سيس».

دمشق ما قدر أقيس هذا على أخذ اليمن. كل ذلك في حياة جدّه الملك العادل صاحب الترجمة.

وفيها أخذ الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل هذا قلعة صرّخد من الأمير ابن قراجا، وعوّضه مالاً وإقطاعاً.

وفيها حجّ بالناس من العراق ابن أبي فراس بن ورام نائباً عن محمد بن ياقوت.

وفيها حجّ الملك المعظم عيسى المقدم ذكره من دمشق، وحجّ معه عدّة أمراء من أعيان دمشق، وحجّ على مذهب أبي حنيفة وأستمرّ على المذهب، وكلمه والده الملك العادل صاحب الترجمة في العود إلى مذهب الشافعي فلم يقبل، وجاوبه بكلام السكات عنه أليق.

وفيها توفي عبد العزيز بن محمود بن المبارك الشيخ أبو محمد البرّاز؛ سمع الحديث وأكثر وصنّف وكتب، وكان فاضلاً ديناً صالحاً. مات في سؤال.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الحافظ شرف الدين أبو الحسن عليّ بن المفضل بن [عليّ] ^(١) المقدسي الإسكندراني المالكي، وله سبع وستون سنة. وفقه بغداد أبو بكر محمد بن معالي بن غنيمه بن الحلوي الحنبلي، وكان من أبناء السبعين. والحافظ عبد العزيز بن محمود بن المبارك بن محمود بن الأخضر، وله سبع وثمانون سنة في سؤال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثمانية عشرة إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن الذهبي.

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة اثنتي عشرة وستمائة:

فيها خرج وجهُ السُّبُع من بغداد بالعساكر إلى هَمْدَان للقاء مَنكَلِي مملوك السلطان أَرْبَك خان^(١)، وكان قد عَصَى على مولاه وعلى الخليفة وقطع الطريق، فكتب الخليفة إلى ابن زَيْن الدين^(٢)، وإلى الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وإلى الملك العادل هذا يطلب العساكر، فجاءته العساكر من كلِّ مكان؛ وتوجَّه ابن زَيْن الدين مقدِّم العساكر، وجاء أَرْبَك وجلال الدين مقدِّم الإسماعيلية. وجمع أيضاً مَنكَلِي جموعاً كثيرةً وألْتَقَوْا قريباً من هَمْدَان، وأقتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة على مَنكَلِي، وقُتِل من أصحابه ستة آلاف، ونهبوا أنقاله، فحال بينهم الليل فصعد مَنكَلِي على جبل، وابن زَيْن الدين والعساكر أسفل، وأوقد مَنكَلِي ناراً عظيمة وهرب في الليل، فأصبح الناس وليس لمَنكَلِي أثر؛ ثم قُتِل مَنكَلِي بعد ذلك. وأربك خان هذا هو غير أربك^(٣) خان التَّيرِي المتأخر.

وفيها أخذ حُوَارِزْم شاه محمد [بن تُكُش]^(٤) مدينة غَزَنَة من يلدز تاج الدين مملوك شهاب الدين الغوريِّ بغير قتال.

وفيها أخذ ابنُ لاوُن الإفرنجي أنطاكية في يوم الأحد رابع عشرين شوال.

وفيها حجَّ بالناس ابن أبي فراس من العراق نيابةً عن محمد بن ياقوت.

وفيها توفي عليُّ ابن الخليفة الناصر لدين الله العباسيِّ وكنيته أبو الحسن. وكان لقبه أبوه الخليفة بالملك المعظم، وكان جليلاً نبيلاً. مات في ذي القعدة وأخرج تابوته وبين يديه أرباب الدولة. ومن الاتفاق الغريب أنه يوم الجمعة دخل بغداد رأس مَنكَلِي على رُمَح، ورُيِّت بغداد وأظهر الخليفة السرور والفرح، ووافق

(١) هو أربك خان بن البهلوان محمد بن إلكز صاحب أذربيجان، كما في ابن الأثير.

(٢) هو مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك صاحب إربل (ابن الأثير).

(٣) المراد به أربك خان بن باتو، من القبيل الأزرق من إيلخانات فارس. (معجم زاماور)

(٤) زيادة عن ابن الأثير.

تلك الساعة وفاة ابن الخليفة عليّ هذا، ووقع صُراخٌ عظيم في دار الخلافة، فأنقلب ذلك الفرح بحزن. وخرجت المخدّرات من خدورهنّ ونشرنّ شعورهنّ.

قال أبوالمظفر: «وَلَطَمَنَ وَقَامَ النَّوَائِحَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَعَظَّمَ حُزْنَ الْخَلِيفَةِ بِحَيْثُ إِنَّهُ آمَتَنَعَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَغَلَّقَتِ الْأَسْوَاقَ، وَعُظِّلَتِ الْحَمَامَاتُ، وَبَطِلَ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ، وَجَرَى مَا لَمْ يَجْرُ قَبْلَهُ. وَكَانَ الْخَلِيفَةُ قَدْ رَشَّحَهُ لِلْخَلِيفَةِ، ففَعَلَ اللهُ فِي مُلْكِهِ مَا أَرَادَ. وَخَلَّفَ وَلَدَيْنَ: أَبَا عَبْدِ اللهِ الْحَسِينِ وَلَقَّبَهُ جَدُّهُ «الْمُؤَيَّدَ» وَيَحْيَى وَلَقَّبَهُ بِـ «الْمَوْقُوقَ».

وفيهما تُوفِّيَ المبارك بن المبارك أبو بكر الواسطيّ النحويّ. وُلِدَ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان حنبلياً، ثم صار حنفيّاً، ثم صار شافعيّاً لأسباب وقعت له، وكان قرأ الأدب على ابن الخشاب وغيره، وكان أديباً فاضلاً شاعراً. ومن شعره — رحمه الله — قوله: [السريع]

لا خير في الخمر فمن شأنها إفقادها العقلَ وجلِبُ الجنونِ
أو أن تُرِي الأقبَحَ مُسْتَحْسَنًا وتُظْهِرَ السِّرَّ الخَفِيّ المَصُونِ

قلت: ويُعجبني قولُ القائل، وهو قريب ممّا نحن فيه: [الطويل]

على قدر عقل المرء في حال صحّوه تُؤثّر فيه الخمرُ في حال سُكْرِهِ
فتأخذ من عقل كبير أقلّه وتأتي على العقل اليسير بأسره

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّيَ الفقيه سليمان بن محمد بن عليّ الموصليّ في صفر، وله أربع وثمانون سنة. وأبو العباس أحمد بن يحيى بن بركة الدبقيّ^(١) البزاز في شهر ربيع الأول، وله أربع وثمانون سنة أيضاً. والحافظ عبد القادر [بن عبد الله أبو محمد]^(٢) الرهاويّ بحرّان، وله ست وسبعون سنة في جمادى الأولى. وأبو الفرج [يحيى] بن ياقوت الفّراش في جمادى

(١) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «الدلمي».

(٢) زيادة عن الذهبي.

الآخرة. والقُدوة الزاهد أبو الحسن عليّ بن الصَّبَّاح بن حُمَيْد الصَّعِيدِيّ ببلدة قَنَا^(١). وأبو الفتوح^(٢) محمد بن عليّ الجَلَّاجِيّ التاجر بالقُدس عن إحدى وسبعين سنة. ومحمد^(٣) بن أبي المَعَالِي [عبد الله]^(٤) بن موهوب الصوفيّ ابن البناء في ذي القعدة. وأبو محمد عبد العزيز بن مَعَالِي [بن غَنِيْمَة بن الحسن المعروف بـ]^(٤) ابن مَيْنَا الأَشْنَانِيّ، وله سبع وثمانون سنة. مات في ذي الحجة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثمانين عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة ثلاث عشرة وستمائة.

فيها جهّز الخليفة الناصر لدين الله ولدي ولده المقدم ذكرهما إلى تُسْتَر، وضمّهما، إلى بدر الدين محمد سبط العقاب، وخرج أرباب الدولة بين يديهما، وضرب لهما خيمة الأطلس بأطناب خُضِرٍ إِبْرِيْسَم^(٥)، وعلى رؤوسهما الشمسية والبنود والأعلام، وخلفهما الكوسات، وسار معهما نجاح^(٦) الشَّرَابِيّ والمَكِين^(٧) القُمِّيّ بالعساكر في سبع المحرم، فأقاما بُسْتَر شهرين فلم تَطِب لهما، فعادا إلى بغداد عند جدّهما الخليفة في شهر ربيع الآخر.

(١) قَنَا: مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى، واقعة على الشاطئ الشرقي للنيل

(٢) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «أبو الفتوح»

(٣) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «أحمد».

(٤) زيادة عن الذهبي.

(٥) الإبريسم: الحرير.

(٦) هو عز الدين نجاح بن عبد الله الشرابي (ابن الأثير).

(٧) هو مكين الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم بن برز القمي. كان كاتب ديوان الإنشاء، ورشح للوزارة

للإمام الناصر. (ابن الأثير).

وفيهما تُوفِّي الملك الظاهر غازي - علي ما يأتي ذكره - في هذه السنة. وتوجّه الشيخ أبو العباس عبد السلام بن [أبي] (١) عَصْرُونَ رسولاً من الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي المذكور إلى الخليفة الناصر لدين الله يطلب تقريره بسلطنة حَلَب علي ما كان أبوه عليها.

وفيهما قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق الاجتماع بأخيه الملك الأشرف موسى، فأجتمعا بنواحي الرقة، وفاوض المعظم الأشرف في أمر حلب. وفيها حجّ بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام الشيخ عَلَم الدين الجَعْبَرِيّ.

وفيهما تُوفِّي زَيْد بن الحسن بن زيد بن الحسن [بن زيد بن الحسن] (٢) بن سعيد بن عِصْمَةَ بن حَمِير (٣) العلامة تاج الدين أبو اليمان الكِنْدِي البَغْدَادِيّ المقرئ النحويّ اللغويّ. مولده في شعبان سنة عشرين وخمسائة، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وكَمَل القراءات العشر وله عشر سنين.

قال الذهبيّ: «وكان أعلى أهل الأرض إسناداً في القراءات، فأني لا أعلم أحداً من الأئمة عاش بعد ما قرأ القراءات [ثلاثاً] (٤) ثمانين سنة غيره. هذا مع أنه قرأ على أسنّ شيوخ العصر بالعراق، ولم يبقَ أحد ممّن قرأ عليه مثل بقائه ولا قريباً منه، بل آخِر من قرأ عليه الكمال [بن] (٤) فارس، وعاش بعده نيّفاً وستين سنة. ثم إنّه سمع الحديث على الكبار، وبقيّ مسنّد الزمان في القراءات والحديث». انتهى كلام الذهبيّ باختصار. وكان فاضلاً أديباً ومات في شوال. ومن شعره - رحمه الله تعالى - : [البسيط]

دع المنجمَ يكبو في ضلّالته إن أدعى علمَ ما يجري به الفلكُ
تفرّد اللهُ بالعلم القديم فلا الـ إنسانٌ يشركه فيه ولا المَلِكُ

(١) زيادة عن الشذرات وابن خلكان.

(٢) زيادة عن الذهبي.

(٣) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «حميل».

(٤) زيادة عن الذهبي.

وفيها تُوفِّي سعيد بن حمزة بن أحمد أبو الغنائم بن شاروخ^(١) الكاتب العراقي. كان فاضلاً بارعاً في الأدب، وله رسائل ومكاتبات وشعر. ومن شعره القصيدة التي أولها: [البسيط]

يا شائم البرق من نَجْدِي كَاطِمَةٍ يَبدو مَراراً وتُخْفِيهِ الدِياجِيرُ

وفيها تُوفِّي السلطان الملك الظاهر أبو منصور غازي صاحب حلب ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب. وُلِدَ بالقاهرة في سنة ثمانٍ وستين وخمسائة في سلطنة والده. ونشأ تحت كنف والده، وولاه أئوه سلطنة حلب في حياته. وكان مَلِكاً مَهيباً وله سياسة وفطنة، ودولة معمورة بالعلماء والأمراء والفضلاء. وكان محسناً للرعية والوافدين عليه. وحضر معظم غزوات والده السلطان صلاح الدين، وكان في دولة الظاهر هذا من الأمراء: ميمون القُصْرِي، والمُبَارز بن يوسف بن حَظْلُخ، وسُنُقْر الحَلْبِي، وسراسُنُقْر، وأبيك فُطَيْس وغيرهم من الصلاحية. ومن أرباب العمائم القاضي بهاء الدين بن شداد، والشريف الافتخاري الهاشمي، والشريف النسابة، وبنو العجمي والقيسراني، وبنو الخشاب. وكان ملجأً للغرباء وكهفاً للفقراء، يزور الصالحين ويتفقدهم، ودام على ذلك إلى أن تُوفِّي ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة بعلّة الذرب. ودُفِن بقلعة حلب، ثم نُقِلَ بعد ذلك إلى مدرسته^(٢) التي أنشأها. وقام بعده ولده الملك العزيز محمد بوصيته، وولاه الخليفة حسب ما تقدّم ذكره.

وفيها تُوفِّي الشيخ عزّ الدين محمد ابن الحافظ عبد الغني المَقْدِسِي؛ وُلِدَ سنة ستٍ وستين وخمسائة، وسمع الحديث ورحل البلاد، وكان حافظاً ديناً ورعاً زاهداً. ومات بقاسيون.

(١) كذا في الأصل. والصواب ما جاء في مرآة الزمان نقلاً عن العماد الأصبهاني في الخريدة — وكان العماد معاصراً له — من أنه: «حمزة بن أحمد، أبو الغنائم النيلي العراقي، ابن ساروج» (الأعلام: ٢/٢٧٦).

(٢) هي المدرسة الطاهرية الرانية؛ وموقعها خارج باب النصر بمحلة المنيع، شرقي الحاتونية الحنفية وغربي الحانقاه الحسامية، بين نهري القنوات وبانياس على الميدان بالشرف القبلي. بناها الملك الظاهر غازي سنة ٥٦١٣. (الدارس: ١/٢٥٧).

وفيهما تُوفِّي يحيى بن محمد بن محمد بن محمد [بن محمد] (١) أبو جعفر الشريف الحُسَيْنِيّ. ولي نقابة الطالبين بالبصرة بعد أبيه؛ وقرأ الأدب، وسمع الحديث، ومن شعره - رحمه الله تعالى - : [البيط]

هذا العقيقُ وهذا الجِرْجُ والبانُ فاحسّ فلي فيه أوطارٌ وأوطانُ
آليْتُ والحُرُّ لا يُلوي أليتهُ ألا تَلدُّ بطيب النوم أجفانُ
حتى تُعودَ ليالينا التي سَلَفَتْ بالأجرعين (٢) وجيراني كما كانوا

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي العلامة تاج الدين أبو اليُمن زيد بن الحسن الكِنديّ في شَوّال، وله ثلاث وتسعون سنة وشهران. والملك الظاهر أبو منصور غازي ابن السلطان صلاح الدين بحلب في جمادى الآخرة. والمحدث عزّ الدين محمد ابن الحافظ عبد الغني المَقْدِسِيّ في شَوّال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأربع أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصباعاً.

* * *

السنة الثامنة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة أربع عشرة وستمئة.

فيها قدِم الملك خُوَارِزْم شاه وأسمه محمد [بن تُكش] (٣) إلى هَمَدان بقصد بغداد في أربعمئة ألف مقاتل، وقيل في ستمئة ألف، فاستعدّ له الخليفة الناصر لدين الله، وفرّق المال والسلاح، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدّين السُّهَرَوْرديّ في رسالة فأهانته وأستدعاه وأوقفه إلى جانب تخته، ولم يأذن له بالقعود.

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) الأجرعين: موضع باليمامة (معجم البلدان) وقد رواه ياقوت بصيغة التثنية المجرورة ابتداءً.

(٣) زيادة عن ابن الأثير.

قال أبو المظفر: - «حكى الشهاب قال - استدعاني^(١) فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر في الدنيا مثله، والدهليز والشقة أطلس والأطناح حرير، وفي الدهليز^(٢) ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم: صاحب همذان وأصبهان والرّي وغيرهم، فدخلنا إلى خيمة أخرى إبريسم؛ وفي دهليزها ملوك خراسان: مرو ونيسابور وبلخ وغيرهم؛ ثم دخلنا خيمة أخرى، وملوك ما وراء النهر في دهليزها، كذلك ثلاث خيام. ثم دخلنا عليه وهو في حركة^(٣) عظيمة من ذهب؛ وعليها سجاج مرصع بالجواهر. وهو صبي له شعرات قاعد على تخت ساذج وعليه قباء بخاري يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوي درهماً، فسلمت عليه فلم يردّ، ولا أمرني بالجلوس؛ فشرعت فخطبت خطبةً بليغةً، ذكرت فيها فضل بني العباس ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقوى والدين؛ والترجمان يُعيد عليه قولي. [فلما فرغت]^(٤) قال للترجمان: قل له: هذا الذي وصفته ما هو في بغداد؟ قلت: نعم. قال: [أنا]^(٤) أجيء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف. ثم ردنا بغير جواب. فنزل الثلج عليهم فهلكت دوابهم وركب خوارزم شاه يوماً فعثر به فرسه فتطير، ووقع الفساد في عسكره وقتل الميرة. وكان معه سبعون ألفاً من الخطأ فردّه الله ونكب تلك النكبة العظيمة». وسنذكرها - إن شاء الله تعالى - في محلّها.

وفيها تُوفّي إبراهيم بن عبد الواحد بن عليّ بن سرور الشيخ العمد المقيديّ الزاهد القدوة الحنبليّ أخو الحافظ عبد الغني؛ وُلد بجماعيل في سنة ثلاث وأربعين وخمسائة، فهو أصغر من الحافظ عبد الغني بسنتين وسبع الكثير؛ وكان إماماً حافظاً عالماً محدثاً زاهداً عابداً فقيهاً. مات فجأة في ليلة الأربعاء سادس عشر ذي القعدة.

(١) المستدعي هو خوارزم شاه.

(٢) الدهليز: الخيمة التي ترافق السلطان في الحرب؛ وتختلف عن غيرها من الخيم والدهاليز الكبيرة التي تقام للسلاطين في الصيد والتنزه بكونها خيمة قائمة بذاتها، ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتّي تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان في أيام السلم. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٣٨).

(٣) الحركة (بالتاء وبالهاء في آخره) هي الخيمة.

(٤) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان

وفيهما تُوفِّي عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن عليّ بن عبد الواحد أبو القاسم القاضي جمال الدين الحرّستانيّ الأنصاريّ شيخ القضاة. وُلِدَ بدمشق في سنة عشرين وخمسمائة، ورحل وسمِعَ الحديث وتفقّه؛ وكان إماماً عفيفاً خطيباً ديناً صالحاً. له حكايات مع الملك المعظم عيسى في أحكامه - رحمه الله تعالى - .

وفيهما تُوفِّي محمد بن أبي القاسم بن محمد أبو عبد الله الهكاريّ الأمير بدر الدين؛ استشهد على [حصن] (١) الطور، وأبلى بلاءً حسناً ذلك اليوم وكان من المجاهدين، له المواقف المشهودة في قتال الفرنج، وكان من أكابر أمراء الملك المعظم، كان يستشيرُه ويصدرُ عن رأيه ويثق له لصالحه ودينه وكان سَمحاً جواداً.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي المحدث أبو الخطّاب أحمد بن محمد البلنسيّ بمراكش. وأبو الحسن عليّ بن محمد بن عليّ الموصليّ أخو سليمان (٢). وأبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكِنَانِيّ البلنسيّ الأديب الإسكندرانيّ بها، وله أربع وسبعون سنة. وقاضي القضاة أبو القاسم عبد الصمد بن محمد الحرّستانيّ في ذي الحجّة، وله أربع وتسعون سنة وأشهر. والإمام عماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد المقدسيّ فجأة في ذي القعدة وله سبعون سنة. والمحدث أبو محمد عبد الله بن عبد الجبّار العثمانيّ الإسكندرانيّ الكارميّ بمكة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن السلوك. والطور: جبل مطّل على طبرية.

(٢) راجع حوادث سنة ٦١٢ هـ.

السنة التاسعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي التي مات فيها العادل في جمادى الآخرة حسب ما تقدّم ذكره.

وهي سنة خمس عشرة وستمائة.

وفيهما نزلت الفرنج على دِمياط في شهر ربيع الأول، وكان العادل بمرج الصُّفْر، فبعث بالعساكر التي كانت معه إلى مصر إلى ولده الكامل، وأقام المعظم بالساحل بعسكر الشام في مقابلة الفرنج ليشغلهم عن دِمياط.

وفيهما استدعى الملك العادل صاحب الترجمة ابنه الملك المعظم المقدم ذكره وقال له: قد بنيت هذا الطور^(١)، وهو يكون سبباً لخراب الشام، وقد سلّم الله من كان فيه من أبطال المسلمين، وسلاح الدنيا والذخائر، وأرى من المصلحة خرابه ليتوفّر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دِمياط، وأنا أعوضك عنه؛ فتوقّف المعظم وبقي أياماً لا يدخل إلى أبيه العادل، فبعث إليه العادل ثانياً وأرضاه بالمال، ووعدّه في مصر ببلاد، فأجاب المعظم وبعث ونقل ما كان فيه.

وفيهما في يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف موسى، صاحب خِلاط وديار بكر وحلب ابن الملك العادل هذا، ملك الروم كَيْكَاوُس^(٢).

وفيهما أيضاً بعث الأشرف المذكور بالأمير سيف الدين بن كهदान والمبارز ابن خَطْلُج بجماعة من العساكر نجدةً إلى أخيه الملك الكامل بدمياط، كلّ ذلك والقتال عمال بين الملك الكامل والفرنج على ثغر دِمياط.

وفيهما في آخر جمادى الأولى أخذ الفرنج بُرج السُّلَيْبِلَة^(٣) من الكامل، فأرسل الكامل شيخ الشيوخ صدر الدين إلى أبيه العادل وأخبره، فدقّ العادل بيده على صدره، ومريض من قهره مرض الموت.

(١) المراد حصن الطور.

(٢) هو الملك الغالب عز الدين كيكائوس الأول بن كيخسرو الأول السلجوقي. (السلوك، ومعجم زامبارو).

(٣) راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء، حاشية (١)

وفيها في جُمادى الآخرة ألتقى الملك المعظم الفرنج بساحل الشام وقاتلهم فنصره الله عليهم، وقتل منهم مَقْتلة، وأسّر من الدَّاويّة^(١) مائة فارس، وأدخلهم القدس منكبسي الأعلام.

وفيها وصل رسول خُوَارَزْم شاه إلى الملك العادل هذا وهو بمرج الصُّفْر، فبعث بالجواب الخطيب الدُّولعي ونجم الدين خليل [بن عليّ الحنفي]^(٢) قاضي العسكر، فوصلا همذان فوجدا الخُوَارزَمي قد أندفع بين يدي الخُطّا [والتتار]^(٣)، وقد خامر عليه عسكره، فسارا إلى حدّ بُخارى؛ فاجتمعا بولده الملك جلال الدين فأخبرهما بوفاة العادل صاحب الترجمة مرسلهما، فرجعا إلى دمشق.

وفيها حجّ بالناس من بغداد أقباش الناصري.

وفيها تُوفي عبد الله بن الحسين أبو القاسم عماد الدين الدَّامغانبي الحنفي قاضي القضاة ببغداد؛ ومولده في شهر رجب سنة أربع وستين وخمسمائة. وكان له صَمْتٌ ووقار ودينٌ وعصمة وعِفّة وسيرة حسنة مع العلم والفضل، وكانت وفاته في ذي القعدة ودُفن بالشُّونيزية.

وفيها تُوفي كَيْكاؤُس الأمير عزّ الدين صاحب الروم؛ كان جباراً ظالماً سفاكاً للدماء، ولمّا عاد إلى بلده من كَسرة الأشرف موسى أتّهم أقواماً من أمراء دولته أنهم قَصّروا في قتال الحلبيين، وسلّق منهم جماعة في القُدور، وجعل آخرين في بيتٍ وأحرقه؛ فأخذه الله بغتةً. ومات سكران فجأةً؛ وقيل: بل أبْتلي في بدنه، وتقطّعت أوصاله. وكان أخوه علاء الدين كَيْقباد محبوباً في قلعة، وقد أمر كَيْكاؤُس بقتله، فبادروا وأخرجوه، وأقاموه في المُلْك. وكانت وفاة كَيْكاؤُس في شوّال، وهو الذي أطمع الفرنج في دِمياط.

(١) راجع ص ٢٩ من هذا الجزء، حاشية (٦)

(٢) زيادة من الذيل على الروضتين.

وفيها تُوفِّي خُوَارَزْم^(١) شاه وأسمه محمد بن تُكُش بن إيل أُرسلان بن أُنسز بن محمد بن أنوشتيكين السلطان علاء الدين المعروف بخُوَارَزْم شاه.

قال ابنُ واصل^(٢): نسبه ينتهي إلى إيلتيكين أحد ممالك السلطان ألب أُرسلان بن طغرل بك السلجوقي، وكانت سلطنة خوارزم شاه المذكور في سنة ست وتسعين وخمسمائة عند موت والده السلطان علاء الدين تُكُش.

وقال عز الدين بن الأثير: كان صبوراً على التعب وإدمان السير غير مُتَنَعِّم ولا مُقْبِل على اللذات، إنما همته في الملك وتدييره وحفظه وحفظ رعيته، وكان فاضلاً عالماً بالفقه وغيرهما، وكان مُكْرِماً مُجِبّاً لهم مُحْسِناً إليهم يُحِبُّ مناظرتهم بين يديه ويُعْظِمُ أهل الدين ويتبرك بهم.

— قلت: وهذا بخلاف ما ذكره أبو المظفر ممّا حكاه عن الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوْرْدِيّ، لَمَّا توجه إلى خُوَارَزْم شاه هذا رسولاً من قِبَل الخليفة الناصر لدين الله فَإِنَّه ذكر عنه أشياء من التكبر والتعاضم عليه، وعدم الالتفات له، وإِنَّه صار لا يفهم كلام السُّهْرَوْرْدِيّ إِلَّا بالتَرْجُمان؛ ولعلّه كان فعل ذلك لإظهار العظمة، وهو نوع من تجاهل العارف —.

قال: وكان أعظم ملوك الدنيا وأتسعت ممالكه شرقاً وغرباً وهابته الملوك حتى لم يبقَ إِلَّا مَنْ دخل تحت طاعته وصار من عسكره. ومحق أبوه التتار بالسيف وملك منهم البلاد. ووقع له أمور طويلة حتى إِنَّه نزل هَمْدَان، وكان في عسكره سبعون ألفاً من الخُطَا؛ فكتب القُمِّي^(٣) عساكره ووَعَدَهُم بالبلاد، فَأَتَفَقُوا مع الخُطَا على قتله. وكان خاله من الخُطَا وحلفوه أَلَّا يُطْلِعَهُ على ما دَبَّرُوا عليه، فجاء إليه في الليل وكتب في يده صورة الحال، فقام وخرج من وقته ومعه ولداه: جلال الدين وآخر؛ ولما خرج من الخيمة دخل الخُطَا والعساكر من بابها ظناً منهم أَنه فيها، فلم يجدوه

(١) ذكر ابن الأثير وفاته سنة ٦١٧ هـ. وهو الصواب. وسيأتي للمؤلف إشارة إلى ذلك في حوادث سنة ٦١٧ هـ. وذكر وفاته ها خطأ.

(٢) هو ابن واصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧ هـ، صاحب كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب».

(٣) راجع ص ١٩٠ من هذا الجزء، حاشية (٧).

فنهبوا الخزائن؛ يقال: إنّه كان في خزائنه عشرة آلاف ألف دينار، وألف جِمل قماش أطلس، وعشرون ألف فرس وبغل، وكان له عشرة آلاف مملوك، فتمزّق الجميع وهرب ولداه إلى الهند، وهرب خُوَارِزْمُ شاه إلى الجزيرة، وفيها قلعة ليتحصّن بها، فمات دون طلوع القلعة المذكورة في هذه السنة، وقيل: في سنة سبع عشرة وستمائة. والله أعلم.

وفيها تُوفِّي الملك القاهر عزّ الدين مسعود [بن أرسلان بن مسعود بن مودود ابن زَنْكِي أبو الفتح] (١) صاحب الموصل، وترك ولداً صغيراً اسمه محمود، فأخرج الأمير بدر الدين لؤلؤ زَنْكِيّ أخا القاهر من الموصل وأستولى عليها، ودبّر مملكة محمود المذكور.

الذين ذكر الذهبّي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي الشهاب فُتَيان بن عليّ الشاغوريّ الأديب. وصاحب الروم السلطان عزّ الدين كَيْكَاوُس، ووَلِي بعده علاء الدين أخوه. وصاحب الموصل عزّ الدين مسعود بن أرسلان شاه الأتابكيّ. وصاحب مصر وغيرها السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب في جُمَادَى الآخرة عن سبع وسبعين سنة. وأبو الفتوح محمد بن محمد [بن محمد] (٢) بن عمروك البَكْرِيّ النَّيسَابُورِيّ الصُّوفِيّ في جُمَادَى الآخرة، وهو في عشر المائة. والشمس أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عبد الصمد السلميّ العطار في شعبان. والحافظ أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن كرم البَنْدِينِيّجِيّ في رمضان عن أربع وسبعين سنة، سمع ابن الزَّاعُونِيّ. وأمّ المؤيّد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشَّعْرِيّة، ولها إحدى وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وستّ أصابع. مبلّغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وستّ أصابع.

(١) زيادة عن الذهبّي وشذرات الذهب.

(٢) زيادة عن الذهبّي.

ذكر سلطنة الملك الكامل^(١) على مصر

أعني بذلك آستقلالاً بعد وفاة أبيه العادل، لأن الكامل هذا كان متولّي سلطنة مصر في حياة والده العادل؛ لما قسم العادل الممالك في أولاده من سنين عديدة، أعطى المعظم عيسى دِمَشق، وأعطى الأشرف موسى الشرق، وأعطى الملك الكامل محمداً هذا مصر، وصار هو يتنقل في ممالك أولاده؛ والعمدة في كل الممالك عليه إلى أن مات الملك العادل تفرد الملك الكامل محمد بالخطبة في ديار مصر وأعمالها، وأستقلّ بأمورها وتدبير أحوالها، وذلك من يوم وفاة والده الملك العادل المذكور، وهو من يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة.

قلت: وقد تقدّم نسب الملك الكامل هذا في ترجمة عمه السلطان صلاح الدين، وأستوعبنا ذلك من عدّة أقوال وحررناه، فليُنظر هناك.

قال أبو المظفر: «وُلد الكامل سنة ثلاث وسبعين وخمسائة، وكان أكبر أولاد العادل بعد مودود، وكان العادل قد عهد إليه لما رأى من ثباته وعقله وسداده. وكان شجاعاً ذكياً فطناً يُحب العلماء والأمثال ويُلقب عليهم المشكلات، ويتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح، ويثبت بين يدي العدو. وأمّا عدله فإليه المنتهى» انتهى كلام أبي المظفر باختصار.

وقال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي في تاريخ الإسلام:

(١) ترجمته وأخباره في: وفيات الأعيان: ٧٩/٥، والسلوك: ٢٣٠/١، والخطط المقرزية: ٢٣٥/٢، وديل الروضتين: ١٦٦، والشذرات: ١٧٢/٥، وبدائع الزهور: ٢٥٨/١، وشفاء القلوب: ٢٩٩، وابن الأثير: حوادث سنة ٦١٥ هـ وما بعدها إلى سنة ٦٢٨ هـ حيث ينتهي كتاب الكامل لابن الأثير، والدارس في تاريخ المدارس: ٢١٣/٢، ومفرح الكروب: ٢٧٤/٣.

«الملك الكامل محمد السلطان ناصر الدين أبوالمعالى وأبوالمظفر أبى السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب بن شادى صاحب مصر. ولد بمصر سنة ست وسبعين وخمسائة.

— قلت: وهذا بخلاف ما نقله أبوالمظفر فى سنة مولده، وعندى أن أبى المظفر أثبت لصحبته بأخيه المعظم عيسى، وكونه أيضاً عصرى الملك الكامل هذا. — والله أعلم.

قال (أعنى الذهبى): وأجاز له العلامة عبد الله بن برى، وأبر عبد الله ابن صدقة الحرانى، وعبد الرحمن بن الخرقى؛ قرأت بخط ابن مسدي فى معجمه: كان الكامل محباً للحديث وأهله، حريصاً على حفظه ونقله، وللعلم عنده شرف؛ خرج له أبو القاسم بن الصفرأوى أربعين حديثاً، وسمعها جماعة. وحكى لي عنه مكرم الكاتب أن أباه العادل أستجاز له السلفى قبل موت السلفى بأيام، قال ابن مسدي: ثم وقفت أنا على ذلك وأجاز لي [و] لابنى. قال الذهبى: وتملك الديار المصرية أربعين سنة، شطرها فى أيام والده. وقيل: بل ولد فى ذى القعدة سنة خمس وسبعين. قلت: وهذا قول ثالث فى مولده.

وقال الحافظ عبد العظيم المنذرى^(١) استأدار الحديث بالقاهرة (يعنى بذلك المدرسة الكاملية^(٢) بين القصرين). قال: وعمر القبة^(٣) على ضريح الشافعى،

- (١) لعله ينقل عن كتاب المنذرى: «التكملة لوفيات القلة». وقد توفى المنذرى سنة ٦٥٦هـ.
- (٢) المدرسة الكاملية: كانت هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، وتعرف بدار الحديث الكاملية. أنشأها الملك الكامل فى سنة ٦٢١هـ. وهى ثانى مدرسة للحديث بعد المدرسة التى أنشأها بدمشق نور الدين محمود. (خطط المقرئى: ٣٧٥/٢). وبنى الملك الكامل فيها منازل يسكن بها الطلبة والمدرسون. وجعل لها خزانة كتب يليها أحد الرجال المثقفين. وأول من تولى مشيخة هذه الدار أبو الخطاب عمر بن دحية، مؤلف كتاب نهاية السؤل فى خصائص الرسول. وحفظ لنا السيوطى فى كتابه: حسن المحاضرة ١٥٩/٢ ثبناً بمن تولوا مشيخة هذه الدار. (الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية عصر والشام: ص ٥٢) ولا تزال هذه المدرسة موجودة إلى اليوم بشارع بين القصرين بجوار جامع السلطان برقوق من بحريه، وتعرف باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل. (محمد رمزى)
- (٣) انظر المقرئى: ٤٦٢/٢ وبدائع الزهور: ١٩٨/٢. ولا تزال هذه القبة الجميلة المرتفعة قائمة إلى اليوم تعلق قبر الإمام الشافعى المحاور لمسجده بشارع الإمام الشافعى بالقرافة. ويوجد فوق القبة من الخارج فى مكان الهلال مركب صغيرة من النحاس تسع من الحب قدر نصف إردب. (محمد رمزى)

وأجرى الماء من بركة الحَبَش^(١) إلى حوض السَّبِيل^(٢) والسَّقَاية، وهما على باب القُبَّة المذكورة، ووقف غير ذلك من الوقوف على أنواع من أعمال البر بمصر وغيرها. وله المواقف المشهودة في الجهاد بدمياط المدَّة الطويلة، وأنفق الأموال الكثيرة، وكافح العدوَّ المخذول براً وبحراً ليلاً ونهاراً. يُعرف ذلك من مشاهدته. ولم يزل على ذلك حتَّى أعزَّ الله الإسلام وأهلَه، وخذل الكفر وأهلَه. وكان مُعظِّماً للسُّنَّة النبويَّة وأهلها، راجباً في نشرها والتمسك بها، مؤثراً الاجتماع مع العلماء والكلام معهم حضراً وسفراً. إنتهى كلام المنذري باختصار.

وقال القاضي شمس الدين ابن خلِّكان في تاريخه بعد ما ساق نسبه وذكره نحواً ممَّا ذكرناه حتَّى قال: «ولمَّا وصل الفرنج إلى دِمِيَّاط كما تقدَّم ذكره، كان الملك الكامل في مبدأ أستقلاله بالسلطنة، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء، منهم: عماد الدين أحمد بن المشطوب، فأتفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين إبراهيم ابن الملك العادل، وأنضموا إليه، فظهر للملك الكامل منهم أمور تدلُّ على أنَّهم عازمون على تفويض الملك إليه وخَلْع الكامل، وأشتهر ذلك بين الناس؛ وكان الملك الكامل يُداريهم لكونه في قُبالة العدوِّ ولا يمكنه المقاهرة^(٣)، وطوَّل رُوحه معهم، ولم يزل على ذلك حتَّى وصل إليه أخوه الملك المعظَّم عيسى صاحب دِمَشق يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة من سنة خمس عشرة وستمائة، فأطلعه الكامل في الباطن على صورة الحال، وأنَّ رأس هذه الطائفة ابن المشطوب^(٤)، فجاءه يوماً على غفلة في خَيْمته وأستدعاه فخرج إليه، فقال

(١) راجع الجزء الخامس، ص ١٤، حاشية (٢).

(٢) حوض السبيل والسقاية: كان حوض السبيل واقعاً بجوار السقاية، ولا أثر له اليوم. أما السقاية المشهورة اليوم باسم «المرملة» فلا تزال موجودة بشكل سبيل يقع بين مسجد الإمام الشافعي وبين منزل ورثة الشيخ عبد الفتاح أبي النحا على يسار الداخل إلى قبة الشافعي. وقد جدد هذا السبيل ديوان عموم الأوقاف سنة ١٣٠٥ هـ. (محمد رمزي).

(٣) في ابن خلِّكان: «ولا يمكنه المناطرة والمنافرة».

(٤) هو الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بابن المشطوب. وكان من أجل الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه ويطيعونه (السلوك: ٢٣١/١).

[له] (١): أريد أن أتحدّث [معك] (١) سراً في خُلوة، فركب فرسه (يعني [آبن] (١) المشطوب). وسار معه جريدة، وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق إليهم، وقال لهم: اتبعونا. ولم يزل المعظم يشغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أُبْعِد عن المخيم، ثم قال له: يا عماد الدين هذه البلاد لك، [و] (٢) نشتهي أن تهبها لنا، ثم أعطاه شيئاً من النفقة، وقال لأولئك المجردين: تسلّموه حتى تُخرجوه من الرمل، فلم يسعه إلا الامتثال لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال؛ ثم عاد المعظم إلى أخيه الملك الكامل وعرفه صورة ما جرى. ثم جهّز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل لإحضار النجدة منها [و] (٢) من بلاد الشرق فمات بسينجار. وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد. فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحلّلت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما، ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً. وجرى في قصّة دِمياط ما هو مشهور فلا حاجة للإطالة في ذكره (٣).

ولمّا ملك الفرنج دمياط وصارت في أيديهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر [و] (٢) نزلوا في رأس الجزيرة (٤) التي دِمياط في برها، وكان المسلمون قبالتهم في القرية المعروفة بالمنصورة (٥)، والبحر حائل بينهم، وهو بحر أشموم (٦)،

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) في السلوك: ٢٣٠/١ - ٢٣٥ تفاصيل وافية عن حصار دمياط ومؤامرة خلع الكامل، فلتنظر هناك.

(٤) الجزيرة: المقصود بها الأرض التي تشغلها اليوم بلاد مركز فارسكور وبعض بلاد مركز المنصورة. (محمد رمزي).

(٥) المنصورة: أنشأها الملك الكامل سنة ٦١٦هـ، عندما ملك الفرنج مدينة دمياط؛ وقد جعلها الكامل منزلة لعسكره وسمّاها المنصورة - تيمناً بانتصاره على الصليبيين - ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط فصارت المنصورة بعد ذلك مدينة كبيرة بها المساجد والحمامات والفنادق والأسواق. ولا تزال المنصورة إلى اليوم عاصمة مديرية الدقهلية، وهي من أشهر وأكبر المدن المصرية وأجملها لوقوعها على الشاطئ الشرقي لفرع النيل الشرقي المعروف باسم فرع دمياط. (محمد رمزي).

(٦) بحر أشموم: يعرف اليوم باسم البحر الصغير، أحد فروع الرّي الشهيرة بمديرية الدقهلية. وكان يسمى بحر أشموم نسبة إلى مدينة أشموم طنّاح الواقعة عليه وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان بمركز دكرنس. وكان هذا البحر يأخذ مياهه قديماً من فرع النيل الشرقي في نقطة تقع في الجنوب الغربي لمدينة

ونصر الله - سبحانه وتعالى - بَمَنِّهِ وَجَمِيلِ لطفه المسلمين عليهم كما هو مشهور؛ ورَحَلَ الفرنج عن منزلتهم ليلة الجمعة سابع رجب سنة ثمانى عشرة وستمائة، وتَمَّ الصلح بينهم وبين المسلمين في حادي عشر الشهر المذكور، ورَحَلَ الفرنج عن البلاد في شعبان من السنة المذكورة، وكانت مدَّة إقامتهم في بلاد الإسلام^(١) ما بين الشام والديار المصريَّة أربعين شهراً وأربعة عشر يوماً؛ وكفى الله - تعالى - المسلمين شرَّهم والحمد لله على ذلك.

- قلت ونذكر أمر دِمَياط من كلام أبي المظفر في آخر هذه الترجمة بأوسع من ذلك، لأنَّه معاصر الكامل وصاحب المعظَّم، فهو أجدر بهذه الواقعة - فلَمَّا استراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدو تفرَّغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد وبدَّد شَمْلَهُم وشرَّدهم، ودخل القاهرة وشرَّع في عِمارة البلاد وأستخرج الأموال من جهاتها. وكان سلطاناً عظيم القدر جَمِيل الذكر مُجِباً للعلماء متمسِّكاً بالسُّنة، حس الاعتقاد معاشرأ لأرباب الفضائل حازماً في أمره لا يضع الشيء إلا في مواضعه من غير إسراف ولا إقتار؛ وكان يَبِيت عنده كلَّ ليلة [جمعة]^(٢) جماعة من الفضلاء يشاركونهم في مباحثهم، ويسألهم عن المواضع المُشكلة في كلِّ فنٍّ، وهو معهم كواحد منهم، وكان - رحمه الله - يُعجبه هذان البيتان ويُشدهما كثيراً وهما: [مخلع البسيط]

ما كنت [من]^(٣) قبل ملكِ قلبي تُصُدُّ عن مُدَنِّفِ حزين
وإنما قد طِمَعَت لَمَّا حللت في موضعِ حصين

قال^(٤): ولَمَّا مات أخوه الملك المعظم عيسى صاحب الشام، وقام أبنه الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصريَّة قاصداً أخذ

= المنصورة. أما اليوم فيأخذ مياهه من ترعة المنصورة في نقطة تقع في الشمال الشرقي لمدينة المنصورة. (محمد رمزي).

(١) في الأصل: «بلاد الشام» والتصحيح عن ابن خلكان.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

(٤) يتابع المؤلف النقل عن ابن خلكان.

دمشق منه؛ وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى، واجتمعا على أخذ دمشق بعد فصول يطول شرحها. وملك الكامل دمشق في أول شعبان سنة ست وعشرين وستمائة، وكان يوم الاثنين؛ فلما ملكها دفعها لأخيه الملك الأشرف، وأخذ عَوْضَهَا من بلاد الأشرف: حَرَّانَ والرُّهَا وسَرُوجَ والرَّقَّةَ ورأس العين؛ وتوجَّه إليها بنفسه في تاسع شهر رمضان من السنة.

قال ابن خلكان: وأجتزت بحرَّان في شوال سنة ست وعشرين وستمائة والملك الكامل مقيم به بعساكر الديار المصرية؛ وجلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك محاصرٌ لخلاط، وكانت لأخيه الملك الأشرف، ثم رجع إلى الديار المصرية.

ثم تجهز في جيش عظيم، وقصد آمد في سنة تسع وعشرين وستمائة فأخذها مع حصن كَيْفَا والبلاد من الملك المسعود [ركن الدين مودود]^(١) بن الملك الصالح أبي الفتح محمود^(٢) بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرأ أرسلان بن ركن الدولة داود بن نور الدولة سقمان؛ ويقال سقمان بن أرتق، قال: ثم مات أخوه الملك الأشرف وجعل وليَّ عهده أخاه الملك الصالح إسماعيل بن العادل، فقصده الملك الكامل أيضاً، وانتزع منه دمشق بعد مصالحة جرت بينهما في التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأبقى له بعلبك وأعمالها، وبُصرى وأرض السَّوَادِ وتلك البلاد. ولما ملك البلاد المشرقية [و] آمد وتلك النواحي استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصرية. وقد تقدّم في ترجمة الملك العادل أنه سير ولده الملك المسعود أقسيس إلى اليمن، وكان أكبر أولاد الملك الكامل. وملك الملك المسعود مكة - حرسها الله تعالى - وبلاد الحجاز مضافة إلى اليمن، وكان رحيل الملك المسعود من الديار المصرية متوجّهاً إلى اليمن في يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة إحدى عشرة وستمائة، ودخل مكة في ثالث ذي القعدة من السنة، وخطب له بها وحجّ؛ ودخل ربيد وملكها مستهلّ المحرم سنة اثنتي عشرة وستمائة.

(١) زيادة عن ابن خلكان.

(٢) في الأصل: «محمد» والتصحيح عن ابن خلكان.

ثم ملك مكة في شهر ربيع الآخر سنة عشرين وستمائة، أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسني^(١).

قلت: وقد ذكرنا خروج الملك المسعود إلى اليمن من وقته في ترجمة جدّه الملك العادل. وتُوفِّيَ الملك المسعود في حياة والده الملك الكامل بمكة في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة. وكان مولده في سنة سبع^(٢) وتسعين وخمسمائة وأظنه أكبر أولاد الكامل. والله أعلم.

قال ابن خلّكان: وأتّسعت المملكة للملك الكامل؛ ولقد حَكَى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنّه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: صاحب^(٣) مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام^(٤) وصناديدها، والعزيرة ووليدها، سلطان القبليتين وربّ العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين.

قال: ولقد رأيتُه بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عند رجوعه من بلاد المشرق، وأستنقذه إيّاها من الأمير علاء الدين كيّقباد بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود [بن قليج أرسلان]^(٥) بن سليمان [بن قتلмыш]^(٥) بن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقيّ صاحب الروم، وهي وقعة مشهورة يطول شرحها؛ وفي خدمته يومئذ بضعة عشر ملكاً، منهم [أخوه]^(٥) الملك الأشرف. ولم يزل في علوّ شأنه وعظيم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذه دمشق ولم يركب، وكان يُنشد في مرضه كثيراً. [الخفيف]

يسا خليليّ خبّراني بصدقٍ كيف طعمُ الكرى فإني نسيته^(٦)

ولم يزل كذلك إلى أن تُوفِّيَ يوم الأربعاء بعد العصر، ودُفِن بالقلعة بمدينة

(١) في الأصل: «الحسيني». والتصحيح عن ابن خلّكان والأعلام.

(٢) في ابن خلّكان: «سنة تسع وتسعين وخمسمائة».

(٣) في الأصل: «سلطان». وما أثبتناه عن ابن خلّكان.

(٤) ساقطة من ابن خلّكان.

(٥) زيادة عن ابن خلّكان.

(٦) في ابن خلّكان: «فإني عليّ»

دمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأنا بدمشق يومئذ، وحضرتُ الصَّيْحَةَ يوم السبت في جامع دمشق، لأنَّهم أَخَفَوْا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلَمَّا [حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريش]^(١) بين يدي المُنْبَرِ وترحَّم على الملك الكامل، ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر، وكنتُ حاضراً في ذلك الموضع^(٢)، فضَجَّ الناسُ ضَجَّةً واحدة، وكانوا قد أَحَسُّوا بذلك، لكنهم لم يتحقَّقوه إلا ذلك اليوم.

وترتَّبَ ابن أخيه الملك الجواد مظفَّر الدين يُونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل في نيابة السلطنة بدمشق عن الملك العادل بن الكامل صاحب مصر باتِّفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق.

ثم بُني له تربة مجاورة للجامع، ولها شُبَّاكٌ إلى الجامع، ونُقِلَ إليها.

قال: وأمَّا ولده الملك العادل [فإنه]^(٣) أقام في المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذي القعدة^(٤) من سنة سبع وثلاثين وستمائة، فقَبَضَ عليه أمراء دولته بظاهر بلبس». إنتهى كلام ابن خَلْكَان على جليته. ونذكر أيضاً من أحوال الكامل نُبْدَةً جيِّدة من أقوال غيره من المؤرِّخين. إن شاء الله تعالى.

قال بعضهم: كان الملك الكامل فاضلاً عالماً شهماً مهيباً عاقلاً مُجِبَّاً للعلماء، وله شِعْرٌ حسن، وأشتغالٌ في العلم. قيل: إنَّه شكَا إليه ركبدار^(٥) أستاذَه بأنَّه آسَخدمه ستة أشهر بلا جامكيَّة، فأنزل أستاذَه من فرسه وألبسه ثياب الركبدار، وألبس الركبدار ثيابه، وأمره بخدمة الركبدار وَحَمَل مَداسه ستة أشهر حتَّى شَفَع فيه.

(١) بين معقوفين هي عبارة ابن خلكان. وعبارة الأصل: «فلما دنت الصلاة قال بعض الدعايين يدي

المنبر... إلخ» وفيها اضطراب وتحريف.

(٢) في الأصل: «الوقت». وما أثنتاه عن ابن خلكان.

(٣) زيادة عن ابن خلكان.

(٤) كذا في ابن خلكان. وفي الأصل: «ذي الحجة».

(٥) الركبدار، والركابدار: هو الذي يحفظ نعل الأمير أو السلطان، ويلبسه إياها أحياناً، ويمسك بركاب فرسه

حتى يثبت قدمه في الركاب.

وكانت الطرق آمنة في زمانه. ولما بعث أبنه الملك المسعود أقسيس وأفتح اليمن والحجاز ثم مات قبله كما ذكرناه ورث منه أموالاً عظيمة، ففرق غالبها في وجوه البرِّ والصدقات. وكانت راية الملك الكامل صفراء. وفيه يقول البهاء زهير - رحمه الله تعالى - [الطويل]

بك أمتزَّ عطفُ الدِّينِ في حُلِّ النَّصْرِ ورُدَّتْ على أعقابها مِلَّةُ الكُفْرِ
وأقسِمَ إن ذاقَتْ بنو الأصفرِ الكَرَى لَمَّا حَلَمْتُ إلا بأعلامك الصُّفْرِ
ثلاثة أعوامَ أقمتَ وأشهرًا تُجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو
وليلة نَفَرٍ للعدوِّ رأيتها بكثرة من أزدَيْته ليلة النَّحْرِ
فيا ليلةً قد شَرَّفَ الله قدرها فلا غَرَوُ إن سَمَّيتها ليلة القَدْرِ

وقال: وكان فيه جَبْرُوت مع سفك الدماء.

وذكر الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الجَزْرِيّ^(١): أن عماد الدين يحيى البيضاويّ الشريف قال: حكى لي الخادم الذي للكامل قال: طلب مني الكامل طَسْتًا حتّى يتقيأ فيه فأحضرتُه، وكان الملك الناصر داود على الباب، جاء ليعود عمّه الكامل؛ فقلت: داود على الباب، فقال: ينتظر موتي! فأنزِعج، فخرجت وقلت: ماذا وقتك. السلطان منزِعج؛ فنزل إلى داره؛ ودخلتُ إلى السلطان فوجدتُه قد قَضَى والطست بين يديه وهو مكبُوب على المِخْدَة.

وقال ابنُ واصل: حَكَى لي طبيبه قال: أصابه لما دخل قلعة دمشق زُكَّامٌ، فدخل الحَمَّام وصبَّ على رأسه ماءً شديد الحرارة، أتباعاً لقول محمد بن زكريّا

(١) هو شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزريّ الدمشقي. مؤرخ دمشقي المولد والوفاة. توفي سنة ٧٣٩هـ. له كتاب «التاريخ المسمى بحوادث الزمان وأنبائه، ووفيات الأكابر والأعيان من أناته» منه جزءان مرتبان على السنين، يبتدئ أحدهما بحوادث سنة ٦٠٨هـ إلى سنة ٦٥٨هـ، وهو من مخطوطات خزنة الرماط (١٩٤ أوقاف) ويبتدئ الثاني بحوادث سنة ٧٢٦هـ وينتهي بسنة وفاته ٧٣٩هـ، وهو في دار الكتب. اطلع على هذا الكتاب كل من المزي والدهبي والبرزالي ونقلوا عنه. (الأعلام: ٢٩٨/٥). قلت: وأرحح ألا يكون أبو المحاسن هنا ينقل مباشرة عن الجزري هذا، وإنما هو ينقل عن الدهسي، بدليل أن أما المحاسن لم يذكر شيئاً عن الجزري هذا في حوادث سنة ٧٣٩هـ.

الرازي^(١) في كتاب سماه «طب ساعة»^(٢)؛ قال فيه: من أصابه زكامٌ وصَبَّ على رأسه ماءً شديد الحرارة أنحلَّ زكامه لوقته، وهو لا ينبغي أن يُعمل على إطلاقه؛ قال الطبيب: فانصبَّ من دماغه إلى فم معدته فتورمت، وعرضت له حُمى شديدة، وأراد القيء فنهاه الأطباء، وقالوا: إن تقيأ هلك، فخالفهم وتقيأ فهلك لوقته.

قال ابن واصل: وحكى لي الحَكَمُ رضي الدين قال: عرضت له خوانيق، وتقيأ دماً كثيراً ومدة؛ فأراد القيء أيضاً فنهاه موفق الدين إبراهيم، وأشار عليه بعض الأطباء بالقيء فتقيأ، فأنصبت بقية المادة إلى قصبه الرئة وسدتها فمات.

وقال ابن واصل: وكان ملكاً جليلاً حازماً، سديد الآراء حسن التدبير لممالكه عفيفاً حلماً؛ عُمِّرت في أيامه الديار المصرية عمارةً كبيرة، وكان عنده مسائل غريبة من الفقه والنحو يُوردها، فمن أجابه حَظِيَّ عنده.

(١) هو أبو بكر الرازي المتوفى سنة ٥٣١٣ هـ. فيلسوف من أئمة صناعة الطب.
(٢) ليس في قائمة كتبه التي ذكرها مترجموه ذكر لهذا الكتاب. ولعله كتاب «برء الساعة».

ذكر أخذ دِمياط

قال أبو المظفر في تاريخه: «في شعبان أخذ الفرنج دِمياط، وكان المعظم قد جهّز إليها الناهض بن الجرخي^(١) في خمسمائة راجل، فهجموا على الخنادق فقتل ابن الجرخي ومن كان معه، وصَفُّوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكان الفرنج قد طمَّوها (يعني الخنادق) وضعف أهل دِمياط وأكلوا الميتات، وعجز الملك الكامل عن نُصرتهم، ووقع فيهم الوباء والفناء، فراسلوا الفرنج على أن يُسلِّموا إليهم البلد ويخرجوا منه بأموالهم وأهلهم، واجتمعوا وحلفوهم^(٢) على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البرِّ والبحر، وفتح لهم أهل دِمياط الأبواب، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغَدَرُوا بأهل دِمياط، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً، وباتوا تلك الليلة بالجامع يَفْجُرُونَ بالنساء، وَيَقْتَضُونَ البنات، وأخذوا المَنْبَر والمصاحف ورؤوس القتلى، وبعثوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة؛ وكان أبو الحسن ابن قُفْل بدِمياط، فسألوا عنه، فقيل لهم: هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يَأْوِي إليه الفقراء، فما تعرَّضوا له. ووقع على المسلمين كآبة عظيمة. وبكى الكامل والمعظم بكاء شديداً، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة. ثم قال الكامل لأخيه المعظم: قد فات المطلوب، وجرى المقدر بما هو كائن، وما في مقامك ها هنا فائدة؛ والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر من بلاد الشرق. قال أبو المظفر: فكتب المعظم إليّ وأنا بدمشق كتاباً بخطه، يقول - في أوله -: : قد عليم الأخ العزيز بأن قد جرى على دِمياط ما جرى، وأريد أن

(١) في الأصل: «الخرجي». وما أثبتناه عن شفاء القلوب.

(٢) عبارة شفاء القلوب. «واجتمع الأقساء وحلفوا على ذلك».

تُحرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ، وَتُعَرِّفُهُمْ مَا جَرَى عَلَى إِخْوَانِهِمْ أَهْلَ دِمِياطٍ مِنَ الْكُفْرِ أَهْلَ الْعِنَادِ. وَإِنِّي كَشَفْتُ ضِياعَ الشَّامِ فَوَجَدْتُهَا أَلْفِي قَرْيَةً، مِنْهَا أَلْفٌ وَسِتِّمِائَةٌ أَمْلَاكٌ لِأَهْلِهَا، وَأَرْبَعِمِائَةٌ سُلْطَانِيَّةٌ، وَكَمْ مَقْدَارُ مَا تَقُومُ بِهِ هَذِهِ الْأَرْبَعِمِائَةُ مِنَ الْعَسَاكِرِ؟ وَأُرِيدُ أَنْ تُخْرِجَ الدِّمَاشِقَةَ لِيذُبُّوا عَنْ أَمْلَاكِهِمْ، الْأَصَاغِرِ مِنْهُمْ وَالْأَكَابِرِ. وَيَكُونُ لِقَاؤُنَا وَهُمْ صَحْبَتِكَ إِلَى نَابُلُسَ فِي وَقْتِ سَمَاهُ. قَالَ: فَجَلَسْتُ بِجَامِعِ دِمَشْقَ وَقَرَأْتُ كِتَابَهُ عَلَيْهِمْ، فَأَجَابُوا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، [وَقَالُوا: نَمْتَثِلُ أَمْرَهُ بِحَسَبِ الْإِسْتِطَاعَةِ] (١).

وَتَجَهَّزُوا؛ فَلَمَّا حَلَّ رِكَابَهُ بِالسَّاحِلِ وَقَعَ التَّقَاعِدُ، وَكَانَ تَقَاعُدُهُمْ سَبَبًا لِأَخْذِهِ الثُّمَنَ وَالخَمْسَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَكَتَبَ إِلَيَّ يَقُولُ: إِذَا لَمْ يَخْرُجُوا فَسِرْ أَنْتِ إِلَيْنَا، فَخَرَجْتُ إِلَى السَّاحِلِ وَهُوَ نَازِلٌ عَلَى قَيْسَارِيَّةٍ، فَأَقَمْنَا حَتَّى فَتَحَهَا عُنُودًا، ثُمَّ سَرْنَا إِلَى النِّفْرِ (٢) فَفَتَحَهُ وَهَدَمَهُ؛ وَعَادَ إِلَى دِمَشْقَ بَعْدَ أَنْ أَخْرَجَ الْعَسَاكِرَ إِلَى السَّوَاخِلِ. وَأَسْتَمَرَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ عَلَى مَقَاتِلَةِ الْفَرَنْجِ إِلَى أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةً، وَطَلَبَ مِنْ إِخْوَتِهِ النَّجْدَةَ، وَتَوَجَّهَ الْمَعْظَمُ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ إِلَى أَخِيهِ الْأَشْرَفِ مُوسَى، وَاجْتَمَعَا عَلَى حَرَّانَ. وَكَتَبَ صَاحِبُ مَارِدِينَ إِلَى الْأَشْرَفِ يَسْأَلُهُ أَنْ يَصْعَدَ الْمَعْظَمُ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ فَسَارَ إِلَى مَارِدِينَ، فَتَلَقَّاهُ صَاحِبُ مَارِدِينَ مِنْ دُنَيْسِيرَ، وَأَصْعَدَهُ إِلَى الْقَلْعَةِ وَخَدَمَهُ خِدْمَةً عَظِيمَةً، وَقَدَّمَ لَهُ التُّخَفَ وَالْجَوَاهِرَ وَتَحَالَفَا وَاتَّفَقَا عَلَى مَا أَرَادَا؛ ثُمَّ عَادَ الْمَعْظَمُ إِلَى أَخِيهِ الْأَشْرَفِ. وَجَاءَ خَبْرَ دِمِياطٍ. وَكَانَ الْمَعْظَمُ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى خِلَاصِ دِمِياطٍ وَالغَزَاةِ، وَكَانَ مَصَافِيًا لِأَخِيهِ الْكَامِلِ، وَكَانَ الْأَشْرَفُ مَقْصُرًا فِي حَقِّ الْكَامِلِ مَبَايِنًا لَهُ فِي الْبَاطِنِ؛ فَلَمَّا اجْتَمَعَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَى حَرَّانَ قَطَعَ بِهِمُ الْمَعْظَمُ الْفُرَاتَ، وَسَارَ الْأَشْرَفُ فِي آثَارِهِ، وَنَزَلَ الْمَعْظَمُ حِمَصَ وَالْأَشْرَفُ سَلْمِيَّةَ. قَالَ: وَكُنْتُ قَدْ خَرَجْتُ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى حِمَصَ لَطَلَبِ الْغَزَاةِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى عِزْمِ الدِّخُولِ إِلَى طَرَابُلُسَ، فَاجْتَمَعْتُ بِالْمَعْظَمِ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ فَقَالَ لِي: قَدْ سَحَبْتُ الْأَشْرَفَ إِلَى هَا هُنَا وَهُوَ كَارِهِ، وَكُلَّ يَوْمٍ أَعْتَبَهُ فِي تَأَخَّرِهِ وَهُوَ يَكَاسِرُ (٣) وَأَخَافُ مِنَ الْفَرَنْجِ أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى مِصْرَ، وَهُوَ صَدِيقُكَ؛ وَأَشْتَهِي أَنْ تَقُومَ تَرْوِجَ إِلَيْهِ فَفَدَّ سَأَلَنِي

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) كذا ولعلها: «النفق».

(٣) كذا. ولعله: يتكاسل».

عنك [مراراً]^(١)؛ ثم كتب إلى [أخيه]^(١) كتاباً بخطه نحو ثمانين سطراً، فأخذته ومضيتُ إلى سَلْمِيَّةَ؛ وبلغ الأشرَفَ وصولي فخرج من الخيمة وتلقاني وعاتبني على أنقطاعي [عنه]^(١) وجرى بيني وبينه فصول؛ وقلت له: المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حَضْرَمَوْت، وعَفَّو آثار مَكَّة والمدينة والشام [وأنت تلعب]^(١)، قم الساعة وأرحل؛ فقال: إرموا الخيام [والدهليز]^(١)، وسبقته إلى جَمَّص فتلقاني المعظم، وقال: ما نمتُ البارحة ولا أكلتُ اليوم شيئاً، فقلت: غداً يُصَبِّح أخوك الأشرَفُ جَمَّصي.

فلما كان من الغد أقبلت الأطلاب^(٢) وجاء طُلب الأشرَف، والله ما رأيت أجملَ منه ولا أحسن رجلاً ولا أكمل عُدَّة، وسرَّ المعظم سروراً عظيماً؛ وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فأتفقوا على الدخول في السحر إلى طرابُلُس، وكانوا على حال، فانطق الله الملك الأشرَف من غير قصد وقال للمعظم: يا حَوْنَد^(٣)، عوض ما ندخل الساحل وتضعف خيلنا وعساكرنا ويضيع الزمان ما نروح إلى دِمَياط ونستريح؟ فقال له المعظم - قول رماة البندق قال - : نعم، فقبل المعظم قدمه ونام الأشرَف، فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري يصيح: الرحيل الرحيل إلى دِمَياط؛ وما كان يُظنُّ أن الأشرَف يسمح بذلك، وساق المعظم إلى دِمَشق وتبعته العساكر، ونام الأشرَف في خيمته إلى قرب الظهر، وأنته فدخل الحمام فلم يرَ [حول] خيمته أحداً، فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر فسكت، وساق إلى دِمَشق فنزل القَصِير يوم الثلاثاء رابع جُمادى الأولى، فأقام إلى سلخه، وعَرَض العساكر تحت قلعة دِمَشق، وكان هو وأخوه المعظم في الطيَّارة بقلعة دِمَشق، وساروا إلى مصر.

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) الأطلاب: فرق الجيش وكتائبه. ويقول ابن إياس أن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي. ويذكر المقرئ أن «الطلب» في لغة الغز هو أمير له لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦).

(٣) الحَوْنَد: لفظ فارسي بمعنى السيد العظيم والأمير. واستعملت في العربية لقباً بمعنى السيد والسيدة. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ٩١).

وأما الفرنج فإنتهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائداً جداً^(١)، فجاؤوا إلى ترعة فأرسوا عليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان، وأحرق بهم عساكر الكامل، فلم يبق [لهم] وصول إلى دمياط؛ وجاء أسطول المسلمين فأخذوا مراكزهم، ومنعواهم أن تصل إليهم الجيرة من دمياط، وكانوا خلقاً عظيماً، وأنقطعت أخبارهم عن دمياط، وكان فيهم مائة كُند^(٢) وثمانمائة من الخيالة المعروفين ومليك عكا والدوك واللوكان نائب البابا؛ ومن الرجال ما لا يُحصى، فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح والرهائن، ويسلمون دمياط؛ فمن حرص الكامل على خلاص دمياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوا برقابهم؛ فبعث إليهم الكامل أبنته الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأبن أخيه شمس الملوك؛ وجاء ملوكهم إلى الكامل ممن سمينا، فالتقاهم وأنعم عليهم وضرب لهم الخيام^(٣).

(١) المراد زيادة ماء النيل في أيام الفيضان. وكان هذا الأمر عاملاً هاماً ساعد المسلمين في انتصارهم على الصليبيين في تلك المعركة. قال المقرئ في السلوك: ٢٤٣/١: «وكان الوقت في قوة الزيادة (أي زيادة النيل) فإنه كان أول ليلة من توت، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل. فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرق أكثر الأرض التي هم عليها، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها...».

(٢) الكُند: هو الكونت أو القومس. Count. Comte. وقد أورد هذا اللفظ بهذا المعنى العماد الكاتب الأصبهاني في كتابه البرق الشامي: «وقد وصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له أفلند، من أكر طواغيت الكفر». - البرق الشامي: ٥٢/٣.

(٣) الفقرة السابقة (والتي يمكن إدراجها تحت عنوان. انسحاب الصليبيين من دمياط ومعاهدة الصلح) مضطربة السياق وغير دقيقة في إيراد الحوادث والأعلام. ونعيد فيها يلي صياغتها تلخيصاً عن كتابي «الحروب الصليبية» لسيد علي الحريري، و«الحروب الصليبية كما رآها العرب» لأمين معلوف.

(... بعد استيلاء الصليبيين على دمياط قرر مجلس مشورتهم أن تكون دمياط تابعة للملك يوحنا دي بريانا ملك سوريا وعكا. ثم إنهم قرروا المسير إلى القاهرة ومحاصرتها. وكان على رأس القوات الصليبية الكردينال بيلاجيوس - وهو كردينال إسباني من أنصار الحرب المقدسة المعالين، وكان البابا قد عينه نائباً عنه وعلى رأس الحملة - واحتشد الصليبيون تجاه المنصورة، وكان عددهم إذ ذاك نحو مائتي ألف راجل وعشرة آلاف فارس؛ فخبرهم الملك الكامل بالصلح وعرض عليهم أن يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبله واللدقية وسائر الأماكن التي فتحها صلاح الدين، إلا الشوبك والكرك، لأنها أصحنا =

ووصل المعظم والأشرف في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلساً عظيماً في خيمة كبيرة عالية، وقد مدّ سماطاً عظيماً، وأحضر ملوك الفرنج، ووقف المعظم والأشرف والملوك في خدمته، وقام الحلّي^(١) الشاعر - رحمه الله تعالى - فأنشد: [الطويل]

هنيئاً فإنَّ السعد راح مخلداً وقد أنجز الرحمنُ بالنصر موعداً
حبانا إلهُ الخلق فتحاً بدا لنا مُبيناً وإنعاماً وعزّاً مؤبداً
تهلّل وجهُ الدهر بعد قُطوبِهِ وأصبح وجهُ الشُّرك بالظلم أسودا
ولمّا طغى البحرُ الخِضْمُ بأهله الـ طغاة وأضحى بالمراكب مُزبدا
أقام لهذا الدّين مَنْ سلّ سيفه صقيلاً كما سلّ الحُسام مجرداً

= ملكاً حاصلاً له نالها بالإرث من السلطان صلاح الدين. وطلب منهم بالمقابل أن يردوا دمياط وينسحبوا من القطر المصري وكان تقدير الصليبيين أن المسلمين في حالة ضعف، لذلك قرروا - بتحريض من بيلاجيوس - متاعمة القتال. وأرسلوا إلى الكامل بأنهم لا ينسحبون إلا بالحصول على تينك المدينتين (الشوبك والكرك) زيادة على المدن الأخرى المذكورة، يضاف إلى ذلك مبلغ ٣٠٠ ألف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى بهدم أسوار بيت المقدس. فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك، ثم نعثوا سرية من رحاطهم لتسير سراً من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سدّ ترعة المحلة. وكان النيل في عظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى أغرقت جميع الأراضي التي تفصل جيش الصليبيين عن دمياط، وأصبحوا على أرض مثل الجزيرة. ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط إلا طريق ضيق، فأمر السلطان بنصب الجسور عند أشمون طنّاح فعبرت العساكر عليها وملكت تلك الطريق. واضطرب الفرنج وضاعت عليهم الأرض. واتفق مجيء فرقة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة والأسلحة فقاتلتها شواني المسلمين وظفرت بها. عندها ندم الصليبيون على رفضهم المعاهدة السابقة وطلبوا من الملك الكامل الأمان على أن ينسحبوا من مصر دون مقابل. فقبل منهم الكامل في ٧ رجب سنة ١٢٢١/٥٦١٨م على أن يعطي كل من الفريقين رهائن، فأعطى الصليبيون الملك يوحنا دي بريانا ملك عكا والكردينال بيلاجيوس نائب البابا رهائن، وأعطى الكامل ابنه الملك الصالح، وكان سنه ١٥ سنة، وجماعة من الأمراء. ثم انسحب الصليبيون من دمياط وسائر أنحاء القطر المصري. بعد ذلك أرسل الصليبيون الملك الصالح ومن معه إلى أبيه فأرسل إليهم رهنهم). وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط إلى أن ألقوا عنها ثلاث سنين وأربعة أشهر و١٩ يوماً، منها مدة استيلائهم على المدينة ستة وعشرة أشهر و٢٤ يوماً. ثم سار الملك الكامل إلى مقر ملكه في القاهرة، وانتقل من دار الوزارة التي كانت إلى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القلعة

(١) شرف الدين راجح بن إسماعيل الحلّي. كان فاضلاً جيد النظم عذب الألفاظ حسن المعاني. توفي سنة ٦٢٢هـ. (فوات الوفيات: ٧/٢).

فلم يَنْجُ إِلَّا كُلُّ شَيْلُوٍ مَجْدَلٍ تَوَى مِنْهُمْ أَوْ مِنْ تَرَاهِ مَقِيدَا
 وَنَادَى لِسَانُ الْكُونِ فِي الْأَرْضِ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ فِي الْخَافِقِينَ وَمُنْشِدَا
 أَعْبَادَ عَيْسَى إِنَّ عَيْسَى وَحَزْبَهُ وَمُوسَى جَمِيعًا يَخْدُمُونَ مُحَمَّدَا
 وهذا من أبيات كثيرة .

قلت: صحَّ للشاعر فيما قصد من التورية في المعظم عيسى والأشرف موسى، لما وقفا في خدمة الكامل محمد، فله دره! لقد أجاد فيما قال^(١).

ووقع الصلح بين الملك الكامل وبين الفرنج في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب سنة ثمانين عشرة وستمائة، وسار بعض الفرنج في البرِّ وبعضهم في البحر إلى عكا، وتسلم الكامل دميّاط .

قلت: ويُعجبني قول البارِع كمال الدين^(٢) عليّ بن النّبِيه في مدح مخدومه الملك الأشرف موسى لما حضر مع أخيه المعظم إلى دميّاط في هذه الكائنة قصيدته التي أولها: [البسيط]

لِلدَّةِ الْعَيْشِ وَالْأَفْرَاحِ أَوْقَاتُ فَاَنْشُرْ لَوَاءً لَهُ بِالنَّصْرِ عَادَاتُ
 إِلَى أَنْ قَالَ مِنْهَا:

دِمِيَّاطُ طُورٌ وَنَارُ الْحَرْبِ مَوْقَدَةٌ وَأَنْتَ مُوسَى وَهَذَا الْيَوْمُ مِيْقَاتُ
 أَلْتِي الْعَصَا تَتَلَقَّفُ كُلَّ مَا صَنَعُوا وَلَا تَخَفُ مَا حَبَّالُ الْقَوْمِ حَيَّاتُ

وهي قصيدة طويلة مثبتة في ديوان ابن النبيه .

قال أبو المظفر: قال فخر الدين ابن شيخ الشيوخ: لما حضر الفرنج دميّاط صعد

(١) وجاء في شفاء القلوب: وقيل إن البيت الأخير للشاعر شرف الدين جبارة (علي بن اسماعيل بن جبارة المتوفى سنة ٦٣٢هـ) من قصيدة أولها:

«أبى الوجد إلا أن أبيت مُسَهَّداً»

(٢) هو كمال الدين علي بن يوسف بن النبيه، صاحب ديوان رسائل الملك الأشرف موسى بن العادل توفي سنة ٦١٩هـ . (فوات الوفيات وشذرات الذهب)

الكامل على مكان عالٍ، وقال لي: ما ترى ما أكثر الفرنج! ما لنا بهم طاقة؛ فقلت: أعوذ بالله من هذا الكلام؛ قال: ولم؟ قلت لأنّ السعد [موكل] (١) بالمنطق، قال: فأخذت الفرنج دُمياط بعد قليل، فلما طال الحصار صعد يوماً على مكان عالٍ، وقال: يا فلان، ترى الفرنج ما أقلهم! والله ما هم شيء؛ فقلت: أخذتهم والله؛ قال: وكيف؟ قلت: قلت في يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فأخذوا دُمياط، وقد قلت اليوم: كذا، والملوك منطّقون بخير وشر؛ فأخذ دُمياط بعد قليل». إنتهى. وقد تقدّم ذكر الكامل في أوائل الترجمة من قول جماعة من المؤرخين، ويأتي أيضاً - من ذكره في السنين المتعلّقة به - نبذة كبيرة، إن شاء الله تعالى. والله الموفق لذلك بمنه وكرمه.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة ست عشرة وستمائة.

وقد تقدّم أنّ الكامل كان ولي مصر في حياة والده العادل سنين عديدة فلا عمدة بولايته تلك الأيام، فإنه كان كالنائب بمصر لأبيه العادل، ولا عبرة إلا بعد استقلاله بسلطنة مصر بعد وفاة أبيه.

فيها (أعني سنة ست عشرة وستمائة) أخرج الملك المعظم عيسى صاحب دمشق القدس، لأنّه كان توجه إلى أخيه الملك الكامل صاحب الترجمة في نوبة دمياط في المرّة الأولى، فبلغه أن الفرنج على عزم أخذ القدس، فاتفق الأمراء على خرابه؛ وقالوا: قد خلا الشام من العساكر، فلو أخذ الفرنج القدس حكموا على الشام جميعه. وكان بالقدس [أخوه] العزيز عثمان، وعز الدين أيّك أستاذار، فكتب إليهما المعظم بخرابه، فتوقفاً وقالوا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم ثانياً:

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

لو أخذوه لقتلوا كل من فيه وحكموا على الشام وبلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه. فشرعوا في خراب السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة عظيمة. وخرج النساء المخدّرات والبنات والشيوخ وغيرهم إلى الصخرة والأقصى وقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم، وفعلوا أشياء من هذه الفعال؛ ثم خرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأهاليهم، وما شكوا أن الفرنج تُصَبِّحهم، وأمتأت بهم الطُّرقات؛ فتوجّه بعضهم إلى مصر، [وبعضهم إلى الكرك]^(١)، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدّرات يُمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا؛ ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ونُهبت الأموال التي كانت لهم بالقدس، وبلغ ثمن القنطار الزيت عشرة دراهم، والرطل النحاس نصف درهم؛ وذم الناس المعظم؛ فقال بعض أهل العلم في ذلك: [مخلّع البسيط]

فِي رَجَبٍ حَلَّلَ الْحُمَيَّا وَأَخْرَبَ الْقُدْسَ فِي الْمَحْرَمِ

وقال القاضي مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي قاضي الطور^(٢) في خراب

القدس: [الطويل]

مررتُ على القدس الشريف مُسَلِّمًا	على ما تبقي من رُبوعِ كأنجمِ
ففاضت دموعُ العينِ مِنِّي صَبَابَةً	على ما مضى من عصرنا المتقدِّمِ
وقد رامِ عِلْجٌ أن يعقِّي رسومه	وشمَّرَ عن كَفِّي لثيمِ مُدَمِّمِ
فقلتُ له شُلَّتْ يمينُك خَلْهَا	لمعتبِرٍ أو سائلٍ أو مسلِّمِ
فلو كان يُفْدَى بالنفوسِ فديتهُ	بنفسي وهذا الظنُّ في كلِّ مسلمِ

وفيهما حجّ بالناس من العراق أقباش الناصري، ومن الشام مملوك الملك المعظم عيسى.

وفيهما تُوِّفِيَتْ سَتُّ الشَّامِ بِنْتُ الْأَمِيرِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبِ أَخْتِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يَوْسُفِ بْنِ أَيُّوبِ؛ كَانَتْ سَيِّدَةَ الْخَوَاتِمِ فِي زَمَانِهَا؛ كَانَتْ كَثِيرَةَ الْبِرِّ

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٢) كذا في الشذرات. وفي الأصل: «الغور».

والصدقات؛ كانت تعمل في دارها الأشربة والمعاجين والعقاقير كل سنة بألوف دنانير وتُفرِّقها على الناس، وكان بابها ملجأً للقاصدين؛ وكان زوجها ابن عمها الأمير ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، وهي أم حسام الدين [محمد بن عمر بن] (١) لاجين، وصاحبة الأوقاف والأربطة بدمشق وغيرها - رحمها الله تعالى - .

وفيهما تُوفِّي محمد بن زُنكي الملك المنصور صاحب سنجار؛ كان ملكاً عادلاً عاقلاً جواداً، خلف عدّة أولاد: سلطان شاه وزُنكي ومظفر الدين، وعدّة بنات. وكان من بيت مُلك وسلطنة.

وفيهما تُوفِّي عليّ بن القاسم بن عليّ بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ابن صاحب تاريخ دمشق. كان فاضلاً سمع الحديث وتفقه وسافر إلى بغداد، فلما عاد قُطِع عليه الطريق، فأصابه جراح فمات منه بعد أيام.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي العدل أبو منصور سعيد بن محمد بن سعيد الرزاز فجأة في المحرم. وأبو منصور عتيق بن أحمد في صفر. والعلامة أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن أبي البقاء العُكبري الضّرير في شهر ربيع الآخر، وقد قارب الثمانين. وأبو البركات داود بن أحمد بن محمد [بن منصور بن] ثابت (٢) بن مُلاعب الأزجيّ الوكيل في رجب، ولد في أول سنة آتنتين وأربعين. وأبو الفضل أحمد بن محمد بن سيدهم الأنصاريّ بن الهّراس الجابي (٣) في شعبان، وله أربع وثمانون سنة. وأبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن عليّ الأنباريّ الكاتب سبط قاضي القضاة أبي الحسن بن الدامغانيّ، وله تسعون سنة. وأبو يعلى حمزة بن السيّد بن أبي لُقمة الصّفّار في شهر رمضان، وهو أصغر من أخيه (٤). وأبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن مسعود [بن سعد بن عليّ] (٥) بن الناقد

(١) زيادة عن ابن الأثير

(٢) زيادة عن الذهبي .

(٣) في الذهبي : «الجابي» .

(٤) سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٢٣ هـ .

(٥) زيادة عن الذهبي .

المقرىء، ويقال: كان آخر من قرأ المصباح^(١) على مؤلفه الشهرزوري، مات في شوال عن ستّ وثمانين سنة. والخاتون ستّ الشام أخت الملك العادل في ذي القعدة. والعلامة افتخار الدين أبوهاشم عبد المطلب بن الفضل الهاشمي الحنفي بحلب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على

مصر

وهي سنة سبع عشرة وستمائة.

فيها قتل صاحب سنجار أخاه، فسار الملك الأشرف موسى أخو الملك الكامل هذا إليها، فأخذها وعوض صاحبها الرقة.

وفيها نزل الملك الأشرف المذكور على الموصيل نجدة لبدر الدين علي بن زين الدين، وعزم على قصد إربل، فبعث الخليفة من رده عن إربل وأصلح بينهما.

وفيها في شهر رجب كانت واقعة البرلس^(٢) بين الكامل صاحب الترجمة وبين الفرنج، ونصر الله الكامل وقتل منهم عشرة آلاف وغنم خيولهم وسلاحهم ورجعوا إلى دمياط مهزومين.

(١) «المصباح الزاهر في القراءات العشر البواهر» لأبي الكرم مبارك بن الحسن الشهرزوري المتوفى سنة ٥٥٥٠ (كشف الظنون).

(٢) كانت البرلس من الثغور المصرية القديمة الواقعة على شاطئ البحر المتوسط بين دمياط ورشيد، وإليها تنسب بحيرة البرلس الواقعة شمال مديرية الغربية. وأنشأ الأيوبيون فيها قلعة اشتهرت بين الأهالي باسم «البرج» ومن ذلك الوقت عرفت قرية البرلس باسم البرج. (محمد رمري).

وفيها عزل الملك المعظم عيسى صاحب دِمَشق المبارز المعتمد عن ولاية دمشق، وولّى عوضه عليها العزيز خليلاً.

وفيها كان أوّل ظهور التتار^(١) وعبورهم جِيحون؛ وكان أوّل ظهورهم من [ما] وراء النهر سنة خمس عشرة وستمائة. وقبل عبورهم جيحون قصدوا بُخَارَى وسَمَرْقَنْد، وقتلوا أهلها وسبّوهم، وحصروا خُوَارَزْم شاه، فانضمّ إليهم الخُطّاء، وصاروا تبعاً لهم.

وكان خُوَارَزْم شاه قد أخلى البلاد من الملوك، فلم يجدوا أحداً يردهم، ووصلوا في هذه السنة إلى الرِّيِّ وقَزْوِين وهَمْدَان، وقتلوا أهلها وأحرقوا مساجدها، ثم فعلوا بأدْرَبِيْجَان كذلك.

وفيها حجّ بالناس من العراق أقباش الناصريّ وقُتِل بمكّة، ولم يحجّ أحد من العجم بسبب التتار، وعاد الحجّ البغداديّ من على الشام. وحجّ بالناس من الشام المبارز المعتمد.

وفيها تُوفّي الملك الفائز إبراهيم ابن الملك العادل أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب أخو الملك الكامل صاحب الترجمة. وقد تقدّم أنّه كان يريد الثوب على أخيه الملك الكامل، وأتفق مع ابن المشطوب حتّى أخرجهما أخوه الملك المعظم عيسى من مصر؛ فمات الفائز بين سنجار والموصل، فحُمِل إلى سنجار ودُفِن بتربة عماد الدّين زَنْكِيّ والد السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، ومات وهو في عُنفوان شبيبته.

وفيها تُوفّي الأمير أقباش بن عبد الله الناصريّ. قال أبوالمظفر: «اشتراه الخليفة (يعني الناصر لدين الله) وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار،

(١) كتب ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧ هـ فصلاً مؤثراً تحت عنوان «ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام». وما جاء فيه:

«لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً لذكرها؛ فإنا أقدم إليه رجلاً وأخرى؛ فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذلك، فيا ليت أُمّي لم تلدي، ويا ليتي مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً...».

ولم يكن بالعراق أجمل صورةً منه، ثم قرّبه إليه ولم يكن يفارقه؛ فلما ترعرع ولاء إمرة الحاجّ والحرمين، وكان متواضعاً محبوباً إلى القلوب. قُتِلَ بمكة المشرفة في واقعة بين أشرف مكة، خرج ليُصلحَ بينهم فقُتِلَ. وكان قتله في سادس عشر ذي الحجة.

وفيها تُوفِّي الشيخ عبد الله بن عثمان بن جعفر بن محمد اليونيني، أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها «يونين». كان صاحب رياضات وكرامات ومجاهدات ومكاشفات، وكان من الأبدال. وكانت وفاته يوم السبت في العشر الأول من ذي الحجة — رحمه الله —.

وفيها تُوفِّي الشريف قتادة بن إدريس أبو عزيز الحسيني المكي أمير مكة. كان شيخاً عارفاً مُنصفاً نِقمةً على عبيد مكة المفسدين، وكان الحاجّ في أيامه في أمان على أموالهم ونفوسهم، وكان يُؤذّن في الحرم بـ «حيّ على خير العمل» على قاعدة الرافضة، وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله تعالى، ولا وطيء بساط الخليفة ولا غيره، وكان يُحمَلُ إليه من بغداد في كلّ سنة الذهب والخلع وهو بداره في مكة، وهو يقول: أنا أحقّ بالخلافة [من الناصر لدين الله] (١)، ولم يرتكب كبيرة فيما قيل. قلت: وأيّ كبيرة أعظم من الرّفُض وسب الصحابة! — رضي الله عنهم —.

وفيها تُوفِّي محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيّوب الملك المنصور صاحب حمّة. كان شجاعاً مُحبباً للعلماء والفضلاء، مات بحمّة ودُفِنَ بها. وقام بعده ولده الأكبر الملك الصالح الناصر قليج أرسلان. وجرى له مع الملك الكامل صاحب الترجمة أمورٌ وفصول.

وفيها تُوفِّي محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق الملك الصالح ناصر الدين صاحب آمد؛ كان شجاعاً عاقلاً جواداً مُحبباً للعلماء، وكان الأشرف يُحبّه، وجاء إلى الأشرف وخدمه غير مرّة؛ ومات بآمد في صفر. وقام بعده ولده مسعود، وكان مسعود

(١) زيادة عن الذهبي.

ضدَّ اسمه بخيلاً فاسقاً، حصره الملك الكامل هذا وظفّر به وأخذه إلى مصر وأحسن إليه؛ فكتب الروم وسعى في هلاك الكامل، فحبسه الكامل - لما سمع ذلك - في الجُبِّ^(١) مدّة ثم أطلقه، فمضى إلى التتار، وكان معه الجواهر والأموال فقتلته التتار، وأخذوا جميع ما كان معه.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي عبد الرحمن بن أحمد بن هديّة^(٢) الوراق في شهر ربيع الأول، وقد جاوز التسعين، وهو آخر من روى عن عبد الوهاب الأنماطيّ. وشيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبي الفتح عمر بن عليّ بن محمد بن حمويه في جمادى الأولى ذاهباً في الرسلية من الكامل بالموصل، وله أربع وسبعون سنة. وصاحب حمّة الملك المنصور محمد بن تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه. والزاهد الكبير الشيخ عبد الله اليونينيّ في ذي الحجة ببعلبك. وصاحب مكة قتادة بن إدريس الحسينيّ. وأبو الحسن المؤيد بن محمد بن عليّ الطوسيّ المقرئ في شوال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وثمانى أصابع.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب علي

مصر

وهي سنة ثمانى عشرة وستمائة.

فيها تُوفّي إسماعيل بن عبد الله أبوطاهر الأنماطيّ المحدث؛ كان إماماً فاضلاً سميع الكثير ولقي الشيوخ وحدث، وتُوفّي بدمش في شهر رجب وكان ثقةً.

(١) الجبّ: كان يوجد في قلعة الجبل بالقاهرة. وقد ردم. ومكانه اليوم المدفن الواقع غربي جامع سليمان

باشا المعروف بجامع سيدي سارية (محمد رمزي).

(٢) كذا في الذهبي. وفي الأصل: «هة الله».

وفيها تُوفِّي محمد بن خَلْف بن راجح المَقْدِسِيّ ويُلقَّب بالشهاب والد القاضي نجم الدين^(١)، كان زاهداً عابداً فاضلاً في فنون العلوم.

وفيها تُوفِّي محمد بن محمد الشيخ الإمام النحويّ التُّكْرِيْنِيّ؛ كان بارعاً في النحو والأدب والشعر. ومن شعره قوله: [مخلّع البسيط]

مَنْ كَانَ دَمَّ الرَّقِيبِ يَوْمًا فَإِنِّي لَلرَّقِيبِ شَاكِرٌ
لَمْ أَرْ وَجْهَ الرَّقِيبِ وَقْتًا إِلَّا وَوَجْهَ الْحَبِيبِ حَاضِرٌ

وله في مجنونة: [السريع]

أَمْسِيْتُ^(٢) مَجْنُونًا بِمَجْنُونَةٍ يَغَارُ مِنْ قَامَتِهَا الْغُضْنُ
فَمَنْ عَذِيرِي مِنْ هَوَى ظَبِيَّةٍ قَدْ عَشِقْتُهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ

قلت: وطريفُ قول الشيخ زَيْن الدِّينِ عمر بن الوَرْدِيّ - رحمه الله - في هذا المعنى: [مخلّع البسيط]

زَادُ جُنُونِي بِبَيْدِي جُنُونٍ مُعَذِّرٌ وَالْعِذَارُ زَيْنُ
قَالُوا بِهِ عَارِضٌ وَعَيْنٌ قَلْتُ وَبِي عَارِضٌ وَعَيْنُ

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي شهاب الدين محمد بن خَلْف بن راجح المَقْدِسِيّ في صفر، وله ثمان وستون سنة. وأبو محمد هبة الله ابن الخَضْر بن هبة الله [بن أحمد بن عبد الله]^(٣) بن طاوس في جُمادى الأولى، وله إحدى وثمانون سنة. وأبو نصر موسى ابن الشيخ عبد القادر الجِيلِيّ في جُمادى الآخرة. وأستشهد بهمذان خَلْقٌ بأيدي التتار، منهم: الإمام تقي الدين أبو جعفر محمد بن محمود بن إبراهيم الحَمَامِيّ الواعظ. وأبو عبد الله محمد بن

(١) سيذكرة المؤلف في حوادث سنة ٥٦٣٨ هـ.

(٢) جاء في حاشية ص ٢٥٢ من طبعة دار الكتب أن هذا الشعر هو لعمر بن مظفر بن الوادي كما في ديوانه المطبوع بالأستانة ص ٢٨٧. ورواية البيت الأول: «إني لمجنون... الخ».

(٣) زيادة عن الذهبي.

أحمد بن هبة الله الروذراوري^(١). وبهرة أبو روح [عبد المعز]^(٢) بن محمد الهروي. وبنيسابور أبو بكر القاسم بن عبد الله بن عمر بن الصفار. وأبو النجيب إسماعيل بن عثمان بن إسماعيل بن أبي القاسم القاريء الصوفي.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبعان.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب
على مصر

وهي سنة تسع عشرة وستمائة.

فيها ظهر جراد بالشام أكل الشجر والزرور والثمر ولم ير مثله.

وفيهما نُقلت رمة الملك العادل أبي بكر من قلعة دمشق إلى مدرسته^(٣) التي عند دار العقبيي، فدُفن بها.

وفيهما تُوفي مسمار بن عمر بن محمد الشيخ أبو بكر بن العويس البغدادي في شعبان بالموصل، وكان فاضلاً ثقة.

وفيهما تُوفي نصر بن أبي الفرج الفقيه الحنبلي؛ كان إمام الحنابلة بمكة، جاور بمكة سنين، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجم^(٤) ودُفن به، وكان صالحاً متعبداً لا يفتر عن الطواف.

(١) كذا في الذهبي، سببه إلى «روذراور» كورة قرب نهاوند من أعمال الجبال. وفي الأصل: «الروذباري» نسبة إلى «روذبار».

(٢) زيادة عن الذهبي

(٣) وهي المدرسة العادلية الكبرى، داخل دمشق شمالي الجامع بغرب، وشرقي الخانقاه الشهابية، وقبلي الجاروخية بعرب، وتجاه باب الظاهرية يفصل بينها الطريق. (الدارس في تاريخ المدارس: ٢٧١/١).

(٤) المهجم: بلد وولاية من أعمال زيد باليمن. (معجم البلدان).

وفيها تُوفِّي الأمير قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخو الملك الكامل محمد هذا. مات بالفيوم^(١) فنُقِل إلى القاهرة وُدُفن بها. الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي الحافظ أبو الفتوح نصر بن أبي الفرج البغداديّ ابن الحُصريّ المقرئ الحنبليّ في المحرم، وله ثلاث وثمانون سنة. والحافظ أبو الطاهر تقيّ الدين إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن المصريّ^(٢) ابن الأنماطيّ في رجب كهلاً. وأبو بكر مسمار بن عمر بن محمد بن العويس النيار بالموصل في شعبان. والقُدوة الشيخ عليّ [بن أبي بكر محمد بن عبد الله]^(٣) بن إدريس اليَعقوبيّ في ذي القعدة. وأبو سعد ثابت بن مشرف المعمار في ذي الحجة. أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ثلاث أذرع وسبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب
على مصر

وهي سنة عشرين وستمائة.

قال أبو شامة: ففيها عاد الملك الأشرف موسى من مصر [إلى الشام قاصداً بلاده بالشرق]^(٤)، فالتقاه أخوه المعظم عيسى وعرض عليه النزول [بالقلعة]^(٤)

(١) الفيوم: منطقة منخفضة تقع بالصحراء الغربية (الليبية) بمصر، ومساحتها حوالى ألفي كلم مربع؛ أحصبت أراضيها مياه النيل التي يحملها بحر يوسف. وأكثر أجزائها انخفاضاً الجرد الذي تغمره مياه بحيرة قارون. ومدينة الفيوم قاعدة محافظة الفيوم غربي محافظة بني سويف. (الموسوعة العربية الميسرة: ١٣٥٧) وانظر الحاشية التي كتبها الاستاذ محمد رمزي في ص ٢٥٤ من الجزء السادس، طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) كذا في تاريخ الإسلام وتذكرة الحفاظ للذهبي. وفي الأصل: «الأنصاري».

(٣) زيادة عن الذهبية.

(٤) زيادة من الذيل على الروصتين

فأمتنع، ونزل بجوسق والده العادل، وبدت الوحشة بين الإخوة الثلاثة [يعني الكامل محمداً صاحب الترجمة، والمعظم عيسى صاحب دمشق، والأشرف موسى صاحب خِلاط وغيرها]^(١). قال: ثم رحل الأشرف سَحراً على ضَمِير^(٢) ثم سار إلى حرّان، وكان [الأشرف]^(١) قد آستتاب أخاه شهاب الدين غازياً صاحب مَيّافارقين على خِلاط، [لَمَّا سافر إلى مصر]^(١) وجعله وليّ عهده، ومكّنه من بلاده؛ فسوّلت له نفسه العِصيان، وحسّن له ذلك الملك المعظم وكاتبه وأعانه، وكذا كاتبه صاحب إربل [والمشاركة]^(١)، فأرسل الأشرف إلى غازي المذكور يطلبه فأمتنع؛ فأرسل إليه: يا أخي لا تفعل، أنت وليّ عهدي والبلاد في حكمك فأبى؛ فجمع الأشرف عساكره وقصده، ووقع له معه أمور حتّى هزمه، ثم رَضِي عنه الأشرف حسب ما نذكره في السنة الآتية.

وفيهما كانت بين التتار الذين جاؤوا إلى الدُرْبند^(٣) وبين القَبْجاق^(٤) والروس وقعة هائلة، وصبر الفريقان أياماً، ثم أنهزم القَبْجاق والروس، ولم يسلم منهم إلا اليسير.

وفيهما تُوفّي عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدم بن نصر شيخ الإسلام موفّق الدين أبو محمد المَقْدِسِيّ الجَمَاعِيِّيّيّ الدمشقيّ الصالحيّ الحنبلي صاحب التصانيف. وُلِدَ بجماعيل في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسائة، وقرأ القراءات وأشتغل في صغره وسمِعَ من أبيه سنة ثيِّف وخمسين، ورحل إلى البلاد وسمِعَ الكثير، وكتب وصنّف وبرّع في الفقه والحديث، وأفتى ودرّس وشاع ذكره وَبَعْدَ صِيَّتِهِ. وكانت وفاته في يوم عيد الفطر، وله ثمانون سنة.

وفيهما تُوفّي عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن

(١) زيادة من الدليل على الروصتين.

(٢) ضمير: موضع قرب دمشق، وهو قرية وحصن في آخر حدود دمشق مما يلي السماوة (معجم البلدان).

(٣) الدرْبند أواب الأبواب: ممر وحصن في الطرف الشرقي من القوقاز والدرْبند اسمه الفارسي. وقد تحول الاسم تحت التأثير التركي إلى «الباب الحديدي» (دائرة المعارف الإسلامية: ٥/٥١٢).

(٤) القَبْجاق والقَبْجاق: جنس من الترك، مساكنهم الأصلية حوض نهر إرتش، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر إثل (الفلوفا) في جنوب روسيا الحالية، فعرفت تلك الجهة باسم القَبْجاق. (السلوك: ٦٦٣/٣، حاشية).

الحسين الإمام المفتي فخر الدين أبو منصور الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر شيخ الشافعية بالشام. ولد في سنة خمسين وخمسمائة، وسمع من عمه هبة الله، والحافظ أبي القاسم وجماعة آخر، وتفقه على حميه قطب الدين النيسابوري؛ وكان بارعاً مُفْتَنًا مدرساً فقيهاً عالماً محدثاً؛ وكانت وفاته في شهر رجب.

وفيها تُوفِّي ملك الغرب يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي السلطان المستنصر بالله الملقب بأمير المؤمنين، المكنى أبا يعقوب، القيسي المغربي صاحب بلاد المغرب؛ لم يكن في بني عبد المؤمن أحسن صورة منه، ولا أبلغ خطاباً، ولكنه كان مشغولاً بالذات؛ ومات وهو شاب في هذه السنة، ولم يخلف ولداً؛ فاتفق أهل دولته على تولية الأمر لأبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، فولي ولم يُحسن التدبير ولا المداراة. وكان مولد يوسف صاحب الترجمة في سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وأمه أم ولد رومية أسماها قمر، وكانت دولته عشر^(١) سنين وشهرين.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو سعد عبد السلام بن المبارك [بن عبد الجبار بن محمد بن عبد السلام]^(٢) بن الردغولي في المحرم، وله تسع وثمانون سنة. والعلامة فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن ابن عساكر الشافعي في رجب، وله سبعون سنة. والعلامة موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي شيخ الحنابلة في يوم الفطر، وله ثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً

سواء.

* * *

(١) في الأصل: «عشرين سنة وشهرين». وما أثبتناه يوافق جميع المصادر التي تتحدث عن المغرب.

(٢) زيادة عن الذهبي.

السنة السادسة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة إحدى وعشرين وستمائة .

فيها آسردَ الملك الأشرف موسى مدينة خِلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وأبقى عليه مياْفارقين، ورَضِي عنه بعد أمور وقعت بينهما، وقد تقدّم ذكر ذلك أيضاً .

وفيها ظهر السلطان جلال الدين بن خُوَارَزْم شاه بعد ما انفصل عن بلاد الهند وكرمان، وأستولى على أذربيجان وحكم عليها . وراسله الملك المعظم عيسى ليعينه على قتال أخيه الملك الأشرف موسى؛ ثم كتب المعظم أيضاً لصاحب إربل في هذا المعنى، وبعث ولده الملك الناصر داود إليه رهينةً .

وفيها آستولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل وأظهر أن الملك محمود بن القاهر^(١) قد تُوفِّي، وكان قد أمر بخنقه .

وفيها بنى الملك الكامل صاحب الترجمة دارَ الحديث الكامليّة بالقاهرة في بين القصرين، وجعل أبا الخطاب بن دحية شيخها .

وفيها قدّم الملك مسعود أفسيس (المشهور بأفسيس) على أبيه الملك الكامل من اليمن طائعاً، وعزّمه أخذ الشام من عمّه الملك المعظم عيسى، وقدّم لأبيه أشياء عظيمة، منها مائتا خادم .

قال ابن الأثير: وفيها عادت التتار من بلاد القَبْجاق ووصلت إلى الرّي، وكان من سلّم من أهلها قد عمّروها، فلم يشعروا إلاّ بقدم التتار بغتةً، فوضعوا فيهم السيف، ثم فعلوا بعيّدة بلاد آخر كذلك، فما شاء الله كان .

وفيها حدثت واقعه قبيحةً من الكرج، وهو أن الكرج - لعنهم الله - لم يبق

(١) كذا في الشذرات والذهبي . وفي الأصل: «الملك القاهر محمود» .

فيهم من بيت المُلك أحد سوى امرأة فملكوها عليهم: قال ابن الأثير: ثم طلبوا لها زوجاً يتزوجها وينوب عنها في المُلك، ويكون من بيت مملكة. وكان صاحب أُرزن الروم مُغيث الدين طُغرل شاه بن قِليج أرسلان بن مسعود بن قِليج أرسلان وهو من الملوك السُلجُوقِيَّة وله ولد، فأرسل إلى الكَرَج يخطب المَلِكَة لولده فامتنعوا، وقالوا: لا يملكننا مسلم، فقال لهم: إنَّ أبني يتنصَّر ويتزوجها، فأجابوا فتنصَّر وتزوج بها، وأقام عندها حاكماً في بلادهم، فنعوذ بالله من الخذلان! وكانت الملكة تَهْوَى مملوكاً، فكان هذا الزوج يسمع عنها من القبائح أشياء ولا يمكنه الكلام لعجزه، فدخل يوماً، فرآها مع المملوك، فأنكر ذلك، فقالت: إن رَضِيتَ بذا وإلا أنت أخبر بما أفعله معك!. [فقال: إنني لا أرضى بهذا]^(١) فنقلته إلى بلد [آخر]^(٢) ووكلت به مَنْ يحفظه وحجرت عليه؛ [وأرسلت إلى بلاد اللان]^(٣) وأحضرت رجلين ووصفا لها بحسن الصورة فتزوجت بأحدهما، وبقي معها داك يسيراً، ثم فارقت وأحضرت آخر من كُنْجَة وهو مُسلم، فطلبت منه أن يتنصَّر ويتزوجها فلم يفعل، فأرادت أن تتزوج [وهو مُسلم]^(٤) فقام عليها الأمراء ومعهم إيواني^(٥) مقدّمهم، وقالوا لها: فضحيتنا بين الملوك بما تفعلين! [ثم تريدن أن يتزوجك مُسلم، وهذا لا نمكّنك منه أبداً]^(٦)، والأمر بينهم متردد، والرجل الكُنْجِيّ عندهم [لم يُجبههم إلى الدخول في النُصرانيَّة]^(٧)، وهي تَهْوَاه. انتهى كلام ابن الأثير.

وفيها توفي فخر الدين أبو المعالي محمد بن أبي الفرج الموصليّ المقرئ ببغداد في شهر رمضان. وكان إماماً فاضلاً بارعاً في فنون. ومن شعره «مواليا»^(٨):

ساقٍ قمر بكفه شمسٌ ضحا قد أسكرني من راحتيه وصحا
لو أمكنني والراح في راحته في الحان شربت كفه والقدحا

قلت: ويعجبني في هذا المعنى قولُ أبي الحسن عليّ بن عبد الغنيّ الفهريّ

(١) زيادة عن ابن الأثير.

(٢) في ابن الأثير: «إيواني».

(٣) المواليا: نوع من النظم العامي من البحر البسيط، اشتهر في العصر العباسي.

الْقَيْرَوَانِيَّ الضَّرِيرَ المعروفَ بِالْحَضْرِيِّ الشَّاعِرَ المشهورَ، ووفاته سنة ثمان
[وثمانين] (١) وأربعمائة، وهما: [الوافر]

أقول له وقد حيا بكأس لها من مسك ريقته ختام
أمن خديك يُعصر قال كلاً متى عُصرت من الورد المُدام

وفيها تُوفِّي القاضي أبو البركات عبد القوي بن عبد العزيز بن الجباب السعدي
في شوال، وله خمس وثمانون سنة. وكان عالماً بارعاً ديناً عفيفاً أفتى ودرّس سنين.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو جعفر
محمد بن هبة الله بن مكرم الصوفي ببغداد في المحرم. وأبو طالب عبد الرحمن بن
محمد بن عبد السميع الهاشمي المقرئ بواسط. وأبو العباس أحمد بن يوسف بن
محمد بن أحمد بن صرمي الأزجي في شعبان. وفخر الدين أبو المعالي محمد بن
أبي الفرج الموصلي البغدادي المقرئ في رمضان.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث
وعشرون إصباعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب

على مصر

وهي سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

فيها في شهر ربيع الأول وصل السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه إلى
دقوقا (٢) فافتتحها بالسيف، وأحرق البلد ونهب أهلها، وفعل فيها ما لا تفعله الكفار
لكونهم شتموه ولعنوه على الأسوار؛ ثم عزم على قصد بغداد، فانزعج الخليفة
الناصر لدين الله وأستعد لقتاله وأنفق ألف ألف دينار في هذا المعنى.

(١) زيادة عن ابن حلكان والشذرات.

(٢) مدينة بين إربل وبغداد (معجم البلدان).

قال أبو المظفر: «قال لي الملك المعظم عيسى: كتب إلي جلال الدين يقول: تحضر أنت ومن عاهدني فنتفق حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب في هلاك المسلمين، وفي هلاك أبي، وفي مجيء الكفار إلى البلاد؛ ووجدنا كُتبه إلى الخُطأ وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل؛ فقال المعظم: فكتبت إليه: أنا معك على كلِّ أحدٍ إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين!». انتهى.

قلت: ثم وقع لجلال الدين المذكور في هذه السنة أمور ووقائع مع غير الخليفة من الملوك يطول شرحها. يأتي ذكر بعضها إن شاء الله.

وفيها تُوفِّي الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد ابن الخليفة المستضيء بالله أبي محمد الحسن ابن الخليفة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن الخليفة المقتفي بأمر الله أبي عبد الله محمد ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد الهاشمي العباسي البغدادي. وُلِدَ يوم الاثنين عاشر شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وبويع بالخلافة بعد موت أبيه المستضيء في أول ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة. وأمّه أم ولد تركية.

قال الشيخ شمس الدين: «وكان أبيض اللون تُركي الوجه مَليح العينين، أنور الجبهة، أفنى الأنف، خفيف العارضين، أشقر اللحية رقيق المحاسن. كان نَقْشُ خَاتَمِهِ: «رجائي من الله عفوهُ». لم يَلِ الخلافة قبله أحد من بني العباس أطول مدّة منه، إلا ما ذكرنا من خلفاء العبيدية المستنصر معدّ» انتهى.

وفي أيام الناصر لدين الله ظهرت الفتوة^(١) ببغداد ورَمِيَ البندق^(٢) ولعبُ الحَمَام المناسيب، وأفتنّ الناس في ذلك، ودخل فيه الأجلَاء ثم الملوك؛ فألبسوا الملك العادل ثم أولادَه سراويل^(٣) الفتوة، ولبسها أيضاً الملك شهاب الدين صاحب

(١) ذكر جرجي زيدان (تاريخ التمدد الإسلامي ١٨٠/٥ - ١٨١) سذة عن الفتوة والبندق وسراويل الفتوة في باب. ألعاب الخلفاء وملاهيهم.

قال: «البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها، وهي فارسية تلفظها واستعمالها، ويسمونها أيضاً الجلاهق. واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام الخليفة عثمان بن عفان... وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة، يخرجون إلى ضواحي المدن يتسابقون في =

عَزَّزَتْ والهند من الخليفة الناصر لدين الله، ولبسها جماعة آخر من الملوك. وأمَّا لعب الحَمَام فخرج فيه عن الحدِّ، يُحَكِّي عنه أنه لما دخلت التتار البلاد وملكوا من [ما] وراء النهر إلى العراق، وقتلوا تلك المقتلة من المسلمين، التي ما نُكِب المسلمون بأعظم منها، دخل عليه الوزير فقال له: آه يا مولانا، إنَّ التتار قد ملَّكت البلاد وقتلت المسلمين! فقال له الناصر لدين الله: دعني أنا في شيء أهمَّ من ذلك! طيرتي البلقَاء، لي ثلاثة أيام ما رأيتها! وفي هذه الحكاية كفاية إن صحَّت عنه. وكانت وفاته في سلخ شهر رمضان؛ وكانت خلافته سبعا وأربعين سنة. وبويع بعده لولده أبي نصر ولُقِّب بالظاهر بأمر الله، فكانت خلافة الظاهر المذكور تسعة أشهر ومات. حسب ما يأتي ذكره.

وفيها تُوفِّي السلطان الملك الأفضل عليّ بن آبن السلطان صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب في يوم الجمعة من شهر ربيع الأول من السنة، وهو الذي كان مَلِك الشام في حياة أبيه ثمَّ من بعده، ووقع له تلك الأمور مع أخيه

= رميه على الطير وسحوه، ويعدّون ذلك من قبيل الفتوة. ويغلب في رماة البندق أن يشتغلوا بتطير الحمام، ولهم زي خاص يمتار سراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة، وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة، حتى إذا أفضت الخلافة إلى الناصر لدين الله العباسي جعل لرمي البندق شأنًا، لأنه كان ولعاً به، وباللعب بالحمام المناسب. وكان يلبس سراويل الفتوة، وقد بلغ من رغبته في ذلك حتى جعل رمي البندق فناً، لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة، ويلبسون سراويلها، على أن يكون بينهم روابط وثيقة، نحو ما عند بعض الجمعيات السرية. وجعل الخليفة نفسه رئيس هذه الطائفة، يدخل فيها من يشاء ويحرم من يشاء. وكتب الناصر سنة ٦٠٧هـ إلى ملوك الأطراف الذين يعترفون بحلافته أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا سراويلها، وأن ينتسبوا إليه برمي البندق فأجابوه إلى ذلك. ومن أراد الانضمام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد، فيلبس الخليفة السراويل بنفسه. فبطلت الفتوة في البلاد جميعها، إلا من لبس سراويلها منه؛ ومنع الرمي بالبندق، إلا من ينتسب إليه. هذا ويرى البعض أن النظام الذي ابتدعه الخليفة الناصر العباسي أصل هيئات وجمعيات الفروسية الأوروبية في القرون الوسطى.

وذكر القلقشدي في صبح الأعشى: ٢٦٨/١٢ رسم لباس الفتوة في العصر المملوكي، كما أورد عدداً من نسخ تواقع بالفتوة وحاكمية رمي البندق (ص ٢٥٩ - ٢٧٤).

وانظر أيضاً «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي: ص ٣٧٩ - ٣٨٢.

وعمه العادل، وقد تقدّم ذكر ذلك كلّه؛ وتنقلت به الأحوال إلى أن صار صاحب سُمَيْسَاط، وبقي بها إلى أن مات في هذه السنة. وكان مولده بمصر في سلطنة والده سنة خمس وستين وخمسمائة. وكان فاضلاً شاعراً حسن الخطّ قليل الحظّ غير مسعود في حركاته - رحمه الله تعالى - - ومن شعره - ممّا كتبه إلى الخليفة لما خرج من دمشق، واتفق عليه الملك العادل عمّه والعزیز أخوه - : [البسيط]

مولاي إنّ أبا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حقّ علي
فانظر إلى حظّ هذا الاسم كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأوّل^(١)

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الواعظ أبو إسحاق إبراهيم بن المظفر بن إبراهيم بن البرزنيّ بالموصل في المحرم. والخطيب المفسّر فخر الدين محمد بن الخضر بن محمد بن تيمية الحرّاني في صفر. والملك الأفضل عليّ بن السلطان صلاح الدين بسُمَيْسَاط في صفر، وله سبع وخمسون سنة. وأبو الحسن عليّ بن أبي الكرم [نصر بن المبارك]^(٢) الجلال بن البناء بمكة في شهر ربيع الأوّل. وعبد المحسن خطيب الموصل ابن عبد الله بن أحمد الطوسي في شهر ربيع الأوّل. وقاضي القضاة بالقاهرة زين الدين عليّ ابن العلامة يوسف بن عبد الله بن بُنْدَار الدمشقيّ. والوزير الكبير صفّيّ الدين عبد الله بن عليّ الشيبّيّ ابن شُكْر بالقاهرة في شعبان. ومجد الدين أبوالمجد محمد بن الحسين القزوينيّ الصوفيّ بالموصل في شعبان. والناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بالله حسن بن المستنجد في سلخ شهر رمضان، وله سبعون سنة، وكانت خلافته

(١) وأورد ابن خلكان بين هذين البيتين بيتين آخرين هما:

وهو الذي كان قد ولّاه والده عليهما فاستقام الأمر حين ولي
فخالفاه وحلاً عقد بيعته والأمر بينهما والنصّ فيه جلي
قال: فجاء جواب الإمام الناصر وفي أوله
وإني كتابك يا ابن يوسف معلناً
غصبوا علياً حقّه إذ لم يكن
فابشر فإن عدّاً عليه حسابهم

(٢) زيادة عن الشذرات.

سبعاً وأربعين سنة. وفخر الدين محمد بن إبراهيم بن أحمد الفارسي الخبيري الصوفي بمصر في ذي الحجة، وله أربع وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وتسع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب

على مصر

وهي سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

فيها قدم الشيخ محيي الدين بن الجوزي إلى دمشق رسواً إلى الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، ومعه الخلع له ولإخوته أولاد العادل من الخليفة الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد العباسي المتولي الخلافة بعد وفاة والده الناصر لدين الله. [ومضمون رسالته طلب رجوع المعظم عن موالة ابن الخوارزمي] (١).

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي، قال لي الملك المعظم، قال خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي (يعني جلال الدين [بن] الخوارزمي وترجع إلى إختوك ونصلح بينكم؛ قال: فقلت لخالك: إذا رجعت عن [ابن] الخوارزمي وقصدني إختوتي تُجدوني؟ قال: نعم، فقلت: ما لكم عادة تُجدون أحداً! هذه كتب الخليفة الناصر لدين الله عندنا، ونحن على دمياط نكتب ونستصرخ به، فيجيب الجواب بأننا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا. قال: قلت: مثلي معكم كمثل رجل كان يخرج إلى الصلاة ويده عُكَّاز خوفاً من الكلاب، فقال له بعض أصدقائه: أنت شيخ كبير، وهذا العكاز يُثقلك، وأنا أدلك على شيء يُغنيك عن حمله، قال: وما هو؟ قال: تقرأ سورة يس عند خروجك من الدار، وما يقربك كلب، وأقام مدة فرأى الشيخ حامل العكَّاز، فقال له: أما قد علمتك ما يُغنيك عن حمله؟ فقال: هذا

(١) زيادة عن الذيل على الروضتين.

العُكَّاز لکلب لا يعرف القرآن. وقد آتفق إخوتي عليّ، وقد أنزلت [أبن] الحُوَارِزْمِيَّ على خِلاط، إن قصدني أخي الأشرف منعه؛ وإن قصدني أخي الكامل (يعني صاحب الترجمة) فأنا له. ثم أصطلح الإخوة بعد ذلك في السنة.

وفيها تُوفِّي كافور بن عبد الله شِبل الدولة الحُساميَّ خادم ستّ الشام بنت أيوب. كان عاقلاً ديناً صالحاً؛ بني مدرسته^(١) على نهر ثوراً بدمشق لأصحاب أبي حنيفة - رضي الله عنه - والخانقاه إلى جانب مدرسته. وكانت وفاته بدمشق في شهر رجب.

وفيها تُوفِّي الخليفة أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد الهاشميَّ البغداديَّ. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه في السنة الماضية فلم تطل مدته فيها، ووقع له شدائد إلى أن مات في شهر رجب؛ وأمه أمّ ولد. وكانت خلافته تسعة أشهر وأياماً، وكان مولده في المحرم سنة سبعين وخمسائة، وكان جميل الصورة أبيض مُشرباً بحُمرة حُلُوِّ الشمائل شديد القوي. أفضت الخلافة إليه، وله آنتان وخمسون سنة إلا أشهراً، فقيل له: ألا تنفسح؟ فقال: قد فات الزرع! فقيل له: يبارك الله في عمرك، فقال: مَنْ فتح دكاناً بعد العصر إيش يكسب! وكان خيراً عادلاً قطع الظلامات والمكوس، حتى قيل: إن جملة ما قطع من الظلامات والمكوس ثمانية آلاف دينار في كل سنة، وتصدّق في ليلة العيد بمائة ألف دينار. وسببه أنه لما ولي الخلافة وليّ الشيخ عماد الدين^(٢) ابن الشيخ عبد القادر الجيليّ القضاء، فما قبل عماد الدين إلا بشرط أن يُورث ذوي الأرحام، فقال له الخليفة: أعط كلّ ذي حقّ حقه وآتق الله ولا تثق بسواه؛ فكلمه القاضي أيضاً في الأوراق التي تُرفع إلى الخليفة؛ وهو أنّ حُرّاس الدروب كانت تُرفع إلى الخليفة في صبيحة كلّ يوم ما يكون عندهم من أحوال الناس الصالحة والطلحة، فأمر الظاهر بتبديل ذلك، وقال: أيّ فائدة في كشف أحوال الناس! فقيل

(١) وهي المدرسة الشبلية البرّانية، بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثوري (ثوري) - انظر المدارس في

تاريخ المدارس: ٤٠٧/١.

(٢) انظر حوادث سنة ٥٦٣٣هـ.

له: إن تركت ذلك فسدت أحوال الرعيّة، فقال: نحن ندعو لهم بالإصلاح. ثم أعطى القاضي المذكور عشرة آلاف دينار يفي بها ديون من في السجون من الفقراء، ثم فرّق بقية المائة ألف الدينار في العلماء والفقراء. ولما مات الظاهر تولى الخلافة بعده ولده المستنصر بالله أبو جعفر.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو المحاسن محمد بن السيد بن أبي لُقمة الأنصاري الصفار في شهر ربيع الأول عن أربع وتسعين سنة. وقاضي الشام جمال الدين يونس بن بدران القرشي المصري الشافعي في شهر ربيع الأول، ودفن بقرب القليجية^(١). وشمس الدين أحمد بن عبد الواحد المقدسي الملقب بالبخاري الفقيه المناظر في جمادى الآخرة، وله تسع وخمسون سنة. والتقي خزعل بن عسكر المصري النحوي اللغوي بدمشق. والمحاري (?). الزاهد أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب في جمادى الآخرة، وله تسعون سنة. والعلامة إمام الدين عبد الكريم بن محمد بن الفضل الرافعي القزويني صاحب الشرح^(٢). والظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله في رجب، وله ثلاث وخمسون سنة، وكانت خلافته عشرة أشهر. ويبيع بعده آبنه المستنصر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإصبع واحدة.

* * *

(١) في الأصل: «الصليجية» والتصويب عن الشذرات والدارس. قال في الدارس: ودفن بقاعته بداره بقرب القليجية الحنفية في رأس درب الريحان من ناحية الجامع قبلي الخضراء. ولترتبه شبك شرقي المدرسة الصدرية الحنبلية.

(٢) هو «فتح العزيز في شرح الوجيز للغزالي» في الفقه، أولعله «شرح مسند الشافعي». (الأعلام: ٥٥/٤).

السنة التاسعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة أربع وعشرين وستمائة

فيها عاد الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل إلى بلاده بعد أن صالح أخاه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، وكلاهما أخو الملك الكامل هذا. وفيها حجّ بالناس من الشام الشجاع [عليّ] ^(١) بن السلار، ومن ميفارقين الشهاب غازي ابن الملك العادل.

وفيها تُوفّي السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي الأيوبي صاحب الشام. قال أبو المظفر: وفيها تُوفّي الملك المعظم العالم الفقيه المجاهد في سبيل الله الغازي النحوي اللغوي. وُلد بالقاهرة سنة ستّ وسبعين وخمسائة، ونشأ بالشام وقرأ القرآن وتفقه على مذهب أبي حنيفة بجمال الدين الحَصِيرِيّ، وحفظ المسعودي، وأعتنى «بالجامع الكبير» ^(٢)، وقرأ الأدب [والنحو] ^(١) على تاج الدين الكِنْدِيّ ^(٣)، فأخذ عنه «كتاب» سيويه وشرحه الكبير للسيرافي، «والحجّة في القراءات» لأبي عليّ الفارسي «والحماسة»، وقرأ عليه «الإيضاح» ^(٤) لأبي عليّ حفظاً؛ ثم ذكر مسموعاته في الحديث وغيره إلى أن قال: وشرح الجامع الكبير، وصنّف الردّ ^(٥) على الخطيب، والعروض، وله «ديوان شعر». قال: وكان شجاعاً مقداماً كثير الحياء متواضعاً مليحاً

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية

(٢) الجامع الكبير في فقه الحنفية للإمام المجتهد أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة ٢١٧ هـ.

(٣) ذكره المؤلف في حوادث سنة ٦١٣ هـ.

(٤) الإيضاح في النحو لأبي عليّ الفارسي المتوفى سنة ٢٧٧ هـ.

(٥) هو كتاب «السهم المصيب في الردّ على الخطيب» والخطيب هو: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، وكتابه «تاريخ بغداد». وقد ردّ عليه لأنه وجد فيه مطاعن على أبي حنيفة. وكان الملك المعظم حنفيّاً، وقد انفرد بذلك عن بني أيوب، فإنهم كانوا كلهم شافعية. وعوتب في ذلك فقال: أما ترضون أن يكون فيكم واحد مسلم؟

الصورة ضُحُوكاً غَيْرَ جَوَاداً حَسَنَ السَّيْرَةِ. وأطلق أبو المظفر عِنانَ القلم في مِيدَانِ محاسنه حتى إنه ساق ترجمته في عِدَّةِ أوراق في مرآة الزمان.

قلت: ويحقُّ له ذلك، فإنَّ المعظَّم كان في غاية ما يكون من الكمال في عِدَّةِ علوم وفنون، وهو رجل بني أيوب وعالمهم بلا مدافعة، ومحاسنه أشهر من أن تُذكر. وكانت وفاته - رحمه الله - في ثالث ساعة من نهار الجمعة أول يوم ذي الحجَّة، ودُفِنَ بقلعة دِمَشق، ثم نُقِلَ بعد ذلك من قلعة دمشق ودُفِنَ مع والدته في القبة عند الباب^(١). وخلف عِدَّةُ أولاد: الملك الناصر داود، والملك المغيث عبد العزيز، والملك القاهر عبد الملك^(٢)؛ ومن البنات تسعاً، وقيل إحدى عشرة. وتولَّى ابنه الناصر داود دِمَشق بعده إلى أن أخذها منه عمه الملك الكامل صاحب الترجمة. وفيها تُوفِّيَ الملك جِنكزخان التركي، طاغية التتار وملكهم الأول الذي خرَّب البلاد وأباد العباد، وليس للتتار ذكر قبله.

قلت: هو صاحب «التورا» «واليسق»، وقد أوضحنا أمره في غير هذا الكتاب، وذكرنا أصله وأعتقاد التتار فيه وأشياء كثيرة. والتورا باللغة التركية هو المذهب، واليسق هو الترتيب، وأصل كلمة اليسق: سي يسا، وهو لفظ مركَّب من أعجميٍّ وتركيٍّ، ومعناه: الترتيب الثلاث، لأنَّ «سي» بالعجمي في العدد ثلاثة، و«يسا» بالتركي: الترتيب؛ وعلى هذا مشيت التتار من يومه إلى يومنا هذا، وانتشر ذلك في سائر الممالك حتى ممالك مصر والشام، وصاروا يقولون: «سي يسا» فثقلت عليهم فقالوا: «سياسة»^(٣) على تحاريف أولاد العرب في اللغات الأعجمية. ولما أن

(١) أي دفن بالقرب من والدته، عند باب القبة بالمدرسة المعظمية (نسبة إليه) بسفح جبل قاسيون بدمشق. (الدارس: ٤٤٦/١، وشفاء القلوب: ٢٨٥).

(٢) أشار صاحب شفاء القلوب إلى أن المعظم كان له ولد رابع مات صغيراً بعد والده بقليل. ولم يذكر اسمه.

(٣) ذهب المقرئزي إلى أن أصل الكلمة المغلي هو «ياسه» وليس «سي يسا» كما ورد هنا. قال القلقشندي: «والياسة هي مجموعة قوانين خننها (جنكزخان) من عقله وقررها من ذهنه، رتب فيها أحكاماً وحدد فيها حدوداً بما وافق القليل منها الشريعة المحمدية، وأكثرها مخالف لذلك؛ وقد سماها. الياسة الكبرى. وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزائنه تتوارث عنه في أعقابها وأن يتعلمها صغار أهل بيته. ومها: أن من زنى =

تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداريّ أحبّ أن يسلك في مُلكه بالديار المصرية طريقة جنكيزخان هذا وأمره، ففعل ما أمكنه، ورتب في سلطنته أشياء كثيرة؛ لم تكن قبله بديار مصر: مثل ضرب البوقات، وتجديد الوظائف، على ما نذكره - إن شاء الله تعالى - في ترجمته. وأستمرّ أولاد جنكيزخان في ممالكة التي قسمها عليهم في حياته، ولم يختلف منهم واحد على واحد، ومَشُوا على ما أوصاهم به، وعلى طريقته «التورا» و«اليسق» إلى يومنا هذا. إنتهى.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي داود بن مُعمر بن عبد الواحد بن الفاخر القرشيّ في رجب أو في شعبان، وله تسعون سنة. وطاغية التتار جنكيزخان في شهر رمضان. وقاضي القضاة بحرّان أبو بكر عبد الله بن نصر الحنبليّ، وله خمس وسبعون سنة. وأبو محمد عبد البرّ ابن الحافظ ابن العلاء الهمدانيّ برؤدراور في شعبان. والبهاء عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسيّ الحنبليّ الفقيه المحدث في ذي الحجة، وله تسع وستون سنة. والملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل في ذي القعدة، وله ثمان وأربعون سنة. وأبو الفرج الفتح بن عبد الله [بن محمد بن عليّ بن هبة الله]^(١) بن عبد السلام الكاتب في المحرم، وله سبع وثمانون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع أذرع^(٢) وأتتنا عشرة إصبعاً. هكذا وجدته مكتوباً، ولعلّه وهم من الكاتب.

* * *

= قتل، ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل، ومن بال في الماء قتل، ومن أعطي بضاعة فخر ثم أعطي ثانياً فخر ثم أعطي ثالثاً فخر قتل... الخ». قال المقرئزي: وأخبرني العبد الصالح الداعي إلى الله تعالى أبو هاشم أحمد ابن البرهان أنه رأى نسخة من الياسة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. (انظر صبح الأعشى: ٣١٤/٤، وخطط المقرئزي: ٢٢٠/٢).

(١) زيادة عن الشدرات.

(٢) في كنز الدرر: «١٦ ذراعاً و ١٠ أصابع».

السنة العاشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة خمس وعشرين وستمائة.

فيها نزل جلال الدين بن خُوَارَزْم شاه على خِلاط مرة ثانية، وهجم عليه الشتاء فرحل عنها إلى أذربيجان، وخرج الحاجب^(١) عليّ من خِلاط بالعسكر، فأستولى على خَوَيّ وسَلَمَاس وتلك النواحي، وأخذ خزائن جلال الدين المذكور وعاد إلى خِلاط، فقيل له: بشئ ما فعلت! وهذا يكون سبباً لهلاك العباد والبلاد، فلم يلتفت.

وفيها كان فراغ مدرسة^(٢) ركن الدين الفلكي بقاسيون دمشق.

وفيها تُوفي عبد الرحيم بن عليّ بن إسحاق سبط القاضي جمال الدين القرشيّ. كان إماماً عالماً فاضلاً غزير المروءة كثير الإحسان شاعراً مترسلاً، وكانت وفاته بدمشق في سابع المحرم. ومن شعره قوله في مליح بالحمام: [الطويل]

تجرّد للحمام عن قشر لؤلؤ وألّس من ثوب المحاسن ملبوساً
وقد زُين الموسى لتزيين رأسه فقلت لقد أوتيت سُؤلك يا موسى

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو المعالي أحمد ابن الخضر بن هبة الله بن طاوس الصوفيّ في رمضان. والمحدث محبّ الدين أحمد بن تميم اللبليّ^(٣). وأبو منصور أحمد بن يحيى بن البرّاج الصوفيّ الوكيل في المحرم. والعلامة أبو القاسم أحمد بن يزيد القرطبيّ آخر من روى بالإجازة عن

(١) هو الحاجب حسام الدين علي بن حماد، مملوك حسام الدين، متولي خِلاط للملك الأشرف قبض عليه الأشرف على يد مملوكه عز الدين أيبك ثم قتله سنة ٦٢٦ هـ. (عن ابن الأثير وابن خلدون)
(٢) وهي المدرسة الركنية بالصالحية. أنشأها الأمير ركن الدين منكورس الملوكي، عتيق فلك الدين سليمان العادلي. (الدارس: ١/١٩٠، ٣٩٨).

(٣) نسبة إلى «نبلّة» بالأندلس. وكانت نبلّة Niebla قاعدة كورة تحمل نفس الاسم تقع شمال كورة أكشونبة Ocsonoba. وهي على خمسين كيلومتراً عربي إشبيلية. والنسبة إليها: نَبْلِي، وبالأسبانية: nebulense (الحلة السيرة: ٢/١٨٠، حاشية: ٥).

شُرِّحَ في رمضان. وأبو عليّ الحسن بن إسحاق بن موهوب بن [أحمد]^(١) الجَوَالِيقِيّ في شعبان، وله إحدى وثمانون سنة. ونَفِيس الدين الحسن بن عليّ [بن أبي القاسم الحسين]^(٢) بن الحسن بن البُنّ الأَسَدِيّ في شعبان، وله ثمانٍ وثمانون سنة. والرئيس المنشئ جمال الدين عبد الرحيم^(٣) بن عليّ بن الحسين بن شيث القرشيّ الفَرَضِيّ بدمشق في المحرم، وكان كاتب المعظم. وأبو منصور محمد بن عبد الله بن المبارك البَنْدَنِيْجِيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وتسع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وخمس أصابع.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ستّ وعشرين وستمائة.

فيها أعطى الملك الكامل صاحب الترجمة بيت المقدس لملك الفرنج الأنبرور^(٣).

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) نشأ بقوص وولي ديوان الإنشاء بها، ثم بالإسكندرية ثم بالقدس. وبعد ذلك ولي كتابة الإنشاء للملك المعظم عيسى في دمشق. وهو صاحب كتاب «معالم الكتابة ومغانم الإصابات» وهو من المراجع الهامة في موضوع المراسيم والألقاب وترتيب ديوان الإنشاء والإدارات الرسمية في العصر الأيوبي. ويعادل في قيمته كتاب ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف: (انظر مقدمتنا لمعالم الكتابة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت).

(٣) هو فردريك الثاني دو هوهنستوفن ملك ألمانيا وصقلية، وأقوى ملوك الغرب في ذلك الوقت. وقد جاء على رأس الحملة الصليبية السادسة. والواقع أن الملك الكامل أعطاه القدس دون قتال. كما نصت المعاهدة بين فردريك والكامل على أن يعطى فردريك بالإضافة إلى القدس كلاً من بيت لحم والناصرية ونواحي صيدا وقلعة تبنين. ويحتفظ المسلمون بوجود لهم في قطاع الحرم الشريف. وأبرمت المعاهدة في ١٨ شباط سنة ١٢٢٩م. وبعد شهر حضر الامبراطور (الأنبرور) الى القدس التي كان الكامل قد أجل سكانها المسلمين باستثناء بعض رجال الدين المولجين بإمكانة العبادة الإسلامية. وقد كان لتسليم المدينة المقدسة

وفيها خرج الملك الكامل في صفر من مصر، ونزل تل العجول، وكان الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق كاتب عمه الملك الأشرف موسى بالحضور إلى دمشق، فوصل إليها ونزل بالنيرب؛ وكان عز الدين أيك قد أشار على الملك الناصر داود بمدارة عمه الملك الكامل محمد صاحب مصر فخالفه؛ وقال^(١) الناصر لعمه الأشرف في قتال عمه الكامل، فلم يلتفت الأشرف إلى كلامه؛ واجتمع الأشرف مع أخيه الملك الكامل وأتفقا على حصار دمشق. ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الأنبرور، فقامت قيامة الناس لذلك^(٢) ووقع أمور، وتسلم الأنبرور القدس؛ والكامل والأشرف على حصار دمشق، فلم يُقم الأنبرور بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا بعد أن أحسن إلى أهل القدس، ولم يُغَيِّر من شعائر الإسلام شيئاً.

وفيها سلم الملك الناصر داود إلى عمه الملك الكامل دمشق وعوضه عمه الكامل الشُّوبك، وذلك في شهر ربيع الآخر من السنة.

وفيها توفي أضييس المعروف بأفيس المنعوت بالملك المسعود بن الملك الكامل صاحب الترجمة؛ مرض بعد خروجه من اليمن مرضاً مزمناً، ومات بمكة ودفن بالمعلي^(٣) في حياة والده الملك الكامل، وكان معه من الأموال شيء كثير. وكان ظالماً جباراً سفاكاً للدماء قتل باليمن ثلاثاً لا تدخل تحت حصر، وأستولى على أموالهم. وكان أبوه الملك الكامل يكرهه ويخافه. ودام باليمن حتى سمع بموت عمه الملك المعظم عيسى، فخرج من اليمن بطمع دمشق، فمرض ومات. فلما سمع أبوه الملك الكامل بموته سرَّ بذلك، وأستولى على جميع أمواله.

= هذا الشكل صدقاً بين المسلمين الذين استعظموه. (انظر تفاصيل ذلك في السلوك للمقرزي: ٢٦٨/١، وابن الأثير. ٤٨١/١٠، والحروب الصليبية لسيد علي الحريري: ٢٤١، والحروب الصليبية كما رآها العرب: ص ٢٨١ - ٢٨٧ وفيه تفسير جيد لموقف الكامل والعلاقة الوطيدة التي جمعتها بالامبراطور فردريك الثاني).

(١) كذا هي عبارة الأصل.

(٢) وقد أخذ الناصر داود في التشنيع على عمه الكامل، وأمر سبط ابن الجوزي - وكان بالشام - أن يجمع الناس ويتكلم فيهم بهذا الأمر ففعل. (انظر شفاء القلوب: ٣١٢).

(٣) المعلي: جبانة مكة (ابن خلكان).

وفيها تُوفِّي الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صَصْرَى^(١) الشيخ الإمام أبو القاسم الدمشقيّ التغلبي. سمِعَ الحافظ ابن عساكر وغيره، وروى الكثير، وكان صالحاً ثقة - رحمه الله -.

الذين ذكر الذهبّي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو القاسم ابن هبة الله بن محفوظ بن صَصْرَى التُّغَلْبِيّ في المحرم، وقد قارب التسعين. وتُوفِّيت أمة الله بنت أحمد بن عبد الله بن عليّ الأَبْنُوسِيّ. وأبو الحسن محمد بن محمد بن أبي حَرْب التُّرْسِيّ الشاعر. والمهذب بن عليّ بن قُنَيْدَة^(٢) أبو نصر الأَزْجِيّ. والملك المسعود أقيس صاحب اليمن ابن الملك الكامل في جُمادى الآخرة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وثلاث أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصباعاً.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة سبع وعشرين وستمائة.

فيها أخذ السلطان جلال الدين بن خُوَارِزْم شاه مدينة خِلاط بعد حصار طويل أقام عليها عشرة أشهر، ولمّا بلغ صاحبها الملك الأشرف ذلك إستنجد بملك الروم وغيره من الملوك، وواقع جلال الدين الخُوَارِزْمِيّ المذكور وكسره بعد أمور، وقَتَلَ معظم عسكره، وأمتلأت الجبال والأودية منهم، وشبعت الوحوش والطيور من رممهم، وعظّم الملك الأشرف في النفوس.

(١) في ضبطها خلاف: جعلها بعض مترجميه بفتحين وراء مكسورة، وآخرون بفتح الصاد الأولى وضم الثانية وتشديد الراء وفتحها. وما أثبتناه عن الأعلام للزركلي الذي قدّم أسباباً لاعتماده هذا الضبط. (الأعلام: ٢/٢٢٥).

(٢) في الأصل: «ابن عبدة» وما أثبتناه عن طبعة دار الكتب المصرية.

وفيها تُوفِّي الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الشيخ أبو البركات زَيْن الأَمْنَاء المعروف بابن عساكر في ليلة الجمعة سابع عشر صفر، ودُفن عند أخيه فخر الدين؛ وكان فاضلاً محدثاً، سَمِع الكثير وَرَوَى تاريخ الحافظ ابن عساكر.

وفيها تُوفِّي فِتْيَان بن عَلِيّ بن فِتْيَان الأَسَدِيّ الحَرِيمِيّ المعروف بالشَّاعُورِيّ المَعْلَم الشاعر المشهور؛ كان فاضلاً شاعراً. خَدَم الملوك ومدحهم وعَلَّمَ أولادهم، وله ديوان شعر مشهور. قال الإِسْعَرِدِيّ: إِنَّه مات في هذه السنة. وقال ابن خَلْكَان: إِنَّه توفِّي سَحَر الثاني والعشرين من المحرّم سنة خمس عشرة وستمائة بالشَّاعُور، ودُفن [بمقابر]^(١) الباب الصغير، وقول ابن خَلْكَان هو الأَرَجح. إنتهى. ومن شعر الشَّاعُورِيّ في مدح أرض الزَّبْدَانِيّ من دِمَشق: [البسيط]

قد أجمد الخمرَ كانونٌ بكلِّ قدحٍ وأحمد الجمرَ في الكانون حين قدح
يا جنّة الزبّداني أنت مُسْفِرَةٌ بحسن وجهٍ إذا وجهُ الزمان كَلَح
فالثلج قطنٌ عليه السحبُ تَنَدِفُه والجوّ يحلّجه والقوس قوسٌ قُزَح

وله، وقد دخل الحَمَام وماؤها شديد الحرارة، وكان شاخ، فقال: [المتقارب]

أرى ماءَ حَمَامِكم كالحميم نكابد منه عَنَاءٌ وُوسَا
وعهدي بكم تسمطون الجداء فما بالكم تسمطون التيوسا

ومثل هذا قول بعضهم: [مخلع البسيط]

حَمَامِكم هذه حِمَامٌ وَقُوذُهَا النَّاسُ والحِجَارَةٌ
أعجبُ شيءٍ رأيتُ فيها طَهُورُهَا يَنْقُضُ الطَّهَارَةَ

ومن أحسن لغز سمعناه في الحَمَام: [الوافر]

وما ليلٌ يخالطه نهارٌ وأقمارٌ تصدُّ عن الشُّموسِ
وأنهارٌ على النيران تجري وأسلحةٌ تُسَلُّ على الرُّؤوسِ

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي زين الأَمْنَاء

(١) زيادة عن ابن خلكان.

الحسن بن محمد بن الحسن بن عَسَاكِر في صفر، وله ثلاث وثمانون سنة. والشرف راجح بن إسماعيل الجَلِيّ الشاعر. وعبد الرحمن بن عَتِيْق [بن عبد العزيز]^(١) بن صيلا المؤدَّب. وعبد السلام بن عبد الرحمن [ابن الأمين]^(١) عليّ [بن عليّ]^(١) بن سُكَيْنَة. وأبو المعالي محمد [بن أحمد]^(١) بن صالح الحنبليّ ببغداد. وفخر الدين محمد بن عبد الوهاب الأنصاريّ يوم عيد الأضحى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراعان سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة ثمان وعشرين وستمائة.

فيها ساق التتار خَلَف السلطان جلال الدين بن خُوَارَزْم شاه بعد أن واقعهم عدّة وقائع من بلاد تَبْرِيْز، فأنهزم بين أيديهم إلى ديار بكر، فقتل في قرية من أعمال مِيَاْفَارِقِينَ.

وفيها توفي بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيّوب، الملك الأمجد صاحب بعلبك. كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب أعطاه بعلبك عند وفاة أبيه سنة ثمانٍ وسبعين وخمسمائة، فأقام فيها خمسين سنة حتى حصّره الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيّوب وأخرجه منها، وساعده عليه ابن عمّه أسد الدين شيركوه صاحب حمص؛ فانتقل الملك الأمجد إلى الشام وسكنها حتى قتله بعض مماليكه غيلةً؛ وكان فاضلاً شاعراً فصيحاً كاتباً، وله ديوان شعر كبير. ومن شعره «دوبيت»^(٢):

(١) زيادة عن الشدرات.

(٢) دوبيت: لفظ مركب من كلمتين أولاهما «دو» فارسية بمعنى اثنين. وثانيتهما عربية تعني الوحدة الشعرية ويسميه العرب: الرباعي، لأن وزن شطر البيت فيه أربعة أفاعيل مختلفة. وهو ضرب من الشعر استحدثه العرب المولدون على وزن الشعر الفارسي المسمى «دوبيت» على وزن: (فعلن متفاعلن فعولن فعلن).

كم يذهب هذا العمرُ في الخُسران يا غفلتي فيه وما أنساني
ضيّعت زماني كلّه في لعبٍ يا عمرُ فهل بعدك عمرٌ ثانٍ
قلت: وما أحسنَ قولَ قاضي القُضاة شهاب الدين أحمد بن حَجَر^(١)
— رحمه الله — في هذا المعنى، وهو ممّا أنشدني من لفظه لنفسه — عفا الله عنه —
[الطويل]

خليليّ ولّى العمرُ منا ولم تُنبُ ونبوي فعّال الصالحاتِ ولَكِنّا
فحتّى متى نبيّنا بُيوتاً مَشِيدَةً وأعمارُنّا منا تُهدّدُ وما تُبني
وما ألطفَ قولَ السّراج^(٢) الورّاق — رحمه الله — وهو قريب ممّا نحن فيه:
[الكامل]

يا خَجَلتني وصحائفي سُوداً عَدتْ وصحائفُ الأبرارِ في إشراقِ
وفضيجتي^(٣) لمعنفٍ لي قائلُ أكذا تكون صحائفُ الورّاقِ
وفيها قُتِلَ السلطان جلال الدين بن خُوَارزَم شاه، وأسمه تُكش، وقيل محمود
ابن السلطان علاء الدين خُوَارزَم شاه؛ وأسمه محمد بن تكش، وهو من نسل
عبد الله بن طاهر بن الحسين، وجده تُكش هو الذي أزال مُلك السُلجُوقيّة. قُتِلَ
بديار بكر، كما ذكرناه في أوّل هذه السنة. ولَمّا قُتِلَ دخل جماعةٌ على الملك
الأشرف موسى فهنّؤوه بموته؛ فقال: تهنّوني به وفرحون! سوف ترون غيبة! والله
لتكوننّ هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخُوَارزَميّ إلا مثل
[السدّ]^(٤) الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج؛ فكان كما قال الأشرف. كان الخُوَارزَميّ
يقاتل التتار عشرة أيام بلياليها بعساكره، يترجلون عن خيولهم ويلتقون بالسيوف،
ويبقى الرجل منهم يأكل ويبول وهو يقاتل.

(١) انظر وفيات سنة ٨٥٢ هـ.

(٢) انظر وفيات سنة ٦٩٥ هـ.

(٣) في الأصل: «وتوقفي لموتح لي قائل» وما أثبتناه رواية فوات الوفيات

(٤) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

وفيها توفي المهذب [عبد الرحيم بن علي] ^(١) بن الدُّخْوَار الطيب؛ كان فاضلاً حاذقاً بعلم الطب أستاذ عصره، تقدّم على جميع أطباء زمانه، ومع هذا مات بسة أمراض مختلفة، ووقف داره وكتبه على الأطباء.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو نصر أحمد بن الحسين بن عبد الله بن النُّرسيّ البيّع في رجب، وله ثلاث وثمانون سنة. والملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك. ومحمد بن عمر بن حسين المقرئ الكُرديّ بدمشق. والمهذب عبد الرحيم بن عليّ رئيس الطب، ويعرف بالدُّخْوَار في صفر. وأبو الفضل عبد السلام بن عبد الله الدَّاهريّ ^(٢) الخفاف في شهر ربيع الأوّل عن ثنتين وثمانين سنة. وأبو الرضا محمد بن أبي الفتح المبارك ابن عصيّة الحربيّ في المحرم، وله ثلاث وثمانون سنة. والعلامة زين الدين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزَّواويّ النحويّ في ذي القعدة بمصر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراع واحدة ونصف إصبع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً

سواء.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة تسع وعشرين وستمائة.

فيها عاد التتار إلى الجزيرة وحرّان وقتلوا وأسروا وسبوا، وخرج الكامل صاحب الترجمة من مصر إلى أن وصل إلى ديار بكر واجتمع مع أخيه الأشرف موسى، واجتمعوا على دفع التتار؛ وكان أهل حرّان قد خرجوا لقتال التتار، فما رجع منهم إلا القليل. وعاد التتار إلى بلادهم بعد أمور صدرت منهم في حقّ

(١) زيادة عما سيأتي.

(٢) كذا في الشذرات. وفي الأصل: «الزاهري». والداهري. نسبة إلى الداهرية، من قرى بغداد.

المسلمين. فلما بلغ الكامل عَوْدُ التَّارِ نزل على مدينة آمِد ومعه أخوه الأشرف، وحاصرها حتَّى آستولَى عليها وعلى عِدَّة قِلاع.

وفيها تُوفِّي إسماعيل بن إبراهيم الشيخ شرف الدين الفقيه الحنفي وهو ابن خالة شمس الدين ابن الشَّيرازي. كان فقيهاً فاضلاً زاهداً عابداً ورِعاً وله تصانيف حسان، منها «مقدمة في الفرائض»؛ وكان بعث إليه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق يقول: أَفْتِ بِإِباحة الأَنْبذة، وما يعمل من ماء الرِّمان ونحوه، فقال: لا أفتح هذا الباب على أبي حنيفة! إنما هي رواية النوادر، وقد صحَّ عن أبي حنيفة أنه ما شربه قطُّ، وحديث ابن مسعود لا يصحَّ، وكذا ما يُروى عن عمر^(١) في إباحة شربه لا يثبت عنه. فعُضِب المعظم وأخرجه من مدرسة طَرْخان^(٢).

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو القاسم أحمد بن أحمد بن السَّمْدِي^(٣) الكاتب. والحافظ أبو موسى عبد الله ابن الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المَقْدِسِي في رمضان، وله ثمان وأربعون سنة. وعبد اللطيف بن عبد الوهاب بن الطَّبْرِي في شعبان. والعلامة موفَّق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البَغْدادِي النحوي الطيب في المحرم عن اثنتين وسبعين سنة. والزاهد الشيخ عمر بن عبد الملك الدِّيَنُورِي بقاسيون. وأبو حفص عمر بن كرم بن أبي الحسن الدِّيَنُورِي الحماصي في رجب، وله تسعون سنة. وأبو القاسم عيسى بن عبد العزيز بن عيسى المقرئ بالإسكندرية. والحافظ معين الدين أبو بكر محمد بن عبد الغني نُقْطَةُ الحنبلي في صفر كهلاً. أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وثمانية أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

* * *

(١) كذا في طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان. وفي الأصل: «عن محمد».

(٢) هي المدرسة الطرخانية بدمشق. ونسبتها إلى الأمير طرخان بن محمود الشيباني. أنشئت سنة ٥٢٥ هـ. (الدارس: ٤١٥/١).

(٣) سبة إلى السمّد، وهو الحبز الأبيض.

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة ثلاثين وستمائة.

فيها فتح الملك الكامل محمد صاحب الترجمة آيد، وأخرج منها صاحبها الملك المسعود بن مودود بعد حصار طويل؛ وتسلم منه جميع القلاع التي كانت بيده، وبقي حصن كَيْفَا عاصياً؛ فبعث الكامل أخاه الأشرف، وأخاه شهاب الدين غازياً، ومعهما صاحب آيد تحت الحوطة؛ فسألهم صاحب آيد في تسليم الحصن فلم يُسلموا البلد، فعذبه الأشرف عذاباً عظيماً، وكان يبغضه؛ ولا زال الأشرف يحاصر حصن كَيْفَا حتى تسلمها بعد أمور في صفر من السنة، ووجد عند مسعود المذكور خمسمائة بنتٍ من بنات الناس للفراش.

وفيها فتحت دارُ الحديث الأشرفية المجاورة لقلعة دمشق التي بناها الملك الأشرف موسى، وأملى بها ابنُ الصلاح^(١) الحديث، وذلك في ليلة النصف من شعبان، ووقف عليها الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيها توفي الوزير صفيي^(٢) الدين عبد الله بن علي بن شكر، وزير الملك العادل؛ وأصله من الدميرة، وهي قرية بالوجه البحري من أعمال مصر. وكان صفيي الدين المذكور وزيراً مهيباً عالماً فاضلاً له معرفة بقوانين الوزارة، وكانت عنايته مصروفة إلى العلماء والفقهاء والادباء، وكان مالكي المذهب. ومات بالقاهرة وهو على حُرْمته، وله بالقاهرة مدرسة^(٣) معروفة به.

(١) انظر حوادث سنة ٦٤٣ هـ.

(٢) ذكر المؤلف وفاته سنة ٦٢٢ هـ نقلاً عن الذهبي. وهنا يوافق رواية صاحب مرآة الزمان.

(٣) هي المدرسة الصحابية بالقاهرة (خطط المقرئ: ٣٧١/٢) ويشغل مكان هذه المدرسة اليوم منزلان متجاوران. البحري مهبا وقف الشيخ محمد ونس الفقي رقم ٨ شارع الوريير صاحب (المسمى خطأ باسم السلطان صاحب) وهذا الشارع كان يعرف قديماً باسم سوقة الصاحب، وكان فيه باب المدرسة، والقبلي منها هو منزل ورثة محمد أفندي علي حلوة رقم ٤ نزاق سعادة عطفة الست بيرم بشارع درب سعادة. وفي داخل هذا المنزل توجد بقايا قبة المدرسة المذكورة. (عن تعليقات الاستاذ محمد رمري)

وفيهما تُوفِّي الملك العزيز عثمان ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخو الملك الكامل هذا؛ وكان شقيقَ المعظم عيسى، وهو صاحب بانياس وتبنين والحصون، وهو الذي بنى الصُّبَيْبَةَ؛ ودام مالكاً لهذه القلاع إلى أن مات في يوم الاثنين عاشر شهر رمضان ببستانه بيت لها، وحُمِلَ تابوته فُدِّنَ بقاسيون عند أخيه الملك المعظم عيسى، وقد تقدّم أنه كان شقيقه.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي بهاء الدين إبراهيم ابن أبي اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي الشافعي في المحرم؛ ولي قضاء المَعْرَةَ خمسة أعوام. وأبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف الأزجي بالقدس في صفر. وأبو محمد الحسن ابن الأمير السيد علي بن المرتضى العلوي الحسيني في شعبان. وصفي الدين أبو بكر عبد^(١) العزيز بن أحمد بن عمر بن سالم بن محمد^(٢) بن باقا التاجر في رمضان، وله خمس وسبعون سنة. وصاحب الصُّبَيْبَةَ الملك العزيز عثمان بن العادل - رحمه الله - والعلامة عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المؤرخ في شعبان، وقد قارب ستاً وسبعين سنة. وصاحب إربل مظفر الدين كوكبوري ابن صاحب إربل أيضاً زين الدين علي بن بُكْتِكِين التُّرْكْمَانِي في رمضان. والوزير مؤيد الدين محمد بن محمد بن القمي ببغداد. وشرف الدين محمد بن نصر الله بن مكارم الدمشقي الشاعر الكاتب [المعروف بأبن عنين] في شهر ربيع الأول.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وست أصابع، وطال مكثه على الأراضي. والله أعلم.

* * *

(١) في الأصل: «أبو بكر بن عبد العزيز». والتصويب عن الشذرات.

(٢) زيادة عن الشذرات.

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر

وهي سنة إحدى وتلاثين وستمائة.

فيها اجتمع الملك الكامل صاحب الترجمة وإخوته وأسد الدين شيركوه صاحب حمص، وساروا ليدخلوا بلاد الروم من عند النهر الأزرق^(١)، فوجدوا الروم قد حفظوا الدربند^(٢)، ووقفوا على رؤوس الجبال وسدوا الطرق، فامتعت العساكر من الدخول؛ وكان الملك الأشرف صاحب دمشق يومئذ ضيق الصدر من أخيه الملك الكامل هذا، لأنه طلب منه الرقة فامتنع؛ وقال له: ما يكفيك كرسي بني أمية! فاجتمع أسد الدين شيركوه صاحب حمص بالأشرف وقال له: إن حكّم الكامل على الروم أخذ جميع ما بأيدينا فوق التقاعد، فلما رأى الكامل ذلك عبّر الفرات ونزل السويداء^(٣)، وجاءه صاحب خرّبرت^(٤)، وهو من بني أرتق، وقال له: عندنا طريق سهلة تدخل منها إلى الروم. فجهز الملك الكامل بين يديه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وابن أخيه الملك الناصر داود بن المعظم، والخدام صواباً، فجاءتهم عساكر الروم؛ وكان الناصر تأخر وتقدّم صواب في خمسة آلاف فارس، ومعه الملك المظفر صاحب حمّة، وقاتلوا الروم وأنهزموا؛ فعاد الملك الكامل إلى آمد. وكان أسير صواب وجماعة من الأمراء فأطلقهم الروم بعد أن أحسنوا إليهم.

وفيها قدّم رسول الأبرور الفرنجيّ على الملك الكامل بهدايا فيها دُبّ أبيض، وشعره مثل شعر السبع، ينزل البحر فيصعد بالسّمك فيأكله ومعه أيضاً طاووس أبيض.

(١) نهر بالشعر بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب (معجم البلدان).

(٢) راجع ص ٢٢٦، حاشية (٣). والدربند تعني الممر بين جبلين على وجه الإطلاق.

(٣) السويداء: بلدة في ديار مضر قرب حرّان بينها وبين بلاد الروم. (معجم البلدان).

(٤) خرّبرت: وترسم خرت برت وخربرت. وهي مدينة في وسط تركيا إلى الشرق. وهي خربوط وخربوت

وهو الاسم الأرمني للمدينة؛ وسماها العرب حصن زياد (بلدان الخلافة الشرقية: ١٤٩).

وفيها تُوفِّي الشيخ العارف المُسلِّك الزاهد شهاب الدين أبو حفص - وقيل أبو عبد الله - عمر بن محمد بن عبد الله بن عمّويه القرشيّ التيميّ البكريّ السُّهْرَوْرْدِيّ الصُّوفِيّ. وذكر الذهبيّ وفاته في سنة اثنتين وثلاثين وهو الأشهر. قلت: ومولده في شهر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسُّهْرَوْرْد، وقدم بغداد وهو أمرد، فصحب عمّه الشيخ أبا النجيب عبد القاهر^(١) وأخذ عنه التصوّف والوعظ وصحب أيضاً الشيخ عبد القادر الجيلي^(٢)، وسمع الحديث من عمّه المذكور وغيره، وروى عنه البرزالي^(٣) وجماعة كثيرة؛ وكان له في الطريقة قدم ثابتة ولسان ناطق، ووليّ عدّة رُبط للصوفيّة، ونفذه الخليفة إلى عدّة جهات رسولاً؛ وكان فقيهاً عالماً واعظاً مُفْتَناً مصنفاً، وهو صاحب التصانيف المشهورة، وأشتهر اسمه وقُصِدَ من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه على خَلْق من العصاة فتابوا، ووصل به خَلْق إلى الله تعالى، وكُفَّ بصره قبل موته.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: رأيتُه في سنة تسعين وخمسمائة يعظ برباط درب المقير على منبر طين، وعلى رأسه مئزر صوف؛ قال: وصنّف كتاباً للصوفيّة وسماه «عوارف المعارف». قال: وجلس يوماً ببغداد وذكر أحوال القوم وأنشد - رحمه الله تعالى وعفا عنه - : [البيسط]

ما في الصُّحَابِ أخو وجد نظارحُهُ حديثَ نَجْدٍ ولا صَبُّ نُجَارِيهِ

وجعل يردّد البيت ويطرّب، فصاح به شابّ من أطراف المجلس، وعليه قَبَاءٌ وكَلُوتة^(٤)؛ وقال: يا شيخ، لم تُسَطِّح وتتنقص القوم! والله إنَّ فيهم مَنْ لا يَرْضَى أن

(١) ذكره المؤلف في حوادث سنة ٥٦٣ هـ.

(٢) راجع حوادث سنة ٥٦١ هـ.

(٣) سبأتي ذكره في حوادث سنة ٦٣٦ هـ.

(٤) الكلوتة. وتجمع على كلوتات. وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة، وتسمى. كلفه، وكلفتاه، وكلفتته. يقول البعض إنها من أصل لاتيني، ويقول آخرون إنها معربة عن الفارسية وقد استحدثت سلاطين الأيوبيين لبس الكلوتة بمصر، فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمائم، ودواب شعورهم مرخاة تحتها. وكذلك كان يفعل أمراؤهم وجندهم ومماليكهم. (صبح الأعشى: ٦/٤، ٣٩) - وخطط المقريري. ٩٨/٢.

يجاريك، ولا يصل فهمك إلى ما يقول، هلاً أنشدت: [البيسط]

ما في الصّحاب وقد سارت حُمولُهم إلّا مُحبُّ له في الرُّكب محبوبٌ
كأنه يوسف في كلّ راحلةٍ والحيُّ في كلّ بيتٍ منه يعقوبُ!

فصاح الشيخ ونزل من على المنبر وقصده فلم يجده، ووجد موضعه حفرةً بها دمٌ ممّا فحَصَ برجليه عند إنشاد الشيخ البيت. إنتهى كلام أبي المظفر باختصار.

وفيها تُوفي الشيخ طي^(١) المصريّ مريد الشيخ محمد الفزاريّ؛ قدِم الشام وأقام مدةً بزاويته، وكان يغشاه الأكابر، وأنتفع بصحبته جماعة، وكان زاهداً عابداً، ودُفِن بزاويته^(٢) بدمشق.

وفيها تُوفي الشيخ عبد الله الأرميني الزاهد العابد الورع. كان رحّالاً سافر إلى البلاد ولقي الأبدال وأخذ عنهم، وكان له مجاهدات ورياضات وعبادات وسياحات، وكان في بداية أمره لا يأوي إلّا البراري القفار ويتناول المباحات؛ قرأ القرآن وكتاب القدوري في الفقه، وصحب رجالاً من الأولياء، وكان معدوداً من فقهاء الحنفية؛ وله حكايات ومناقب كثيرة. ومات في يوم الجمعة تاسع عشرين ذي القعدة، ودُفِن بسفح قاسيون، وقد جاوز سبعين سنة.

وفيها تُوفي العلامة سيف الدّين عليّ بن أبي عليّ بن محمد بن سالم المعروف بالسيف الأميديّ؛ كان إماماً بارعاً لم يكن في زمانه من يُجاريه في علم الكلام. قال أبو المظفر: وكان يُرمى بأشياء^(٣) ظاهرها أنّه كان بريئاً منها، لأنّه كان سريع الدّمعة، رقيق القلب سليم الصدر، وكان مقيماً بحماة وسكن دمشق، وكان بنو العادل: المعظم والأشرف والكامل يكرهونه لِمَا أشتهر عنه من الاشتغال بالمنطق

(١) في الأصل: «الشيخ علي المصري مريد الشيخ محمد الفرواني». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان، والدارس في تاريخ المدارس

(٢) ذكرها النعمي في المدارس باسم: الزاوية الطيبية.

(٣) قال في الشذرات: سبهو بمصر إلى دين الأوائل وكتبوا محضراً بإباحة دمه، فلما رأى بعضهم ذلك الإفراط، وقد حمل المحضر إليه ليكتب كما كتبوا كتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه والقوم أعداء له وخصوم

وعلوم الأوائل. ثم قال أبو المظفر بعد كلام آخر: وأقام السيف حاملاً في بيته إلى أن تُوفِّي في صفر، ودُفِن بقاسيون في تربته.

وفيها تُوفِّي كريم الدين الخِلاطِيُّ الأمير؛ كان أديباً لطيفاً حسنَ اللقاء ذا مُروءة. خدَم الأشرف والمعظَّم والكامل، وحج بالناس أميراً من الشام، وتُوفِّي بدمشق ودُفِن بقاسيون عند مغارة الجوع.

وفيها تُوفِّي الصلاح^(١) الإِرْبِلِيُّ، كان أديباً فاضلاً شاعراً؛ خدَم مظفرَ الدِّين صاحب إِرْبِل، ثمَّ أنتقل إلى خدمة الملك المغيـث بن العادل، ثمَّ خدَم الكامل وتقدَّم في دولته وصار نديمه؛ ثمَّ سَخِط عليه، لأنَّه بعثه رسولاً إلى أخيه المعظَّم فنُقِل عنه أنَّ المعظَّم آستماله، فحبسه الكامل في الجُبِّ^(٢) مدَّة سنتين، ثم رضي عنه وأخرجه. ومن شعره من قصيدة: [دوبيت]

من يوم فراقنا على التحقيق هذي كبدي أحق بالتمزيق
لو دام لنا الوصال أَلْفِي سنةٍ ما كان يفي بساعة التفريق

الذين ذكر الذهبِي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي إسماعيل بن علي بن إسماعيل بن ماتكين الجوهري في ذي القعدة، وله ثمانون سنة. ونجم الدين ثابت بن بادان التَّقْلِسِي الصُّوفِي شيخ الأَسَدِيَّة. وسِرَاج الدين الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد الزُّبَيْدِي الحنبلي في صفر، وله خمس وثمانون سنة. وزكريا بن علي بن حَسَّان العُلبِي في شهر ربيع الأول. والخادم طُغْرِيْل أتابك الملك العزيز ومدبّر دولته. والشيخ القُدوة عبد الله بن يُونُس الأَرْمَنِي. والسيف الأَمِدِي علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثُّعلبي في صفر، وله ثمانون سنة. والمحدث أبورشيد محمد بن أبي بكر الأصبهاني الغَزَالِي المقرئ. وأبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القُرْطُبِي في صفر بالمدينة. وأبو الغنائم المسلم بن أحمد المَازِنِي النَّصِيبِي في شهر ربيع الأول.

(١) صلاح الدين أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان الإربلي.

(٢) راجع بص ٢٢٢ من هذا الجزء، حاشية (١).

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث
أصابع.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن
أيوب على مصر

وهي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.

فيها خرجت عساكر الروم نحو آمد وحاصروها وأقاموا عليها أياماً، ثم نزلوا
السويداء فأخذوها.

وفيها كان الوباء العظيم بمصر حيث إنه مات في شهر نيف وثلاثون ألف
إنسان^(١). وفيها توفي عبد السلام بن المطهر بن عبد الله بن محمد بن [أبي]
عصرون. كان فقيهاً فاضلاً زاهداً إلا أنه كان مغرئاً بالنكاح؛ كان عنده نيف
وعشرون جارية للفراش. ومات بدمشق بقاسيون، وهو والد قطب^(٢) الدين
وتاج^(٣) الدين.

وفيها توفي صواب العادلي مقدم عسكر الملك الكامل الذي كانت الروم
أسرته في عام أول؛ وكان خادماً عاقلاً شجاعاً، وكان العادل والكامل يعتمدان عليه،
وكان حاكماً على الشرق كله من قبل الكامل.

وفيها توفي الشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن
المُرشد بن علي المعروف بابن الفارض الحموي الأصل، المصري [المولد و]^(٤)

(١) ذكر المقرئزي (السلوك: ١/٢٩١) في حوادث سنة ٦٣٢ هـ أن وباءً كثيراً استمر بمصر مدة ثلاثة أشهر،

فمات بالقاهرة ومصر خلق كثير، بلغت عدتهم زيادة على ١٢ ألفاً سوى من مات بالريف.

(٢) سيذكره في حوادث ٦٧٥ هـ.

(٣) سيذكره في حوادث ٦٩٥ هـ.

(٤) زيادة عن ابن حلكان.

الدار والوفاة الصالح الشاعر المشهور، أحد البلغاء الفُصحاء الأدباء. مولده في رابع ذي القعدة سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، وتُوفي بالقاهرة في يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى، ودُفن من الغد بسفح المقطم، وقبره معروف به يُقصد للزيارة. والفارض (بفتح الفاء وبعدها ألف وراء مكسورة وضاد معجمة)؛ وهو الذي يكتب الفروض على النساء والرجال. وهو صاحب النظم الرائق والشعر الفائق الغرامي. وديوان شعره مشهور كثير الوجود بأيدي الناس، وشعره أشهر من أن يذكر. فمن مقطّعات شعره قوله: [مجزوء الكامل]

وحياة أشواقِي إليّ كَ وحرمة الصبر الجميل
لا نَظَرْتُ^(١) عيني سوا كُ ولا صبوتُ إلى خليل

ومن قصائده — رحمه الله وعفا عنه — [الرمل]

سائق الأظعانِ يَطوي البيدَطيّ مُنِعْماً عَرَجَ على كُتبانِ طيِّ
وبذات الشَّيخِ عني إن مررُ تَ بِحَيٍّ من عُريبِ الجِرْعِ حيِّ
وتَلَطَّفَ وأجر ذِكرى عندهم عَلَهم أن يَنظُرُوا عَطْفاً إليِّ
قُلْ تَرَكْتُ الصَّبَّ فيكم شَبْحاً ما له مُمَّا بَرَاهِ الشُّوقُ فيِّ
خافياً عن عائدٍ لاح كما لاحَ في بُردِيهِ بعدَ النُّشْرِ طيِّ
صار وَصْفُ الضُّرِّ ذاتياً له عن عَناءِ والكلامِ الحيِّ ليِّ
كَهلالِ الشُّكِّ لولا أَنه أَنَّ عَينِي عَينُه لم تَتَأَيِّ
مثلُ مسلوبِ حياةٍ مثلاً صارَ في حُبِّكم مَلْسُوبَ حيِّ
مُسَبِّلاً للنَّأيِ طَرُفاً جاد إن ضَنَّ نَوءَ الطُّرْفِ إذ يَسْقُطُ خيِّ
بين أهليهِ غَريباً نازحاً وعلى الأوطانِ لم يَعطِفُه ليِّ
جامحاً إن سيمَ صبراً عنكم وعلىكم جانحاً لم يَتَأَيِّ
نَشَرَ الكاشِخُ ما كان له طاوي الكَشْحِ قُبيلِ النَّأيِ طيِّ
في هواكم رمضانَ عُمُرُهُ ينقضِي ما بين إحياءِ وطيِّ

(١) في ابن خلكان: «لا أبصرت».

صَادِيًا شَوْقًا لِيَصْدِي طَيْفِكُمْ
 حَائِرًا فِيمَا إِلَيْهِ أَمْرُهُ
 فَكَايُنٌ مِنْ أَسَى أَعْيَا الْإِسَى
 رَائِيًا إِنْكَارَ ضُرِّ مَسَّهُ
 وَالذِّي أَرْوِيهِ عَنْ ظَاهِرِ مَا
 يَا أَهْيَلِ الْوَدِّ أَنْتِي تُنْكِرُو
 وَهَوَى الْغَادَةَ عَمْرِي عَادَةً
 نَصَبًا أَكْسَبَنِي الشُّوقُ كَمَا
 [وَمَتَى أَشْكَو جِرَاحًا بِالْحَشَى
 عَيْنُ حُسَايِي عَلَيْهَا لِي كَوَتْ
 عَجَبًا فِي الْحَرْبِ أَدْعَى بِأَسْلًا
 هَلْ سَمِعْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ أَسَدًا
 سَهْمٌ سَهْمِ الْقَوْمِ أَشْوَى وَشَوَى
 وَضَعِ الْإِسَى بِصَدْرِي كَفُّهُ
 أَيُّ شَيْءٍ مُبْرَدٌ حَرًّا شَوَى
 سَقَمِي مِنْ سَقَمِ أَجْفَانِكُمْ
 أَوْعِدُونِي أَوْعِدُونِي وَامْطَلُوا
 رَجَعِ اللَّاجِي عَلَيْكُمْ آيَسًا
 أَبْعَيْنِيهِ عَمِّي عَنْكُمْ كَمَا
 أَوْ لَمْ يَنْهَ النَّهْيُ عَنْ عَذْلِهِ
 ظَلَّ يَهْدِي لِي هُدَى فِي زَعْمِهِ
 وَلِمَا يَعْذُلُ عَنْ لَمِيَاءِ طَو
 لَوْمِهِ صَبًّا لَدَى الْجَجْرِ صَبًّا
 عَاذِلِي عَنْ صَبْوَةِ عُذْرِيَّةِ

جِدًّا مُلْتَاحٍ إِلَى رُؤْيَا وَرِي
 حَائِرَ وَالْمَرْءَ فِي الْمِحْنَةِ عَي
 نَالٌ لَوْ يُغْنِيهِ قَوْلِي وَكَأَي
 حَذَرَ التَّعْنِيفِ فِي تَعْرِيفِ رِي
 بَاطِنِي يَزْوِيهِ عَنْ عَلِيَّيَ زِي
 نَبِي كَهْلًا بَعْدَ عَرْفَانِي فَنِي
 يَجْلُبُ الشَّيْبَ إِلَى الشَّابِّ الْأَحْيِ
 تُكْسِبُ الْأَفْعَالَ نَصَبًا لَامَ كِي
 زِيدَ بِالشُّكْوَى إِلَيْهَا الْجُرْحَ كَي (١)
 لَا تَعْدَاهَا أَلِيمُ الْكَيِّ كَي
 وَلَهَا مُسْتَبْسِلًا فِي الْحُبِّ كَي
 صَادَهُ لِحِطِّ مَهَاةٍ أَوْ طَبِي
 سَهْمُ الْحَاظِكُمْ أَحْشَايَ شِي
 قَالَ مَالِي حِيلَةٌ فِي ذَا الْهَوَى
 لِلشُّوَى حَشْوَ حَشَايَ أَيُّ شِي
 وَبِمَعْسُولِ الثَّنَايَا لِي دُوَي
 حُكْمُ دِينَ الْحَبِّ دِينَ الْحَبِّ لِي
 مِنْ رَشَادِي وَكَذَاكَ الْعَشْقُ غَي
 صَمٌّ عَنْ عَذْلِهِ فِي أَدْنِي
 زَاوِيًا وَجَهَ قَبُولِ النَّصْحِ زِي
 ضَلَّ كَمْ يَهْدِي وَلَا أَصْنَى لِعَي
 غَ هَوَى فِي الْعَدْلِ أَعْصَى مِنْ عَصِي
 بِكُمْ دَلَّ عَلَى جَجْرِ صَبِي
 هِيَ بِي لَا فِتْنَتَ هِيَ بِنَبِي

(١) زيادة من ديوانه.

ذابت الرُّوحُ أَشْتِيقاً فِهي بَعْدَ نَفَادِ الدَّمْعِ أَجْرَى عَبْرَتِي
 فَهَبُوا عَيْنِي مَا أَجْدَى الْبُكَاءِ عَيْنَ مَاءٍ فِهي إِحْدَى مُنِيَّتِي
 أَوْ حَشًّا سَالٍ وَلَا أَحْتَارُهَا إِنْ تَرَوُا ذَاكَ بِهَا مِنَّا عَلِيَّ
 بَلْ أَسِيئُوا فِي الْهَوَى أَوْ أَحْسِنُوا كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٌ مِنْكُمْ لَدَيَّ

وفيها تُوفِّي عيسى بن سِنَجَر بن بَهْرَام بن جَبْرِيل بن حَمَاد^(١) الشَّيْخُ الإِمَامُ
 الأديبُ البارِعُ حَسامُ الدِّينِ أبُو يحيى - وقيل: أبو الفضل - الإِزْبِلِيُّ المعروفُ
 بِالْحَاجِرِيِّ الشَّاعِرُ المَشْهُورُ. كانَ جَنْدِيًّا مِنْ أولادِ الأتراكِ. وكانَ أديباً فاضلاً ظريفاً
 فصيحاً، وله ديوان شعر مشهور، يغلب على شعره الرِّقَّةُ والانسجامُ.

قال ابن خَلِّكان - رحمه الله - : وكان صاحبي وأنشدني كثيراً من شعره،

فمن ذلك وهو معنى جيد في نهاية الجودة: [الكامل]

ما زال يحلف لي بكلِّ أليَّةٍ أَلَّا يَزَالَ مَدَى الزمانِ مِصاحِبِي
 لَمَّا جَفَا نَزَلَ العِذارُ بِخَدِّهِ فَتَعَجَّبُوا لِسوادِ وَجهِ الكاذِبِ

قال وأنشدني لنفسه أيضاً: [مجزوء الخفيف]

لَكَ خالٌ مِنْ فَوْقِ عَرِ شِ شَقِيقٍ قَدْ آسَتوى
 بَعَثَ الصُّدُغُ مُرْسَلاً يَأْمُرُ الناسَ بِالهُوى

إنتهى .

قلت: ومن شعره أيضاً: [الكامل]

لَكَ أَنْ تُشَوِّقَنِي إِلى الأوطانِ وَعَلِيَّ أَنْ أبْكِ بِدَمْعِي القانِي
 إِنَّ الأليَّ^(٢) رَحَلُوا غَداءَ مَحْجَرٍ مَلؤُوا القلوبَ لَواعِجِ الأَحْزانِ

(١) في ابن خلكان والشذرات. «ابن مُمَارَتَكِين».

(٢) في الأصل:

ملؤوا القلوب لواعج الأشجان

إن السدي رحلوا غداة المنحنى
 وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن ديوانه.

فلابعثنَّ مع النسيم إليهمُ شَكْوَى تَمِيلُ لها غصونُ البانِ
نزلوا برامة قاطنين فلا تَسَلُ ما حَلَّ بالأغصان والغزلانِ

وكانت وفاته في يوم الخميس ثاني شَوَّال، وتقدير عمره خمسون سنة. والحاجريّ (بفتح الحاء المهملة وبعد الألف جيم مكسورة وبعدها راء) وهذه النسبة إلى حاجر، وكانت بليدة بالحجاز. وسبب تسميته بذلك لأنه كان يُكثِر من ذكر الحاجر في شعره فسُمِّي بذلك.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي الحسن بن صباح بن حُسام المخزوميّ الكاتب في رجب، وله إحدى وتسعون سنة. وتقي الدين عليّ بن أبي الفتح بن ماسويه الواسطيّ في شعبان، وله ست وسبعون سنة. والأديب شرف الدّين عمر بن علي بن المرشد الحَمَوِيّ بن الفارِض بمصر في جُمادى الأولى. والزاهد العارف أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله التَّيْمِيّ الشُّهْرَوْرُدِيّ في أوّل السنة، وله ثلاث وتسعون سنة. وأبو عبد الله محمد بن عماد بن محمد الحرّانيّ التاجر في صَفَر بالإسكندرية، وله تسعون سنة. والقُدوة الزاهد غانم بن عليّ المقدسيّ. والقاضي العلامة بهاء الدين يوسف بن رافع بن تَمِيم الشافعيّ ابن شَدَّاد بحَلَب في صفر. وسيف الدولة محمد بن عَسَّان الحِمَصيّ في شعبان. وأبو الوفا محمود [بن إبراهيم بن سفيان]^(١) بن مُنْذَه التاجر بأصفهان شهيداً في خلق لا يُحْصَوْنَ بسيف التتار في شَوَّال. وأبوسعد محمد بن عبد الواحد المديني. وحُسام الدين عيسى بن سنجربن بَهْرَام الإربليّ المعروف بالحاجريّ الشاعر المشهور، قتله شخص في شَوَّال، وله خمسون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصباعاً.

* * *

(١) زيادة عن الشدرات

السنة الثامنة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، على مصر

وهي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.

فيها استعاد الكامل من الروم حرّان والرّها وغيرهما، وأخرب قلعة الرّها ونزل على دُنَيْسِر فأخربها ومعه أخوه الأشرف، وبينما هم في ذلك جاء كتاب بدر الدين لؤلؤ إلى الأشرف يقول: قد قطع التتار دجلة في مائة طُلب كل طُلب خمسمائة فارس، ووصلوا إلى سنجار، فخرج إليهم مُعين الدين بن كمال الدين بن مُهاجر فقتلوه على باب سنجار، ثم رجع التتار ثم عادت. فأمنهم الأشرف للتوجه إلى جهة الشرق.

وفي هذه السنة كان الطاعون العظيم بمصر وقراها، مات فيه خلق كثير من أهلها وغيرها حتى تجاوز الحد.

وفيها جاءت الخوارزمية إلى صاحب مَرِدِين فنزل إليهم وقاتلهم، ثم نزلوا نصيبين وأحرقوها، وفعلوا فيها أعظم ما فعل الكامل بدُنَيْسِر.

وفيها تُوفي الحسن بن محمد القاضي القيلوي، وقيلوية: قرية من قرى بغداد^(١). كان فاضلاً كاتباً، وُلد بالعراق سنة أربع وستين وخمسمائة، وكان كثير الأدب مليح الخط عارفاً بالتواريخ حسن العبارة متواضعاً، وكانت وفاته في ذي القعدة ودُفن بمقابر الصوفية عند المُنيبِع.

وفيها تُوفي أبو المحاسن محمد بن نصر [الدين بن نصر بن الحسين]^(٢) بن عَنِين الزرعي، أصله من حوران.

قال أبوالمظفر: «كان خبيث اللسان هجاء فاسقاً متهتكاً؛ عمِل قصيدة سماها: «مقراض الأعراض» خمسمائة بيت، لم يُفِلت أحد من أهل دمشق منها

(١) في معجم البلدان أن قيلوية قرية من نواحي مطرباذا.

(٢) زيادة عن ابن خلكان.

بأقبح هجو. ونفاه السلطان صلاح الدين إلى الهند، فمضى ومدح ملوكها وأكتسب مالا، وعاد إلى دمشق. ومن هجوه في السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - رحمه الله تعالى - قوله: [مخلع البسيط]

سلطاننا أعرجُ وكتابه	ذو عمش والوزير مُنحَدِبُ
وصاحبُ الأمر خُلُقُه شَرِسُ	وعارضُ الجيش داؤُه عَجَبُ
والدُّولعيُّ الخطيب معتكف	وهو على قشر بيضةٍ يثُبُ
ولابن باقًا وعظ يغرّ به الن	اس وعبد اللطيف مُحْتَسِبُ

ولمّا نُفِي كتب من الهند إلى دِمَشق: [الكامل]

فَعَلَامَ أَبعدتم أخوا ثقبَةٍ	لم يجترم ذنباً ولا سَرَقاً
انْفُوا المؤذّن من بلادكم	إن كان يُنْفَى كُلُّ من صَدَقاً

ولما عاد إلى دِمَشق هجا الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب بقوله:

[الخفيف]

إن سلطاننا الذي نَرْتَجِيه	واسعُ المال ضيقُ الإنفاقِ
هو سيف كما يُقال ولكن	قاطعٌ للُرُسوم والأرزاقِ

قال: واستكتبه الملك المعظم، وكان من أكبر سيئات المعظم. ومات عن إحدى وثمانين سنة». انتهى كلام أبي المظفر باختصار.

وقال آبن خلكان: «كان خاتمة الشعراء، لم يأت بعده مثله، ولا كان في أواخر عصره من يُقاس به، ولم يكن شِعْرُه مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد. ثم نعتَه بأشياء إلى أن قال: ولمّا ملك العادل دِمَشق كتب إليه قصيدته الرائية يستأذنه في الدخول إليها، ويصف دمشق ويذكر ما قاساه في الغربة؛ وقد أحسن فيها كلَّ الإحسان وأستعطفه كلَّ الاستعطاف، وأولها: [الكامل]

ماذا على طَيْفِ الأجيّة لو سَرَى وعليهم لو سامحوني في الكرى

ثم وصّف دمشق وقال:

فارقتهَا لا عن رضاً وهجرتهَا
أسعى لرزقٍ في البلاد مشتت
وأصون وجه مدائحي متقنماً
ومنها يشكو الغربة:

أشكو إليك نوى تماذى عمرها
لا عيشتي تصفو ولا رسم^(١) الهوى
أضحى عن الأخوى المريع محلاً
ومن العجائب أن يقيل بظلكم

فلما وقف عليها العادل أذن له في الدخول إلى دمشق، فلما دخلها قال:

[المتقارب]

هجوت الأكابر في جلق
وأخرجت منها ولكنني
ورعت الوضيع بسب الرفيع
رجعت على رغم أنف الجميع

وفيها توفي أبو الخطاب بن دحية المغربي. قال أبو المظفر: كان في المحدثين مثل ابن عنين في الشعراء، يثلب علماء المسلمين ويقع فيهم، ويتزيد في كلامه، فترك الناس الرواية عنه وكذبوه. وكان الكامل مقبلاً عليه، فلما أنكشف له حاله أعرض عنه، وأخذ منه دار الحديث وأهانته، فمات في شهر ربيع الأول بالقاهرة ودفن بقرافة مصر.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الجمال أبو حمزة أحمد بن عمر بن الشيخ أبي عمر المقدسي. وعفيف الدين علي بن عبد الصمد بن الرماح المصري المقرئ النحوي. وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة القلايسي الصوفي في شهر ربيع الآخر، وقد جاوز التسعين. والعلامة

(١) في الأصل: «ولا وجه الهوى». وما أثبتناه عن ديوانه وابن خلكان.

أبو الخطّاب عمر بن الحسن بن عليّ البلنّسيّ المعروف بابن دحية في شهر ربيع الأوّل عن سبع وثمانين سنة. والفخر محمد بن إبراهيم بن مسلم الإربليّ الصوفيّ بإربل في شوال أو شهر رمضان. وقاضي القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيليّ الحنبليّ في شوال.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وسبع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبعاً.

* * *

السنة التاسعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر ابن أيّوب على مصر

وهي سنة أربع وثلاثين وستمائة.

فيها نزلت التّار على إربل وحاصرتها مدّة حتّى أخذوها عنوةً، وقتلوا كلّ من فيها وسبّوا وفصّحوا البنات، وصارت الآبار والدُّور قبوراً للناس. وكان أيديكين مملوك الخليفة بالقلعة فقاتلهم، فنقبوا القلعة وجعلوا لها سرداباً وطُرُقاً، وقتل عندهم المياه حتّى مات بعضهم عطشاً، فلم يبق سيوى أخذها؛ فرحلوا عنها في ذي الحجة، وقد عجزوا عن حمل ما أخذوا من الأموال والغنائم.

وفيها استخدم الملك الصالح نجم الدين أيّوب ابن الملك الكامل – صاحب الترجمة – الخوّارزمية أصحاب جلال الدين، فأنضمّوا عليه وأنفصلوا من الروم؛ وسرّ والده الملك الكامل بذلك.

وفيها بدت الوحشة بين الأخوين، وسببها أن الأشرف طلب من الكامل الرقة وقال: الشرق كلّهُ صار له، وأنا أركب كلّ يوم في خدمته، فتكون الرقة برسم عليّ دوابي، فأبى الكامل وأغلظ في الجواب، فوعدت الوحشة بينهم بسبب ذلك^(١).

(١) في شفاء القلوب: ٣١٦ تفاصيل عن الخلاف بين الأخوين ومواقف الإخوة الآخرين.

وفيهما تُوفِّي الناصح عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهّاب الحنبليّ؛ وُلِدَ بدمشق ونشأ بها، وتفقه ووعظ وصنّف ودرّس بمدرسة ربّعة خاتون. ومات في غُرّة المحرّم.

وفيهما تُوفِّي السلطان الملك العزيز محمد ابن السلطان الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. كان صاحب حَلَب، ولِها بعد وفاة أبيه الظاهر. ومولده في ذي الحِجّة سنة تسع أو عشر وستمائة. وتُوفِّي والده وهو طفل، فنشأ تحت حجر شهاب الدين الخادم، فرتب شهاب الدين أموره أحسن ترتيب إلى سنة تسع وعشرين وستمائة. استقل الملك العزيز هذا بالأمر إلى أن تُوفِّي بحلب في شهر ربيع الأوّل. وكان حسن الصورة كريماً عفيفاً، ولم يبلغ أربعاً وعشرين سنة. ودُفِن بقلعة حَلَب، وإليه تنسب المماليك العزّيزية الآتي ذكرهم في عدّة أماكن.

وفيهما تُوفِّي كَيْقُبَاد السلطان علاء الدين صاحب الروم. كان عاقلاً شجاعاً مقداماً جَوَاداً، وهو الذي كسر الخُوَارَزْمِيّ وكسر الكامل وأستولى على بلاد الشرق. وكان الملك العادل زوجه ابنته فأولدها أولاداً؛ وكان عادلاً منصفاً مهيباً، ما وقف له مظلوم إلّا وكشف ظلامته، وكانت وفاته في شوّال.

قلت: وبنو قرمان^(١) ملوك الروم في زماننا هذا يزعمون أنّهم من نسل السلطان علاء الدين هذا - والله أعلم - .

الذين ذكر الذهبّي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي الملك المحسن أحمد ابن السلطان صلاح الدين في المحرّم، وله سبع وخمسون سنة. والخطيب أبو طاهر الخليل أحمد الجوسقيّ في شهر ربيع الأوّل. وأبو منصور سعيد بن محمد بن يسّ السفّار، وقد حجّ تسعاً وأربعين حجّة، في صفر. والحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكَلَاعِيّ البَلَنْسِيّ في ذي الحجة، وله سبعون

(١) قال ابن فضل الله العمري في كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف»: «وأما ملوكنا فأجل من لديهم منهم (أي من أمراء الأتراك ببلاد الروم) جماعة بني قرمان، لقرب ديارهم وتواصل أخبارهم، ولنكايتهم في متملك سيس (تفصل بين حلب والروم من جهة الساحل) وأهل بلاد الأرمن، واجتياحهم لهم من ذلك الجانب مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب.

سنة. والإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الحنبلي في المحرم، وقد نيف على الثمانين. ومفتي حرّان ناصر الدّين عبد القادر بن عبد القاهر بن أبي الفهم الحنبلي في شهر ربيع الأوّل عن اثنتين وسبعين سنة. وعليّ بن محمد بن جعفر بن كب المؤدّب. وكمال الدين عليّ بن أبي الفتح بن الكباري الطيب بحلب في المحرم. وسلطان الروم علاء الدين كيُقبأذ بن كيُخسرو بن قلع أرسلان السلجوقي في شوال. والحافظ أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر القطيعي في شهر ربيع الآخر عن تسع وثمانين سنة. والملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن [صلاح الدين] يوسف صاحب حلب بها في شهر ربيع الأوّل. ومحتسب دمشق الفخر محمود بن عبد اللطيف. وأبو الحسن مرتضى ابن أبي الجود حاتم بن المسلم الحارثي المصري في شوال. وأبو بكر هبة الله بن عمر بن الحسن القطان، وكان آخر من روى عن أمه كمال بنت عبد الله بن السمرقندي، وعن هبة الله الشبلي، عاش نيفاً وثمانين سنة. وياسمين بنت سالم بن عليّ بن البيطار يوم عاشوراء.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصباعاً.

السنة العشرون من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر

وهي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

وهي السنة التي مات الكامل المذكور في رجبها، وحكم ابنه العادل في باقيها حسب ما تقدّم [في] وفاة الكامل في ترجمته. وفيها أيضاً توفي الملك الأشرف موسى، ثم بعده أخوه الملك الكامل. وملك دمشق بعد موت الأشرف الملك الجواد بن الأشرف. على ما سيأتي ذكره [في] وفاة الأشرف في هذه السنة.

وفيها اختلفت الخوارزمية على الملك الصالح أيّوب بن الكامل، وأرادها

الْقَبْضُ عَلَيْهِ فَهَرَبَ إِلَى سِنْجَارَ، وَتَرَكَ خَزَائِنَهُ وَأَثْقَالَهُ، فَهَبُوا الْجَمِيعَ. وَلَمَّا قَدِمَ الصَّالِحُ سِنْجَارَ سَارَ إِلَيْهِ بَدْرُ الدِّينِ لَوْلُؤُ فِي ذِي الْقَعْدَةِ وَحَصَرَهُ بِهَا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الصَّالِحُ يَسْأَلُهُ الصَّلْحَ؛ فَقَالَ: لَا بُدَّ مِنْ حَمَلِهِ فِي قَفْصٍ إِلَى بَغْدَادَ، وَكَانَ لَوْلُؤُ [و]المشاركة يكرهونه وينسبونونه إلى التكبر والظلم؛ فاحتاج الصالح أن يبعث إلى الخُوَارَزْمِيَّةِ، وَهُمْ عَلَى حَرَّانَ يَسْتَنْجِدُهُمْ، فَسَاقُوا جَرِيدَةً مِنْ حَرَّانَ، وَكَبَسُوا لَوْلُؤًا، فَنَجَا وَحَدَّهُ، وَنَهَبُوا أَمْوَالَهُ وَخَزَائِنَهُ وَجَمِيعَ مَا كَانَ فِي عَسْكَرِهِ.

وَفِيهَا تُوفِّيَ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ أَبُو الْفَتْحِ مَظْفَرُ الدِّينِ مُوسَى شَاهِ أَرْمَنَ ابْنَ السُّلْطَانَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرِ ابْنَ الْأَمِيرِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ، أَخُو الْمَلِكِ الْكَامِلِ مُحَمَّدِ صَاحِبِ التَّرْجُمَةِ. وَأَوَّلُ شَيْءٍ مَلَكَهُ الْأَشْرَفُ هَذَا مِنَ الْقِيْلَاقِ وَالْبِلَادِ الرَّهْأَ فِي أَيَّامِ أَبِيهِ، وَآخِرُ شَيْءٍ دِمَشْقَ. وَمَاتَ بِهَا بَعْدَ أَنْ مَلَكَ قِيْلَاقَ دِيَارِ بَكْرِ سَنِينَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِهِ نَبْذَةٌ كَبِيرَةٌ فِي حَوَادِثِ دَوْلَةِ أَخِيهِ الْكَامِلِ، وَفِي غَزْوَةِ دِمْيَاطَ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمَوْلَدُهُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةَ بِقَصْرِ الزَّمْرَدِ^(١) بِالْقَاهِرَةِ قَبْلَ أَخِيهِ الْمَعْظَمِ عَيْسَى بَلِيلَةَ وَاحِدَةً، وَكَانَ مَوْلَدُهُمَا بِمَوْضِعٍ وَاحِدٍ - وَقِيلَ: كَانَ بِقَلْعَةِ الْكَرْكِ - وَالْأَوَّلُ أَشْهَرَ. وَكَانَ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ مَلِكًا كَرِيمًا حَلِيمًا وَاسِعَ الصَّدْرِ كَرِيمَ الْأَخْلَاقِ كَثِيرَ الْعَطَايَا، لَا يُوجَدُ فِي خَزَائِنِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ مَعَ اتِّسَاعِ مَمْلَكَتِهِ؛ وَلَا تَزَالُ عَلَيْهِ الدِّيُونُ؛ وَنَظَرَ يَوْمًا فِي دَوَاةٍ كَاتِبِهِ وَشَاعِرِهِ كَمَالِ الدِّينِ^(٢) عَلِيِّ بْنِ النَّبِيهِ الْمَصْرِيِّ فَرَأَى بِهَا قَلَمًا وَاحِدًا فَأَنكَرَ عَلَيْهِ، فَأَنشَدَ الْكَامِلَ بِدِيهَا «دُوْبِيَّتَ»:

قَالَ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ قَوْلًا رَشَدًا أَفْلَامُكَ يَا كَمَالَ قَلَّتْ عَدَدَا
جَاوِبْتُ لِعُظْمِ كَتَبٍ مَا تُطْلِقُهُ تَحْفَى فَتُقَطُّ فَهِيَ تَفْنَى أَبَدَا

وَلِكَمَالِ الدِّينِ ابْنَ النَّبِيهِ الْمَذْكُورِ فِيهِ غُرَّرَ الْمَدَائِحَ مَعْرُوفَةً بِمَخَالِصِ قِصَائِدِهِ

(١) قصر الزمرد. كان من حملة قصور الخلفاء الفاطميين داخل سور القصر الكبير. وقد عرف أيضاً بقصر قوصون الحجازية. (خطط المقرئ: ٤٠٤/١). ومحل اليوم جامع الحجازية وما يجاوره من الدور التي تحد من الشمال والغرب عطفة القفاصين، ومن الجنوب ديوان بوليس قسم الجمالية، ومن الشرق طهر الدور المشرفة على شارعي حيس الرحبة وبيت المال. (محمد رمزي).

(٢) كان صاحب ديوان رسائل الملك الأشرف. توفي سنة ٦١٩ هـ. (فوات الوفيات والشذرات).

في ديوانه، وتُسمّى الأشرقيّات. وكادت وفاة الأشرف في يوم الخميس رابع المحرم بدمشق، ودُفن بقلعتها؛ ثم نقل بعد مدّة إلى التربة التي أنشئت له بالكلاسة في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

وفيها تُوفّي يحيى بن هبة الله بن الحسن القاضي شمس الدين أبو البركات بن سنّاء الدولة؛ كان إماماً فقيهاً فاضلاً حافظاً للقوانين الشرعيّة؛ ولي القضاء بالبيت المقدس ثم بدمشق، وكان الملك الأشرف موسى يُحبّه ويثني عليه. ومات في ذي القعدة.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الأنجب بن أبي السعادات الحمّامي في شهر ربيع الآخر، وله نيّف وثمانون سنة. وأبو محمد الحسين بن عليّ بن الحسين بن رئيس الرؤساء في رجب. وقاضي حلب زَيْن الدّين أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسديّ ابن الأستاذ. وأبو المنجّا عبد الله بن عمر بن عليّ بن اللّتي القزّاز في جمادى الأولى، وله تسعون سنة. وأبو طالب عليّ بن عبد الله بن مظفرّ ابن الوزير عليّ بن طراد الزيّبيّ في رمضان. والرّضيّ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبار المقدسيّ المقرئ. وشيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرزّاق بن عبد الوهاب بن سكينّة في جمادى الأولى. والسلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل في رجب بدمشق، وله ستون سنة. وأبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطيب في شهر رمضان، وقد نيّف على التسعين، وهو آخر من حدّث ببغداد عن أبي الوقت. وشرف الدين محمد بن نصر المقدسيّ ابن أخي الشيخ أبي البيّان^(١) في رجب. والقاضي شمس الدين أبو نصر محمد بن هبة الله بن محمد ابن الشيرازيّ في جمادى الآخرة، وله ستّ وثمانون سنة. وخطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل الدوّليّ في جمادى الأولى، ودُفن بمدرسته^(٢) بجيرون، وله ثمانون سنة. ونجم الدين مكرم بن محمد بن حمزة بن أبي الصّقر القرشيّ السّفار في رجب، وله سبع وثمانون سنة.

(١) ذكره في حوادث سنة ٥٥١ هـ.

(٢) هي المدرسة الدولية. (انظر الدارس: ١٨٢/١)

والسلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل في المحرم، وله تسع وخمسون سنة. وقاضي القضاة شمس الدين يحيى بن هبة الله بن سناء الدولة في ذي القعدة، وله ثلاث وثمانون سنة، وهو من تلامذة القطب النيسابوري. والشهاب يوسف بن إسماعيل الحلبي بن الشَّوَّاء الشاعر المشهور.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع ونصف إصبع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً

سواء.

ذكر سلطنة الملك العادل الصغير^(١) على مصر

هو السلطان الملك العادل أبوبكر ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب الأيوبي المصري. وسبب تسلطه وتقدمه على أخيه الأكبر نجم الدين أيوب أنه لما مات أبوه الملك الكامل محمد بقلعة دمشق في رجب - حسب ما ذكرناه في أواخر ترجمته - كان ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب - وهو الأكبر - نائب أبيه الملك الكامل على الشرق وإقليم ديار بكر، وكان ابنه الملك العادل أبوبكر هذا - وهو الأصغر - نائب أبيه بديار مصر؛ فلما مات الكامل قعد الأمراء يشتورون فيمن يؤولون من أولاده فوق الاتفاق بعد اختلاف كبير - نذكره من قول صاحب المرأة - على إقامة العادل هذا في سلطنة مصر والشام، وأن يكون نائبه بدمشق ابن عمه الملك الجواد يونس، وأن يكون أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممالك الشرق على حاله، فتم ذلك وتسلطن الملك العادل هذا في أواخر سنة خمس وثلاثين وستمائة، وتم أمره ونعت بالعدل سيف الدين على لقب جدّه. ومولد العادل هذا بالمنصورة، والديه الملك الكامل على قتال الفرنج بدمياط في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمائة.

وقال العلامة شمس الدين يوسف بن قرأوغلي في مرآة الزمان: «ذكر ماجرى بعد وفاة الملك الكامل: إجتماع الأمراء وفيهم سيف الدين [علي]»^(٢) بن قليج،

(١) تمييزاً له عن جدّه العادل أبي بكر بن أيوب. ترجمته وأخباره في: السلوك: ٢٦٧/٢/١، وكنز الدرر: ٣٦٣/٧، والشذرات: ٢٣٦/٥، وشفاء القلوب: ٣٦٥، وابن حلكان: ٨٤/٥، والخطط القرظية: ٢٣٦/٢، وبدائع الزهور: ٢٦٨/١، ومفرج الكرب: ٣١٤/٣.

(٢) زيادة عن السلوك.

وعزّ الدّين أَيْبِك، والركن الهَيْجَاوِي، وعماد الدين وفخر الدين أبنا الشيخ، وتشاوروا وأنفصلوا على غير شيء؛ وكان الناصر داود (يعني ابن الملك المعظم عيسى) بدار^(١) أسامة، [فجاءه] الهَيْجَاوِي؛ وأرسل إليه عز الدين أَيْبِك يقول: أخرج المال وفرّقه في ممالك أَيْبِك المعظم والعوام معك، وتملك البلد وبقوا في القلعة محصورين فما أتفق ذلك؛ وأصبحوا يوم الجمعة في القلعة فحضر من سمينا [بالأمس]^(٢)، وذكروا الناصر والجواد - قلت: والناصر داود هو ابن المعظم عيسى، والجواد مظفر الدين يُونس هو ابن شمس الدين مودود بن العادل (أعني هما أولاد عم). إنتهى - .

قال: وكان أضراً ما على الناصر عماد الدين ابن الشيخ، لأنّه كان يجري في مجالس الكامل مباحثات فيخطئه فيها ويستجهله فبقي في قلبه؛ وكان أخوه فخر الدين يميل إلى الناصر؛ فأشار عماد الدين بالجواد، ووافقوا أمره، وأرسلوا الهَيْجَاوِي في يوم الجمعة إلى الناصر، وهو في دار أسامة، فدخل عليه وقال له: إيش قعودك في بلد القوم؟ قم فأخرج، فقام وركب [وجميع من في دمشق من دار أسامة إلى القلعة]^(٢) وما شك أحد أن الناصر لما ركب من دار أسامة إلا أنه طالع إلى القلعة، فلما تعدى مدرسة العماد الكاتب وخرج من باب الدّرب عَرَج إلى باب الفَرَج، فصاحت العامّة لا لا [لا]^(٢)؛ وأنقلبت دمشق وخرج الناصر من باب الفرج إلى القابون^(٣)، فوقع بهاء الدين بن بركيسو وعلمانه في الناس بالدبابيس، فأنكروا فيهم فهربوا. وأمّا الجواد فإنه فتح الخزائن وأخرج المال وفرّق ستة آلاف ألف دينار، وتخلع خمسة آلاف خلعة، وأبطل المكوس والخمور، ونفى الخواطيء. وأقام الناصر بالقابون أياماً، فعزموا على قبضه، فرحل وبات بقصر أم حكيم^(٤)، وخرج خلفه أَيْبِك الأشرفي ليمسكه، وعرف عماد الدين بن مُوسك فبعث إليه في

(١) هي دار الملك المعظم.

(٢) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٣) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل واحد في طريق القاصد إلى العراق وسط البساتين. (معجم البلدان)

(٤) قصر أم حكيم، بمرج الصمر من أرض دمشق.

السّر، فسار في الليل إلى عَجَلون، ووصل أَيْبِك إلى قصر أمّ حكيم، وعاد إلى دِمَشق.

وسار الناصر إلى غَزّة، فاستولى على الساحل؛ فخرج إليه الجوّاد في عسكر مصر والشام، وقال للأشرفيّة: كاتبوه وأطمعوه فكاتبوه وأطمعوه فأغترّ بهم، وساق من غَزّة في سبعمائة فارس إلى نابلس بأثقاله وخزائنه وأمواله، وكانت على سبعمائة جمل، وترك العساكر منقطعة خلفه، وضرب دِهليزَه على سَبَسْطية^(١)، والجواد على جَيْتَيْن^(٢) فساقوا عليه وأحاطوا به، فساق في نفر قليل إلى نابلس، وأخذوا الجمال بأحمالها والخزائن والجواهر والجنائب وأستغنوا غني الأبد، وأفتقر هو فقراً ما أفتقره أحد؛ ووقع عماد الدين بسَفَط صغير فيه اثنتا عشرة قطعة من الجوهر وفصوص ليس لها قيمة؛ فدخل على الجواد فطلبه منه فأعطاه إيّاه. وسار الناصر لا يَلُوي على شيء إلى الكَرَك. ثم وقع له أمور نذكر بعضها في حوادث العادل والصالح وغيرهما». انتهى.

ولما تمّ أمر العادل وتسلطن بمصر وأستقرّ الجواد بدمشق على أنه نائب العادل، وبلغ هذا الخبر الملك الصالح نجم الدين أبوب عَظْم عليه ذلك، كونه كان هو الأكبر، فقصده الشام بعد أمور وقعت له مع الخُوَارزْمِيَّة ومع لؤلؤ صاحب المَوْصِل؛ ثم سار الملك الصالح بعساكر الشرق حتّى وافى دمشق ودخلها في جُمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة، فخرج إليه الملك الجواد وألتقاه؛ وأتفق معه على مقايضة دِمَشق بسِنَجار وعانة، وسببه [ضَيْقُ]^(٣) عَطْن الجواد، [وعجزه عن القيام بمملكة الشام]^(٣) فإنّه كان يُظهر أنه نائب العادل بدمشق في مدّة إقامته، ثم خاف الجواد أيضاً من العادل، وظنّ أنه يأخذ دمشق منه، فخرج الجواد إلى البرّيّة وكاتب الملك الصالح المذكور حتّى حضر، فلما حضر آستأنس به وقايضه ودخلا

(١) سسْطية. قرية تقع على بعد ١٥ كلم إلى الشمال الغربي من مدينة نابلس (الموسوعة الفلسطينية: ٥٣٥/٢).

(٢) جيتين: قرية بلدة غزة (طبعة دار الكتب من النجوم، حاشية (٢)).

(٣) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

دِمَشق، وَمَشَى الْجَوَادُ بَيْنَ يَدَيْ الصَّالِحِ وَحَمَلَ الْغَاشِيَةَ مِنْ تَحْتِ الْقَلْعَةِ، ثُمَّ حَمَلَهَا بَعْدَهُ الْمَلِكُ الْمُظْفَرُ صَاحِبَ حِمَاةٍ مِنْ بَابِ الْحَدِيدِ^(١)، وَنَزَلَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ أَيُّوبَ بِقَلْعَةِ دِمَشق، وَالْجَوَادُ فِي دَارِ فَرخشاه؛ ثُمَّ نَدِمَ الْجَوَادُ عَلَى مَقَايِضَةِ دِمَشق بِسِنجَار، وَاسْتَدْعَى الْمُقَدَّمِينَ وَالْجُنْدَ وَاسْتَحْلَفَهُمْ، وَجَمَعَ الصَّالِحُ أَصْحَابَهُ عِنْدَهُ فِي الْقَلْعَةِ، وَأَرَادَ الصَّالِحُ أَنْ يَحْرِقَ دَارَ فَرخشاه، فَدَخَلَ أَبُو جَرِيرٍ^(٢) فِي الْوَسْطِ وَأَصْلَحَ الْحَالَ. ثُمَّ خَرَجَ الْجَوَادُ إِلَى النَّيْرَبِ، وَاجْتَمَعَ الْخَلْقُ عِنْدَ بَابِ النُّصْرِ^(٣) يَدْعُونَ عَلَيْهِ وَيَسُبُّونَهُ فِي وَجْهِهِ، وَكَانَ قَدْ أَسَاءَ السَّيْرَةَ فِي أَهْلِ دِمَشق. ثُمَّ خَرَجَ الصَّالِحُ مِنْ دِمَشق وَتَوَجَّهَ إِلَى خَرْبَةِ اللَّصُوصِ عَلَى عِزْمِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، فَكَاتَبَ عَمَّهُ صَاحِبَ بَعْلَبَكِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ بْنَ الْعَادِلِ، وَسَارَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمَ الدِّينِ إِلَى نَابُلُسَ فَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا وَعَلَى بِلَادِ النَّاصِرِ دَاوُدَ؛ فَتَوَجَّهَ النَّاصِرُ دَاوُدَ إِلَى مِصْرَ دَاخِلًا فِي طَاعَةِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ، فَأَكْرَمَهُ الْعَادِلُ وَأَقَامَ الصَّالِحُ بِنَابُلُسَ يَنْتَظِرُ مَجِيءَ عَمِّهِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ الصَّالِحِ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ هَذَا؛ وَتَوَجَّهَ نَحْوَ دِمَشق وَهَجَمَ عَلَيْهَا وَمَعَهُ أَسَدُ الدِّينِ شِيرِكُوهُ صَاحِبَ حِمَصَ فَدَخَلُوهَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ سَابِعَ عَشْرِينَ صَفَرٍ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ؛ كُلُّ ذَلِكَ وَالصَّالِحُ نَجْمَ الدِّينِ مَقِيمٌ بِنَابُلُسَ؛ وَأَتَفَقَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ صَاحِبَ بَعْلَبَكِ، وَأَسَدُ الدِّينِ شِيرِكُوهُ صَاحِبَ حِمَصَ عَلَى أَنْ تَكُونَ الْبِلَادُ بَيْنَهُمَا مَنَاصِفَةً.

وَنَزَلَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ فِي دِمَشق بِدَارِهِ بِدَرْبِ الشُّعَارِينَ، وَنَزَلَ صَاحِبَ حِمَصَ بِدَارِهِ أَيْضًا، وَأَصْبَحُوا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فَرَحَفُوا عَلَى الْقَلْعَةِ وَنَقَبُوهَا مِنْ نَاحِيَةِ بَابِ الْفَرَجِ، وَهَتَكُوا حُرْمَتَهَا وَدَخَلُوهَا، وَبِهَا الْمَلِكُ الْمَغِيثُ عَمْرُ بْنُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ أَيُّوبَ، فَاعْتَقَلَهُ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ فِي بَرْجٍ، وَاسْتَوْلَى عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْقَلْعَةِ.

وَبَلَغَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ مَا جَرَى، وَقِيلَ لَهُ فِي الْعُودِ إِلَى دِمَشق، فَخَلَعَ الصَّالِحُ أَيُّوبَ عَلَى عَمِيهِ مُجِيرِ الدِّينِ وَتَقِيِّ الدِّينِ وَعَلَى غَيْرِهِمْ،

(١) هُوَ بَابُ قَلْعَةِ دِمَشق.

(٢) كَانَ وَزِيرَ الْأَشْرَفِ ثُمَّ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ. تَوَفَّى سَنَةَ ٥٦٣٦ هـ.

(٣) مِنْ أَبْوَابِ دِمَشق، بَيْنَ بَابِ الْجَابِيَةِ وَالْفَرَادَيْسِ.

وأعطاهم الأموال وقال لهم: ما الرأي؟ قالوا: نسوق إلى دمشق قبل أن تؤخذ القلعة. فخرجوا من نابلس فنزلوا القصير فبلغهم أخذ القلعة، فنفر بنو أيوب بأسرهم وخافوا على أولادهم وأهلهم بدمشق، وكان الفساد قد لعب فيهم، فتركوا الصالح أيوب وتوجهوا إلى دمشق؛ وبقي الصالح في مماليكه وغلمانه لا غير، ومعه جاريتة شجرة الدر أم خليل؛ فرحل من القصير يريد نابلس فطمع فيه أهل العور والقبائل، وكان مقدمهم شيخاً جاهلاً يقال له مسبل من أهل بيسان قد سفك الدماء، فتقاتل عسكر الصالح معه حتى كسروه.

ثم اتفق بعد ذلك الملك الناصر داود من مصر بغير رضا من الملك العادل صاحب مصر ووصل إلى الكرك؛ وكتب الوزير إلى الناصر يخبره الخبر، فلما بلغ الناصر ذلك أرسل عماد الدين بن موسى والظهير بن سنقر الحلبى في ثلاثمائة فارس إلى نابلس. فركب الصالح أيوب وألتقاهم فخدموه وسلموا عليه بالسلطنة، وقالوا له: طيب قلبك، إلى بيتك جئت، فقال الصالح: لا ينظر ابن عمي فيما فعلت، فلا زال الملوك على هذا؛ وقد جئت إليه أستجير به، فقالوا: قد أجازك وما عليك بأس؛ وأقاموا عنده أياماً حول الدار. فلما كان في بعض الليالي ضربوا بوق النغير وقالوا: جاءت الفرنج، فركب الناس ومماليك الصالح ووصلوا بسببية، وجاء عماد الدين والظهير بالعسكر إلى الدار، وقالوا للصالح: تطلع إلى الكرك، فإن ابن عمك له بك اجتماع، وأخذ سيفه. وكانت شجرة الدر حاملاً فسقطت، وأخذوه وتوجهوا به إلى الكرك. وأستفحل أمر أخيه الملك العادل صاحب مصر بالقبض على الصالح هذا، وأخذ وأعطى وأمر ونهى، فتغير عليه بعض أمراء مصر، ولكن ما أمكنهم يومئذ إلا السكات.

وأما الصالح، قال أبو المظفر: ولما اجتمعت به (يعني الصالح) في سنة تسع وثلاثين وستمائة بالقاهرة حكى لي صورة الحال قال: أركبوني بغلة بغير مهماز ولا مقرعة، وساروا إلى البرية في ثلاثة أيام، والله ما كلمت أحداً منهم كلمة، ولا أكلت لهم طعاماً حتى جاءني خطيب الموتة^(١) ومعه برودة عليها دجاجة، فأكلت

(١) الموتة: قرية من قرى اللقواء في حدود الشام، وهي على مرحلة من الكرك. (معجم البلدان).

منها وأقاموا بي في الموتة يومين وما أعلم إيش كان المقصود، فإذا بهم يريدون [أن] يأخذوا طالعاً خبيثاً يقتضي ألا أخرج من حبس الكرك، ثم أدخلوني إلى الكرك ليلاً على الطالع الذي كان سبب سعادتي ونحوسهم.

قلت: وأنا ممن يُنكر على أرباب التقاويم أفعالهم وأقوالهم لأنني من عمري أصحب أعيانهم فلم أر لما يقولونه صحّة، بل الكذب الصريح المحض. ويعجبني قول الإمام الرّبانيّ عبد المؤمن بن هبة الله الجرجاني في كتابه «أطباق الذهب» الذي يشتمل على مائة مقالة [وأثنتين]، والذي أعجبني من ذلك هي المقالة الثالثة والعشرون، وهي ممّا نحن فيه من علم الفلك والنجوم، قال: «أهل التسييح والتقديس، لا يؤمنون بالتربيع والتسدیس؛ والإنسان بعد علو النفس، يَجَلُّ عن ملاحظة السعد والنحس؛ وإن في الدين القويم، آستغناء عن الزيج والتقويم؛ والإيمان بالكهانة، باب من أبواب المهانة؛ فأعرض عن الفلاسفة، وغضّ بصرك عن تلك الوجوه الكاسفة، فأكثرهم عبدة الطبع، وحرسة الكواكب السبع؛ ما للمنجم الغبيّ، والعلم الغيبيّ، [وما للكاهن الأجنبيّ] (١)، وسرّ حجب عن النبيّ؛ وهل ينخدع بالفال، إلاّ قلوب الأطفال؛ وإنّ أمراً جهل حال قومه، وما الذي يجري عليه في يومه، كيف يعرف علم الغد وبعده، ونحس الفلك وسعده! وإنّ قوماً يأكلون من قرصة الشمس لمهزولون، وإنهم عن السمع لمعزولون؛ ما السموات إلاّ مجاهل خالية، والكواكب صواها، والنجوم إلاّ هياكل عالية، ومن الله قواها؛ سبعة سيّرة نيّرة، خمسة منها متحيّرة، شرارة وخيرة طباعها متغايرة؛ كلّ يسري لأمرٍ مُعَمّى، وكلّ يجري لأجل مسمّى!» إنتهت المقالة بتمامها وكمالها. وقد خرجنا بذكرها عن المقصود، ولنرجع إلى ما نحن فيه من ترجمة العادل وأخبار أخيه الصالح.

قال: ووكّلوا بي مملوكاً لهم، يقال له: زُرَيْق؛ وكان أضرب عليّ من كلّ ما جرى، فأقمتُ عندهم إلى شهر رمضان سبعة أشهر؛ ولقد كان عندي خادمٌ صغير فاتفق أن أكل ليلةً كثيراً فاتخّم وبال على البساط، فأخذتُ البساط بيدي والخادم،

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن أطباق الذهب المذكور.

وقمتُ من الإيوان إلى قرب الدّهليز، وفي الدهليز ثمانون رجلاً يحفظونني، وقلت: يا مقدّمون، هذا الخادم قد أتلف هذا البساط، فأذهبوا به إلى الوادي وأغسلوه فنفر في زُرّيق، وقال: إيش جاء بك إلى ها هنا! وصاحوا عليّ فعدت إلى موضعي. إنتهى.

قلت: وأمّا مماليكه وخزائنه فإنّ الوزيريّ توجّه بهم إلى قلعة الصلّت. وأقام مماليكه بنابلس، واستمرّ الحال على ذلك إلى أن بلغ الملك العادل صاحب الترجمة ما جرى على أخيه الصالح، فأظهر الفرح ودُقّت الكوسات وزُيّنت القاهرة؛ ثم أرسل الملك العادل المذكور العلاء بن النابلسيّ إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك، يطلب الملك الصالح نجم الدين المذكور منه، ويُعطيه مائة ألف دينار فما أجاب^(١). ثم كاتبه الملك الصالح صاحب بعلبك، وصاحب جِمْص أسد الدين شيركوه في إرساله إلى الملك العادل إلى مصر؛ كلُّ ذلك والعادل في قلق من جهة الصالح، فلم يلتفت الملك الناصر داود لكلامهم؛ وأقام الصالح مدّة في الحبس حتّى أشار عماد الدين وآبن قليج والظهير على الملك الناصر بالاتفاق مع الصالح نجم الدين أيّوب وإخراجه، فأخرجه الناصر وتحالفا وآتفقا، وذلك في آخر شهر رمضان، وكان تحليف الناصر داود للصالح أيّوب على شيء ما يقوم به أحد من الملوك، وهو أنّه يأخذ له دمشق وجِمْص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب وغيرها، فخلف الصالح على هذا كلّ وهو تحت القهر والسيّف.

ولمّا علم الملك العادل صاحب الترجمة بخلاص أخيه الصالح آتفق مع عمّه الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك الذي ملك دمشق؛ فسار الملك العادل من مصر والملك الصالح من دمشق ومعه أسد الدين صاحب جِمْص، ثم عزموا على قصد الناصر والصالح؛ فأول من برز لهم الملك العادل صاحب الترجمة بعساكر مصر، وخرج وسار حتى وصل إلى بلبس؛ وكان قد أساء السيرة في أمرائه وحواشيه، فوقع الخُلف بينهم وتزايد الأمر حتى قبضوا عليه، وأرسلوا إلى الصالح

(١) في الأصل: «فأجاب». وما أثبتناه من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

نجم الدين أيوب يعرفونه ويسألونه الإسراع في المجيء إلى الديار المصرية. فسار ومعه الملك الناصر داود صاحب الكرك وجماعة من أمرائه ابن مؤسك وغيره، فكان وصول الصالح إلى بلبس في يوم الأحد رابع عشرين ذي القعدة، فنزل في خيمة العادل، والعادل معتقل في خركاه.

قال أبوالمظفر: حكى لي الصالح واقعات جرت له في مسيره إلى مصر [منها] أنه قال: ما قصدت بمجيء الناصر معي إلا خوفاً أن تكون معمولة عليّ، ومنذ فارقتنا غزوة تغير عليّ، ولا شك أن بعض أعدائي أطمعه في الملك، فذكر لي جماعة من ممالكي أنه تحدّث معهم في قتلي. قال: ومنها أنه لما أخرجني (يعني الناصر) ندم وعزم على حبسي، فرميت روحي على ابن قليج، فقال: ما كان قصده إلا أن يتوجه إلى دمشق أولاً فإذا أخذنا دمشق عدنا إلى مصر. قال: ومنها أنه ليلة وصل إلى بلبس شرب وشطح إلى العادل، فخرج له من الخركاه فقبل الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيت ما أشرت عليك ولم تقبل مني! فقال: يا خوندي، التوبة، فقال: طيب قلبك، الساعة أطلقك؛ وجاء فدخل علينا الخيمة ووقف، فقلت: باسم الله أجلس، فقال: ما أجلس حتى تطلق العادل، فقلت: أقعد، وهو يكرّر الحديث؛ ثم سكت ونام فما صدقت بنومه وقمت في باقي الليل، فأخذت العادل في محفة ورحلت به إلى القاهرة. ولما دخلنا القاهرة بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إليّ مع غلماني، وغضب وأراد نصف ما في خزائن مصر.

قلت: وآستولى الصالح على ملك مصر وقبض على أخيه العادل صاحب الترجمة في يوم الاثنين خامس عشرين ذي الحجة وحبسه عنده بالقلعة سنين.

قال سعد الدين مسعود بن حمويه: وفي خامس شوال سنة ست وأربعين وستمائة جهّز الصالح أخاه أبا بكر العادل ونفاه إلى الشوبك، وبعث إليه الخادم محسناً يكلمه في السفر، فدخل عليه المحسن وقال له: السلطان يقول لك: لا بدّ من رواحك إلى الشوبك، فقال: إن أردتم أن تقتلونني في الشوبك فما هنا أولى ولا أروح أبداً، فعذله محسن، فرماه بدواة كانت عنده، فخرج وعرف الصالح أيوب بقوله، فقال: دبّر أمره، فأخذ المحسن ثلاث مماليك ودخلوا عليه ليلة الاثنين ثاني

عشر شَوَّالٍ فَخَنَّقُوهُ بِشَاشٍ وَعَلَّقُوهُ بِهِ، وَأَظْهَرُوا أَنَّهُ سَنَقَ نَفْسَهُ وَأَخْرَجُوا جَنَازَتَهُ مِثْلَ بَعْضِ الْغُرَبَاءِ، وَلَمْ يَتَجَاسِرْ أَحَدٌ أَنْ يَتَرَحَّمْ عَلَيْهِ أَوْ يَبْكِي حَوْلَ نَعْشِهِ وَعَاشَ بَعْدَهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ عَشْرَةَ أَشْهُرٍ رَأَى فِي نَفْسِهِ الْعِزَّ مِنْ مَرَضٍ تَمَادَى بِهِ وَمَا نَفَعَهُ الْإِحْتِرَازُ كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي تَرْجُمَتِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَزَادَ ابْنُ خَلِّكَانٍ فِي وَفَاتِهِ بِأَنَّ قَالَ: وَدُفِنَ فِي تَرْبَةِ شَمْسِ الدَّوْلَةِ خَارِجَ بَابِ النُّصْرِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - . وَكَانَ لِلْعَادِلِ الْمَذْكُورِ وَلَدٌ صَغِيرٌ يُقَالُ لَهُ الْمَلِكُ الْمَغِيثُ مَقِيمٌ بِالْقَلْعَةِ فَلَا زَالَ بِهَا إِلَى أَنْ وَصَلَ ابْنُ عَمِّهِ الْمَلِكُ الْمَعْظَمُ تُورَانَ شَاءَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ الصَّالِحِ نَجْمُ الدِّينِ إِلَى الْمَنْصُورَةِ، وَسَيَّرَ الْمَغِيثُ الْمَذْكُورَ مِنْ هُنَاكَ وَنَقَلَهُ إِلَى الشُّوبُوكِ؛ فَلَمَّا جَرَتْ الْكَائِنَةُ عَلَى الْمَعْظَمِ مَلَكَ الْمَغِيثُ الْكَرَّكَ وَتَلَّكَ النُّوَاحِي. قُلْتُ: وَكَانَتْ وَايَةُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ عَلَى مِصْرَ سَنَةً وَاحِدَةً وَنَحْوَ شَهْرَيْنِ وَأَيَّاماً مَعَ مَا وَقَعَ لَهُ فِيهَا مِنَ الْفِتَنِ وَالْأَنْكَادِ، وَلَمْ يُعْرِفْ حَالَهُ فِيهَا لِصِغَرِ سِنِهِ وَقِصَرِ مَدَّتِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَالْعَادِلُ هَذَا يُعْرِفُ بِالْعَادِلِ الصَّغِيرِ، وَالْعَادِلُ الْكَبِيرُ هُوَ جَدُّهُ.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك العادل الصغير أبي بكر ابن الملك الكامل

محمد علي مصر

وهي سنة ست وثلاثين وستمائة.

على أنه ولي السلطنة في شهر رجب منها.

فِيهَا تُوفِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَلَامَةِ جَمَالِ الدِّينِ الْحَصِيرِيِّ الْحَنْفِيِّ؛ أَصْلُهُ مِنْ بُخَارَى مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا حَصِيرٌ^(١)، وَتَفَقَّهَ فِي بَلَدِهِ وَسَمِعَ الْحَدِيثَ وَبَرَعَ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ، وَقَدِمَ الشَّامَ وَدَرَّسَ بِالنُّورِيَّةِ؛ وَأَنْتَهَتْ إِلَيْهِ رِيَاسَةُ الْحَنْفِيَّةِ فِي زَمَانِهِ؛ وَصَنَّفَ الْكُتُبَ الْحِسَانَ، وَشَرَحَ «الْجَامِعَ الْكَبِيرَ»^(٢)، وَقَرَأَ عَلَيْهِ

(١) لم نجد في معاجم البلدان قرية ببخارى بهذا الاسم. ولعل الصواب ما جاء في عقد الجمان: «والحصيري

نسبة إلى محلة ببخارى يعمل بها الحصير».

(٢) راجع ص ٢٦٧، حاشية (٢).

الملك المعظم عيسى الجامع الكبير وغيره. وكان كثير الصدقات غزير الدمعة، عاقلاً ديناً نزهاً عفيفاً وقوراً؛ وكان المعظم يحترمه ويجله. وكانت وفاته في يوم الأحد ثامن صفر، ودفن بمقابر الصوفية عند المنيع، ومات وله تسعون سنة.

وفيهما توفي عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ محمد المنعوت بالصاحب، وهو الذي كان السبب في عطاء دمشق الجواد، فلما مضى إلى مصر لأمه العادل على ذلك وتهدده، فقال: أنا أمضي إلى دمشق، وأنزل بالقلعة وأبعث بالجواد إليك، وإن آمنتع قمنا عليه؛ فسار إلى دمشق فوصلها قبل مجيء الملك الصالح نجم الدين أيوب، ونزل بقلعة دمشق وأمر ونهى، وقال: أنا نائب العادل، وأمر الجواد بالمشير إلى مصر. وكان أسد الدين صاحب حمص بدمشق، فاتفق مع الجواد على قتل عماد الدين، فاستدعى صاحب حمص بعض نصارى قارة^(١) وأمره بقتله، فركب ابن الشيخ يوماً من القلعة بعد العصر فوثب عليه النصرائي وضربه بالسكاكين حتى قتله؛ وذلك في جمادى الأولى. ودخل الصالح أيوب دمشق فحبس النصرائي أياماً ثم أطلقه، ومات عماد الدين وله ست وخمسون سنة.

وفيهما توفي الحافظ زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي بحمة في رابع عشرين شهر رمضان ودفن بها، وكان إماماً فقيهاً محدثاً فاضلاً ديناً — رحمه الله — .

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو العباس أحمد بن علي القسطلاني المالكي بمكة. وصاحب ماردين ناصر الدين أرتق الأرتقي. وأبو المعالي أسعد بن المسلم بن مكّي بن علان القيسي في رجب، وله ست وتسعون سنة. والمحدث بدر^(٢) بن أبي المعمر التبريزي في جمادى الأولى. وأبو الفضل جعفر بن علي بن هبة الله الهمداني المالكي المقرئ في صفر، وله تسعون سنة. والعلامة جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المجيد بن

(١) فارة: قرية كبيرة على قارة الطريق. وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق. وأهلها كلهم نصارى (معجم البلدان).

(٢) في الشذرات: «بدل».

إسماعيل بن حَفْص الصمراوي المالكي مفتي الإسكندرية ومقرئها في شهر ربيع الآخر وله آثنتان وتسعون سنة. والشيخ عثمان القَصِير الزاهد. وشيخ نصيبين عسكر بن عبد الرحيم بن عسكر عن نَيْف وسبعين سنة. والصاحب عماد الدين عمر آبن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر الجُونِي قتيلاً بقلعة دمشق. وأبو الفضل محمد بن محمد بن الحسين^(١) بن السَّبَّك في شهر ربيع الآخر. والحافظ زكيّ الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن البرزاليّ الإشبيليّ بحمّة في رمضان، وله ستون سنة. والعلامة جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السيد البُخاريّ الحَصِيرِيّ شيخ الحنفية بدمشق في صفر، وله تسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وإحدى عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك العادل الصغير آبن الملك الكامل على مصر

وهي سنة سبع وثلاثين وستمائة.

فيها خُلِع الملك العادل المذكور من مُلك مصر بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيّوب حسب ما تقدّم ذكره.

وفيها هَجَم الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك على دمشق، ومعه أسد الدين شيركوه صاحب حمص ومَلَكها في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر.

وفيها تُوفِّي الملك ناصر الدين أُرْتُق^(٢) صاحب ماردين الأُرْتُقيّ؛ كان الملك المعظم عيسى بن العادل تزوّج أخته، وهي التي بنت المدرسة^(٣) والترية عند الجسر

(١) في الشذرات. «الحسن».

(٢) هو الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن إيل غازي بن أرتق بن أرسلان بن إيل غازي بن ألبى.

(٣) هي المدرسة الماردانية، على حافة نهر ثورا لصيق الجسر الأبيض بالصالحية. وقد بنتها عزيزة الدين أحشا حاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين، زوجة الملك المعظم عيسى. نتها سنة ٥٦١٠ هـ.

(الدارس: ٤٥٤/١).

الأبيض بقاسيون، ولم تُدفن فيها لأنها نُقلت بعد موت زوجها المعظم إلى عند أبيها بماردين فماتت هناك. وكان ناصر الدين المذكور شيخاً شجاعاً شهماً جواداً، ما قصده أحد وخبّيه. قتله ولده^(١) بماردين خنقاً وهو سكران.

وفيها تُوفي الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه ابن شادي الأيوبي صاحب جِمص؛ أعطاه أبْن عمّ أبيه السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب جِمص بعد وفاة أبيه محمد بن شيركوه في سنة إحدى وثمانين [وخمسمائة]، فأقام بها إلى هذه السنة، وحفظ المسلمين من الفرنج والعرب (?)، ومات بجِمص في يوم الثلاثاء العشرين من شهر رجب ودُفن بها.

وفيها تُوفي يعقوب الخياط. كان يسكن مَغارة الجوع بقاسيون. وكان شيخاً صالحاً. لقي المشايخ وعاصر الرجال ومات بقاسيون - رحمه الله تعالى - .

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفي قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل الخُوئي^(٢) في شعبان، وله أربع وخمسون سنة. وأبو البقاء إسماعيل بن محمد بن يحيى المؤدّب راوي مسند إسحاق، في المحرّم. والصدر علاء الدين أبو سعد ثابت بن محمد الخجنديّ بشيراز، وله تسع وثمانون سنة. وأمّين الدين سالم ابن الحافظ ابن صُصريّ في حمادى الآخرة، وله ستون سنة. وصاحب جِمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن شادي في رجب، وكانت دولته ستاً وخمسين سنة. والقاضي أبو بكر عبد المجيد^(٣) بن عبد الرشيد بن عليّ بن سَمّان الهمدانيّ سبط الحافظ أبي العلاء^(٤) في شوال عن ثلاث وسبعين سنة. وأبو القاسم عبد الرحيم بن يوسف بن هبة الله بن الطُفيل في ذي الحجة.

(١) ذكر ابن شداد في الأعلام الخطيرة أن الذي قتله هو هولوكو؛ وروى الحادثة. (انظر الأعلام الخطيرة:

٥٧٠/٣)

(٢) في الأصل. «الخصولي». والتصحيح عن الأعلام. والنسبة إلى خويّ نأذربيجان.

(٣) أشار محقق طبعة دار الكتب المصرية من النجوم الزاهرة أن الذهبي أورد اسمه في مجلد من تاريخه،

محفوظ بدار الكتب: «محمد بن عبد الرشيد بن علي بن نبيهان أبو أحمد الهمداني».

(٤) هو أبو العلاء الهمداني العطار. انظر وفيات سنة ٥٦٩هـ.

وإمام الرِّبْوَةِ^(١) عبد العزيز بن دُلْف المَقْرِيء النّاسخ في صفر. وأبو الحسن عليّ بن أحمد الأندلسيّ الحَرَانِيّ الصّوْفِيّ المفسّر بِحَمَاة. وشمس الدين محمد بن الحسن بن محمد ابن عبد الكريم الكاتب بدمشق في رجب. والحافظ أبو عبد الله محمد بن سعيد بن يحيى في شهر ربيع الآخر، وله تسع وسبعون سنة. وتقي الدين محمد بن طَرْخَان السلميّ الصّالحيّ في المحرّم، وله ستّ وسبعون سنة. وأبو طالب محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن [بن أحمد بن عليّ]^(٢) بن صابر السلميّ الزاهد في المحرّم. والمحتسب رشيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن الهادي التَّنْسِيّ في جُمادى الآخرة، وله ثمانٍ وثمانون سنة. والصاحب شرف الدّين أبو البركات^(٣) المبارك بن أحمد المُستوفِيّ بالمَوْصِل في المحرّم. والصاحب ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم [بن عبد الواحد المعروف بآ]^(٤) بن الأثير الشَّيبَانِيّ الجَزْرِيّ الكاتب مؤلّف كتاب «المثل السائر» في شهر ربيع الآخر، وله نحو من ثمانين سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وثمانين أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وتسع عشرة إصباعاً.

(١) أي ربوة دمشق.

(٢) زيادة عن الشدرات.

(٣) في الأصل: «أبو البركات نصر الله بن المبارك» وما أثبتناه عن ابن حلكان والشدرات.

(٤) زيادة عن ابن حلكان.

ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب^(١) على مصر

هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الأيوبي سلطان الديار المصرية. وقد تقدّم أنّ الملك الصالح هذا ولي الشرق وديار بكر في أيام والده الملك الكامل سنين، وذكرنا أيضاً ما وقع له بعد موت الكامل مع أخيه العادل، ومع ابن عمّه الملك الناصر داود وغيرهما في ترجمة أخيه العادل مفصّلاً إلى أن ملك الديار المصرية في يوم الاثنين الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وثلاثين وستمائة. ومولده بالقاهرة في سنة ثلاث وستمائة وبها نشأ، وأستخلفه أبوه على مصر لما توجه إلى الشرق فأقام الصالح هذا بمصر مع صواب الخادم لا أمر له ولا نهى إلى أن عاد أبوه الكامل إلى الديار المصرية، وأعطاه حصن كَيْفًا فتوجّه إليها، ووقع له بها أمور ووقائع مع ملوك الشرق بتلك البلاد في حياة والده حتى مات أبوه، ووقع له ما حكّيناه إلى أن ملك مصر؛ ولما تمّ أمره بمصر أصلح أمورها ومهد قواعدها.

قلت: والملك الصالح هذا هو الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمّرههم بديار مصر، وفي هذا المعنى يقول بعضهم:

الصالح المُرتَضَى أَيُّوبُ أَكْثَرَ مِنْ تُرْكٍ بِدَوْلْتِهِ يَا شَرَّ مَجْلُوبٍ
لَا أَخَذَ اللَّهُ أَيُّوباً بِفَعْلَتِهِ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ^(٢) فِي ضَرِّ أَيُّوبٍ

(١) أخباره وترجمته في: السلوك: ٢٩٦/٢/١، وذيل الروضتين: ١٨٣، وخطط المقرئزي: ٢٣٦/٢،

وبدائع الزهور: ٢٦٩/١، والشذرات: ٢٣٧/٥، وشفاء القلوب: ٣٦٧.

(٢) في بدائع الزهور: «فالناس قد أصبحوا في صبر أيوب».

وقال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي في تاريخه - بعد أن ذكر من مبدأ أمره نبذةً إلى أن قال - : « ثم ملك مصر بلا كلفة وأعتقل أخاه، ثم جهز من أوهم الناصر بأن الصالح في نية القبض عليه، فخاف وغضب فأسرع إلى الكرك. ثم تحقق الصالح [فساد] (١) نيات الأشرقية، وأنهم يريدون الوثوب عليه؛ فأخذ في تفريقهم والقبض عليهم، فبعث مقدم الأشرقية وكبيرهم أيك الأشقر (٢) نائباً على جهة، ثم سير من قبض عليه، ثم مسكهم عن بكرة أبيهم وسجنهم؛ وأقبل على شراء المماليك الترك والخطائية، وأستخدم الأجناد؛ ثم قبض على أكبر الخدام: شمس الدين الخاص وجوهر النوبي وعلى جماعة من الأمراء الكاملية وسجنهم بقلعة صدر بالقرب من أيلة؛ وأخرج فخر الدين ابن الشيخ من سجن العادل فركب ركبة عظيمة، ودعت له الرعية لكرمه وحسن سيرته، فلم يعجب الصالح ذلك وتخيّل، فأمره بلزوم بيته: وأستوزر أخاه معين الدين. ثم شرع يؤمر غلماناًه (يعني مماليكه) فأكثر من ذلك، وأخذ في بناء قلعة الجزيرة (٣) وأخذها سكتاً، وأنفق عليها أموالاً عظيمة، وكانت الجزيرة قبلاً متنزهاً لوالده، فشيدها في ثلاثة أعوام وتحول إليها. وأما الناصر داود فإنه آتفق مع عمه الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص فاتفقوا على الصالح [أيوب].

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٢) في الذهبي: «الأسمر». وفي السلوك: «الأمير عز الدين أيك الأسمر؛ وكان يميل إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق. وكانت المماليك الكاملية تميل إلى الصالح نجم الدين، وهم الأكثر».

(٣) أي قلعة جزيرة الروضة. (انظر خطط المقرئ: ١٨٣/٢) قال الاستاذ محمد رمزي: «وقد درست هذه القلعة بما كان فيها ولم يبق لها أثر اليوم. ومن جملة بحوث تين أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فداناً واقعة في الجزء الجنوبي من جزيرة الروضة. ومكانها المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع الملك المظفر، ومن الغرب بنهر النيل، ومن الجنوب بسلامك سراي حس باشا فؤاد المناسترلي وبمقياس النيل، ومن الشرق بسيالة جزيرة الروضة». قال ابن إياس (بدائع الزهور: ٢٦٩/١): ولما زاد أمر ممالك الصالح في أذى الناس، شرع في بناء قلعة الروضة وأسكنهم بها، وسماهم المماليك البحرية. وكانت عدتهم ألف مملوك قاطنين بهذه القلعة، لا يخاطون الناس بالمدينة، وأجرى عليهم ما يكفيهم من اللحوم والجراية والجوامك. وجعل حول هذه القلعة مراكز حربية مشحونة بالسلاح، واقفة عند الصناعة، مكملة من جميع الآلات، لا تبرح عن ذلك المكان، برسم ما يطرق من الأخبار عن الفرنج».

وأما الخُوَارَزْمِيَّةُ فَإِنَّهُمْ تَغَلَّبُوا عَلَى عِدَّةِ قِلَاعٍ وَعَاثُوا وَخَرَّبُوا الْبِلَادَ، وَكَانُوا شَرًّا مِنْ التَّتَارِ، لَا يَعْفُونَ عَنْ قَتْلِ وَلَا [عَنْ] سَبِي وَلَا فِي قُلُوبِهِمْ رَحْمَةٌ.

وفي سنة إحدى وأربعين وقع الصلح بين الصالحين^(١) و[المنصور] صاحب جَمُص، على أن تكون دمشق للصلح إسماعيل؛ وأن يُقيم هو^(٢) والحلبيون والحِمَصِيُّونَ الخُطْبَةَ فِي بِلَادِهِمْ لِصَاحِبِ مِصْرَ، وَأَنْ يُخْرِجَ [وَلَدُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ أَيُوبَ]^(٣) الْمَلِكِ الْمَغِيثِ مِنْ أَعْتِقَالِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ - وَالْمَلِكِ الْمَغِيثِ هُوَ ابْنُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ، كَانَ مُعْتَقَلًا قَبْلَ سُلْطَنَتِهِ فِي وَاقِعَةِ جَرْتِ. قُلْتُ: (يَعْنِي أَنَّ الصَّالِحَ قَبِضَ عَلَيْهِ لَمَّا مَلَكَ دِمَشْقَ بَعْدَ خُرُوجِ الصَّالِحِ مِنْ دِمَشْقَ قَاصِدًا الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةَ قَبْلَ أَنْ يَقْبِضَ عَلَيْهِ النَّاصِرُ دَاوُدَ) وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي تَرْجُمَةِ الْعَادِلِ مَفْصَلًا. قُلْتُ وَكَذَلِكَ أَطْلَقَ أَصْحَابُ الصَّالِحِ، مِثْلَ حُسَامِ الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ^(٤)، وَمَجِيرِ الدِّينِ بْنِ أَبِي ذَكْرَى، فَأَطْلَقَهُمُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلَ - وَرَكِبَ الْمَلِكُ الْمَغِيثُ وَبَقِيَ يَسِيرُ وَيَرْجِعُ إِلَى الْقَلْعَةِ، وَرَدَّ عَلَى حُسَامِ الدِّينِ مَا أَخَذَ مِنْهُ. ثُمَّ سَارُوا إِلَى مِصْرَ، وَاتَّفَقَ الْمَلُوكُ عَلَى عِدَاوَةِ^(٥) النَّاصِرِ دَاوُدَ وَجَهَّزَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلَ عَسْكَرًا يَحَاصِرُونَ عَاجِلُونَ وَهِيَ لِلنَّاصِرِ، وَخَطَبَ لِصَاحِبِ مِصْرَ فِي بِلَادِهِ، [وَبَقِيَ عِنْدَهُ الْمَغِيثُ حَتَّى تَأْتِيَهُ نُسُخُ الْأَيْمَانِ، ثُمَّ بَطَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ]^(٦).

وقال ابن واصل: فحدثني جلال الدين الخِلَاطِيُّ قال:

كُنْتُ رَسُولًا مِنْ جِهَةِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ، فُورِدَ عَلَيَّ مِنْهُ كِتَابٌ فِي طَيْهِ كِتَابٌ مِنَ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ إِلَى الْخُوَارَزْمِيَّةِ يَحْتَهُمْ عَلَى الْحَرَكَةِ وَيَعْلَمُهُمْ أَنَّهُ إِنَّمَا صَالِحُ عَمِّهِ الصَّالِحِ لِيُخَلِّصَ ابْنَهُ الْمَغِيثَ مِنْ يَدِهِ، وَأَنَّهُ بَاقٍ عَلَى عِدَاوَتِهِ، وَلَا بَدْلَ لَهُ

(١) هما الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، وعمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق.

(٢) أي الصالح إسماعيل.

(٣) في الأصل: «وأن يخرج ولده الملك المغيث... إلخ». وما أثبتناه عن السلوك وشفاء القلوب للتوضيح.

(٤) حسام الدين أبو علي بن محمد بن أبي علي بن باشاك الهذباني، المعروف بابن أبي علي. (السلوك).

(٥) اتفقوا على أن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الناصر داود.

(٦) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي. وسبب بطلان ذلك الاتفاق يفسره ما سيأتي من رواية ابن واصل

من أخذ دمشق منه، فمضيتُ بهذا الكتاب إلى الصاحب مُعين [الدين]^(١) فأوقفته عليه، فما أبدى عنه عُذراً يسوغ. وردَّ الصالحُ إسماعيلُ المغِيثُ بن الصالح نجم الدين إلى الاعتقال، وقطع الخطبة وردَّ عسكره عن عَجُلُون وأرسل إلى الناصر داود واتفق معه على عداوة صاحب مصر؛ وكذلك رجع صاحب حلب وصاحب حمص عنه، وصاروا كلمة واحدة عليه، وأعتقلت رسلهم بمصر؛ واعتضد صاحب دمشق بالفرنج، وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان. وتجهَّز صاحب [مصر]^(١) الملك الصالح هذا لقتالهم، وجهَّز البعوث وجاءته الخوارزمية فساقوا إلى غزة واجتمعوا بالمصريين، وعليهم ركن الدين بيبرس البندقداري الصالح. قلت: وبيبرس هذا هو غير بيبرس البندقداري الظاهري، وإنما هذا أيضاً على اسمه وشهرته، وهذا أكبر من الظاهر بيبرس [وأقدم]^(١)، وقبض^(٢) عليه الملك الصالح بعد ذلك وأعدمه. انتهى.

قال ابن واصل: وتسلم الفرنج حرم القدس وغيره، وعمروا قلعتي طبرية وعسقلان وحصنوهما، ووعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها، فتجمعوا وحشدوا وسارت عساكر الشام إلى غزة، ومضى المنصور صاحب حمص بنفسه إلى عكا وطلبها فأجابوه. قال: وسافرت أنا إلى مصر ودخلت القدس، فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخمر، ورأيت الجرس في المسجد الأقصى، وأبطل الأذان بالحرم وأعلن الكفر. وقدم - وأنا بالقدس - الناصر داود إلى القدس فنزل بغريته.

وفيها^(٣) ولي الصالح نجم الدين قضاء مصر للأفضل^(٤) بعد أن عزل ابن عبد السلام^(٥) نفسه بمديونة.

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) عبارة الأصل: «وقتل الملك الصالح بعد ذلك وأعدمه». وما أثبتناه عن الذهبي.

(٣) أي سنة ٦٤١ هـ.

(٤) هو الأفضل الخونجي، محمد بن نامور بن عبد الملك الخونجي، أبو عبد الله، أفضل الدين. توفي سنة

٦٤٦ هـ. (الأعلام: ١٢٢/٧).

(٥) هو عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. وسيذكره المؤلف في وفيات سنة ٦٦٠ هـ. وفي السلوك

ولمّا عدّت الخُوَارِزْمِيَّةُ الفُرات، وكانوا أكثر من عشرة آلاف ما مرّوا بشيء إلا نهبوه، وتقهقر الذين بغزة منهم، وطلع الناصر إلى الكرك وهربت الفرنج من القدس، فهجمت الخُوَارِزْمِيَّةُ [على] القدس وقتلوا من به من النصارى، وهدموا مقبرة القمامة^(١)، وجمعوا بها عظام الموتى فحرقوها، ونزلوا بغزة وراسلوا صاحب مصر (يعني الملك الصالح هذا) فبعث إليهم بالخلع والأموال وجاءتهم العساكر، وسار الأمير حُسام الدين بن أبي عليّ بعسكرٍ ليكون مركزاً بنابلس، وتقدّم المنصور إبراهيم على الشاميين (يعني لقتال المصريين) وكان شهماً شجاعاً قد انتصر على الخُوَارِزْمِيَّةِ غير مرّة، وسار بهم ورافقتهم الفرنج من عكا وغيرها بالفارس والراجل، ونفذ الناصر داود عسكراً فوق المصاف بظاهر غزة، فأنكسر المنصور إبراهيم شراً كسرة. وأخذت سيوف المسلمين^(٢) الفرنج فأفنّوهم قتلاً وأسرّاً، ولم يُفَلِت منهم إلا الشارد، وأسير أيضاً من عسكر دمشق والكرك جماعة من المقدمين.

قال ابن واصل: حُكي لي عن المنصور أنه قال: والله لقد قصرت ذلك اليوم ووقع في قلبي أنه لا نتصر لانتصارنا بالفرنج - قلت: عليه من الله ما يستحقّه من الخزي. وإيش يفيد تقصيره بعد أن صار هو والفرنج يداً واحدة على المسلمين! - قال: ووصلت عسكر دمشق معه في أسوأ حال.

وأما مصر فزيّنت زينةً لم يُر مثلاًها، وضربت البشائر ودخلت أسارى الشام الفرنج والأمرء، وكان يوماً مشهوداً بالقاهرة.

ثم عطف حُسام الدين بن أبي عليّ، وركن الدين بيبرس فنازلوا عسقلان وحاصروها وبها الفرنج الذين تسلّموها فُجِرِح حُسام الدين [وامتنعت عليهم عسقلان

= للمقرئ أن الصالح نجم الدين وليّ الخونجي القضاء في هذه السنة بعد أن صرف قاضي القضاة صدر الدين موهوب الجزري. ورواية المؤلف هنا توافق رواية السيوطي في حسن المحاضرة: ١٣١/٢. (١) أي المقبرة التي يعتقد النصارى أن المسيح دفن فيها، وهي في كنيسة القيامة. والعرب تقول: كنيسة قمامة. راجع عنها ياقوت في معجم البلدان. (٢) المراد الخوارزمية.

لحصانتها^(١)؛ ثم ترحلوا إلى نابلس، وحكّموا على فلسطين والأغوار إلا عجلون فهي بيد سيف الدين [بن] قليج نيابة عن الناصر داود.

ثم بعث السلطان الملك الصالح نجم الدين ابن الشيخ على جيشه وأقامه مقام نفسه، وأنفذ معه الخزائن وحكّمه في الأمور، وسار إلى الشام ومعه الخوّارزمية، فنالوا دمشق وبها الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص؛ فذلّ الصالح إسماعيل، وبعث وزيره أمين الدولة مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه الملك نجم الدين، فلم يظفر بطائل^(٢)، ورجع وأشدّت الحصار على دمشق، وأخذت بالأمان لقلّة من مع صاحبها، ولعدم الميرة بالقلعة، ولتخلّي الحلبيين عنه، فترحل الصالح إسماعيل إلى بعلبك، والمنصور إلى حمص، وتسلم صاحب معين الدين القلعة والبلد.

ولما رأت الخوّارزمية أنّ السلطان قد تملك الشام بهم وهزم أعداءه صار لهم عليه إدلال كثير، مع ما تقدّم من نصرهم له على صاحب الموصل قبل سلطنته وهو بسنجار، فطبعوا في الأخباز^(٣) العظيمة؛ فلما لم يحصلوا على شيء فسدت نيّتهم له وخرجوا عليه، وكتبوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وهو أكبر أمراء الصالح نجم الدين أيوب، وكان بغزة، فأصغى إليهم - فيما قيل - وراسلوا صاحب الكرك فنزل إليهم [ووافقهم]^(٤). وكانت أمه [أيضاً]^(٤) خوارزمية وتزوج منهم، ثم طلع إلى الكرك وأستولى حينئذ على القدس ونابلس [وتلك الناحية]^(٤)، وهرب منه نواب صاحب مصر؛ ثم راسلت الخوارزمية الملك الصالح إسماعيل وهو في بعلبك وحلفوا له فسار إليهم، وآتفت كلمة الجميع على حرب الصالح صاحب مصر؛ فقلق الصالح لذلك وطلب ركن الدين بيبرس فقدم مصر فاعتقله، وكان آخر العهد به.

(١) زيادة عن السلوك لزيادة الايضاح.

(٢) ذكر المقرئ في السلوك أنه في ذلك الوقت بعث الخليفة من بغداد بالحلعة إلى الصالح نجم الدين أيوب اعترافاً سلطنته.

(٣) الأخباز: جمع خبز، وهو الإقطاع، في لغة ذلك العصر.

(٤) زياده عن الذهبي.

ثم خرج بعساكره فخيم بالعباسة وكان قد نفذ رسوله إلى الخليفة المستعصم يطلب تقليداً بمصر والشام [والشرق]^(١)، فجاءه التشريف والطوق الذهب والمركوب، فلبس التشريف الأسود والعمامة والجبّة، وركب الفرس بالحليّة الكاملة، وكان يوماً مشهوداً؛ ثم جاء الصالح والخوارزمية ونازلوا دمشق وليس بها كبير عسكر، وبالقلعة الطواشي رشيد، وبالبلد نائبها حسام الدين بن أبي عليّ الهذباني، فضبطها وقام بحفظها بنفسه ليلاً ونهاراً، وأشدّت بها الغلاء وهلك أهلها جوعاً ووباءً. قال: وبلغني أنّ رجلاً مات في الحبس فأكلوه؛ كذلك حدّثني حسام الدين بن أبي عليّ، فعند ذلك اتّفق عسكر حلب والمنصور صاحب حمص على حرب الخوارزمية وقصدوهم، فتركوا حصار دمشق وساقوا أيضاً يقصدونهم فالتقى الجمعان، ووقع المصافى في أوّل سنة أربع وأربعين على القصب، وهي منزلة بريد من حمص من قبليها، فاشتدّ القتال والصالح إسماعيل مع الخوارزمية فانكسروا عندما قُتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وأنهزموا ولم تقم لهم بعدها قائمة، وقُتل بركة خان مملوك من الحلبيين وتشتّت الخوارزمية، وخدم طائفة منهم بالشام وطائفة بمصر وطائفة مع كشلوخان ذهبوا إلى التتار وخدموا معهم؛ وكفى الله شرهم. وعلّق رأس بركة خان على قلعة حلب. ووصل الخبر إلى القاهرة فزُيّت، وحصل الصلح التام بين السلطان (يعني الصالح نجم الدين أيوب) وبين صاحب حمص والحلبيين.

وأما الصالح إسماعيل [فإنه] ألّجأ إلى ابن أخته^(٢) الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب. وأما نائب دمشق حسام الدين فإنه سار إلى بعلبك وحاصرها وبها أولاد الصالح إسماعيل فسلموها بالأمان؛ ثم أرسلوا إلى مصر تحت الحوطة هم والوزير أمين الدولة والأستادار ناصر الدين بن يغمور فأعْتَقِلُوا بمصر. وصفّت البلاد للملك الصالح. وبقي الملك الناصر داود بالكرك في حكم المحصور، ثم رضي السلطان على فخر الدين ابن الشيخ وأخرجه من الحبس بعد

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) في الأصل: «ابن أخيه». والتصحيح عن الذهبي.

موت أخيه الوزير معين الدين، وسيره إلى الشام وأستولى على جميع بلاد الناصر داود، وخرّب ضياع الكرك ثم نازلها أياماً، وقلّ ما عند الناصر من المال والذخائر وقلّ ناصره، فعمل قصيدة يعاتب فيها السلطان فيما له عنده من اليد من الذّب عنه وتمليكه ديار مصر، وهي: [الرجز]

قل للذي قاسمته ملك اليد
عاصيتُ فيه ذُوبِي الحِجَبِي من أسرتي
يا قاطع الرّجَمِ التي صلّتي بها
إن كنتَ تقدح في صريح مناسبي
عمّي أبوك ووالدي عمّ به
صالاً وجالاً كالأسود صوارياً
دع سيف مقولّي البليغ يدبّ عن
فهو الذي قد صاغ تاج فخاركم
ونهضتُ فيه نهضة المُستأسِدِ
وأطعتُ فيه مكارمي وتودّدي
كُتبتُ على الفلك الأثير بعسجد
فأصبر بعزمك للهيب المرصد
يعلو أنتسابك كلّ ملكٍ أصيد
فارتدّ تيار الفرات المُزبِدِ
أعراضكم بفرنّده المتوقّدِ
بمفصلٍ من لؤلؤ وزبرجدِ

ثم أخذ يصف نفسه [وجوده ومحاسنه وسؤدده]^(١) إلى أن قال:

يا مُحرّجي بالقول والله الذي
لولا مقالُ الهجرِ منك لَمَا بدا
إن [كنتُ]^(٢) قلتُ خلاف ما هوشيمتي
والله يابن العمّ لولا خيفتي
لكنني ممّن يخاف حرامه^(٣)
فأراك ربك بالهدى ما ترتجي
لتعيّد وجه الملك طلقاً ضاحكاً
كي لا ترى الأيام فينا فرصةً
خضعتُ لعزّته جباهُ السُّجْدِ
مني افتخارٌ بالقريض المُنشدِ
فالحاكمون بمسمعٍ وبمشهدِ
لرميتُ ثغرك بالعداء المُردِ
ندماً يُجرّني بيمام الأسود
لنراك تفعل كلّ فعل مرشدِ
وتردّ شمل البيت غير مبددِ
للخارجين وضحكةً للحسدِ

(١) زيادة عن الذهبي .

(٢) زيادة عن الذهبي وتفاء القلوب .

(٣) في شعاء القلوب: «حزامة»

[لا زال هذا البيت مرتفع البناء يزهى بأمجد بعد آخر أمجد]^(١)

قال: ثم إنَّ السلطان طلب الأمير حسام الدين بن أبي عليٍّ وولاه نيابة الديار المصريَّة، وأستتاب على دمشق الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح؛ ثم قديم الشام وجاء إلى خدمته صاحبُ حَمَاة الملك المنصور وهو ابن آثنتي عشرة سنة وصاحبُ جَمُص [وهو صغير]^(٢)، فأكرمهما وقربهما، ووصل إلى بعلبك، ثم ردَّ إلى الشام، ثم رجع السلطان ومريض في الطريق.

قال ابن واصل: حَكَى لي الأمير حسام الدين قال: لَمَّا ودَّعني السلطان قال: إنِّي مسافر وأخاف أن يُعَرِّضَ لي موت وأخي العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد وما يجري عليكم منه خير، فإن مرضتُ - ولو أنه حمى يوم - فأعدمه^(٣)، فإنه لا خير فيه؛ وولدي تُوران شاه لا يصلح للملك، فإن بلغك موتي فلا تُسلم البلاد لأحد من أهلي، بل سلِّمها للخليفة إنتهى.

قال: ودخل السلطان مصر، وصرف حسام الدين عن نيابة مصر بجمال الدين ابن يَغْمُور، وبعث الحُسام بالمصريين إلى الشام، فأقاموا [بالصالحية]^(٢) أربعة أشهر. قال ابن واصل: وأقمتُ مع حسام الدين هذه المدة، وكان السلطان في هذه المدة وقبلها مقيماً بأشمون^(٤) طَنَاح.

ثم في السنة خرج الحلبيون وعليهم شمس الدين لؤلؤ الأميني، فنازلوا جَمُص، ومعهم الملك الصالح إسماعيل يرجعون إلى رأيه، فحاصرها شهرين ولم يُنجدوها صاحب مصر؛ وكان السلطان مشغولاً بمرضٍ عَرَضَ له في بيضه ثم

(١) زيادة عن شعاء القلوب

(٢) وذكر المقرئ أن الملك العادل مات حقاً بقلعه الجبل سنة ٦٤٤ هـ. قال وقيل سنة ٦٤٥ وهو أثبت. (انظر السلوك. ٣٢٧/١).

(٣) زيادة عن الذهبي.

(٤) أشمون طناح: من المدن المصرية القديمة تقع على الشاطئ الشرقي للبحر الصغير الذي كان يسمى بحر أشمون وتعرف اليوم باسم أشمون الرمان. وهي من قرى مركز دكرنس مديرية الدقهلية. (محمد رمزي).

فتح ، وحصل منه ناسورٌ بعُسر بول^(١)، وحصلت له في رثته بعضُ قُرحة متلفة؟ لكنه عازم على إيجاد صاحبِ جِمص. ولَمَّا أَشَدَّ الحِصَار بالأشرف صاحبِ جِمص أضطرَّ إلى أن أذعن بالصلح ، وطلب العَوْضَ عن جِمص تَلَّ بِأَشْرٍ^(٢) مضافاً إلى ما بيده، وهو الرَّحْبَةُ^(٣) وتُدْمَرُ، فتسلمها الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني، وأقام بها نواباً لصاحبِ حَلَب. فلَمَّا بلغ السلطان أخذُ جِمص، وهو مريض، غضب وعظَّم عليه، وترحَّل إلى القاهرة فاستتاب بها ابنُ يغمور وبعث الجيوش إلى الشام لاستنقاذ جِمص.

وسار السلطان في مِحْفَةٍ، وذلك في سنة ست وأربعين وستمائة؛ فنزل بقلعة دمشق وبعث جيشه فنازلوا جِمص ونصبوا عليها المجانيق، منها منجنيق مغربي، ذكر الأمير حُسام الدين أنه كان يرمي حجراً زنته مائة وأربعون رطلاً بالدمشقي؛ ونصب عليها قرابغا أثني عشر منجنيقاً سلطانية، وذلك في الشتاء. وخرج صاحب حلب بعسكره فنزل بأرض كَفَرطَاب، ودام الحصار إلى أن قَدِم البادراني^(٤) للصلح بين صاحب حلب والسلطان، على أن تَقَرَّ جِمصُ بيد صاحب حلب، فوقع الاتفاق على ذلك؛ وترحَّل السلطان عن جِمص لمرض السلطان ولأنَّ الفرنج تحرَّكوا [وقصدوا مصر]^(٥)، وترحَّل السلطان إلى الديار المصرية كذلك وهو في مِحْفَةٍ. وكان الناصر صاحب الكرك قد بعث شمس الدين الحُسروشاہي إلى السلطان

(١) عبارة الذهبي: «يعسر برؤه، وحصلت له في رثته قرحة... إلح». وحطاً المؤلف ما تابع لخطئه السابق حين قال: «بمرض عرض له في بيصه». وصوابه ما ذكره المقريري في السلوك: «سبب ورم مابضه»، وكان قد اشتد به حتى حصل منه ناصور» والمابض: باطن الركبة أو المرفق. ومن روايتي المقريزي والذهبي نقترح تصحيح رواية أبي المحاسن على الوجه التالي «وكان السلطان مشغولاً بمرض عرض له في مابضه، ثم فتح، وحصل منه ناسور يعسر برؤه. إلح».

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة شمالي حلب (معجم البلدان).

(٣) هي الرحبة الجديدة، على نحو فرسخ من الفرات.

(٤) في الأصل: «البادراني» والتصويب عن السلوك وهو نجم الدين الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء الشافعي البادراني الذي قدم من قبل الخليفة المستنصر بالله للصلح بين الحلبيين والسلطان. والبادراني: نسبة إلى بادرايا، قرية من عمل واسط.

(٥) زيادة عن الذهبي.

وهو بدمشق يطلب حُبزاً بمصر والشُوبك وينزل له عن الكرك، فبعث السلطان تاج الدين [بن] (١) مهاجر في إبرام ذلك إلى الناصر، فرجع عن ذلك لما سمع حركة الفرنج؛ وطلب السلطان نائب مصر جمال الدين بن يغمور فأستنابه بدمشق وبعث على نيابة مصر حُسام الدين بن أبي عليّ فدخلها في المحرم سنة سبع وأربعين؛ وسار السلطان فنزل بأشموم طَنَاح ليكون في مقابلة الفرنج إن قصدوا دِمياط.

وتواترت الأخبار بأن ريدا فرَنس (٢) مقدّم الأفرنسيّة قد خرج من بلاده في جموع عظيمة وشتى بجزيرة قُبْرص (٣)؛ وكان من أعظم ملوك الفرنج وأشدّهم بأساً - وريدا بلسانهم: الملك - فشجنت دِمياط بالذخائر وأحكمت الشواني، ونزل فخر الدين ابن الشيخ بالعساكر على جزيرة دِمياط، فأقبلت مراكب الفرنج فأرست في البحر بإزاء المسلمين في صفر من السنة. ثم شرعوا من الغد في النزول إلى البرّ

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) ريدافرنس. هو الملك لويس التاسع (القديس لويس) ملك فرنسا. وقد جاء على رأس الحملة الصليبية السابعة. وذكره المؤرخون العرب باسم: ريدافرنس، وريدافرنس... وهي كلها تعريب لعبارة: Roi de France أي ملك فرنسا ويقال له أيضاً: الفرنسييس. وفي ذلك الوقت كان الملك فردريك الثاني - الذي تسلم القدس من الكامل والد الصالح - مصافياً للصالح. وعندما عزم لويس التاسع ملك فرنسا على تنظيم حملة جديدة على مصر حاول فردريك ثنيه عن عزمه. وأكثر من هذا فإنه كان يعلم الملك الصالح أولاً بأول باستعدادات الحملة الفرنسية.

(٣) وصل لويس التاسع إلى الشرق في أيلول سنة ١٢٤٨م، ولكنه لم يتوجه مباشرة إلى الشواطئ المصرية مقدراً أن خوض معركة قبل الربيع مخاطرة كبرى وعليه فقد أقام في قبرص جاهداً في تحقيق الحلم الذي سيراود الفرنج حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي: وهو إبرام حلف مع المغول لوضع العالم العربي في فك كماشة وأخذ السفراء يتنقلون مذاك بين غزاة الشرق وغزاة الغرب. وفي نهاية عام ١٢٤٨م استقبل لويس في قبرص بعثة مغولية ذهبت إلى حدّ التلويح له بإمكان اعتناق المغول الديانة المسيحية. وإذ دغدغت هذه التلويحات مشاعره فقد نادر إلى تزويد البعثة عند عودتها بهدايا دنيوية ودينية نفيسة. بيد أن خلفاء جنكيزخان لم يدرکوا القصد من بادرتة. وإذ كانوا يظنون إلى ملك فرنسا على أنه واحد من أتباعهم فقد سألوه أن يرسل إليهم في كل عام هدايا من النوع نفسه. ولسوف يجنب هذا الالتباس العالم العربي أنياً على الأقل - هجوماً متوافقاً عليه من العدوين. (عن الحروب الصليبية كما رآها العرب: ص ٢٩٥) - وانظر مقدمة كتاب: القديس لويس، لجوانفيل؛ ترجمة وتقديم الدكتور حسن حشبي.

الذي فيه المسلمون وضربت خيمة حمراء لريدا فرنس وناوشهم [المسلمون] (١) القتال، فقتل يومئذ الأمير نجم الدين آبن شيخ الإسلام، والأمير الوزيري - رحمهما الله تعالى - فترحل فخر الدين آبن الشيخ بالناس، وقطع بهم الجسر إلى البرّ الشرقي الذي فيه دمياط، وتقهقر إلى أشمون طناح، ووقع الخذلان على أهل دمياط، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم حتى لم يبق بها أحد؛ وكان هذا من قبيح رأي فخر الدين؛ فإن دمياط كانت في نوبة سنة خمس عشرة وستمئة أقل ذخائر وعدداً، وما قدر عليها الفرنج إلا بعد سنة، وإنما هرب أهلها لما رأوا هرب العسكر وضعف السلطان؛ فلما أصبحت الفرنج ملكوها صفوا بما حوت من العُدَد والأسلحة والذخائر والغلال والمجانيق، وهذه مصيبة لم يجر مثلها! فلما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان حنق على الشجعان الذين كانوا بها، [وأمر بهم] (١) فشنقوا جميعاً ثم رحل بالجيش، وسار إلى المنصورة فنزل بها في المنزلة التي كان أبوه نزلها، وبها قصر بناه أبوه الكامل. ووقع النفيّر العام في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يُحصون من المطوعة والعربان؛ وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم وتخطفهم، وأستمر ذلك أشهراً، والسلطان يتزايد [مرضه] والأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به.

وأما صاحب الكرك (يعني الملك الناصر داود) فإنه سافر إلى بغداد فاختلف أولاده، فسار أحدهم إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وسلم إليه الكرك، ففرح [بها] مع ما فيه من الأمراض، وزينت بلاده وبعث إليها بالطواشي بدر الدين الصوابي نائباً، وقدم عليه أولادُ الناصر داود، فبالغ الملك الصالح في إكرامهم وأقطعهم أحياباً جليلاً. ولم يزل يتزايد به المرض إلى أن مات، وأخفي موته على ما سيأتي ذكره. إن شاء الله تعالى.

قال آبن واصل في سيرة الملك نجم الدين أيوب هذا: وكان مهيباً عزيز النفس عفيفاً طاهر اللسان والدليل، لا يرى الهزل ولا العبث، شديد الوقار كثير

(١) زيادة عن الذهبي.

الصَّمْت، إشتري من المماليك الترك ما لم يشتريه أحدٌ من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره، ورجحهم على الأكراد [وأمرهم] (١)، وأشتري وهو بمصر خلقاً منهم، وجعلهم بطائته والمحيطين بدهلينزه، وسماهم «البحرية». حكى لي حسام الدين بن أبي علي: أن هؤلاء المماليك مع فرط جبروتهم وسطوتهم كانوا أبلغ من يُعظَّم هيئته؛ كان إذا خرج وشاهدوا صورته يرددون خوفاً منه، وأنه لم يقع منه في حال غضبه كلمةٌ قبيحة قطُّ، أكثر ما يقول إذا شتم: يا متخلف؛ وكان كثير الباه بجواريه فقط، ولم يكن عنده في آخر وقت غير زوجتين: إحداهما شجرة الدر، والأخرى بنت العالمة، تزوجها بعد مملوكه الجوكندار (٢) وكان إذا سَمِع الغناء لا يتزعزع ولا يتحرك، وكذلك الحاضرون يلتزمون حالته كأنما على رؤوسهم الطير؛ وكان لا يستقبل أحداً من أرباب دولته بأمر بل يراجعون القصص مع الخدام، فيوقع عليها بما يعتمده كتابُ الإنشاء؛ وكان يُحب أهل الفضل والدين، وما كان له مِثْل لمطالعة الكتب؛ وكان كثير العزلة والانفراد، وله نَهْمَةٌ باللعب بالصَّوالجة، وفي إنشاء الأبنية العظيمة الفاخرة. إنتهى كلام ابن واصل.

وقال غيره: وكان ملكاً مهيباً جباراً ذا سطوة وجلالة؛ وكان فصيحاً حسن المحاورة عفيفاً عن الفواحش، أمر مماليكه الترك؛ وجرى بينه وبين عمه الملك الصالح أمور وحروب إلى أن أخذ نقابة دِمَشق عام ثلاثة وأربعين، وذهب إسماعيل إلى بعلبك، ثم أخذت من إسماعيل بعلبك، وتعثرت وألتجأت إلى ابن أخته الناصر صاحب حلب. ولما خرج الملك الصالح هذا من مصر إلى الشام خاف من بقاء أخيه الملك العادل فقتله سراً ولم يتمتع بعده؛ ووقعت الأكلة في فخذته (٣) بدمشق. ونزل الأفرنس ملك الفرنج بجيوشه على دِمياط فأخذها، فسار إليه الملك الصالح في محفة حتى نزل المنصورة عليلاً، ثم عرض له إسهال إلى أن مات في ليلة

(١) زيادة عن الذهبي.

(٢) الجوكندار: كلمة فارسية مركبة من كلمتين: جوكان، ومعناها الصولجان؛ ودار ومعناها حامل أو صاحب. والجوكندار هو حامل الصولجان في لعب الكرة أو الصوالجة.

(٣) في الأصل: «خده» وما أثبتناه عن الذهبي. وهو يوافق ما أورده في الحاشية (١) ص ٢٩١ من هذا الجزء، فليراجع. — والأكلة: الحكمة.

النصف من شعبان بالمنصورة، وأخفي موته حتى أحضروا ولده الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا وملكوه.

وقال سعد الدين: إن ابن عمه فخر الدين نائب السلطنة أمر بتحليف الناس لولده الملك المعظم توران شاه، ولولي عهده فخر الدين فتقرر ذلك، وطلبوا الناس فحضرُوا وحلّفوا إلا أولاد الناصر داود صاحب الكرك توقّفوا، وقالوا: نشتهي [أن] نبصر السلطان، فدخل خادم وخرج وقال: السلطان يُسلم عليكم، وقال: ما يشتهي أن تروه في هذه الحالة، وقد رسم لكم أن تحلفوا. فحلّفوا؛ وكان للسلطان مدة من وفاته ولا يعلم به أحد، وزوجته شجرة الدر تُوقّع مثل خطّه على التواقيع - على ما يأتي ذكره - ولما حلف أولاد الناصر صاحب الكرك جاءتهم المصيبة من كل ناحية، لأن الكرك راحت من يدهم، وأسودت وجوههم عند أبيهم، ومات الملك الصالح الذي أمّله وأعطوه الكرك؛ ثم عقيب ذلك نفّوهم من مصر. ثم إن الأمير فخر الدين نفّذ نسخة الأيمان إلى البلاد، ثم كل ذلك والسلطان لم يظهر موته. قال: وكانت أمّ ولده شجرة الدر ذات رأي وشهامة، فدبرت أمر الملك الصالح وأخفت موته. وهي التي وليت الملك مدة شهرين بعد ذلك، وحُطِب لها على المنابر بمصر وغيرها - على ما يأتي ذكر ذلك في محله إن شاء الله تعالى. ثم ملك بعدها الأتراك إلى يومنا هذا. انتهى.

وقال الشيخ شمس الدين يوسف بن قزوغلي في تاريخه مرآة الزمان - بعد ما ذكر أسم الملك الصالح ومولده قال -: «ولما ملك مصر أجتهد في خلاص ولده المغيث فلم يقدر. قلت (يعني المغيث الذي كان حبسه الملك الصالح إسماعيل بقلعة دمشق في مبادئ أمر الملك الصالح). قال: وكان مهيباً، هيئته عظيمة، جبّاراً أباد الأشرفية وغيرهم. وقال جماعة من أمرائه: والله ما نقعد على بابه إلا ونقول من ها هنا نحمل إلى الجبوس؛ وكان إذا حبس إنساناً نسيه، ولا يتجاسر أحد أن يخاطبه فيه، وكان يحلف أنه ما قتل نفساً بغير حقّ. قال صاحب المرأة: وهذه مكابرة ظاهرة؛ فإنّ خواص أصحابه حكوا أنه لا يمكن إحصاء من قتل من الأشرفية وغيرهم، ولولم يكن إلا قتل أخيه العادل [لكفى]. قال: وكانت عتيقته شجرة الدر

تكتب خطأً يُشبه خطه، فكانت تعلّم على التواقيع، وكان قد نسر مخرج السلطان وأمتدّ إلى فخذة اليمنى ورجله ونحل جسمه وعمّلت له محفّة يركب فيها، وكان يتجلّد، ولا يطّلع أحدٌ على حاله؛ ولما مات حُومل تابوته إلى الجزيرة فعُلّق بسلاسل حتى قُبر في تربته إلى جانب مدرسته بالقاهرة».

قلت: وذكر القطب اليونيني^(١) في كتابه الذيل على مرآة الزمان، قال في ترجمة البهاء زهير كاتب الملك الصالح قال:

فلما خرج الملك الصالح بالكرك من الاعتقال وسار إلى الديار المصرية، كان بهاء الدين زهير المذكور في صحبته، وأقام عنده في أعلى المنازل وأجلّ المراتب، وهو المشار إليه في كتاب الدرج والمقدّم عليهم، وأكثرهم اختصاصاً بالملك الصالح واجتماعاً به. وسيّره رسولاً في سنة خمس وأربعين وستمائة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب منه إنفاذ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل إليه فلم يُجب إلى ذلك، وأنكر الناصر هذه الرسالة غاية الإنكار، وأعظمها وأستصعبها، وقال: كيف يسعني أن أسير عمّه إليه، وهو خال أبي وكبير البيت الأيوبي حتى يقتله، وقد أستجار بي! والله هذا شيء لا أفعله أبداً. ورجع البهاء زهير إلى الملك الصالح نجم الدين بهذا الجواب، فعظّم عليه وسكت على ما في نفسه من الحنق. وقبل موت الملك الصالح نجم الدين أيوب بمُدَيْدَة سيرة - وهو نازل على المنصورة - تغير على بهاء الدين زهير وأبعده لأمر لم يطّلع عليه أحد. قال: حكى لي البهاء أن سبب تغيره عليه أنه كتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليُعَلِّم عليه على العادة، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر: «أنت تعرف قلّة عقل ابن عمّي، وأنه يحبّ من يعظّمه ويعطيه من يده فأكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه»، وسيّر الكتاب إلى البهاء زهير ليغيّره، والبهاء زهير مشغول، فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان وأمره بختمه، فختمه وجّهزه إلى الناصر

(١) هو قطب الدين موسى بن أحمد اليونيني. صنّف ذيلاً على مرآة الزمان. توفي سنة ٥٧٢٦ هـ.

على يد نجّاب، ولم يتأمّله فسافر به النجّاب لوقته؛ وآستبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليُعَلِّم عليه؛ ثم سأل عنه بهاء الدين زهير بعد ذلك، وقال له: ما وقفت على ما كتبتّه بخطّي بين الأسطر؟ قال البهاء زهير: ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمّه! وأخبره أنّه سير الكتاب مع النجّاب، فقامت قيامة السلطان، وسيروا في طلب النجّاب فلم يدركوه؛ ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك فعظّم عليه وتألّم له، ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح، وهو يعتبّ فيه العتب المؤلّم، ويقول له فيه: والله ما بي ما يصدر منك في حقّي، وإنما بي اطلاع كتابك على مثل هذا! فعزّ ذلك على الملك الصالح، وغضب على بهاء الدين زهير، وبهاء الدين لكثرة مروءته نسب ذلك إلى نفسه ولم ينسبه لكاتب الكتاب، وهو فخر الدين بن لقمان - رحمه الله تعالى - . قال: وكان الملك الصالح كثير التخيّل والغضب والمؤاخذه على الذنب الصغير والمعاقبة على الوهم، لا يقبل عثرة ولا يقبل معذرة ولا يرضى سالف خدمة، والسيئة عنده لا تُغفر، والتوسّل إليه لا يقبل، والشفائع لديه لا تؤثر، فلا يزداد بهذه الأمور التي تسلّ سخائم الصدور إلا أنتقاماً. وكان ملكاً جباراً متكبراً شديد السطوة كثير التجبّر والتعاضم على أصحابه وندمائه وخواصه، ثقیل الوطأة، لا جرّم أن الله تعالى قصر مدّة ملكه وأبتلاه بأمراض عديم فيها صبره. وقتل ممالیکه ولده توران شاه من بعده؛ لكنه كان عنده سياسة حسنة ومهابة عظيمة وسعة صدر في إعطاء العساكر والإنفاق في مهمّات الدولة، لا يتوقّف فيما يخرج في هذا الوجه؛ وكانت همّته عالية جداً، وأماله بعيدة، ونفسه تحدّثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها والتغلب عليها، وأنزاعها من يد ملوكها، حتى لقد حدّثته نفسه بالاستيلاء على بغداد والعراق؛ وكان لا يمكن القويّ من الضعيف، وينصف المشروف من الشريف؛ وهو أول من آستكثر من الممالیک من ملوك البيت الأيوبيّ، ثم آقتدوا به لما آل الملك إليهم.

قلت: ومن ولي مصر بعد الصالح من بني أيوب حتى آقتنى الممالیک! هو آخر ملوك مصر، ولا عبرة بولاية ولده الملك المعظم توران شاه، اللهم إن كان الذي بالبلاد الشاميّة فيمكن، وأمّا بمصر فلا.

وكانت ولايته بمصر تسع سنين وسبعة أشهر وعشرين يوماً لأنه ولي السلطنة في عشرين ذي الحجة سنة سبع وثلاثين، ومات في نصف شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة. إنتهى.

قال: ولما مات الملك الصالح نجم الدين لم يحزن لموته إلا القليل، مع ما كان الناس فيه من قصد الفرنج الديار المصرية وأستيلائهم على قلعة منها، ومع هذا سرَّ معظم الناس بموته حتى خواصه، فإنهم لم يكونوا يأمنون سطوته ولا يقدرّون على الاحتراز منه. قال: ولم يكن في خلقه الميل لأحد من أصحابه ولا أهله ولا أولاده ولا المحبة لهم ولا الحنو عليهم على ما جرت به العادة. وكان يلزم في خلواته ومجالس أنسه من الناموس^(١) ما يلازمه إذا كان جالساً في دسّ السلطنة. وكان عفيف الذيل طاهر اللسان قليل الفُحش في حال غضبه، ينتقم بالفعل لا بالقول — رحمه الله تعالى — إنتهى ما أوردناه في ترجمة الملك الصالح من أقوال جماعة كثيرة من المؤرّخين ممن عاصره وبعدهم، فمنهم من شكر ومنهم من أنكر.

قلت: وهذا شأن الناس في أفعال مُلوّكهم؛ والحاكم أحد الخصمين غضبان منه إذا حكم بالحق، فكيف السلطان! وفي الجملة هو عندي أعظم ملوك بني أيوب وأجلهم وأحسنهم رأياً وتدبيراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو أخو جدّه الملك العادل أبي بكر بن أيوب؛ ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلّده على مقابلة العدو بالمنصورة، وهو بتلك الأمراض المُزمنة المذكورة وموته على الجهاد، والذبّ عن المسلمين. — والله يرحمه. ما كان أصبره وأغزر مُروءته!

ولما مات رثاه الشعراء بعدة مرّات. وأمّا مدائحه فكثيرة من ذلك ما قاله فيه كاتبه وشاعره بهاء الدين زهير من قصيدته التي أولها: [الكامل]

وعَدَ الزِيارَةَ طَرْفُهُ المُتَمَلِّقُ وبِلاءِ قَلْبِي من جَفونٍ تَنطِقُ
إِنِّي لأهُوى الحَسَنَ حَيْثُ وَجَدْتُهُ وَأهِيمُ بِالقَدِّ الرَشِيقِ وَأَعشَقُ

(١) الناموس هنا بمعنى الهيبة والوقار.

يا عاذلي أنا من سمعت حديثه
لو كنت منا حيث تسمع أو ترى
ورأيت أطف عاشقين تشاكيا
أيسومني العذال عنه تصبرا
إن عنفوا أو سوفوا أو خوفوا
أبدأ أزيد مع الوصال تلها
يا قاتلي إني عليك لمشفق
وأذاع أنني قد سلوتك معشر
ما أطمع العذال إلا أنني
وإذا وعدت الطيف منك بهجعة
فعلام قلبك ليس بالقلب الذي
وأظن قدك شامتاً لفراقنا
ولقد سعت إلى العلاء بعزيمة
وسريت في ليل كأن نجومه
حتى وصلت سرادق الملك الذي
ووقفت من ملك الزمان بموقف
فإليك يا نجم السماء فإني
الصالح الملك الذي لزمانه
ملك تحدثت عن أبيه وجدّه
سجدت له حتى العيون مهابة

ففساك تحنو أو لعلك ترفق
لرأيت ثوب الصبر كيف يمزق
وعجبت ممن لا يحب ويعشق
وحياته قلبي أرق وأشفق
لا أنتهي لا أنثني لا أفرق
كالعقد في جيد المليحة يلق
يا هاجري إني اليك الشيق
يا رب لا عاشوا لذلك ولا بقوا
خوفاً عليك إليهم أتملق
فأشهد علي بأنني لا أضدق
قد كان لي منه المحب المشفق
فلقد نظرت إليه وهو مخلق
فقضى لسعي أنه لا يحقق
من فرط غيرتها إلي تحدق
تقف الملوك ببابه تسترزق
ألفت قلب الدهر منه يحقق
قد لاح نجم الدين لي يتألق
حسن يتيه به الزمان ورونق
نسب لعمرى في العلاء لا يلحق
أو ما تراها حين يقبل تطرق

والقصيدة أطول من هذا تركتها خوف الإطالة والملل.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد على مصر

وهي سنة تمانٍ وثلاثين وستمائة .

فيها سلّم الملك الصالح إسماعيل الشَّقِيف^(١) لصاحب صَيْدَاء الفرنجِيّ، وعزل عزّ الدين بن عبد السلام عن الخطابة وحجسه، وحبس أيضاً أبا عمرو بن الحاجب^(٢) لأنّهما أنكرا عليه فعله^(٣)، فحبسهما مدّة ثم أطلقهما؛ ووُلّي العِمَاد ابن خَطِيب بيت الأَبَار الخَطَابَةَ عَوْضاً عن ابن عبد السلام .

وفيها ظهر بالروم رجل تُرْكَمَانِيّ يقال له البابا وأدعى النبوة، وكان يقول قولوا: لا إله إلا الله البابا وليّ الله، وأجتمع إليه خلق كثير؛ فجهّز إليه صاحب الروم جيشاً فالتقوا، فقتل بينهم أربعة الآف، وقُتِل البابا المذكور. قال أبو المظفر:

«وفيها ذكر أنّ بمارَندِران — وهي مدينة العجم — عين ماء يطلعُ منها في كلّ ستّ وثلاثين سنة حيّة عظيمة مثل المنارة، فتقيم طول النهار، فإذا غربت الشمس غاصت الحيّة في العين فلا تُرى إلّا مثل ذلك الوقت؛ وقيل: إنّ بعض ملوك العجم جاء بنفسه إليها في مثل ذلك اليوم، وربطها بسلاسل حتى يُعوقها، فلمّا غربت الشمس غاصت في العين، وهي إلى الآن إذا طلّعت رأوا السلاسل في وسطها» .

قلت: ولعلها لم تتعرّض لأحد بسوء، وإلّا فكان الناس تحيلوا في قتلها وقتلوها بأنواع المكاييد. وأمرُ هذه الحيّة مشهور ذكره غير واحد من المؤرّخين .

(١) راجع ص ٣٩، حاشية (٣).

(٢) هو الشيخ حمّال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب. توفي سنة ٦٤٦ هـ .

(٣) وكان الشيخ عر الدين بن عبد السلام قد ترك الدعاء له في الخطبة. ولما ترك دمشق، أرسل السلطان الملك الصالح إسماعيل إليه وهو في الطريق رسولاً يتلطف به في العود إلى دمشق ويقول له: «ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير، فقال له الشيخ: يا مسكين، ما أرضاه يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده يا قوم، أنتم في واد وأنا في واد، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم.» (انظر حسن المحاضرة: ٢/١٣٠).

وفيها وصل الملك الناصر داود من مصر إلى غَزّة، وكان بينه وبين الفرنج وقعة، وكسّرهم فيها وغنم منهم أشياء كثيرة.

وفيها تُوفّي أبو بكر محمد بن عليّ بن محمد الشيخ الإمام محيي الدين العالم المشهور بآبن عربي الطائي الحاتميّ في شهر ربيع الآخر، وله ثمان وسبعون سنة، وكان إماماً في علوم الحقائق، وله المصنّفات الكثيرة. وقد اختلف الناس في تصانيفه وأقواله اختلافاً كبيراً. قال: وكان يقول: أعرف الاسم الأعظم، وأعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب، وكانت وفاته بدمشق ودُفن بقاسيون بتربة القاضي محيي الدين [بن الزكيّ]^(١). ومن شعره في جزار: [الكامل]

ناديتُ جَزَاراً تَرُوقُ صفاته قد أخرجتُ سُمراً القَنَا حركاته
يا واضعَ السُّكينِ في فَمِهْ وقد أهدى بها ماءَ الحياةَ لهائته
ضَعُها على المذبوحِ ثانيَ كَرَّةٍ وأنا الضمّينِ بأنْ تعودَ حياته

قلت: وأحسن من هذا قول البرهان القيراطي^(٢) - رحمه الله - في المعنى:

[مجزوء الرمل]

رُبُّ جَزَارٍ هِوَاهُ صار لي دَمّاً ولحمًا
فُزْتُ بالألّية منه وأمتلا قلبي شَحْمًا

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي أبو عليّ أحمد بن محمد بن محمود الحرّانيّ ثم البغداديّ في المحرّم. والعلامة القاضي نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسيّ الشافعيّ مدرس العُدراوية في شِوَال. وخطيب داريا سَمَح بن ثابت. وجمال الملك عليّ بن مختار العامريّ ابن الجَمَل في شعبان، وله تسعون سنة. ومحيي الدين أبو بكر محمد بن عليّ بن محمد بن العربيّ الطائي الحاتميّ المُريسيّ، وله ثمان وسبعون سنة. مات في شهر ربيع الآخر.

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) هو برهان الدين إبراهيم بن شرف الدين عبد الله بن محمد بن عسكر القيراطي الشافعي توفي سنة

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمس أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً
وتسع أصابع.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر

وهي سنة تسع وثلاثين وستمائة.

فيها شرع الملك الصالح المذكور في عمارة المدارس^(١) بين القصرين من القاهرة، وشرع أيضاً في بناء قلعة^(٢) الجزيرة، وأخذ أملاك الناس، وأحرب نيماً وثلاثين مسجداً، وقطع ألف نخلة، وغرم عليها خراج مصر سنين كثيرة؛ فلم تقم بعد وفاته، وأحربها مماليكه الأتراك سنة إحدى وخمسين وستمائة.

وفيها تُوفِّي أحمد بن الحسين بن أحمد الشيخ الإمام العالم شمس الدين النحوي الإربليّ ثم الموصليّ الضّرير [المعروف بابن الخبّاز] صاحب التصانيف. كان إماماً بارعاً مفتناً عالماً بالنحو واللغة والأدب. ومن شعره في العناق: [السريع]

كأنني عانقت ریحانةً تنفّست في ليلها البارد
فلو ترانا في قميص الدجى حبستنا في جسد واحد

(١) هي المدارس التي أنشأها الملك الصالح بخط بين القصرين من القاهرة باسم «المدرسة الصالحية» كما هو مذكور في اللوحة المثبتة فوق الباب العمومي لهذه المدارس بأسفل المئذنة. وكان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقي (القصر الفاطمي الكبير). وقد ذكرها المقرئ في خطه: ٣٧٤/٢. وكانت هذه المدرسة تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ستة آلاف متر مربع، وكانت تتكون من قسمين، في كل قسم إيوانان؛ فكان بها أربعة أو اوين للمذاهب الأربعة: الحنبلي والشافعي والمالكي والحنفي. وهي أول مدرسة أنشئت بمصر للمذاهب الأربعة معاً. وسبب ذلك عرفت باسم المدارس الصالحية. ولم يبق من هذه المدرسة إلى اليوم إلا وجهتها الغربية التي بها الباب العمومي المشرف على شارع بين القصرين وتعلوه مئذنتها. وبقي وراء هذه الواجهة الغربية إيوان المدرسة المالكية ونقايا إيوان المدرسة الشافعية بمحاربه وما بقي يحتجب اليوم وراء سبيل خسرو باشا وما يجاوره من دكاكين بشارع بين القصرين ووراء دكاكين شارع الصرمانية. (عن تعليقات الاستاذ محمد رمزي).

(٢) راجع ص ٢٨٣ من هذا الجزء، حاشية (٣)

قلت: ومثل هذا قول العلامة أبي الحسن عليّ^(١) بن الجهم
— رحمه الله تعالى — . [الطويل]

سقى الله ليلاً ضمناً بعد هَجَعَةٍ وأدنى فؤاداً من فؤادٍ معذبٍ
فبتنا جميعاً لو تُراق زُجاجةٌ من الخمر فيما بيننا لم تَسْرَبِ

ومثل هذا قول القائل^(٢): [البيسط]

لا والمنازل من نَجِدٍ وليلتنا بالخيف^(٣) إذ جسدانا بيننا جَسَدُ
كم رام منا^(٤) الكرى من لطف مسلكه نوماً فما أنفك لا خدٌ ولا عَضُدُ

ومثل هذا أيضاً قول [أبن] التَّعاوِذي^(٥) — رحمه الله تعالى — : [الطويل]

فكم ليلةٌ قد بُتْ أَرْشَفُ ريقه وجُرْتُ على ذاك الشَّيْبِ المُنْضِدِ
وبات كما شاء الغرامُ معانقي وبِتْ وإياه كحرفٍ مشدِّدِ

وقد خرجنا عن المقصود ولنرجع لِمَا نحن بصدده .

وفيها توفي موسى بن يونس بن محمد بن مَنَعَة بن مالك العَلَّامة كمال الدين
أبو الفتح المَوْصلي الشافعي . مولده في صفر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة
بالموصل، وتفقه على والده وغيره، وبرع في عدّة علوم .

قال ابن خلكان — رحمه الله — : وكان الشيخ يَعْرِفُ الفقه والأصليين
والخلاف والمنطق والطبيعي والإلهي والمَجْسطي وإقليدس والهيئة والحساب

(١) تقدمت وفاته في حوادث سنة ٥٢٤٩ هـ

(٢) هو محمد بن محمد بن عروس الشيرازي، الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٢٨٠ هـ، كما جاء في فوات
الوفيات . وقد ذكر صاحب الفوات هذين البيتين واللذين قبلهما لعلي بن الجهم في مناظرة حرت بين
الاثنتين

(٣) في الفوات: «بقيد» .

(٤) في الفوات: «فينا» .

(٥) راجع حوادث سنة ٥٥٨٣ هـ .

والجبر والمقابلة والمِسَاحَة والمُوسِيقَى معرفة لا يشاركه فيها غيره. ثم قال بعد ثناء زائد إلا أنه كان يُتَّهَم في دينه لكون العلوم العقلية غالباً عليه.

وعمل فيه العِمَاد المَغْرِبِي وهو عمر^(١) بن عبد النور الصَّنْهَاجِي النَحْوِي هجواً

— رحمه الله تعالى — : [الطويل]

أجَدُّكَ أَنْ قَدْ جَاءَ بَعْدَ التَّبَسُّرِ غَزَالٌ بَوَصَلَ لِي وَأَصْبَحَ مُؤَنِّسِي
وعَاطِيتِهِ صَهْبَاءٌ مِنْ فِيهِ مَزْجُهَا كَرْقَةٌ شِعْرِي أَوْ كَلِيدِنِ ابْنِ يُونُسِ

وكان العِمَاد المذكور قد مدَّحه قبل ذلك بأبيات منها: [الطويل]

كَمَالٌ كَمَالُ الدِّينِ لِلْعِلْمِ وَالْعُلَا فِهِيهَاتِ سَاعٍ فِي مَسَاعِيكَ يَطْمَعُ
إِذَا آجَمَعَ النَّظَارُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ فغَايَةُ كُلِّ أَنْ تَقُولَ وَيَسْمَعُوا
فَلَا تَحْسَبُوهُمْ مِنْ عِنَادٍ تَطِيلُ سُوا وَلَكِنْ حِيَاءٌ وَأَعْتِرَافاً تَقْنَعُوا

ومن شعر ابن يونس ما كتبه لصاحب المَوْصِلِ يَشْفَعُ عنده شفاعته، وهو:

[الكامل]

لِئِنْ شَرُفْتُ أَرْضُ بِمَالِكَ قَدْرَهَا^(٢) فَمَمْلَكَةُ الدِّينَا بِكُمْ تَشْرَفُ
بَقِيَّتِ بَقَا نُوْحٍ وَأَمْرُكَ نَافِذٌ وَسَعِيكَ مَشْكُورٌ وَظَلُّكَ مُنْصِيفُ^(٣)
وَمُكِّنْتَ فِي حِفْظِ البَّسِيطَةِ مِثْلَ مَا تَمَكَّنَ فِي أَمْصَارِ فِرْعَوْنَ يُوسُفُ

الذين ذكر الدهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي العلامة شمس الدين أحمد بن الحسين بن أحمد الإزبيلي ثم المَوْصِلِي الضَّرِيرِ النَحْوِي صاحب التصانيف. وأحمد بن يعقوب أبو العِيْنَاء المَارِسْتَانِي الصُّوفِي فِي ذِي الْحِجَّة. والفقيه إِسْحَاقُ بْنُ طَرْخَانَ الشَّاعُورِي فِي رَمَضَانَ، وَلَهُ نَحْوُ تِسْعِينَ سَنَةً. وَأَبُو الطَّاهِرِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ ظَفَرِ النَّابُلْسِي فِي شَوَّالٍ، وَلَهُ خَمْسٌ وَسِتُّونَ سَنَةً. وَأَبُو عَلِيٍّ

(١) توفي سنة ٦٤٩هـ. (انظر ابن خلكان: ٣١٦/٥، ٣١٧).

(٢) في ابن خلكان: «بمالك رَقَّها». وفي البداية والنهاية: «لئن زينت دنيا بمالك أمرها».

(٣) في ابن خلكان والبداية والنهاية:

بقيت بقاء الدهر أمرك نافذٌ وسعيك مشكورٌ وحكمك منصفٌ

الحسن بن إبراهيم بن هبة الله بن دينار الصائغ في جُمادَى الآخرة. وخطيب بيت^(١) لهيأ أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن هبة الله بن رحمة الإسعديّ الحنبليّ في شهر ربيع الآخر. والفقيه عبد الحميد بن محمد بن أبي بكر بن ماض. والعلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس الموصليّ، ذو الفنون في شعبان عن تسع وثمانين سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر

وهي سنة أربعين وستّ مائة.

فيها كان الوباء ببغداد وتزايدت الأمراض. وتُوفِّي الخليفة المستنصر وبويح أبنه المستعصم.

وفيها عزّم الملك الصالح المذكور على التوجّه إلى الشام، فقبل له: البلاد مختلة والعساكر مختلفة فجهّز إليها العساكر وأقام هو بمصر.

وفيها تُوفِّي كمال الدين أحمد بن صدر الدين شيخ الشيوخ بمدينة غزّة في صفر عن ستّ وخمسين سنة، وبني عليه أخوه مُعين الدين قُبة على جانب الطريق، وكان قد كسره الجواد بعسكر الملك الناصر داود صاحب الكرك؛ وقيل: إنّه مات مسموماً. ومن شعره ما كتبه لابن عمّه سعد الدين: [البسيط]

لو أنّ في الأرض جنّاتٍ مُزخرفَةً تحفّ أركانها الولدانُ والخدمُ
ولم تكنْ رأى عينيّ فالوجودُ بها إذ لا أراك وجودُ كلّه عدَمُ

وفيها تُوفِّي الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو جعفر منصور ابن الخليفة

(١) بيت لهيا من قرى غوطة دمشق.

الظاهر بأمر الله محمد آبن الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد آبن الخليفة المستضيء بأمر الله حسن آبن الخليفة المستنجد بالله يوسف العباسي الهاشمي البغدادي. مولده في سنة ثمانٍ وثمانين وخمسائة ببغداد، وأمّه أمّ ولد تركية؛ بُوع بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر بأمر الله في شهر رجب سنة ثلاثٍ وعشرين وستمائة؛ ولما ولي الخلافة نشر العدل في الرعايا وبذل الإنصاف، وقرب أهل العلم والدين، وبنى المساجد والرُّبُط والمدارس، وأقام منارَ الدين وقمعَ المتمرّدة، ونشر السنن وكفّ الفتن. وكان أبيض أشقر الشعر ضَخْمًا قصيرًا، وخطّه الشيب فخضب بالحناء، ثم ترك الخِضاب. ومات في العشرين من جمادى، وقيل: في يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة عن إحدى وخمسين سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام وكُتِم موته، وخطب له يومئذٍ بالجاءع حتى أقبل شرف الدين إقبال الشَّرابيّ ومعه جمع من الخدّام، وسلّم على ولده المستعصم بالله أمير المؤمنين، وأستدعاه إلى سُدة الخلافة ثم عرّف الوزير وأستاذ الدار، ثم طلبوا الناس، وباعوه بالخلافة وتمّ أمره.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفي زين الدين أحمد بن عبد الملك بن عثمان المقدسيّ المحدث الشُّروطيّ. وإبراهيم بن بركات بن إبراهيم الخُشوعيّ في رجب. وعبد العزيز بن محمد بن الحسن بن عبد الله ويعرف بآبن الدجاجة. وعلم الدين عليّ بن محمود آبن الصابونيّ الصُّوفيّ في شوال، وله أربع وثمانون سنة. وأبو الكرم محمد بن عبد الواحد بن أحمد المتوكليّ، المعروف بآبن شُفنين في رجب، وله إحدى وتسعون سنة. والمستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر، وله اثنتان وخمسون سنة، تُوفيّ في جمادى الآخرة، وكانت خلافته ثلاث عشرة سنة.

قلت: لعل الذهبى وهم في مدّة خلافته، والصحيح أنه ولي سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وتُوفيّ سنة أربعين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأربع عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وثلاث أصابع.

السنة الرابعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر

وهي سنة إحدى وأربعين وستمائة.

فيها ترددت الرسل بين السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب المذكور وبين عمه الملك الصالح إسماعيل صاحب الشام [في الصلح]؛ وكان الملك المغيٲ بن الصالح نجم الدين هذا في حبس الصالح إسماعيل صاحب الشام بدمشق، فأطلقه الصالح إسماعيل وخطب للصالح هذا ببلاده، ثم تغير ذلك كله وقبض الصالح إسماعيل ثانياً على الملك المغيٲ بن الصالح نجم الدين وحبسه.

قال أبوالمظفر - رحمه الله - : « وفيها قدمت القاهرة وسافرت إلى الإسكندرية في هذه السنة، فوجدتها كما قال الله تعالى : ذات قرارٍ ومعينٍ معمورةً بالعلماء، معمورةً بالأولياء، [الذين هم في الدنيا شامة] ^(١) : كالشيخ محمد القباري والشاطبي وآبن أبي أسامة. وهي أولى بقول القيسراني رحمه الله في وصف دمشق : [البيسط]

أرضٌ تحلّ الأمانى من أماكنها بحيثُ تجتمعُ الدنيا وتفترقُ
إذا شدى الطير في أغصانها وقفتُ على حدائقها الأسماعُ والحدقُ

قلت: وأين [قول] أبي المظفر من قول مجير الدين بن تميم في وصف الإسكندرية! : [الكامل]

لما قصدتُ سكندرية زائراً ملأتُ فؤادي بهجةً وسُروراً
ما زرتُ فيها جانباً إلا رأته عيناي فيها جنةً وحريراً

وفيها صالح صاحب الروم التناز على أن يدفع إليهم في كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً وجارية وكلبٌ صيد؛ وكان صاحب الروم يومئذ آبن علاء الدين كيٲباز، وهو شابٌ لعابٌ ظالمٌ قليلٌ العقل، يلعب بالكلاب والسباع ويسلٲها على الناس فعضه بعد ذلك سبع فمات، فأقام التناز شحنةً على الروم.

(١) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

وفيهما تُوْفِي الشيخ نجم الدين خليل بن علي بن الحسين الحموي الحنفي الفقيه. قديم دِمَشق وتفقّه بها وخدم المعظم ودرّس في الرّيحانيّة بدمشق، وناب في القضاء بها عن الرّفيح^(١). ومات في شهر ربيع الأوّل ودُفِن بقاسيون.

وفيهما تُوْفِي مظفر الدين الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. وقد تقدّم من ذكره نبذة كبيرة عند وفاة الملك الكامل محمد بدمشق. إنتهى. وكان مظفر الدين هذا قد جاء إلى أبي عمّه الملك المعظم لما وقّع بينه وبين الملك الكامل صاحب مصر [ما وقع] فأحسن إليه المعظم، ثم عاد إلى مصر لما مات الملك الأشرف موسى شاه أرمن، فأقام بها عند الكامل إلى أن عاد صحبته إلى دِمَشق وأقام بها إلى أن مات الكامل فملكوه دِمَشق، حسب ما حكيناه في ترجمة الكامل والعادل أبنه، ووقّع له بعد ذلك أمور. وكان جواداً كما أسمه، ويحبّ الصالحين والفقراء.

قال أبوالمظفر: «إلاّ أنّه كان حوله منّ ينهب الناس ويظلم وينسب ذلك إليه». قلت: ثمّ قبض عليه عمه الملك الصالح إسماعيل وأعتقله، فطلبه الفرنج لصحبة^(٢) كانت بينهم، فخنقه ابن يغمور وقال: إنّه مات، وكان ذلك في شوال، ودفن بقاسيون دِمَشق في تربة المعظم. وأمّا ابن يغمور فإنه حُبس بإذن الصالح بقلعة دِمَشق، ثم شنقه الملك الصالح أيوب لما ملك دِمَشق. بعث به ابن شيخ

(١) هو عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل، أبو حامد الملقب بالرّفيح، قاضي القضاة بدمشق. سيذكره المؤلف في حوادث سنة ٦٤٢ هـ.

(٢) ذكر سبط ابن الجوري في مرآة الزمان عن الملك الجواد هذا أنه لما تقلّبت به الأحوال سبب خلافه مع أبناء أسرته، قصد الصليبيين وأقام معهم، وحضر معهم غزوهم قلنسوة، وأنهم قتلوا ألفاً من أهلها المسلمين وهو لا يجرّك ساكناً. وقد انفرد القلقشندي في صبح الأعشى بإيراد نص رسالة هامة من الملك الجواد إلى فردريك الثاني ملك بيت المقدس، وهي توضح العلاقات المتينة التي كانت تربط الجواد بالصليبيين. ومن المعروف عن الجواد أنه كان فيه طيش وحمق وتبذير، وكان يقول: «مالي وللملك! ناز وكلت أحبّ إليّ منه!». (انظر صبح الأعشى: ١٢٤/٧؛ والقلقشندي وكتابه صبح الأعشى بحث حول وثائق صبح الأعشى للدكتور عبد القادر طليعات، ص ١١٩؛ والأعلام: ٢٦٣/٨).

الشيخ إلى مصر، فحبسه الصالح بالجُبِّ، ثم شنقه بعد مدّة هو وأمّين^(١) الدولة على قلعة القاهرة.

وفيها توفي الشيخ الصالح الزاهد أبو بكر [الشُّعَيْبِي] ^(٢)؛ كان من أهل مَيَّافَرِقِينَ وكان من الأبدال، بعث إليه غازي صاحب مَيَّافَرِقِينَ مراراً يسأله الإذن في الزيارة، فلم يأذن له، فقيل له: هل يطرقُ البلادَ التَّارُ؟ فرفع رأسه إلى السماء وأنشد: [الطويل]

وما كُلُّ أسرار القلوب مباحةٌ ولا كُلُّ ما حلَّ الفؤادُ يُقالُ

ثم خرج إلى الشُّعَيْبِيَّة وهي قرية هناك وقال: إحفروا لي ها هنا، فبعد يومين أموت، فمات بعد يومين - رحمه الله تعالى - .

الذين ذكر الذهبِي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفِّي أبو تَمَّام عليّ ابن أبي الفَخَّار هبة الله بن محمد الهاشمي خطيب جامع آبن المَطَّلِب [بيغداد] ^(٣)، وله تسعون سنة. وأبو الوفاء عبد الملك بن عبد الحق [بن عبد الوهَّاب بن عبد الواحد] ^(٣) بن الحنبلي. وأمّ الفضل كريمة بنت عبد الوهَّاب القرشيَّة في جمادى الآخرة. والعدل أبو المكارم عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عبد الواحد [بن محمد] ^(٣) بن هلال في رجب. وأبو طالب عبد اللطيف بن محمد بن عليّ بن القُبَيْطِيّ التاجر، وله ستُّ وثمانون سنة. وأبو محمد عبد الحق بن حَلْف الحنبليّ. وأبو الرضا عليّ بن زيد التَّسَارِسِيّ ^(٤) الخياط بالثغر. والأعز بن كرم بن محمد الإسكاف. والقاضي شمس الدين عمر بن أسعد بن المُنْجَا الحنبليّ، وله أربع وثمانون سنة. والحافظ تقي الدين إبراهيم بن محمد بن الأزهر بدمشق، وله ستون

(١) هو أمّين الدولة بن غزال بن أنسي سعيد، أبو الحسن. كان سامرياً وأسلم في دمشق. استوزره الملك الأجد

بهرام شاه ثم استوزره الملك الصالح إسماعيل. (الأعلام: ١٧/٢؛ وفيه أنه قتل سنة ٦٤٨هـ).

(٢) زيادة من طبعة دار الكتب عن مرآة الزمان.

(٣) زيادة عن الشذرات.

(٤) التَّسَارِسِيّ: نسبة إلى تسارس، قصر ببرقة. (معجم البلدان).

سنة. وقصر بن فيروز المقرئ البواب في رجب. وقاضي القضاة الرفيع الحنبلي في آخر السنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع، وقيل أكثر. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وثمانى أصابع.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر

وهي سنة اثنتين وأربعين وستمائة.

فيها توفي شهاب^(١) الدين أحمد [بن محمد]^(٢) بن الناقد وزير الخليفة. كان أبوه وكيل أم الخليفة الناصر لدين الله، ونشأ أبه هذا وتنقل في الخدم حتى ولي الوزارة للخليفة المستنصر، ولقب مؤيد الدين، وحسنت سيرته. وكان رجلاً صالحاً فاضلاً عفيفاً ديناً صار في وزارته أحسن سيرة - رحمه الله تعالى - .

وفيها توفي شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر [بن علي]^(٣) بن محمد بن حمويه. كان فاضلاً نزهاً شريف النفس عالي الهمة؛ صنّف التاريخ^(٤) وغيره، وكان معدوداً من العلماء الفضلاء. ومات في صفر.

وفيها قُتل القاضي الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل أبو حامد الملقب بالرفيع. قال أبو المظفر في تاريخه: قيل إنه كان فاسد العقيدة دهرياً مستهتراً بأمور الشريعة، يخرج إلى الجمعة سكران، وكذلك كان يجلس في مجلس الحكم، وكانت داره مثل الحانات؛ قبض عليه أمين الدولة ويعث به في الليل إلى بعلبك، وصودر هناك، وباع أملاكه؛ وبعد ذلك جاءه داود النصراني فقال:

(١) في البداية والنهاية والفخري: «نصير الدين أبو الأزهر».

(٢) زيادة عما سبق.

(٣) زيادة عما سيأتي.

(٤) لعله كتاب «عطف الذيل» في التاريخ. (الأعلام: ٤/١١٠).

قد أمرنا بحملك إلى بعلبك، فأيقن بالهلاك؛ فقال. دَعُونِي أُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ! فقال له داود: صَلِّ، فقام يُصَلِّي فأطال، فرَفَسه داود من رأس شقيف مطل على نهر إبراهيم فوقع، فما وصل إلى الماء إلا وقد تقطع - وقيل: إِنَّه تعلق بذيله بسنّ الجبل فما زال داود يضربه بالحجارة حتى قتله - قلت: لا سُلت يداه! فإنه كان من مساويء الدنيا!

وفيهما توفي الملك المُغيث عمر بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب الترجمة؛ مات في حياة والده الملك الصالح في حبس دِمَشق - بعد أن عجز والده في خلاصه - في يوم الجمعة ثاني عشرين شهر ربيع الآخر، وحُمل إلى تربة جدّه الملك الكامل محمد فُدفن بها؛ وكان شاباً حسناً عاقلاً ديناً. وقد مرّ من ذكره نبذة كبيرة في عدّة مواضع من هذا الكتاب.

وفيهما توفي شمس الأئمة محمد بن عبد الستار^(١) بن محمد الإمام العلامة فريد دهره ووحيد عصره المعروف بشمس الأئمة الكُردي^(٢) البراتقيني الحنفي. وبراتقين: قسبة من قصبات كرّدر من أعمال جرجانية. قال الذهبي: كان أستاذ الأئمة على الإطلاق والموفود إليه من الآفاق؛ برع في علوم، وأقرأ في فنون؛ وأنتهت إليه رئاسة الحنفيّة في زمانه. إنتهى قلت: وشمس الأئمة أحد العلماء الأعلام وأحد من سار ذكره شرقاً وغرباً، وانتشرت تصانيفه في الدنيا - رحمه الله تعالى - .

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي شيخ الشيوخ تاج الدين عبد الله بن عمر بن عليّ الجويني في صفر، وله سبعون سنة. وأبو المنصور ظافر بن طاهر [بن ظافر بن إسماعيل]^(٣) بن سحم الأزدي المطرّز بالإسكندرية في شهر ربيع الأول. وأبو الفضل يوسف بن عبد المعطي بن منصور بن نجا العسالي. ابن المَخيليّ أحد رؤوس الثغر في جمادى الآخرة، وله أربع وسبعون سنة.

(١) في الشذرات: «محمد بن عبد الغفار».

(٢) كذا في الشذرات، سببه إلى كردر ناحية بخوارزم. وفي الأصل: «الكردي» وهو تحريف.

(٣) زيادة عن الشذرات

وأبو الضوء قمر بن هلال بن نطّاح القطيبيّ في رجب. وتاج الدين أحمد بن محمد بن هبة الله بن محمد بن الشيرازي في رمضان، وقد نيف على السبعين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً سواء

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر

وهي سنة ثلاث وأربعين وستمئة.

فيها كان الحصار على دِمَشْق من الخُوَارِزْمِيَّة.

وفيها كان الغلاء العظيم بدِمَشْق، وبلغت الغرارة القمح ألفاً وستمئة درهم، وأبيعت الأملاك والأمتعة بالهوان.

وفيها أيضاً كان الغلاء بمصر، وقاسى أهلها شدائد.

وفيها توفي الوزير مُعِين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ أبو عليّ وزير الملك الصالح أيوب، وهو الذي حصر دِمَشْق فيما مضى. كان آستورزه الملك الصالح بعد أخيه عماد الدين، وكانت وفاته بدِمَشْق في شهر رمضان، ودُفِن إلى جانب أخيه عماد الدين المذكور بقاسيون.

وفيها توفي عبد المحسن بن حمود بن [عبد] (١) المحسن أبو الفضل أمين الدين الحلبّي؛ كان كاتباً لعزّ الدين أَيْبِك المعظّمِي، وكان فاضلاً ديناً بارعاً حسن الخط. ومن شعره في إجازة - رحمه الله تعالى -: [المتدارك]

قد أجزتُ الذي فيها إلى ما ألتمسوه مني
[فلهم بعدها رواية ما صح لديهم من الرواية عني] (٢)

(١) زيادة عن الأعلام وفوات الوفيات.

(٢) هذا البيت غير مستقيم الوزن.

وكانت وفاته في شهر رجب، ودُفن بباب^(١) توما.

وفيها تُوفيت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأخت الملك العادل أبي بكر بن أيوب؛ كان تزوجها أولاً سعد الدين مسعود بن معين [الدين] أنر، وبعد موته تزوجها صلاح الدين بن مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، ثم قدمت دمشق، وهي صاحبة الأوقاف، وماتت بدمشق ودُفنت بقاسيون، وقد جاوزت ثمانين سنة.

وفيها توفي أحمد بن عيسى ابن العلامة موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الإمام الحافظ الزاهد سيف الدين بن المجد الحنبلي. وُلد سنة خمس وستمئة. وسمع الحديث الكثير، وكتب وصنف وجمع وخرّج، وكان ثقة حجة بصيراً بالحديث ورجاله، ومات في أول شعبان.

وفيها توفي عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبي نصر، الإمام المفتي تقي الدين أبو عمرو ابن الإمام البارح صلاح الدين النصري الكردي الشهير الشافعي المعروف بأبن الصلاح. ولد سنة سبع وسبعين وخمسمئة وتفقه على والده الصلاح بشهرزور وغيره، وبرع في الفقه والحديث والعربية وشارك في فنون. ومات في شهر ربيع الآخر ودُفن بمقابر الصوفية.

وفيها توفي علي بن محمد بن عبد الصمد العلامة شيخ القراء بدمشق علم الدين أبو الحسن الهمداني السخاوي المصري. ولد سنة ثمانٍ أوتسع وخمسين وخمسمئة؛ وكان إماماً علامة مقرأً محققاً مجوداً بصيراً بالقراءات، ماهراً في النحو واللغة، إماماً في التفسير، مات بدمشق في جمادى الآخرة.

وفيها توفي محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل، الحافظ ضياء الدين أبو عبد الله المقدسي السعدي ثم الدمشقي الصالحي صاحب التصانيف المشهورة. ولد سنة تسع وستين وخمسمئة، وسمع الكثير ورحل

(١) من أبواب دمشق.

البلاد، وكتب وصنّف وحصل شيئاً كثيراً من الأجزاء والأسانيد. ومات يوم الاثنين الثامن والعشرين من جمادى الآخرة، وله أربع وسبعون سنة.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مقرب التُّجَيْبِي الإسكندرِي في صفر. والحافظ أبو العباس أحمد بن محمود بن إبراهيم بن نَبْهَان بن الجوهريّ بدمشق في صفر. والحافظ العلامة تقيّ الدين عثمان بن الصلاح عبد الرحمن بن عثمان الكُرْدِيّ في شهر ربيع الآخر، وله ست وستون سنة. والحافظ سيف الدين أحمد بن المجد عيسى بن الموفق في شعبان. والحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المَقْدِسِيّ في جمادى الآخرة، وله أربع وسبعون سنة. والحافظ الفقيه تقيّ الدين أحمد بن المعزّ محمد بن عبد الغني بن عبد الواحد المَقْدِسِيّ في شهر ربيع الآخر، وله اثنتان وخمسون سنة. والحافظ المفيد تاج الدين محمد بن أبي جعفر [أحمد بن عليّ] ^(١) القُرْطُبِيّ إمام الكَلَّاسَة في جمادى الأولى. والرئيس عزّ الدين أبْن النّسَّابَة محمد بن أحمد بن محمد [بن الحسن] ^(١) بن عَسَاكِر في رجب، وله ثمان وسبعون سنة. والعلامة موفّق الدين يَعِيش بن عليّ بن يعِيش النحويّ بحلب في جمادى الأولى، وله تسعون سنة. والعلامة علم الدين عليّ بن محمد بن عبد الصمد الهَمْدَانِيّ السَّخَاوِيّ المَقْرِيّ المفسّر؛ وله خمس وثمانون سنة في جمادى الآخرة. وأبو غالب منصور بن أحمد بن أبي غالب [محمد بن محمد] ^(١) المَرَاتِيّ أبْن المعوج فيه، وله ثمان وثمانون سنة. وخطيب الجبل شرف الدين عبد الله أبْن الشَّيْخ أبي عمر [محمد] ^(١) المَقْدِسِيّ فيه أيضاً. والحافظ مجد الدين محمد بن محمود بن حسن [بن هبة الله بن مَحَاسِن] ^(١) بن النّجَّار محدث العراق في شعبان، وله خمس وتسعون سنة. والصاحب مُعِين الدين حسن أبْن شَيْخ الشَّيْخ صَدْر الدين محمد بن عمر الجُوَيْنِيّ بدمشق في رمضان. والشَّيْخ أبو الحسن عليّ بن الحسين بن المَقِير النّجَّار بمصر في ذي القعدة، وله ثمان وتسعون سنة. وأبو بكر محمد بن سعد بن المَوْفِق الصُّوْفِيّ بن الخازن ببغداد في ذي الحجة، وله

(١) الزيادة عن الشذرات.

سبع وثمانون سنة. والأمير سيف الدين علي بن قليج، ودُفن بتربته داخل دمشق.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعاً وأربع عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر

وهي سنة أربع وأربعين وستمائة.

فيها تُوفِّي الملك المنصور صاحب حمص، وأسمه إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير أخو أيوب. كان المنصور هذا شجاعاً متواضعاً موافقاً للملك الصالح إسماعيل ومصاهراً له. ومات بدمشق في يوم الأربعاء حادي عشر صفر، وحُمِل في تابوت إلى حمص، ومات وله عشرون سنة. وقام بعده على حمص ولده الأشرف موسى، فأقام بها سنتين وشهوراً وأخذت منه.

وفيها تسلَّم السلطان الملك الصالح أيوب قلعة الصبيبة^(١) من ابن عمه الملك السعيد ابن الملك العزيز، ثم أخذ السلطان أيضاً حصن الصلّت^(٢) من الملك الناصر داود صاحب الكرك.

وفيها قَدِم رسولان من التتار إلى بغداد، أحدهما من بركة خان، والآخر من باجو^(٣)، فأجتمعا بالوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، فتغتمت على الناس بواطن الأمور.

وفيها أخذت الفرنج مدينة شاطبة^(٤) من بلاد المغرب صلحاً، ثم أجلّوا أهلها بعد سنة عنها. فما شاء الله كان.

(١) قلعة الصبيبة: قلعة منبجة في بانياس، من عمل دمشق. (صحح الأعي: ١٠٨/٤).

(٢) حصن الصلّت: في مدينة الصلّت، من جند الأردن، في جبل الغور الشرقي في جوب عجلون. وقد بنى هذا الحصن الملك المعظم عيسى (صحح الأعي: ١١٠/٤).

(٣) كذا في الفخري. وفي الحوادث الجامعة لابن الفوطي: «يايجو». وفي الأصل: «ماخو».

(٤) شاطبة: مدينة بالأندلس، قريبة من جزيرة شقر (الروض المعطار: ٣٣٧).

وفيها توفي بركة خان الخوارزمي أحد الخانات الأربعة، كان أصلحهم في الميل إلى الخير، وكان الملك الصالح نجم الدين - صاحب الترجمة - قد صاهره وأحسن إليه، وجرى منه [عليه] ما جرى في حياة والده الملك الكامل. ولما قُتل انحَلَّ نظامُ الخوارزمية من بعده، وكان قتله بالقرب من حلب في قتال كان بينه وبين صاحب حلب وجمص. وقد تقدّم ذكر ذلك كلّه في أول ترجمة الصالح هذا.

قال الأمير شمس الدين لؤلؤ: لما آلتقينا على جمص رأيتُ الخوارزمية خلَقاً عظيماً، وكنا بالنسبة إليهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض، فقال لي غلmani (يعني مماليكه): أيّما أحبُّ إليك، نأخذ بركة خان أسيراً، أو نحمل رأسه إليك؟ فقلت: رأسه، كأنّ الله أنطقني وألتقينا. فلما كان بعد ساعة وإذا بواحد من أصحابنا يحمل رأساً مليحاً الصُورة وليس في وجهه سوى شعرات يسيرة، ولم يعرفه أحد ولا نحن عرفناه، وأنهزموا، وجيء بطائفة منهم أسارى، فلما رأوا الرأس رمّوا نفوسهم من خيولهم وحثّوا التراب على رؤوسهم، فعلمنا حينئذ أنه رأسه، وبعثنا به إلى حلب.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن حسان بن رافع العامري خطيب الموصلي. وعبد المنعم بن محمد [بن محمد] (١) بن أبي الضياء (٢) الدمشقي بحماة. والزاهد إسماعيل بن علي الكوراني، ودفن بمقابر الصوفية.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستُّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وتسع أصابع.

* * *

(١) زيادة عن الشدرات

(٢) في الشدرات «ابن أبي المضاء»

السنة الثامنة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر

وهي سنة خمس وأربعين وستمائة.

فيها نزل الوزير فخر الدين ابن الشيخ بعسكر الصالح نجم الدين المذكور على طَبْرِيَّة ففتحها عَنوةً، وحاصر عسقلان وقاتل عليها قتالاً عظيماً [وأخذها المسلمون].

وفيها وجَّه الملك الصالح نجم الدين تاج الدين بن مهاجر من مصر إلى دمشق ومعه المبارز نسيبه ومعهما تذكيرة فيها أسماء جماعة من أعيان الدَّمَاشِقَة بأن يُحْمَلُوا إلى مصر فحُمِلُوا، وهم: مُحْيِي الدين بن الزَكِيّ وابن الحَصِيرِيّ وابن العِمَاد الكاتب وبنو صَصْرَى الأربعة، وشرف الدين بن المعتمد وابن الخَطِيب العَقْرَبَانِيّ والتاج [الإسكندرانيّ] ^(١) الملقَّب بالشُّحْرُور وأبو الشامات والحكِيبيّ مملوك إسماعيل وغازي والي بُصْرَى وابن الهادي المُحتَسِب؛ وأخرَج العِمَاد ابن خطيب بَيْت الأَبَار من جامع دِمَشق، وولَّى العِمَادَ الحَرَسَتَانِيّ الخُطَابَةَ عوضاً. وسبب حَمَل هؤلاء الجماعة إلى مصر، أَنَّهُ نُقِلَ إلى الملك الصالح أيوب أَنَّهُم خَوَّصُوا الصالح إسماعيل، فخاف أن يَجْرِي ما جرى في النوبة الأولى من أخذ دِمَشق. ولَمَّا وصلوا إلى مصر حَبَسَ منهم السلطان الملك الصالح جماعةً فأقاموا في الحَبْس إلى أن مات الملك الصالح، فأُخْرِجُوا وعادوا إلى دِمَشق.

الدين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي العلامة أبو عليّ عمر بن محمد الأُرْدِيّ الإِسْبِيلِيّ النَحْوِيّ الشُّلُوبِينِيّ ^(٢) في صَفَر، وله ثلاث وثمانون سنة. وأبو مَدَيْن شُعَيْب بن يحيى الإسكندرانيّ الرُّعْفَرَانِيّ التاجر بمكَّة - شَرَفَهَا اللهُ تعالى - والشيخ عليّ [بن الحسن بن المنصور] ^(٣) الحَرِيرِيّ في رمضان عن سنِّ عالية.

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب عن مرآة الرمان

(٢) الشلوبيني: نسبة إلى الشلوبين، وهي بلغة الأندلس: الأبيض الأشقر (ابن خلكان).

(٣)، زيادة عن فوات الوفيات.

أمر النيل في هذه السنة :
الماء القديم ستُّ أذرع سواء . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وتسع عشرة
إصباعاً .

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر
وهي سنة ستّ وأربعين وستمائة .

فيها قايض الملك الأشرف موسى صاحب جِمْص تَلَّ باشر بحمص مع
الملك الناصر يوسف [بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين] صاحب حلب، ولذلك
خرج الملك الصالح نجم الدين أيوب هذا من مصر بالعساكر حسب ما ذكرناه في
ترجمته، ثم عاد مريضاً لما بلغه مجيء الفرنج إلى دِمِيَاط .

وفيها أخذ الملك الصالح نجم الدين المذكور من الأمير علاء الدين أيديكين
البُنْدُقْدَارِيّ الذي تسلطن [فيما بعد] . إشتهر منه ورقاه إلى أن صار من أمره ما صار .
وفيها زار الملك الصالح في عَوْدِهِ إلى مصر القُدْس الشريف، وأمر أن يُذَرَع
سُورُهُ، فجاء ستة آلاف ذراع، فأمر بأن يصرف مُغَلَّ القُدْس في عمارته . وتصدّق
السلطان الملك الصالح بألفي دينار في الحرم، وزار الخَلِيل - عليه السلام - ثم
عاد إلى مصر .

وفيها تُوفِّي عليّ بن أبي الجنّ بن منصور الشيخ أبو الجنّ . وأبو محمد^(١)
الحريريّ، مقدّم الطائفة الفقراء الحريريّة، وُلِدَ بقرية بُسْر^(٢) وقَدِمَ دِمَشْق صَبِيّاً فنشأ
بها . وفي أحوال الحريريّ هذا أقوال كثيرة، أثنى^(٣) عليه أبو شامة وغيره، وتكلّم فيه
جماعة منهم الذهبيّ وغيره . والله أعلم بحاله . وقال ابن إسرائيل : وتوفّي في الساعة

(١) في الفوات : «أبو الحسن» . وهو الذي ذكره في السنة الماضية عن وفيات الذهبي .

(٢) بسر . من قرى حوران .

(٣) لم يثن عليه أبو شامة في الذيل على الروضتين ولا نعلم أحداً غيره أثنى عليه ؛ وإنما وصفوه بالزندقة
والاستهتار بأمور الشرع ولعلّ التعبير هنا سق قلم من المؤلف أو الناسخ .

التاسعة من يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان سنة خمس وأربعين من غير مرض، وكان أخبر بذلك قبل موته بمدة.

وفيها توفي عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الشيخ الإمام العالم العلامة جمال الدين أبو عمرو المعروف بأبن الحاجب الكردي المالكي النحوي الأصولي صاحب التصانيف في النحو وغيره. مولده في سنة سبعين وخمسائة بإسنا^(١) من بلاد الصعيد، ومات في شوال، وفي شهرته ما يغني عن الإطناب في ذكره - رحمه الله تعالى -.

الذين ذكر الذهبية وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفي أبو علي منصور ابن سند^(٢) بن منصور المعروف بأبن الدبّاح بالإسكندرية في شهر ربيع الأول. وأبو القاسم عبد الله بن الحسين بن عبد الله [بن الحسين بن عبد الله]^(٣) بن راحة الأنصاري في جمادى الآخرة. وله ست وثمانون سنة. وأم حمزة صفيّة بنت عبد الوهاب بن علي القرشيّة أخت كريمة في رجب. والعلامة أبو الحسن علي بن جابر بن الدبّاح الإشبيلي بها عند استيلاء الفرنج عليها. والوزير الأكرم علي بن يوسف جمال الدين القفطي بحلب. والعلامة جمال الدين أبو عمرو عثمان بن الحاجب. وعمرو بن عبد الله بن أبي بكر الإشبيلي في شوال بالإسكندرية، وله ست وسبعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وأربع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثلاث وعشرون إصبعاً.

* * *

(١) إسنا: مدينة مصرية قديمة بالصعيد الأعلى، تقع على الشاطئ الغربي للنيل.

(٢) في الأصل: «أبو علي منصور بن سد بن الدماغ». وما أثناه عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٣) زيادة عن الذهبي

السنة العاشرة من سلطنة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على

مصر

وهي سنة سبع وأربعين وستمائة .

وفيهما كانت وفاته في شعبان، حسب ما تقدّم ذكره .

فيها في أولها كان عود السلطان الملك الصالح المذكور من دِمَشق - حسب ما ذكرناه في العام الماضي - قال الذهبي: وفيها في أولها عاد الملك الصالح إلى الديار المصرية مريضاً في محفة، وكان قد قتل أخاه الملك العادل قبل خروجه من مصر فما هنأه الله . وأستعمل على نيابة دِمَشق الأمير جمال الدين بن يَغْمُور . قال: وفيها ولدت امرأة ببغداد آبنين وبتين في جَوْف، وشاع ذلك فطلبوا إلى دار الخلافة وأحضروا، وقد مات واحد، فأحضر ميتاً فتعجبوا، وأعطيت الأم من الثياب والحلي ما يبلغ ألف دينار .

وفيهما توجه الملك الناصر داود صاحب الكرك إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب، وبلغ السلطان الملك الصالح نجم الدين ذلك، فأرسل إلى نائبه آبن يَغْمُور بدِمَشق بخراب دار أسامة وقطع شجر بستان القصر الذي للناصر داود بالقابون^(١) وخراب القصر، ففعل ذلك .

وفيهما سار الملك الظاهر [شادي] والملك الأمجد أبنا الملك الناصر داود المقدم ذكره من الكرك إلى مصر، وسلم الكرك إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين بغير رضا أبيهما الناصر، فأعطى الملك الصالح للظاهر بن الناصر داود عوضاً عن الكرك خبز^(٢) مائتي فارس بمصر، وخمسين ألف دينار، وثلاثمائة قطعة قماش، والذخائر التي بالكرك؛ وأعطى لأخيه الأمجد إخميم^(٣)، وخبز مائة وخمسين

(١) القابون: على مسافة ميل واحد من دمشق في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين . (معجم البلدان) .

(٢) الخبز في اصطلاح ذلك العصر هو الإقطاع . ولعل المؤلف يستعمله هنا بمعنى العطاء بشكل عام، أو الراتب والجامكية .

(٣) إخميم: بلدة قديمة بصعيد مصر على شاطئ النيل .

فارساً بمصر؛ فلم تَطُلْ مدَّتْهم بمصر ومات الملك الصالح وزال ذلك كله من أيديهم حسب ما تقدّم ذكره، وحسب ما يأتي ذكره أيضاً.

وفيها هاجمت الفرنج دِمياط وأحاطت بها في شهر ربيع الأول، وقد ذكر ذلك كله.

وفيها توفّي الصّاحب فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ [أبي الحسن محمد بن عمر بن عليّ بن محمد بن حمويه الجُورينيّ] (١). كان عاقلاً جَوَاداً ممدّحاً مدبّراً خليقاً بالملك محبوباً إلى الناس. ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب على دِمياط ندب إلى الملك فآمنتع، ولو أجاب لما خالفوه، وآستشهد على دِمياط بعد أخذها. ومن شعره قوله: [الطويل]

عَصِيْتُ هَوَى نَفْسِي صَغِيرًا فَعِنْدَمَا رَمَنِي اللَّيَالِي بِالْمَشِيبِ وَبِالْكِبَرِ
أَطَعْتُ الْهَوَى عَكْسَ الْقَضِيَّةِ لِيَتَنِي خُلِقْتُ كَبِيرًا وَأَنْتَقَلْتُ إِلَى الصُّعْرِ

قلت: ويُذكر هذا الشعر أيضاً لغيره فيما يأتي — إن شاء الله تعالى —.

الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها توفّي أبو يعقوب يوسف ابن محمود بن الحسين الساويّ في رجب بالقاهرة؛ وولد بدمشق في سنة ثمان وستين. والسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل بالمنصورة في شعبان، وله أربع وأربعون سنة. والأمير مقدّم الجيوش فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين الجُورينيّ في ذي القعدة شهيداً يوم وقعة المنصورة. وأبو جعفر محمد بن عبد الكريم بن محمد ببغداد. وصفيّ الدين عمر بن عبد الوهاب بن البرادعيّ في شهر ربيع الآخر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وثمانين أصابع.

(١) زيادة عن الذهبي والشذرات.

ذكر سلطنة الملك المعظم توران شاه^(١) على مصر

هو السلطان الملك المعظم توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين محمد أبي بكر ابن نجم الدين أيوب بن شادي، سلطان الديار المصرية الأيوبي الكردي، آخر ملوك بني أيوب بمصر؛ ولا عبرة بولاية الأشرف في سلطنة الملك المعز أيبك.

تسلطن الملك المعظم هذا بعد موت أبيه الملك الصالح بنحو شهرين ونصف، وقيل: أربعة أشهر ونصف وهو الأصح؛ لأن الملك الصالح أيوب كانت وفاته في ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة، والفرنج مُحَدِّقَةٌ بعساكر الإسلام، فأخفت زوجته أم وليه خليل شجرة الدر موته مخافة على المسلمين، وبايعوا لابنه المعظم هذا بالسلطنة في غيبته، وصارت شجرة الدر تدبر الأمور وتخفي موت السلطان الملك الصالح إلى أن حضر المعظم توران شاه هذا من حصن كَيْفًا إلى المنصورة في أول المحرم من سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة. وكان المعظم هذا نائباً لأبيه الملك الصالح على حصن كَيْفًا وغيرها من ديار بكر.

ولما وصل المعظم إلى المنصورة فتح الله على يديه، ونصر، الله الإسلام في يوم دخوله فتيمن الناس بطلعه. وسبب النصر أنه لما آستهلت سنة ثمانٍ وأربعين والفرنج على المنصورة والجيوش الإسلامية بإزائهم، وقد طال القتال بين الفريقين

(١) أخباره وترجمته في السلوك: ٣٥١/٢/١، وذيل الروضتين: ١٨٥، وكنز الدرر: ٣٨١/٧، والشذرات: ٢٤١/٥، وشفاء القلوب: ٤٢٦، وبدائع الزهور: ٢٧٩/١، وخطط المقرئيين: ٢٣٦/٢، وابن خلكان: ٣٠٦/١.

أشهرًا ضَعْفَ حال الفرنج لانقطاع الميرة عنهم، ووقع في خيلهم وباءٌ وموت، وعزَمَ ملكهم الفرنسيس^(١) على أن يركب في أول الليل ويسير إلى دِمياط، فعلم المسلمون بذلك. وكان الفرنج قد عملوا جسرًا عظيمًا من الصنوبر على النيل، فسهُوا عن قطعه، فعبر منه المسلمون في الليل إلى برّهم، وخيامهم على حالها وثقلهم، وأحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسرًا، فالتجؤوا إلى قرية تسمى مُنية^(٢) أبي عبد الله وتحصنوا بها، ودار المسلمون حولها، وظفر أسطول المسلمين بأسطولهم، فغنموا جميع المراكب بمن فيها. واجتمع إلى الفرنسيس خمسمائة فارس من أبطال الفرنج، وقعد في حوش مُنية أبي عبد الله؛ وطلب الطواشي رشيد^(٣) [الدين]، والأمير سيف الدين القيمري فحضرا إليه؛ فطلب منهما الأمان على نفسه ومن معه؛ فأجاباه وأمناه وهرب باقي الفرنج على حمية^(٤)؛ وأحدق المسلمون بهم؛ وبقوا يحملون عليهم حملةً بعد حملة، حتى أيدت الفرنج، ولم يبق منهم سوى فارسين، فرموا نفوسهم بخيولهم إلى البحر فغرقوا، وغنم المسلمون منهم ما لا يوصف وأستغنى خلق؛ وأنزل الفرنسيس في حراقة، وأحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات^(٤) والطبول. وفي البر الشرقي العسكر سائر منصور مؤيد، والبر الغربي فيه العربان والعامّة في لهو وتهانٍ وسرور بهذا الفتح العظيم، والأسرى تقاد في الحبال؛ فكان يوماً من الأيام العظيمة المشهودة.

(١) هو لويس التاسع ملك فرنسا. راجع ص ٢٩٢ من هذا الجزء، حاشية (٢)

(٢) منية أبي عبد الله: هذه القرية لا تزال موجودة إلى اليوم على الشاطئ الشرقي لفرع النيل الشرقي (فرع دمياط) وتعرف اليوم باسم «ميت الحولي عبد الله» إحدى قرى مركز فارسكور بمديرية الدقهلية. (محمد رمزي).

(٣) جاء في السلوك للمقريزي: «... وطلبوا الأمان فأمهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي، ونزلوا على أمانه؛ وأخذوا إلى المنصورة، فقيد الملك ريدافرنس بقيد من حديد، واعتقل في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان - كاتب الإنشاء - التي كان ينزل بها من المنصورة، ووكّل بحفظه الطواشي صبيح المعظمي، واعتقل معه أخوه».

(٤) الكوسات: صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. (صحح

الأعشى: ٩/٤).

وقال سعد الدين [بن حمويه] (١) في تاريخه: لو أراد الفرّنسيّس أن ينجو بنفسه لخلص على خيل سبق أو في حرّاقة، لكنّه أقام في الساقّة يَحْمِي أصحابه. وكان في الأسر ملوك وكنود (٢) من الفِرْنَج. وأُحصِي عدّة الأسرى فكانوا نيفاً وعشرين ألف آدمي، والذي غرق وقُتِل سبعة آلاف نفس. قال: فرأيت القتلى وقد ستروا وجه الأرض من كثرتهم، وكان الفارس العظيم يأتيه وسائق يسوقه وراءه كأذّل ما يكون، وكان يوماً لم يشاهد المسلمون مثله؛ ولم يُقتل في ذلك اليوم من المسلمين مائة نفس، ونفد السلطان الملك المعظم توران شاه للفرّنسيّس والملوك الذين معه والكنود خلعاً. وكانوا نيفاً وخمسين، فليس الكلّ سواه. وقال: إنّ بلادي بقدر بلاد صاحب مصر، كيف ألبس خلعته! وعمل السلطان من الغد دعوة عظيمة فامتنع الملعون أيضاً من حضورها؛ وقال: أنا ما أكل طعامه وما يُحضرنِي إلا ليَهزأ بي عسكري ولا سبيل إلى هذا! وكان عنده عقل وثبات ودين، فالنصارى كانوا يعتقدون فيه بسبب ذلك. وكان حسن الخُلقة. وأبقى الملك المعظم الأسرى، وأخذ أصحاب الصنائع، ثم أمر بضرب رقاب الجميع. انتهى.

وقال غيره: وحبسوا الفرنسيّس بالمنصورة بدار ابن لقمان يحفظه الطواشي صبيح مكرماً غاية الكرامة. وقال آخر: بمصر (٣) بدار ابن لقمان وهو الأصحّ، وزاد بعضهم فقال: دار ابن لقمان هي الدار الكبيرة بالقرب من باب الحرق (يعني دار ابن قطينة) إنتهى.

وقال أبو المظفر في تاريخه مرآة الزمان: «وفي أول ليلة منها (يعني سنة ثمانٍ

(١) زيادة عن الشذرات.

(٢) كنود: جمع كُند، وهو تعريب. كونت Comte أو Comes قومس، قمص.

(٣) لعل أبا المحاسن ينفرد بهذه الرواية. إذ جميع المصادر تشير إلى دار ابن لقمان بالمنصورة. وقال الأستاذ محمد رمزي:

وهذه الدار لا تزال معروفة بالمنصورة، ولا يزال جزء منها، وهو الذي فيه الباب، قائماً إلى اليوم بجوار جامع الشيخ الموافي على يمين الداخل في الحارة المجاورة للجامع من الجهة الشرقية. وقد تسلمها ديوان الأوقاف من سنة ١٨٩٠م ووضعت لجنة حفظ الآثار العربية على بابها لوحة من الرخام عليها كتابة تفيد أن هذه الدار هي التي سجن فيها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

وأربعين) كان المصافً بين الفرنج والمسلمين على المنصورة بعد وصول المعظم توران شاه إلى المخيم، وميكن الفرنسيس وقُتل من الفرنج مائة ألف، ووصل كتاب المعظم توران شاه إلى جمال الدين بن يغمور (يعني إلى نائب الشام) يقول:

«الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. وما النصر إلا من عند الله. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وأما بنعمة ربك فحدث. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. نبش المجلس السامي^(١) الجمالي، بل نبش الإسلام كافة بما من الله به على المسلمين، من الظفر بعدو الدين، فإنه كان قد آسفحل أمره وأستحكم شره؛ ويثس العباد من البلاد، [والأهل]^(٢) والأولاد؛ ففودوا: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ الآية. ولما كان يوم الأربعاء^(٣) مستهل السنة المباركة، تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن، وبدلنا الأموال، وفرقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة واجتمع خلق لا يحصيه إلا الله تعالى، فجاؤوا من كل فج عميق، ومن كل مكان بعيدٍ سحيق؛ ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل أبي بكر^(٤) فأبينا. ولما كان في الليل تركوا خيامهم وأنقالهم وأموالهم وقصدوا دمياط هاربين، فسرنا في آثارهم طالبين؛ وما زال السيف يعمل فيهم عامة الليل، ويدخل فيهم الخزي والويل. فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج. وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا خرج؛ وألتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان

(١) المجلس السامي. كان هذا اللقب في أوائل الدولة الأيوبية مقصوراً على السلطان وحده، فلا يكتب به إلى أحد سواه. ثم استقر اصطلاح الدواوين في آخر العصر الأيوبي على كتابة هذا اللقب في المكاتبات الصادرة إلى أعيان الدولة من الورراء وكار الأمراء، وانفرد السلطان بلقب «المقام» و«المقر». (انظر معالم الكتابة لابن شيث القرشي. ص ٥٩ - ٦٠، وصبح الأعشى: ٤٩٧/٥). وللدكتور حسن الباشا (الألقاب الإسلامية: ص ٨٣) رأي مخالف لما أورده الفلقشندي وابن شيث؛ فهو يرى أن هذا اللقب كان يرد كثيراً في مكاتبات الأسرة الأيوبية منذ بداياتها؛ ولم يقتصر عليهم بل تعداهم إلى غيرهم من كبار رجال الدولة وكتابها، كما توصح الأمثلة الكثيرة في مكاتبات القاضي الفاضل.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) في السلوك: «يوم الاثنين».

(٤) أي أن يتركوا دمياط ويغادروا الأراضي المصرية، وبالمقابل يعطون القدس

فأَمَّناه، وأخذناه وأكرمناه؛ وتسَلَّمنا دِمِيَّاط بعونه وقوته، وجلاله وعظمته».

وأرسل الملك المعظم مع الكتاب إلى ابن يَغْمُور المذكور بغفارة^(١) الفَرَنْسِيْس فلبسها ابن يَغْمُور في دَسْت مملكته بدمشق، وكانت سقراط^(٢) أحمر بفرو سِنْجَاب. فكتب ابن يَغْمُور في الجواب إلى السلطان الملك المعظم المذكور بيتين لابن إسرائيل^(٣)، وهما^(٤): [الطويل]

أسيّد أملاك الزمانِ بأسرهم تَنجَزَتْ من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يُبيح جَمَى العدا ويُلْبَس أسلابَ الملوكِ عبيده

إنتهى كلام أبي المظفر بعد أن ساق كلاماً طويلاً من هذا التَّمُودَج بنحو ما حكيناه.

وقال غيره: وبقي الفرنسيس في الاعتقال إلى أن قُتِل الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيُّوب (يعني صاحب الترجمة)، فدخل حسام الدين بن أبي عليّ [نائب السلطان] في قضيته، على أن يسلم للمسلمين دِمِيَّاط ويحمل خمسمائة ألف دينار. فأركبوه بغلة وساقته معه الجيوش إلى دِمِيَّاط، فما وصلوا إلّا والمسلمون على أعلاها بالتكبير والتهليل، والفِرْنَج الذين كانوا بها قد هربوا إلى المراكب وأخلّوها، فخاف الفرنسيس وأصفر لونه. فقال الأمير حُسَام الذي بن أبي عليّ [للملك^(٤) المعز]: هذه دِمِيَّاط قد حصّلت لنا، وهذا الرجل في أسرنا وهو عظيمُ النصرانيّة، وقد أطلع على عوراتنا، والمصلحة ألاً

(١) الغفارة والغفار: المعطف؛ وجمعها: غفائر (السلوك: ٣٥٧/٢/١، حاشية عن دوزي) أولعلها زرد

ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة. (المعجم الوسيط).

(٢) في المقرئزي «أشكرلاط». وكلا اللفظين تعريب محرف للفظ الفرنسي écarlate؛ ويعني اللون القرمزي. واللفظ يعني في الاصطلاح نوعاً من القماش، لونه قرمزي، كان يرد من بلاد إيرلندة.

(٣) هو نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل الشيباني الدمشقي الشاعر. توفي سنة ٦٧٧هـ.

(٤) ذكر المقرئزي في السلوك أن البيتين المنسويين لابن إسرائيل هما:

إن غفارة الفرنسيس التي جاءت حياء لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لوناً ولكن صبغتها سيوفنا بالدماء

أما البيتان الآتيان فقد أوردهما المقرئزي تحت عنوان: وقال آخر.

نُطِّلِقَهُ؛ وكان قد تسلطن أيبك التُّرْكْمَانِي الصَّالِحِيّ أو صار حاكماً عن الملكة شجرة الدر؛ فقال أيبك وغيره من المماليك الصالحية: ما نرى الغدر! وكانت المصلحة ما قاله حسام الدين. فقووا عليه وأطلقوه طمعاً في المال! فركب في البحر الرومي في شينبي^(١). وذكر حسام الدين أنه سأل الفرنسيين عن عدّة العسكر الذي كان معه لما قدّم لأخذ دُمياط؛ فقال: كان معي تسعة آلاف وخمسمائة فارس، ومائة ألف وثلاثون ألف طبّيسي^(٢) سوى الغلمان والسُّوقَة والبهّارة. إنتهى.

قال سعد الدين في تاريخه: إتفقوا على أن يسلم الفرنسيين دُمياط، وأن يُعْطِي هو والكنود ثمانمائة ألف دينار عوضاً عما كان بدُمياط من الحواصل، ويُطْلِقُوا أسرى المسلمين؛ فحلّفوا على هذا؛ وركبت العساكر ثاني صفر إلى دُمياط قرب الظهر، وساروا حتّى دخلوها، ونهبوا وقتلوا من بقي من الفرنج حتّى ضربتهم الأمراء وأخرجوهم، وقوموا الحواصل التي بقيت في دُمياط بأربعمائة ألف دينار؛ وأخذوا من الملك الفرنسيين أربعمائة ألف دينار، وأطلقوه العصر هو وجماعته؛ فأنحدروا في شينبي إلى البُطس^(٣)، وأنفَذ رسولاً إلى الأمراء الصالحية يقول: ما رأيت أقلّ عقلاً ولا ديناً منكم! أمّا قلّة الدين فقتلتم سلطانكم بغير ذنب (يعني لما قتلوا ابن أستاذهم الملك المعظم توران شاه بعد أخذ دُمياط بأيّام) على ما سنذكره هنا إن شاء الله تعالى. قال: وأمّا قلّة العقل فكذا، مثلي ملك البحر وقّع في أيديكم بعتموه بأربعمائة ألف دينار، ولو طلبتم مملكتي دفعْتُها لكم حتّى أخلّص. ثمّ لما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دُمياط فأهلكه الله تعالى. ونِدِمَت الأمراء على إطلاقه.

ولمّا أراد الفرنسيين العودَ إلى دُمياط قال في ذلك الصاحب جمال الدين

(١) الشينبيّ والشينية، وتجمع على شواي: هي سفن حربية كبيرة. ويقابلها بالفرنسية Galère. وكانت أكبر السفن وأكثرها استعمالاً بمصر (التعريف بمصطلحات صحح الأعشى: ٢٠٧).

(٢) الطبسي. كلمة فارسية مأخوذة عن العربية بمعنى الناس أو الجماعة أو الجنود. (القاموس الفارسي الانكليزي).

(٣) البطس: أي المراكب الكبيرة التي تؤلف الأسطول.

يحيى بن مطروح قصيدته المشهورة، وكتب بها إليه يعني إلى الفرنسييس، وهي:
[السريع]

مقال صدق ^(١) من قؤول فصيح	قل للفرنسييس إذا جئتسه
من قتل عبّاد يسوع المسيح	آجرك الله على ما جرى
تحسب أن الزمر يا طبل ريح	أتيت مصر تبغني ملكها
ضاق به عن ناظرئك الفسيح	فساقك الحين إلى أدهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح	وكل أصحابك أودعتهم
إلا قتيلاً أو أسيراً جريح	خمسون ^(٢) ألفاً لا ترى منهم
لعل عيسى منكم يستريح	وقفك الله لأمثالها
فرب غش قد أتى من نصيح	إن كان باباكم ^(٣) بذاً راضياً
لأخذ ثار أو لعقد ^(٤) صحيح	وقل لهم إن أضمروا عودة
والقيّد باق والطواشيّ صبيح	دار ابن لقمان على حالها

قلت: لله ذره! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف والبلاغة وحسن

التركيب، رحمه الله.

وأما أمر الملك المعظم توران شاه صاحب الترجمة، قال العلامة شمس الدين يوسف بن قزأوغلي في تاريخه في سبب قتله، قال: «ذكرنا مجيئه إلى الشام وذهابه إلى مصر، وأنفق كسرة الفرنج عند قدومه فتيمن الناس بطلعته، غير أنه بدت منه أسباب نفرت القلوب عنه فاتفقوا على قتله. وكان فيه نوع خفة، فكان يجلس على السماط، فإذا سميع فقيهاً يذكر مسألة وهو بعيد عنه، يصيح: لا نسلم! ثم احتجب عن الناس أكثر من أبيه؛ وكان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول: كذا أفعل بالبحرية! يعني ممالك أبيه الذين كان جعلهم

(١) رواية المقرئ: «مقال نصح من قؤول نصيح».

(٢) كذا في خطط المقرئ. وفي السلوك: «سبعون ألفاً» وفي الأصل: «تسعون ألفاً».

(٣) في السلوك: «إن يكن الباب». والباب: لفظ استعمله العرب للتعبير عن «الباب».

(٤) في السلوك: «أولفعل قبيح».

بقلعة البحر بجزيرة الرُّوضَة، ثم يسمِّي ممالك أبيه بأسمائهم؛ وأهانهم وقَدَّم الأراذل وأبعد الأمائل. ووعد [الفارس] أقطاي أن يؤمِّره ولم يفِ له، فأستوحش منه. وكانت أمّ خليل (يعنى شجرة الدرّ) زوجة والده الملك الصالح لما وصل إلى القاهرة مضتُ هي إلى القدس، فبعث يهددها ويطلب المال والجواهر منها فخافت منه، فكاتبته فيه^(١)، فاتفق الجميع عند ذلك على قتله. فلما كان يومُ الاثنين سابع عشرين المحرم جلس المعظم على السّماط فضربه بعضُ ممالك أبيه البحريّة بالسيف فتلقاه بيده فقطع بعضُ أصابعه؛ وقام من وقته ودخل البرج [الخشب الذي نصب له بفارسكُور]^(٢) وصاح: مَنْ جرّحني؟ قالوا: الحشيشيّة^(٣). فقال: لا والله إلاّ البحريّة، والله لا أبقيتُ منهم بقيةً^(٤).

وآستدعى المزيّن فخيّط يده وهو يتوعدهم، فقال بعضهم لبعض: تمّموه وإلاّ أبادكم! فدخلوا عليه فأنهزم إلى أعلى البرج، فأوقدوا النيران حول الرج ورمّوه بالنشاب، فرمى بنفسه وهرب نحو البرج، وهو يقول: ما أريد مُلكاً! دُعوني أرجع إلى الحصن^(٥) يا مسلمون! ما فيكم من يضنّني ويجيرني! والعساكر واقفة فما أجابه أحد، والنشاب تأخذه، فتعلق بذيل [الفارس] أقطاي فما أجاره، فقطّعه قطعاً وبقي على جانب البحر ثلاثة أيّام مُنتفخاً لا يجسر أحد أن يدفنه حتّى شفّع فيه رسول الخليفة، فحمّل إلى ذلك الجانب فدُفِن به. ولما قتلوه دخلوا على الفرّنسيس الخيمة بالسيوف، فقالوا: نريد المال، فقال: نعم، فأطلقوه وسار إلى عكا على

(١) المراد أنها كاتبت الممالك البحرية. مما فعلته في حقّه، من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حصر وتسلم المملكة، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها (السلوك. ٣٥٨/٢/١).

(٢) زيادة عن السلوك

(٣) أي أحد الباطنية الإسماعيلية.

(٤) تتفق رواية السلوك ومفرّج الكروب والروضتين على أن الذي ضربه بالسيف هو بيرس البندقاري الذي صار إليه ملك مصر. وكان ببيرس هذا من جملة الممالك الكبار الذين نعموا على المعظم توران شاه وقرروا التخلّص منه. وكان في مقدمة هؤلاء: ببيرس البندقاري وعز الدين أيبك وأقطاي وشجرة الدر زوجة الملك الصالح.

(٥) يريد حصن كيفا. وكان يحكم عليه قبل مجيئه إلى القاهرة وسلطته بها.

ما آتَّفَقُوا عَلَيْهِ مَعَهُ. قَالَ: وَكَانَ الَّذِي بَاشَرَ قَتْلَهُ أَرْبَعَةً؛ وَكَانَ أَبُوهُ الْمَلِكُ الصَّالِحَ أَيُّوبَ قَالَ لِمُحْسِنِ الْخَادِمِ^(١): إِذْهَبْ إِلَى أَخِي الْعَادِلِ إِلَى الْحَبْسِ، وَخُذْ مَعَكَ مِنَ الْمَمَالِكِ مَنْ يَخْتَفِقُهُ، فَعَرَّضْ مُحْسِنٌ ذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْمَمَالِكِ فَأَمْتَنَعُوا إِلَّا هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ فَإِنَّهُمْ مَضَوْا مَعَهُ وَخَنَقُوهُ، فَسَلَّطَهُمُ اللَّهُ عَلَى وَلَدِهِ فَقَتَلُوهُ أَقْبَحَ قِتْلَةٍ، وَمَثَلُوا بِهِ أَعْظَمَ مُثْلَةً لِمَا فَعَلَ بِأَخِيهِ!

قال الأمير حسام الدين بن أبي عليّ: كان تُوران شاه لا يصلح للملك؛ كنا نقول لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب: ما تُنفِذُ تُخَضِّرُهُ إِلَى هَا هُنَا! فيقول: دعوني من هذا، فألححنا عليه يوماً، فقال: أجيبيه إلى هَا هُنَا أَقْتَلُهُ!^(٢)

وقال عماد الدين بن دَرَبَاس: رأى بعض أصحابنا الملك الصالح أيوب في المنام وهو يقول: [مجزوء الرمل]

قَتَلُوهُ شَرَّ قِتْلَةٍ صَارَ لِلْعَالَمِ مُثْلَةً
لَمْ يَرَاعُوا [فِيهِ]^(٣) إِلَّا لَا وَلا مِنْ كَانَ قَبْلَهُ
سْتَرَاهُمْ عَنْ قَلِيلٍ^(٤) لِأَقَلِّ النَّاسِ أَكْثَرَهُ

وكانوا قد جمعوا في قتله ثلاثة أشياء: السيف والنار والماء!

وتسلطن بعده زوجته والده أم خليل شجرة الدرّ باتفاق الأمراء وخُشداشيينها^(٥)

(١) في الأصل: «الخازن» وما أثبتناه من شفاء القلوب روايته عن مرآة الزمان.

(٢) كان الملك الصالح أيوب يكره ولده توران شاه لما فيه من هوج واضطراب وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك، بل قال للأمير حسام الدين بن أبي عليّ: إذا متّ لا تسلّم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله، ليرى فيها رأيه.

(٣) زيادة عن السلوك وشفاء القلوب.

(٤) في المصدرين السابقين «عن قريب».

(٥) كانت علاقة «الخشداشية» أي الزمالة هي التي تربط بين جميع الممالك السلطانية باعتبارهم من أصل واحد وأوصاعهم متشابهة ويتبعون لسيد واحد. وأصل الكلمة في الفارسية: «خواجه تاش». وهي مؤلفة من «خواجه» أي السيد، و«تاش» التركية، وأصلها داش وتدل على المشاركة؛ فمعنى خواجه تاش لغوياً هو الشريك في السيد؛ وتطلق هذه الكلمة بصيغها المختلفة (خشداش، خوشداش، خجداش، خوجداش) على المملوك ينشأ مع مملوك غيره في خدمة سيد واحد مشترك، فهما مولياه، وهما أخوا ولاء له. وقد استعملوا صيغة الجمع منها: خشداشية، وحشداشين.

المماليك الصالحية، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة. وكانت ولاية توران شاه هذا على مصر دون الشهر، وقُتل في يوم الاثنين سابع عشرين المحرم من سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة؛ وكان قدومه من حصن كيفا إلى المنصورة في ليلة مستهل المحرم من السنة المذكورة حسب ما تقدم ذكره.

ذكر سلطنة الملكة شجرة (١) الدرّ على مصر

هي الملكة شجرة الدرّ بنت عبد الله، جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجته وأمّ ولده خليل؛ وكانت حَظِيَّةً عنده إلى الغاية، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لَمَّا حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك، ومعها ولدها خليل أيضاً؛ وقاست مع الصالح تلك الأهوال والمحن، ثم قَدِمَتْ معه مصر لَمَّا تسلطن؛ وعاش أبناها خليل بعد ذلك وتوفي صغيراً. ولا زالت في عَظَمَتِهَا من الحشم، وإليها غالب تدبير الديار المصريّة في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته، والأمور تدبّرها على أكمل وجه، إلى أن قَدِمَ ولدُ زوجها الملك المعظم توران شاه، فلم يشكر لها توران شاه ما فعلته من الإخفاء لموت والده وقيامها بالتدبير أتم قيام، حتّى حضر إلى المنصورة وجلس في دَسْتِ السلطنة. ولم تدعْ أحداً يطمع في الملك لعظمتها في النفوس، فترك توران شاه ذلك كله وأخذ في تهديدها، وطلب الأموال منها بسرعة، فلم يحسن ذلك ببال أحد. وأتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها، وجعلوا المعزّ أيك التركمانيّ أتابكاً لها، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة لكنها لم تلبس خِلعة السلطنة الخليفة على العادة، غير أنهم بايعوها بالسلطنة في أيام أرسالاً وتمّ أمرها.

قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيك الصفديّ في تاريخه^(٢): « شجرة

(١) ترجمتها وأجبارها في: السلوك: ٣٦١/٢/١؛ وبدائع الزهور. ٢٨٦/١؛ وخطط المقرئ. ٢٣٧/٢؛

وخطط علي مبارك: ٧٩/٥؛ وشذرات الذهب: ٢٦٨/٥؛ وعقد الجمان. حوادث سنة ٥٦٤٨.

ويسمى العيني والمقرئ: «شجرة الدر».

(٢) الوافي بالوفيات.

الدر أم خليل الصالحية وجارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأمّ ولده خليل؛ كان الملك الصالح يُحبّها حباً عظيماً، ويعتمد عليها في أموره ومهمّاته؛ وكانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل، ونالت من السعادة ما لم ينلّه أحد في زمانها. ولما مات الملك الصالح في شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة على دُمياط في حصار الفرنج، أخفت موته وصارت تعلّم بخطّها مثل علامة الملك الصالح، وتقول: السلطان ما هو طيّب. وتمنّع الناس من الدخول إليه؛ وكان أرباب الدولة يحترمونها. ولما علموا بموت السلطان ملكوها عليهم أياماً. وتسلطنت بعد قتل السلطان الملك المعظم ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخُطب لها على المنابر، وكان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة: «وأحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عِصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية»^(١) صاحبة السلطان الملك الصالح». انتهى كلام الصّفيديّ.

وقال غيره: وكانت تعلّم على المناشير وغيرها «والدة خليل»^(٢)، وقيمت على ذلك مدّة ثلاثة أشهر إلى أن خلعت نفسها، وأستقرّ زوجها الملك المعزّ أيبك التركمانيّ الصالحيّ الآتي ذكره [مدّة، إلى أن أتفتت المماليك البحريّة وقالوا: لا بدّ لنا من واحد من بني أيّوب يجتمع الكلّ على طاعته، وكان القائم بهذا الأمر الأمير الفارس أقطاي الجمدار، وبيبرس البندقداريّ، وبلبان الرشيدّيّ وسُنقر الروميّ؛ فأقاموا في السلطنة]^(٣) الملك الأشرف الأيوبيّ^(٤). وقيل: إنه تزوّجها أيبك

(١) يرى الدكتور محمد مصطفى زيادة (السلوك: ٣٦١/٢/١، حاشية) أن هذه السببة تدل على أن شجرة الدر كانت جارية للخليفة المستعصم قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب. غير أن صمت جميع المصادر العربية عن هذه المسألة يحمل على الاعتقاد أن شجرة الدر ربما أقوت هذه النسبة في سكنها وخطبتها ترضية للخليفة في بغداد. ويقوي هذا الفرض أن الملك الصالح كان قد أوصى قبل موته بتسليم مملكته إلى الخليفة المستعصم ليرى فيها رأيه (راجع ص ٣٣٠، حاشية: ٢)

(٢) في عقد الجمان «والدة خليل المستعصمية».

(٣) زيادة عن المنهل الصافي.

(٤) هو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المسعود صلاح الدين يوسف الملقب بإتسز ابن الملك الكامل بن العادل بن أيوب. (عقد الجمان). وذكر المقرئ صراحة أن المعزّ أيبك كان شريكاً في الملك، قال. «تجمع الأمراء وقالوا. لا بدّ من إقامة شخص من بيت الملك (آل أيوب) مع المعزّ أيبك =

بعد سلطنته، وكانت مستوليةً على أيّك في جميع أحواله ليس له معها كلام. وكانت تركيّة ذات شهامة ونفس قويّة وسيرة حسنة، شديدة الغيرة. فلما بلغها أنّ زوجها الملك المعزّ أيبك يريد أن يتزوَّج ببنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وقد عزم على ذلك، فتخيلت منه أنه ربّما عزم على إبعادها أو إعدامها، لأنّه سئم من حَجْرها عليه وأستطالتها، فعاجلته وعزّمت على الفتك به وإقامة غيره في الملك.

قال الشيخ قطب الدين: « وطلبت صفّيّ الدين [إبراهيم] ^(١) بن مرزوق، وكان بمصر، فأستشارته ووعدته بالوزارة، فأنكر عليها ونهاها عن ذلك فلم تُصغِر إلى قوله، وطلبت مملوكاً للطواشيّ مُحسِن الجوّجري ^(٢) الصالحى وعرضت عليه أمرها ووعدته ومنته إن قتل المعزّ! ثم أستدعت جماعةً من الخُدّام وآتفت معهم. فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرون من شهر ربيع الأوّل [سنة ٦٥٥هـ] لعب المعزّ بالكرة ومن معه، وصعد إلى القلعة آخر النهار، وأتى الحمام ليغتسل، فلما قلع ثيابه وثب عليه سِنَجَر الجوّجري والخدم فرمّوه وخنقوه؛ وطلبت شجرة الدر آبن مرزوق على لسان الملك المعزّ، فركب حماره وبادر وطلّع القلعة من باب السرّ، فأراها جالسةً والمعزّ بين يديها ميّت، فأخبرته الأمر فعظّم عليه جدّاً، وأستشارته فقال: ما أعرف ما أقول، وقد وقّعت في أمر عظيم مالِك منه مَخْلَص! ثم طلبت الأمير جمال الدين ^(٣) بن أيّدُعديّ العزّيزيّ وعزّ الدين أيبك ^(٤) الحلبّي، وعرضت

= ليجتمع الكل على طاعته، ويطيعه الملوك من أهله... فكانت المراسيم والمناسير تخرج عن الملكين الأشرف والمعزّ وظاهر ما ذكره المقرّيزي يدل على رغبة الأمراء في تحييد بقايا الأيوبيين، خاصة بعد وقوع الاضطراب في البلاد واستيلاء كل أحد على ناحية» (عقد الجمال). غير أن عبارة ابن واصل في مفرج الكروب تشير إلى سبب آخر وهو أنفتهم وخوفهم من المعزّ أيبك التركماني، فقد «أنفوا من أن يكون عز الدين أيبك سلطاناً، فاختروا أن يقيموا صبياً من بني أيوب، يكون له اسم الملك، ويكونون هم الذين يدبرون الملك ويأكلون الدنيا باسمه...» (السلوك: ٣٦٩/٢/١، حاشية).

(١) زيادة عن المنهل الصافي.

(٢) في عقد الجمال: «سنجر الجوهري مملوك الطواشي محسن» وفي المنهل الصافي. «محسن الجوهري».

(٣) أصله من ممالك الملك العزيز صاحب حلب. وتنقل في الخدم حتى صار من أكابر الأمراء وأعيان الدولة. توفي سنة ٦٦٤هـ (المنهل الصافي).

(٤) هو أيبك بن عبد الله الصالح النجمي الحلبّي، الأمير الكبير. توفي سنة ٦٥٥هـ (المنهل الصافي).

عليهما السلطنة فامتنعاً؛ فلما ارتفع النهار شاع الخبر وأضطربت الناس». إنتهى كلام قطب الدين.

وقيل في قتله وجهٌ آخر: وهو أنّ شجرة الدرّ لما غارت ربّتت للمعزّ سنجرّ الجوهريّ مملوك الفارس أفطاي، فدخل عليه الحمام ولكمه ورماه، وألزم الخُدّام معاونته، وبقيت هي تضربه بالقباب وهو يستغيث ويتضرّع إليها إلى أن مات؛ وأنطوت الأخبار عن الناس تلك الليلة. فلما كان سحرُ يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأوّل ركب الأمراء الأكابر إلى القلعة على عادتهم، وليس عندهم خبرٌ بما جرى، ولم يركب الفائزيّ^(١) في ذلك اليوم؛ وتحيرت شجرة الدرّ فيما تفعل، فأرسلت إلى الملك المنصور نور الدين عليّ ابن الملك المعزّ تقول له عن أبيه: إنه ينزل إلى البحر في جمع من الأمراء لإصلاح الشواني التي تجهزت للمضي إلى دُمياط ففعل، وقصدت بذلك لتقلّ الناس من على الباب لتتمكن ممّا تريد، فلم يتمّ مرادها. ولما تعالى النهار شاع الخبر بقتل الملك المعزّ، وأضطربت الناس في البلد وأختلفت أقاويلهم ولم يقفوا على حقيقة الأمر، وركب العسكر إلى جهة القلعة، وأحدقوا بها ودخلها مماليك الملك المعزّ أيبك والأمير بهاء الدين بُغدي الأشرفي مقدّم الحلقّة؛ وطمع الأمير عزّ الدين الحلبيّ في التقدّم، وساعده على ذلك جماعة من الأمراء الصالحيّة، فلم يتمّ له ذلك. ثمّ أستحضر الذين في القلعة الوزير شرف الدين الفائزيّ وآتفقوا على تمليك الملك المنصور نور الدين عليّ بن الملك المعزّ أيبك، وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة، فرتبوه في الملك ونوّدي في البلد بشعاره؛ وسكن الناس وتفرّقوا إلى دُورهم، ونزل الأمراء الصالحيّة إلى دُورهم. فلما كان يوم الخميس خامس عشرين الشهر وقع في البلد خبّطة عظيمة وركب العسكر إلى القلعة. وآتفق رأي الذين بالقلعة على نصب الأمير علم الدين سنجرّ الحلبيّ

(١) هو هبة الله بن صاعد الفائزي، شرف الدين. خدم الملك الفائز إبراهيم بن أبي بكر ونسب إليه. وخدم بعده الكامل ثم ولده الصالح. واستوزره المعز أيبك فتمكن منه تمكناً عظيماً. وبعد المعز ناصر الفائزي ووزارة ابنه المنصور علي أياماً، ثم قبض عليه سيف الدين قطز فمات في حبسه مخنوقاً سنة ٦٥٥ هـ. (الأعلام: ٧٢/٨).

في السلطنة، وكان أتاك الملك المعزّ ويعرف بالمُشيدّ، وأستحلفوا العسكر له، وحلف له الأمراء الصالحيّة على كره من أكثرهم، وامتنع الأمير عزّ الدين ثم خاف على نفسه فحلف وانتظمت الأمور، ثم أنتقض بعد ذلك. وفي يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأوّل حُطِب للملك المنصور بمصر والقاهرة.

وأما شجرة الدر صاحبة الترجمة فإنّها امتنعت بدار السلطنة، هي والذين قتلوا الملك المعزّ أيّيك؛ وطلب المماليك المعزيّة هجوم الدار عليهم، فحالت الأمراء الصالحيّة بينهم وبينها، حميةً لشجرة الدر لأنّها خشداشتهم؛ فلما غلبوا ممالك المعزّ منهم ومنها أمّونها وحلفوا لها أنّهم لا يتعرّضون لها بسوء. فلما كان يوم الاثنين التاسع والعشرون منه أُخرجت من دار السلطنة إلى البرج^(١) الأحمر فحُيست به وعدها بعض جواربها؛ وقُبض على الخُدّام وأقتسمت الأمراء جواربها؛ وكان نصر العزيزيّ الصالحيّ، وهو أحد الخُدّام القتلة، قد تسرب إلى الشام يوم ظهور الواقعة، وأحاطت المماليك المعزيّة بالدار السلطانية وجميع ما فيها؛ ويوم ظهور الواقعة أحضر الصمعي بن مرزوق من الدار وسئل عن حضوره عند شجرة الدر لما طلبته بعد قتل المعزّ وأستشارته، فعرفهم صورة الحال قصدقوه وأطلقوه. وحضر الأمير جمال الدين أيّدغديّ العزيزيّ، وكان الناس قد قطعوا بموت المعزّ، فعند حضور أيّدغديّ العزيزيّ المذكور أمر بأعتقاله بالقلعة، ثم نُقل إلى الإسكندريّة، فأعتقل بها؛ ثم صُلب الخُدّام الذين آتفقوا على قتل المعزّ؛ وهرب سنجر غلام الجوهريّ ثم ظفر به وصُلب إلى جانب أستاذه محسن، فمات سنجر من يوم الاثنين المذكور وقت العصر على الخشبة، وتأخر موت الباقيين إلى تمام يومين. وأستمرت شجرة الدرّ بالبرج الأحمر بقلعة الجبل، والملك المنصور عليّ ابن الملك المعزّ أيّيك ووالدته يحرضان المعزيّة على قتلها، والمماليك الصالحيّة تمنعهم عنها، لكونها جارية أستاذهم، ولا زالوا على ذلك إلى يوم السبت حادي عشر شهر ربيع

(١) البرج الأحمر: من الأبراج التي كانت في قلعة القاهرة، بناه الملك الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب. (صحح الأعي: ٤٢٢/٣) وهذا البرج يعرف اليوم باسم برج المقطم في الجهة الجنوبية من القلعة ويشرف على ناب المقطم. (محمد رمزي).

الأخر [حيث] وجدت مقتولة^(١) مسلوياً خارج القلعة، فحُمِلت إلى التربة التي كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة - رحمها الله تعالى - فدُفِنَت بها. ولشجرة الدرّ أوقاف على التربة المذكورة وغيرها. وكان الصاحب بهاء الدين عليّ بن محمد بن سليم المعروف بأبن جناً وزيرها، ووزارته لها أول درجة ترقاها من المناصب الجليلة. ولما تيقنت شجرة الدرّ أنها مقتولة أودعت جُملةً من المال والجواهر، وأعدت أيضاً جملة من الجواهر النفيسة فسحقتها في الهاون لئلا يأخذها الملك المنصور ابن المعرّ أيبك وأمه، فإنها كانت تكره المنصور ووالدته؛ وكانت غير متجملة في أمرها لما تزوجها أيبك حتى منعه الدخول إليهما بالكلية، فلهذا كان المنصور وأمه يحرضان المماليك المعزية على قتلها. وكانت خيرة دينية رئيسة عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر معروفة بها. والذي وقع لها من تملكها الديار المصرية لم يقع ذلك لامرأة قبلها ولا بعدها في الإسلام^(٢).

* * *

[إنتهى الجزء السادس من النجوم الزاهرة، ويليه الجزء السابع، وأوله: ذكر سلطنة المعرّ أيبك التركماني على مصر]

(١) قال المقرئ في السلوك: لما أقيم ابن المعز في السلطنة، حملت شجرة الدر إلى أمه في يوم الجمعة سابع عشره، فضربها الجوارى بالقباقب إلى أن ماتت في يوم السبت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، فبقيت في الخندق أياماً، ثم حملت في قفة ودفنت بترتها قريب المشهد النفيسي.

(٢) كان لتولي شجرة الدرّ منصب السلطنة ضجة كبرى في عصرها، إذ لم يكن مألوفاً لدى عامة الناس أن تتولى امرأة حكم المسلمين. لهذا نرى الشيخ عز الدين بن عبد السلام - سلطان العلماء والفقهاء في عصره - ينشئ مقامة يذكر فيها «ابتلاء المسلمين في مصر بولاية امرأة عليهم». كما أن الخليفة العباسي المستعصم بالله لم يقرّ مبدأ قيامها بالحكم، فأرسل إلى مصر منكرأ متهمكاً: «إن كانت الرجال قد عدمت من عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً». (انظر بدائع الزهور: ٢٨٦/١، وكنز الدرر: ٣٨٤/٧).

ثبت المصادر والمراجع

- ١ - الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، لابن شداد - تحقيق يحيى عبارة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٨.
- ٢ - الأعلام، لخير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٦.
- ٣ - أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين العاملي - دار التعارف - بيروت ١٩٨٦.
- ٤ - إغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزي - مؤسسة ناصر الثقافية - بيروت.
- ٥ - الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني - دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦.
- ٦ - الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، لحسن الباشا - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.
- ٧ - بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس - (الجزء الأول) تحقيق محمد مصطفى - الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٢.
- ٨ - البداية والنهاية، لابن كثير - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٨.
- ٩ - البرق الشامى، لعماد الدين الكاتب الأصفهاني - (الجزء الثالث) تحقيق مصطفى الحيارى، (الجزء الخامس) تحقيق فالح صالح حسين - مؤسسة عبد الحميد شومان - عمان - ١٩٨٦.
- ١٠ - بلدان الخلافة الشرقية، لسترانج - ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد - مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٤.
- ١١ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي - تحقيق كولان وبروفنسال - دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣.
- ١٢ - تاج العروس للزبيدي - مطبعة حكومة الكويت ١٩٦١.
- ١٣ - تاريخ ابن الأثير (الكامل في تاريخ) - دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
- ١٤ - تاريخ الإسلام، للذهبي - (١ - ٦) مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٦٧ - ١٣٦٩ هـ.
- ١٥ - تاريخ التمدن الإسلامي، لجرجي زيدان - بيروت (بدون تاريخ).
- ١٦ - تاريخ الحكماء، لجمال الدين القفطي - تحقيق جوليوس ليرت - ليبسك ١٩٠٣.
- ١٧ - تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر...) - نسخة مصورة عن طبعة بولاق.

- ١٨ - تاريخ الخلفاء، للسيوطي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة الفجالة الجديدة - القاهرة ١٩٦٩
- ١٩ - تاريخ اليمن (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) لعمارة اليميني - تحقيق محمد بن علي الأكوغ - مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٧ .
- ٢٠ - تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، لأحمد السعيد سليمان - دار المعارف بمصر . ١٩٧٩ .
- ٢١ - تذكرة الحفاظ، للذهبي - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢٢ - التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي - الهيئة المصرية العامة ١٩٨٤ .
- ٢٣ - التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري - تحقيق محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٨ .
- ٢٤ - تقويم البلدان، لأبي الفداء إسماعيل صاحب حماة - باريس ١٨٤٠ م .
- ٢٥ - تهذيب تاريخ ابن عساكر، للشيخ عبد القادر بدران - دمشق ١٣٥١ هـ .
- ٢٦ - الحروب الصليبية، لسيد علي الحريري - تحقيق عصام محمد تبارو - دار التضامن ومؤسسة دار الكتاب الحديث - بيروت ١٩٨٨ .
- ٢٧ - الحروب الصليبية كما رآها العرب، لأمين معلوف - تعريب الدكتور عفيف دمشقية - دار الفارابي للنشر - بيروت ١٩٨٩ .
- ٢٨ - حسن التوسل إلى صناعة الترسّل، لشهاب الدين محمود الحلبي - تحقيق أكرم عثمان يوسف - وزارة الثقافة والإعلام - بغداد ١٩٨٠ .
- ٢٩ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، للسيوطي - مطبعة إدارة الوطن، القاهرة ١٢٩٩ هـ .
- ٣٠ - الحلة السيرة، لابن الأبار - تحقيق الدكتور حسين مؤنس - الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٣١ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام - تأليف أحمد أحمد بدوي - دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢ .
- ٣٢ - خريدة القصر، للعماد الكاتب الأصفهاني (قسم مصر) - تحقيق الدكتور شوقي ضيف - القاهرة ١٩٥١ .
- ٣٣ - خزائن الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي - دار ومكتبة الهلال - بيروت ١٩٨٧ .
- ٣٤ - الخطط التوفيقية الجديدة، لعلي باشا مبارك - الهيئة المصرية العامة - القاهرة ١٩٨٠ - ١٩٨٦ .
- ٣٥ - الخطط المقرزية (المواعظ والاعتبار) للمقرزي - دار صادر، بيروت .
- ٣٦ - المدارس في تاريخ المدارس، للنعمي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٠ .
- ٣٧ - دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) - إعداد وتحرير إبراهيم خورشيد وأحمد الشنتاوي وعبد الحميد يونس - إصدار كتاب الشعب، القاهرة .

- ٣٨ - الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة - دار الكتاب العربي - دمشق ١٩٨٤ .
- ٣٩ - ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي - طبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٨ .
- ٤٠ - ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) لأبي شامة - القاهرة ١٩٤٩ .
- ٤١ - رسوم دار الخلافة، لهلال س المحسن الصابىء - تحقيق ميخائيل عواد - دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٤ .
- ٤٢ - الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري - تحقيق إحسان عباس - مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤ .
- ٤٣ - الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة - دار الجيل، بيروت (نسخة مصورة عن طبعة القاهرة ١٢٨٨هـ) .
- ٤٤ - السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقرئزي - تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة .
- ٤٥ - سيرة صلاح الدين الأيوبي (النواد السلطانية والمحاسن اليوسفية) لابن شداد - تحقيق الدكتور جمال الدين الشّيال - الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٤ .
- ٤٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي - دار الكتب العلمية - بيروت
- ٤٧ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، لأحمد بن إبراهيم الحنبلي - تحقيق ناظم رشيد - وزارة الثقافة والفنون - بغداد ١٩٧٨ .
- ٤٨ - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧ .
- ٤٩ - الصليبيون وآثارهم في جبل عامل - الدكتور رضا السيّد حسن - دار مصباح الفكر - بيروت ١٩٨٧ .
- ٥٠ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي - دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ٥١ - طبقات الأطباء (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة - تحقيق نزار رضا - دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٥ .
- ٥٢ - طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول - تحقيق سترستين - دار الكلمة - صنعاء ١٩٨٥ .
- ٥٣ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، لبدر الدين محمود العيني - (عصر سلاطين المماليك) تحقيق الدكتور محمد أمين - الهيئة المصرية العامة ١٩٨٧ .
- ٥٤ - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، لابن الطقطقي - دار صادر - بيروت .
- ٥٥ - فوات الوفيات، لابن شاکر الكتبي - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت ١٩٧٣ .
- ٥٦ - في التراث العربي، لمصطفى جواد - وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٥ .
- ٥٧ - القلقشندي وكتابه صبح الأعشى - مجموعة دراسات - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - منشورات الهيئة المصرية العامة .
- ٥٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة - دار الفكر - بيروت ١٩٨٢ .

- ٥٩ - كنز الدرر وجامع الغرر، لابن أبيك الدواداري - (أخبار بني أيوب) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور - نشر المعهد الألماني للأثار - القاهرة ١٩٧٢ .
- ٦٠ - لسان العرب، لابن منظور - دار صادر - بيروت .
- ٦١ - مجلة المجمع العلمي العراقي - العدد الثاني .
- ٦٢ - مذكرات جوانفيل (القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام) ترجمة الدكتور حسن حبشي - دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
- ٦٣ - مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، للبغدادي - تحقيق علي محمد البجاوي - دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤ .
- ٦٤ - معالم الكتابة ومغانم الإصابة، لابن شيث القرشي - تحقيق محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية ١٩٨٨ .
- ٦٥ - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، للمستشرق زامباور - أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود - مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١ .
- ٦٦ - معجم البلدان، لياقوت الحموي - دار صادر - بيروت ١٩٨٤ .
- ٦٧ - معجم متن اللغة، للشيخ أحمد رضا - دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨ .
- ٦٨ - المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية - القاهرة
- ٦٩ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، لابن واصل الحموي - (١ - ٣) تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٦٠ - والجزء الرابع، تحقيق حسين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٥
- ٧٠ - مقدمة ابن خلدون - دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩
- ٧١ - منطلق تاريخ لبنان - كمال سليمان الصليبي - بيروت ١٩٧٩ .
- ٧٢ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، لابن تغري بردي - الهيئة المصرية العامة .
- ٧٣ - الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال. منشورات دار الشعب ومؤسسة فرنكلين، القاهرة .
- ٧٤ - الموسوعة الفلسطينية - دمشق ١٩٨٤ .
- ٧٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي .
- طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨ - ١٩٧٢ م .
- طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوهر .
- ٧٦ - الوافي بالوفيات، للصفدي - (١ - ٩) منشورات فرانز ششاينز - فيسبادن - مطبوعات دار صادر، بيروت ١٩٦١ .
- ٧٧ - وفيات الأعيان، لابن خلكان - تحقيق إحسان عباس - دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢ .

فهرس الموضوعات الجزء السادس

الموضوع	الصفحة
سلطنة صلاح الدين الأيوبي (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)	٣
السنة الأولى من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٦٧ هـ	٥٨
السنة الثانية من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٦٨ هـ	٦١
السنة الثالثة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٦٩ هـ	٦٣
السنة الرابعة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٠ هـ	٦٧
السنة الخامسة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧١ هـ	٦٩
السنة السادسة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٢ هـ	٧١
السنة السابعة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٣ هـ	٧٤
السنة الثامنة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٤ هـ	٧٦
السنة التاسعة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٥ هـ	٧٨
السنة العاشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٦ هـ	٧٩
السنة الحادية عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٧ هـ	٨١
السنة الثانية عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٨ هـ	٨٣
السنة الثالثة عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٧٩ هـ	٨٦
السنة الرابعة عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨٠ هـ	٨٨
السنة الخامسة عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨١ هـ	٩٠
السنة السادسة عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨٢ هـ	٩٢
السنة السابعة عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨٣ هـ	٩٥
السنة الثامنة عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨٤ هـ	٩٧
السنة التاسعة عشرة من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨٥ هـ	٩٩
السنة العشرون من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨٦ هـ	١٠١
السنة الحادية والعشرون من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨٧ هـ	١٠٢
السنة الثانية والعشرون من سلطنة صلاح الدين وهي سنة ٥٨٨ هـ	١٠٦
سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)	١٠٩

١١٩	السنة الأولى من سلطنة العزيز عثمان وهي سنة ٥٨٩ هـ .
١٢١	السنة الثانية من سلطنة العزيز عثمان وهي سنة ٥٩٠ هـ .
١٢٣	السنة الثالثة من سلطنة العزيز عثمان وهي سنة ٥٩١ هـ .
١٢٥	السنة الرابعة من سلطنة العزيز عثمان وهي سنة ٥٩٢ هـ .
١٢٧	السنة الخامسة من سلطنة العزيز عثمان وهي سنة ٥٩٣ هـ .
١٢٩	السنة السادسة من سلطنة العزيز عثمان وهي سنة ٥٩٤ هـ .
١٣١	سلطنة المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال) .
١٣٧	السنة الأولى من سلطنة المنصور محمد بن العزيز عثمان وهي سنة ٥٩٥ هـ .
١٣٩	السنة الثانية من سلطنة المنصور محمد بن العزيز عثمان وهي سنة ٥٩٦ هـ .
١٤٤	سلطنة العادل أبي بكر بن أيوب (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال) .
١٥٦	السنة الأولى من سلطنة العادل وهي سنة ٥٩٧ هـ .
١٦١	السنة الثانية من سلطنة العادل وهي سنة ٥٩٨ هـ .
١٦٣	السنة الثالثة من سلطنة العادل وهي سنة ٥٩٩ هـ .
١٦٥	السنة الرابعة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٠ هـ .
١٦٦	السنة الخامسة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠١ هـ .
١٦٨	السنة السادسة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٢ هـ .
١٧٠	السنة السابعة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٣ هـ .
١٧٢	السنة الثامنة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٤ هـ .
١٧٤	السنة التاسعة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٥ هـ .
١٧٥	السنة العاشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٦ هـ .
١٧٧	السنة الحادية عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٧ هـ .
١٨٠	السنة الثانية عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٨ هـ .
١٨٢	السنة الثالثة عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦٠٩ هـ .
١٨٤	السنة الرابعة عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦١٠ هـ .
١٨٦	السنة الخامسة عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦١١ هـ .
١٨٨	السنة السادسة عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦١٢ هـ .
١٩٠	السنة السابعة عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦١٣ هـ .
١٩٣	السنة الثامنة عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦١٤ هـ .
١٩٦	السنة التاسعة عشرة من سلطنة العادل وهي سنة ٦١٥ هـ .
٢٠٠	سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال) .
٢١٠	ذكر معركة دمياط .
٢١٦	السنة الأولى من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦١٦ هـ .
٢١٩	السنة الثانية من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦١٧ هـ .

٢٢٢	السنة الثالثة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦١٨ هـ.
٢٢٤	السنة الرابعة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦١٩ هـ.
٢٢٥	السنة الخامسة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٠ هـ.
٢٢٨	السنة السادسة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢١ هـ.
٢٣٠	السنة السابعة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٢ هـ.
٢٣٤	السنة الثامنة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٣ هـ.
٢٣٧	السنة التاسعة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٤ هـ.
٢٤٠	السنة العاشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٥ هـ.
٢٤١	السنة الحادية عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٦ هـ.
٢٤٣	السنة الثانية عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٧ هـ.
٢٤٥	السنة الثالثة عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٨ هـ.
٢٤٧	السنة الرابعة عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٢٩ هـ.
٢٤٩	السنة الخامسة عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٣٠ هـ.
٢٥١	السنة السادسة عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٣١ هـ.
٢٥٥	السنة السابعة عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٣٢ هـ.
٢٦٠	السنة الثامنة عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٣٣ هـ.
٢٦٣	السنة التاسعة عشرة من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٣٤ هـ.
٢٦٥	السنة العشرون من سلطنة الكامل بن العادل الأيوبي وهي سنة ٦٣٥ هـ.
٢٦٩	سلطنة العادل بن الكامل الأيوبي (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)
٢٧٧	السنة الأولى من سلطنة العادل بن الكامل وهي سنة ٦٣٦ هـ.
٢٧٩	السنة الثانية من سلطنة العادل بن الكامل وهي سنة ٦٣٧ هـ.
٢٨٢	سلطنة الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)
٣٠٠	السنة الأولى من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٣٨ هـ.
٣٠٢	السنة الثانية من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٣٩ هـ.
٣٠٥	السنة الثالثة من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٤٠ هـ.
٣٠٧	السنة الرابعة من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٤١ هـ.
٣١٠	السنة الخامسة من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٤٢ هـ.
٣١٢	السنة السادسة من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٤٣ هـ.
٣١٥	السنة السابعة من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٤٤ هـ.
٣١٧	السنة الثامنة من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٤٥ هـ.
٣١٨	السنة التاسعة من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٤٦ هـ.
٣٢٠	السنة العاشرة من سلطنة الصالح نجم الدين أيوب وهي سنة ٦٤٧ هـ.
٣٢٢	سلطنة المعظم توران شاه بن الصالح (ترجمته وأخباره على وجه الإجمال)
٣٣٢	سلطنة شجرة الدر (ترجمتها وأخبارها على وجه الإجمال)

